روجيه مارتان دوغار

اسرة تيبو

٤

ترجمة
بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

أسرة تيبو

الجزء الرابع

روجيه مارتان دُوغار

اسرة تيبو

الجزء الرابع

صيف ١٩١٤ (تابع)

ترجمة

بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت لبنان

صيف عام ١٩١٤ (تابع)

٤٠

كان ستة رجال مجتمعين في صالون انطوان الكبير .

وقد بحث جاك بعينيه عن اخيه عند وصوله . فجاء مانويل روا الى امامه : انطوان سيعود . لقد كان في مكتبه مع الدكتور فيليب .

وشد جاك على يد ستودلر ، ورنيه جوسلان ، والدكتور تيريفيه ، الرجل الصغير الملتحي البشوش ، الذي التقى به سابقاً عند سرير السيد تيبو .

وهناك شخص مرتفع البنية ، لا يزال شاباً ، تذكر قسماته النشيطة بوجه بونابرت شاب ، كان يتكلم بصوت مرتفع امام المدخنة ، وكان يقول :

– ولكن نعم ، جميع الحكومات تحتج بنفس القوة ، وبنفس مظهر الصدق انها لا تريد الحرب . لماذا لا تبرهن على ذلك بظهورها بمظهر اقل تشدداً ؟ انها لا تتكلم الا عن الشرف القومي ، والنفوذ ، والحقوق التي لا تلغى ، والمطامح المشروعة ... وتبدو كلها انها تقول : « نعم ، اريد السلم ؛ ولكن سلم يفيدني». وهذه اللغة لا تغضب احداً ! ما دام الافراد شبيهين بحكوماتهم : مهتمون قبل كل شيء بالقيام بصفقة رابحة ! هذا خطير : لا يمكن ان يكون في ذلك فائدة للجميع ؛ ولا يمكن الحصول على صيانة السلم دون تنازلات متبادلة .

وسأل جاك روا : من هذا ؟ ..

– فينازي ، طبيب عيون .. كورسكي .. اتريد ان اقدمك له ؟
فقال جاك بسرعة : كلا ، كلا .
وابتسم روا وانتحى بجاك ناحية ، وجلس بقربــــه متودداً . وكان يعرف سويسرا ، وخصوصاً جنيف لانه اشترك فيها بسباق الزوارق في عـدة فصول صيف متتابعة . وسأل جاك عن اشغاله فتحدث عن اشغال شخصية وصحفية . وكان عازماً على ان يبقى متحفظاً وان لا يعلن عن آرائه بدون فائدة في هـذا الوسط . فأسرع بتحويل الحديث ناحية الحرب : كانت حـالة الطبيب الشاب الروحية تشغل باله وفقاً لما سمعه منه في يوم سابق .
وقال روا وهو يمشط شاربه الدقيق الاسمر بطرف اصابعه :
– انا ، افكر بالحرب منذ خريف ١٩٠٥ ! ومع ذلك لم يكن لدي من العمر سوى ست عشرة سنة ؛ وكنت قد اجتزت امتحان البـــكالوريا القسم الاول ، ودرست صف الفلسفة في ستان؛...لقد شعرت جيداً في ذلك الخريف بانتصاب التهديد الالماني امام جيلي ، وكثير من رفـــاقي شعروا به مثلي . اننا لا نتمنى الحرب ؛ ولكن منذ ذلك الوقت ونحن نستعد لها كما نستعد لحـادث طبيعي لا يمكن تجنبه .
فرفع جاك حاجبيه :
– طبيعي ؟
– لعمري ، نعم . هناك حساب يجب تسديده ، ويجب التصميم على ذلك ، في يوم او في آخر ، اذا اردنا ان تظل فرنسا موجودة .
وتضايق جاك لرؤية ستودلر يلتفت بشدة ويقترب منهما، كان يفضل متابعة تحقيقه الصغير بدون ثالث . وكان يشعر بعداوة نحو روا ، ولكن دون نفور .
وردد ستودلر برنة وقحة :
– اذا اردنا ان تظل فرنسا موجودة .
ثم قال ملاحظاً وموجها الكلام الى جاك :
– هل هناك ما هو اكثر اثارة من تلك العادة المستهجنـــة الموجودة لدى

القوميين في ان يحصروا النزعة الوطنية في انفسهم ، وان يحاولوا دائماً اخفـاء ميولهم الحربية تحت عواطف وطنية ؟ كما لو ان الجذب نحو الحرب هو في نهاية الحساب شهادة في الوطنية !..

فقال روا ساخراً :

– اني معجب بك ايها الخليفة ، فرجال جيلي ليس لهم صبرك : انهم اكثر حساسية بالدغدغة ؛ اننا نرفض أن نحتمل التحرشات الالمانية وقتاً طويلاً .

فلاحظ جاك :

– حتى الآن ، فان الامر لا يتعلق بسوى التحرشات النمساوية .. وهي ليست موجهة ضدنا

– اذن ، بانتظار مجيء دورنا ، هل تقبلون ان تحضروا كمتفرجين سحق الصرب بواسطة النزعة الجرمانية ؟

فلم يجب جاك ، وضحك ستودلر .

– دفاع الضعفاء .. ولكن حين وضع الانكليز ايديهم بوقاحة على مناجم الذهب في جنوبي افريقيا ، فلماذا لم تندفع فرنسا لنجدة البوير [1] ، الشعب الصغير الضعيف اللطيف اكثر من الصربيين ؟ واليوم ، لماذا لا نطير لمساعدة ايرلندا المسكينة ؟ اتعتقد ان شرف القيام باحدى هاتين الحركتين يستحق المخاطرة بدفع جيوش اوروبا ضد بعضها البعض ؟

فاكتفى روا بالابتسام ، والتفت متعمداً نحو جاك :

– الخليفة يشكل جزءاً من اولئك الناس البسلاء الذين تدفعهم شفقتهم الكاذبة الى التفكير بالكثير من الحماقات حول الحرب ... والى إنكار ما هي الحرب في الواقع ...

فقاطعه ستودلر :

---

١ – مستعمرو افريقيا الجنوبية من اصل هولندي، يسكنون الترنسفال . وقد تغلب عليهم الانكليز عام ١٩٠٢ .

– في الواقع ؟ لمعرفة ماذا ؟
– لمعرفة عدة امور ... اولاً لمعرفة قانون الطبيعة ؛ غريزة راسخة بعمق في الانسان ؛ لا تقتلعها دون ان تصيبها بتشويه مخزٍ . ان الرجل السليم يحب ان يعيش بحسب القوة ؛ هذا هو القانون...ولنعرف بعد ذلك : الفرصة المناسبة للانسان لينمي عدة فضائل نادرة جداً ، وجميلة جداً ومقوية جداً !
فسأل جاك ، جاهداً للاحتفاظ بنبرة استفهامية محضة :
– ما هي هذه الفضائل ؟
فقال روا رافعاً رأسه الصغير المكور :
– هيه ، ولكن تلك التي أعتبرها اكثر سمواً من اي شيء . النشاط الرجولي الميل الى الخطر ، الشعور بالواجب ، والافضل ايضاً . تضحية النفس ، تضحية الارادات الخاصة في سبيل عمل جماعي كبير ، بطولي . الا تدرك ان في البطولة جاذبية لا تقاوم لكائن فتي ونشيط ؟
فوافق جاك بايجاز : بلى .
وتابع روا بابتسامة كاسحة جعلت نظرته تلمع :
– الشجاعة ، انها جميلة . والحرب لأناس من سننا عبارة عن رياضة بديعة الرياضة النبيلة بالذات .
فزمجر ستودلر ساخطا :
– رياضة تستوفي حقها حيوات بشرية .
وقال روا :
– وبعد ؟.. اليست الانسانية سريعة التناسل بشكل كاف لكي تقدم من وقت لآخر هذه الفخامة ، اذا كان ذلك ضروريا لها ؟
– ضروريا ؟
– ان عملية فصد جيدة هي دوريا ضرورية لصحة الشعوب . فالعالم في اوقات السلم الطويلة جداً يصنع كدسة من السموم فتسممه وهو بحاجة ليتطهر منها كفرد قعيد . وعملية فصد جيدة سوف تكون ، كما اعتقد ، ضرورية

بشكل خاص ، في هذه اللحظة ، للروح الفرنسية ، وحتى للروح الاوروبية . انها ضرورية اذا لم تشأ ان تزول حضارتنا الغربية في الانحطاط ، وفي الذلة .

فقال ستودلر :

– ان الذلة في نظري هي الخضوع للقساوة والحقد .

فأجاب روا هازاً كتفيه :

– ومن كلمك عن القساوة ؟ من كلمك عن الحقد ؟ دائماً نفس الاماكن المشتركة ، نفس الكليشيات المضحكة ! اؤكد لك ان الحرب لأبناء جيلي لا تتضمن اية دعوة للقساوة ، وأقل من ذلك ايضاً ، دعوة للحقد ! والحرب ليست معركة بين رجل ورجل؛انها تتعدى الافراد : انها مغامرة بين شعوب .. مغامرة رائعة ! مباراة في حالتها البحتة ! في ساحة المعركة تماماً كما على الحلبة ، الرجال الذين يقتتلون هم لاعبو فرقتين متنافستين؛ فهم ليسوا اعداء ، انهم اخصام !

وأسمع ستودلر نوعاً من الضحك يشبه الصهيل . وكان جامداً يتأمل المقاتل الشاب بعينه ، حيث الحدقة الداكنة ، الممتدة ، القليلة التعبير كانت تسبح في بياض الحليب . وتابع روا بهدوء :

– لي أخ نقيب في المغرب . أنت تجهل كل شيء عن الجيش ايها الخليفة ! ولا ترتاب أبداً بما هي عليه الحالة الروحية عند الضباط الشبان ، وحياتهم الزاهدة ، ونبلهم الاخلاقي ! انهم مَثَلٌ حيٌ على ما تستطيعه الشجاعة النزيهة في خدمة فكرة عظيمة .. ويفعل اشتراكيوكم حسناً بأن يذهبوا ويدخلوا في تلك المدرسة ! وسوف يرون ما هو المجتمع الخاضع للنظام حيث يكرس اعضاؤه حياتهم حقيقةً للجماعة في عيشة شبه زهدية لا يوجد فيها أي مكان لأي مطمح منحط .

كان منحنياً نحو جاك ، ويبدو أنه يدعوه للشهادة . وقد تفرس به بنظره الصريح ، وشعر جاك ان اطالة الصمت فيها شيء من عدم اللياقة ، فبدأ وهو يزن كلامه :

– اعتقد ان كل هـذا صحيح جداً ، على الأقل في الأطر الصغيرة للجيش الاستعماري .. وليس هناك ما هو مؤثر اكثر من رؤية رجال ، مهما كان مثلهم الأعلى ، يقدمون حياتهم بعزم شديد لهذا المثل الأعلى .. ولكني اعتقد ايضاً ان هذه الشبيبة الباسلة هي ضحية ضلال بشع ! فهي تعتقد عن حسن نية انهـا تكرس نفسها في سبيل قضية نبيلة ؛ وفي الواقع فهي ، بكل بساطة ، في خدمة رأس المال . أنت تتكلم عن استعمار المغرب .. حسناً .

فقاطع ستودلر :

– ان الاستيلاء على المغرب ليس شيئاً آخر سوى « قضية » ؛ « تدبير » واسع النطاق ! وأولئك الذين يذهبون ليقتلوا هنـاك هم مخدوعون ! انهم لا يرتابون لحظة في انهم يضحون بجلودهم في سبيل عملية لصوصية .

فقذف روا نحو ستودلر نظرة مشحونة بالشرر . وغدا شاحباً ، وهتف :

– في عصرنا الفاسد يظل الجيش هو الملجأ المقدس ، ملجأ العظمة وال..

فقال ستودلر لامساً ذراع جاك :

– آه ؟ هذا أخوك .

فقد دخل الدكتور فيليب يتبعه انطوان .

ولم يكن جاك يعرف فيليب ؛ ولكنه في اغلب الاحيان كان يسمع أخاه يتحدث عنه ، بحيث اخذ يتفحص بفضول الطبيب العجوز ذا اللحية التي تشبه لحية المعزاة والذي كان يتقـدم بخطوته القافزة ، في سترة من « الألباغا » ، واسعة ، معلقة في كتفيه الهزيلين كأسمال على مفزعة . وعينـاه الصغيرتان ، اللامعتان ، المخبأتان كعيني كلب من نوع Barbet [1] في شوك حاجبيه ، كانتـا تبحثان يميناً وشمالاً دون أن تستقرّا على احد .

وكانت الأحاديث الخاصة قد صمتت . واقترب الجميـع دورياً ليلقوا التحية على الاستاذ الذي كان يدعهم يشدوُن على يده المسترخية بلامبالاة .

---

١ ـ نوع من الكلاب متدلي الاذنين ، ذو وبر طويل مجعد .

وقدم انطوان اخاه اليه. وشعر جاك ان نظرة فاحصة تتفرس فيه ، كانت وقاحتها تخفي خجلاً عظيماً .

ـ آه ! اخوك .. حسناً .. جيداً .

هكذا خنخن فيليب ماضغاً شفته السفلى ، بهيئة مهتمة كأنه يعرف حق المعرفة ادق التفاصيل عن طبع وحياة جاك .

وعلى الأثر ، ودون ان يترك جاك بعينيه :

- قيل لي انك اقمت كثيراً في المانيا .. وأنا ايضاً . هذا امر شائق .

وكان يتقدم شيئاً فشيئاً وهو يتكلم، دافعاً جاك امامه بحيث اصبحا وحيدين بقرب احدى النوافذ . وتابع :

ـ في كل وقت تظل المانيا لغزاً بالنسبة الي.. اليس كذلك.. بلاد التطرف.. وغير المتوقع . هل يوجد في اوروبا نموذج بشري اكثر محبة للسلام بنوع خاص من الانسان الألماني ؟ .. كلا ... ومن ناحية أخرى تلك الروح العسكرية الموجودة في دمهم ..

فجازف جاك وقال :

ان النزعة الأممية الالمانية هي مع ذلك اكثر الأمميات عملاً في أوروبا .

ـ اتعتقد ؟ نعم .. كل هذا شائق . ومع ذلك ، فبعكس ما كنت اعتقده حق الآن، يبدو جيداً ، وفقاً لحوادث هذه الايام الاخيرة.. انهم في الكه دورسي كانوا يتصورون ان باستطاعتهم الاعتماد على عمل مصالحة الماني . ولم يعودوا إلى ذلك .. قلت : النزعة الاممية الالمانية ..

- ولكن نعم .. في المانيا ، ما ان يبتعد المرء عن الأوساط العسكرية حتى يتأكد من وجود حذر عام من الجيش ومن النزعة القومية . وجمعية المصالحة الدولية هي عصبة ذات حيوية غير عادية ، وتتمثل فيها جميع الاسماء الكبرى في البورجوازية الألمانية ، ولها نفوذ اكثر من عصباتنا الفرنسية المحبة للسلام . ويجب ألا ننسى ان المانيا هي البلد الذي فيه مناضل مجنون مثل ليبنخت Libknecht ، بعد ان القي في السجن بسبب ميله نحو النزعة المناوئة للروح

العسكرية استطاع أن يُنتخب في مجلس النواب البروسي ، وبعد ذلك في الريخستاغ ! فهل يدخل عندنا إلى مجلس النواب رجل مناوىء للنزعة العسكرية ويُصغى إليه ؟

فشخر فيليب بانتباه :

– حسن .. جيد .. كل هذا شائق .. وبدون رباط بين الكلام – ظللت وقتاً طويلاً أعتقد ان أممية رؤوس الأموال،والاعتمادات ، والمشاريع الكبرى، يجعلها العالم كله متضامناً لدى اقل اضطراب محلي ، فانها تصبح عاملاً جديداً ، عاملاً حاسماً للسلم العام. – وابتسم وداعب عثنونه ، وختم بشكل لغزي: – انها لمحة عقلية .

– كان جوريس يعتقد بذلك ، ولا يزال .

فكشر فيليب .

– جوريس..ان جوريس يعتمد ايضاً على تأثير جماهير الشعب لمنع الحرب.. لمحة عقلية ! يتخيلون جيداً حركة شعبية تكون حربية ، مكافحة .. ولكن حركة شعبية تمثل تلك الصفة من التفكير ، والارادة ، والقياس ، والتي لا غنى عنها لحفظ السلام .

ثم بعد وقفة :

– اولئك الذين يشعرون مثلي بالنفور من الحرب ربما لا يلبون في اعماقهم سوى بواعث خاصة ، شخصية ، عضوية .. سوى تصلب دستوري بسيط .. والحكمة العلمية سوف تكون تقريباً في اعتبار غريزة التخريب كغريزة طبيعية . الأمر الذي اكده علماء البيولوجيا .. كما ترى – وتابع مغيراً الموضوع ايضاً : – والمضحك انه بين جميع المشاكل الحقيقية المستعجلة المعروضة حالياً في أوروبا ، والتي يتطلب حلها دراسات تحتاج إلى صبر ، فاني لا أرى مشكلة واحدة يمكن ان نأمل بقطعها ، على طريقة العقدة التي لا تُحَلّ ، بواسطة حرب .. اذن ؟

وابتسم . ولم تكن اقواله تبدو انها تتناسب مع ما كان قاله او سمعه .

وبنظرته من خلال الشوك ، المتوقدة بالمكر ، كانت هيئته دائماً كمن يروي لنفسه قصة لاذعة ، يكفيه أن يتذوق ملحها . وتابع :

– كان أبي ضابطاً. وقد خاض جميع معارك الامبراطورية الثانية. وُغذّيتُ بالتاريخ العسكري. وبعد ، فحين يحاول المرء تمييز الاصول ، الاسباب الواضحة لنزاع ، فانه يدهش دائماً من صفة عدم لزومه . هذا شائق جداً. فلو نظرنا بشيء من التراجع ، فليس هناك حرب حديثة لا يمكن تجنبها بسهولة كبيرة : بواسطة النية الحسنة البسيطة والارادة المسالمة لرجلين أو ثلاثة من رجـال الدولة .. وليس هذا كل شيء . معظم الوقت كان يبدو ان المتحـاربين من كلا الجانبين ، كانوا يخضعون لشعور لا مبرر له من الحذر والخوف ، يعود الى جهل نوايا الخصم الحقيقية .. وفي تسع مرات من عشر ، فان الشعوب تنقض على بعضها البعض بداعي الخوف – وانتابه نوع من السعال ، وضحكة مقتضبة خنقت بسرعة – تماماً كأولئك المتنزهين الخائفين الذين يلتقون ليلاً ، ويترددون في ان تتقاطع طرقهم وينتهون بالانقضاض على بعضهم البعض .. لأن كلاً منهم يتصور انه على وشك ان يُهاجَم .. لأن كلاً منهم يفضل الهجوم، ولو كان خطراً ، على التردد والشك .. هذا مضحك تماماً .. انظر الى اوروبا في هـذه الفترة : انها فريسة الأشباح . كل الدول خائفة . النمسا خائفة من السلافيين؛ وخائفة من التخلي عن امتيازاتها . وروسيا خائفة من الجرمانيين؛ وخائفة من أن يحسب جمودها علامة ضعف . والمانيا خائفة من غزوة القوزاق ؛ وخائفة من ان تجد نفسها مطوقة . وفرنسا خائفة من تسلح المانيا ، والمانيا نفسها لا تتسلح الا احتياطياً وبدافع الخوف .. والجميع يرفضون القيام بأقل تنازل لأجل السلام ، لأنهم يخافون من الظهور بمظهر الخائفين ..

فقال جاك :

– دون ان نحسب ان الحكومات الامبريالية التي تشعر جيداً ان الخوف يعمل لصالحها ، فتحيطه بالعناية ! وسياسة بوانكاريه ، سياسة فرنسا الداخلية منذ اشهر ، بالمستطاع تحديدها : الاستفادة المنظمة من الخوف القومي ..

وتابع فيليب الذي لم يكن يسمع :

- والاكثر شناعة .. (وضحك ضحكة قصيرة) . كلا : الاكثر هزلاً هو ان جميع رجال الدولة يحاولون اخفاء هذا الخوف وراء عرض عواطف نبيلة ، وراء الغطرسة ..

وقطع حديثه عندما شاهد انطوان يسير نحوهما مصحوباً برجل في الاربعين من سنه ، وقد أدخله ليون . انه روميل .

وبدت هيئته المهيبة كأنه 'معدّ' سلفاً للاحتفالات الرسمية ، كان الرأس قوياً ، ملقى الى الوراء كأنه مقاد بثقل جزة كثيفة صوفية ذات لون اشقر يميل الى البياض . والشارب الكثيف القصير ذو الطرفين المرفوعين جداً يكسب وجهه الشحيم المسطح نتوءاً . وكانت العينان صغيرتين غارقتين في اللحم ، ولكن الحدقتين متحركتان ، بلون ازرق كلون الخزف الصيني ، وتضمان لهبتين حيتين في ذلك الوجه ذي الاحتفالية الرومانية . والمجموع لا ينقصه الطابع ، ويبعث على التفكير بالفائدة التي يمكن أن يستخرجها ذات يوم احد صانعي التماثيل النصفية لنواب حكام الولايات .

وانطوان قدم روميل الى فيليب ؛ وجاك الى روميل ، فانحنى الدبلوماسي امام الطبيب الشيخ كأنه امام شهرة معاصرة ؛ ثم مد يده إلى جاك بحرارة مجاملة وقد بدا انه يقول لنفسه : « ان بساطة التصرف عند رجل من المستوى الأول ميزة تضاف إلى ميزاته » .

وقال انطوان واضعاً يده على ذراع روميل الذي ابتسم ابتسامة مجاملة :

- لا فائدة من ان اقول لك يا عزيزي بماذا كنا نتحدث .

فقال فيليب ، وهو يتفحص روميل بعينه المزدرية :

- انك ايها السيد تملك معطيات ليست لدينا فعلاً . فبالنسبة الينا ، نحن الذين ليس لدينا إلمام بشيء ، يجب الاعتراف بان قراءة الصحف ..

فرسم الدبلوماسي حركةً فطنة :

– لا تعتقد يا سيدي الاستاذ انني اعرف أكثر منك.. – وتأكد من أن فمه رسم ابتسامة وتابع : – اقول هذا ولا اعتقد انه يجب دفـع الأمور الى الناحية السوداء : من الواجب التاكيد انه يبقى من الاسباب التي تدعو للثقة أكثر من الاسباب التي تدعو الى اليأس .

فقال انطوان : يا حبذا !

وعمل على تقريب فيليب وروميل من بقية المدعوين وليجعلهما يجلسان في منتصف الغرفة .

وقال الخليفة بنبرة ارتيابية :

– اسباب تدعو للثقة ؟ ..

واجال روميل نظره الازرق في الحاضرين المجتمعين بشكل دائرة حوله ، وأوقفه على ستودلر ، وصرح قالباً رأسه قليلاً :

– الوضعية حرجة ، ولكن لا يجب المبالغة .

وبنبرة رجل عمومي تقضي مهمته برفع معنويات الرأي العام صرخ بقوة :

– اكدوا أن العناصر الموالية لحفظ السلام لا تزال هي الأكثر عدداً .

فقال ستودلر : مثلاً ؟

فعبس روميل قليلاً . كان إلحاح هذا اليهودي يزعجه ؛ وشعر نحوه بعداوة خفية . وردد كما لو أن ليس لديه سوى هم الاختيار :

– مثلا ؟ حسناً، ولكن اولاً العنصر الانكليزي.. فالامبراطوريات الوسطى لاقت منذ البدء مقاومة نشيطة من وزارة الخارجية الانكليزية .

فقاطعه ستودلر :

– انكلترا ؟ .. شغب في بلفاست ، فتن دامية في دبلن ؛ اخفـــاق محزن للمباحثات الارلندية في بكنغهام ! انها حرب أهلية حقيقية بدأت في ايرلندا .. وانكلترا أصيبت بالشلل من هذا السهم الذي غرز في ظهرها .

– تكاد لا تكون شوكة في العصب ، أؤكد لك .

وقال ليون من الباب :

ـ انهم يطلبون السيد على الهاتف .

فقاطع انطوان بغضب :

ـ قل اني مشغول .

وتابع روميل :

ـ لقد رأت انكلترا كثيراً غير ذلك . ولو كنت تعرف مثلي برودة السير ادوارد غراي .. انه نموذج دبلوماسي جميل .

وتابع متجنباً النظر إلى ستودلر ، منحنياً لناحية فيليب وانطوان :

ـ ارستوقراطي ريفي قديم ، له مفهوم خاص جداً بما يجب أن تكون عليه العلاقات الدولية ، والعلاقات التي يعقدها مع زملائه الاوروبيين ليست علاقات رسمية ، ولكنها علاقات رجل نبيل مع أناس من عالمه . وأعلم أنه صُدِم شخصياً من لهجة الانذار النهائي . وقد رأيتم انه تصرف باكبر قدر من الصلابة بتحذيراته الى النمسا وبنصائحه لصربيا بالتساهل. ان مصير اوروبا كما يبدو هو بين يديه وليس هناك افضل منه ولا أكثر امانة .

فقاطعه ستودلر ايضاً :

ـ والرفض الذي عارضت به المانيا ؟

فقطع روميل له كلامه :

ـ ان حياد المانيا الحكيم المفهوم جيداً ، باستطاعته توفير الجهود الأولى للوساطة الانكليزية . ولكن السير ادوارد غراي لا يعتبر نفسه مدحوراً . واستطيع أن اقول ذلك ما دامت الصحف ستعلنه غداً ، وربما هذا المساء. وقد انتهت وزارة الخارجية ، بمعاونة الكه دورسي ، من وضع مشروع جديد يمكن أن يكون حاسماً لأجل الحل السلمي للنزاع . فالسير ادوارد غراي يقترح اجتماع سفراء المانيا وايطاليا وفرنسا حالاً في محادثات تجري في لندن ، لأجل مناقشة جميع المسائل التي هي موضوع النزاع .

فقال ستودلر :

ـ واثناء هذه المحادثات النبيلة تحتل الجيوش النمساوية بلغراد .

فتصلب روميل كأنه اصيب بوخزة .

ـ ولكن يا سيد ؛ حول هذه النقطة ايضاً ، أخشى الا تكون معلوماتك كافية ! رغم هذه الدلائل الحربية الظاهرة ؛ فما من شيء يثبت ، في الساعة الحاضرة ، انه يوجد بين النمسا والصرب شيء سوى تمثيل .. ولا أدري إذا كنت تعلق الأهمية المناسبة على هذا الواقع الرئيسي : حتى هذا اليوم ما من اعلان حرب قد بُلّغ رسمياً ، بالطريق الدبلوماسي الى الحكومات الأوروبية ! وفضلاً عن ذلك ؛ فاليوم ،الظهر،لم يكن وزير الصرب في النمسا قد ترك فيينا ! لماذا ؟ لأنه يقوم بدور الوسيط في تبادل فعلي لوجهات النظر بين الحكومتين . وهذا فأل حسن جداً ، ما دام هناك مفاوضات ! ومع ذلك ، حتى لو أصبح الانفصال الدبلوماسي حقيقياً ، وحتي لو عزمت النمسا على اعلان الحرب ، فاني اعلم ان الصرب التي خضعت لبعض الضغوط الحكيمة سوف ترفض ذلك الصراع غير المتكافىء بين ثلاثمائة الف رجل ، ومليون وخمسمائة الف ، وانها سوف ترجع جيشها دون ان تقبل المعركة .. ـ وأضاف مبتسماً : ـ لا تنس هذا : ما دام الكلام ليس للمدافع فانه يبقى للدبلوماسيين ..

والتقى نظر انطوان بنظر اخيه ، وفاجأ وميضاً خالياً من الاحترام : من المؤكد ان روميل لم يرق لجاك .

وجازف فينازي مبتسماً :

ـ ربما تتعبون كثيراً في ايجاد اسباب تدعو إلى الثقة في موقف المانيا .

فاجاب روميل غامراً طبيب العيون بنظرة فاحصة قصيرة :

ـ لماذا اذن يا سيد ؟ في المانيا ، فان النفوذ العسكري الذي لا انكره بالتأكيد،قد استعيض عنه باشياء اخرى لها اكبر وزن . ان عودة القيصر الالماني المستعجلة ، حيث سيكون هذه الليلة في كيال ، تبدو انها تغير الاتجاه السياسي لهذه الأيام الاخيرة . والقيصر ، وهذا معلوم ، سوف يعارض المجازفات بحرب اوروبية حتى النهاية . وجميع مستشاريه الخصوصيين متحزبون مقتنعون بالسلام . واذكر من بين اصدقائه المسموعي الكلمة اكثر من غيرهم البرنس

ليكنوفسكي ، السفير في لندن ، الذي كان لي شرف معاشرته في الماضي في برلين ؛ انه رجل فطن ، حليم ، تأثيره عظيم في هذه الفترة في البلاط الألماني .. وانت تعلم. ان اخطار الحرب تصبح خطيرة بالنسبة لألمانيا؛ فالامبراطورية بحدود محاصرة تموت من الجوع . واليوم الذي لا يجد فيه الالمان حبوبهم وماشيتهم في روسيا فليس بفولاذهم ، وفحمهم وآلاتهم يستطيعون أن يغذّوا الملايين الاربعة من الجنود المعبأين والسكان الذين يبلغون ثلاثة وستين مليوناً .

فاعترض ستودلر :

ـ وما يمنعهم من الشراء من الخارج ؟

ـ هذا ايها السيد لانهم سيصبحون مجبرين على دفع ثمن هذه المشتريات بالذهب ، لأن الورقة الالمانية تصبح بسرعة غير مقبولة في الخارج . وبعد ، فعمل الحسابات سهل : مخزون الذهب الالماني معروف . وفي بضعة اسابيع ستجد المانيا نفسها في حالة عجز عن الاستمرار في اخراج الذهب الذي سيكون لازماً لها يومياً ؛ وستكون المجاعة !

واسمع الدكتور فيليب ضحكته الصغيرة الخنّاء . وقال روميل بنبرة دهشة مهذبة :

ـ الست من هذا الرأي يا سيدي الاستاذ ؟

فتمتم فيليب بنبرة مفرطة باللطف :

ـ بلى ، بلى ، ولكني أتساءل اذا لم تكن القضية هنا .. لمحة عقلية ؟

فلم يستطع انطوان منع نفسه من الابتسام . كان يعرف من وقت طويل هذا التعبير من المعلم . فعبارة : « هذه لمحة عقلية » كانت طريقة له في قول : « هذه حماقة » .

وتابع روميل مؤكداً :

ـ ان ما أعرضه عليكم هنا قد أكده جميع الخبراء. حتى الاقتصاديون الالمان يعترفون بأن مشكلة الاعاشة في وقت الحرب لا يمكن حلها لبلادهم .

. فتدخل روا بحدة :

– ورئاسة الاركان الالمانية ايضاً تجاهر عن عقيدة ان الحظ الوحيد لالمانيا هو في نصرٍ آنيٍ صاعق : فاذا تأخر هذا النصر فقط بضعة اسابيع ، فان المانيا – وهذا معروف – ستكون مجبرة على الاستسلام .

وقال الدكتور تيريفيه لاثغاً وهو يضحك بخبث في لحيته :

– وايضاً اذا كانت واثقة من حلفائها ! ولكن ايطاليا ..

فأكد روميل :

– ايطاليا بالفعل تبدو مصممة بشدة على البقاء حيادية .

فقال روا ، وقد مط شفتيه احتقاراً ، وحرك يده من فوق كتفه حركةً ساخرة :

– اما الجيش النمساوي !

فتابع روميل عندئذ ، وهو مسرور من هذه التدخلات المتنوعة :

– كلا ، كلا يا سادة . اكرر لكم : يجب الا نبالغ بالخطر .. اسمعوا : بدون ان افشي سراً من اسرار الدولة ، لا ازال اعتقد ان بامكاني ان اعلن لكم هذا ! في هذه اللحظة ذاتها ، تتابع في بطرسبورج بين وزير الخارجية ، معالي السيد سازانوف ، وسفير النمسا محادثات يُنتظر منها الكثير . اجل ! فمجرد قبول هذه المحادثات المباشرة من كلا الطرفين ، ألا يدل على رغبة مشتركة في تجنب كل دليل على القوة ؟ ونعرف من ناحية اخرى ان تداخلات جديدة لاجل السلام هي قريبة الحدوث .. تدخل الولايات المتحدة .. والبابا .

فسأل فيليب بأكثر ما يمكن من الجدّية : البابا ؟

– نعم ، البابا ؟

هكذا اكد روا الشاب الذي كان جالساً على كرسيه منفرج الساقين ، وذقنه على ذراعيه المتصالبين ، لا تفوته اية كلمة من اقوال روميل .

ولم ينو فيليب ان يبتسم ولكن عينه الراصدة توقدت بالدعابة وكرر :

– تدخل البابا ؟

ثم قال بلطف :

ـ وهذا ايضاً اخشى الا يكون لمحة عقلية ..

ـ لا تخطىء يا سيدي الاستاذ . هناك قول شائع في هذا الصدد . فمعارضة الاب الاقدس المؤكدة سوف تكفي لايقـــاف الامبراطور العجوز فرنسوا جوزف عند حده ولاعادة الجيوش النمساوية إلى حدودها. وجميع المستشاريات تعرف ذلك . وفي هذه اللحظة تقوم في الفاتيكان حملة حقيقية للتأثير . ومن سيقوم بها ؟ واولئك القلائل المتحزبون للحرب هل سيحصلون على أن يكف البابا عن كل تحذير ؟ والعديدون من انصار السلم هل سيعرفون كيف يجعلونه يصمم على التدخل ؟

فضحك ستودلر :

ـ من المؤسف انه ليس لدينا سفير في الفاتيكان : والا لكان أشار على قداسته بفتح الأناجيل .

فابتسم فيليب هذه المرة . وأكد روميل بتنوع من الاستياء والسخرية :

ـ الاستاذ يظل ارتيابياً حول النفوذ البابوي .

ـ المعلم يظل دائماً ارتيابياً .

هكذ قال انطوان مازحاً وهويشمل معلمه بنظرة مشاركة في الذنب مشحونة بالمودة الاحترامية .

والتفت فيليب نحوه واغمض عينيه قليلاً وقال :

ـ يا صديقي ، اني اعترف ـ وهـــذه دون شك اعراض خطيرة من الشيخوخة ـ اني بدأت ابذل الكثير من الجهد لتكوين رأي .. اعتقد انني لم اسمع برهانا على شيء مهما كان دون أن يقوم آخرون باقامة البرهان على عكسه ، وبنفس الوضوح القوي . وربما كان هذا ما تسميه ارتيابيتي ؟ في الحالة الحاضرة فانك اخطأت . اني انحني امام طاقة السيد روميل وأشعر اكثر من اي انسان بقدرته على اقامة البرهان .

فنفخ انطوان ضاحكاً : ولكن ..

فابتسم فيليب وتابـع وهو يفرك يديه بقوة :

ـ ولكن ، في مثل سني ، من الصعب الاعتماد على انتصار العقل .. إذا لم يتوقف السلام إلا على حسن نوايا الرجال ، فيجب الاعتراف اذن انه مريض !

ـ وتابع على الاثر : ـ وهـذا مع ذلك لن يكون سبباً للوقوف مكتوفي الايدي . اني استصوب كلياً ان يبذل الدبلوماسيون جهدهم . يجب دائماً بذل الجهد كما لو كان هناك شيء يجب عمله . هذا هو مبدأنا في الطب ، اليس كذلك يا تيبو ؟

فملس مانويل روا شاربه باصبع قلق . ما من شيء يثـيره اكثر من استدراكات المعلم الهرم البالية .

وروميل الذي كانت هذه الارتيابية الاكاديمية لا ترضيه ايضاً تطلع نحـو انطوان باصرار ؛ وما ان التقى نظرته حتى اشار اليه مذكراً بموضوع زيارته الحقيقي : الابرة .

ولكن مانويل روا في هذه اللحظة توجه بالكلام إلى روميل وصرح دون مواربة :

ـ الخطير هو ان الامور اذا ساءت رغم كل شيء فان فرنسا ليست مستعدة. آه ! لو كنا نمتلك اليوم قوة مسلحة لا مطعن فيها .. ساحقة ..

فاعترض الدبلوماسي وقد اعتدل :

ـ ليست مستعدة ؟ من قال ذلك ؟

ـ هيه ! ولكنني اعتقد ان ما كشف عنه هومبر في مجلس الشيوخ منذ ثلاثة اسابيع كان واضحاً بشكل كافٍ .

فهتف روميل هازاً كتفيه قليلاً :

ـ هيا ، هيا ، ان الوقائع التي « كشف » عنها هومبر عضو مجلس الشيوخ كما قلت معروفة من الجميع وليست لها الأهمية التي ارادت بعض الصحف ان تعزوها اليها . لا تكن من السذاجة بحيث تعتقد ان الجندي الفرنسى محكوم عليه بالذهاب إلى ساحة القتال حافي القدمين كجندي السنة الثانية .

ـ ولكني لا اعتقد فقط بما يتعلق بالاحذية .. المدفعية الثقيلة مثلاً .

ـ اتعلم ان كثيراً من الاختصاصيين ، ومن بين افضل المحاربين ، يجادلون في فائدة هذه القطع ذات المرمى الطويل والتي يتمسك بها الجيش الالماني ؟ انها كتلك المدافع الرشاشة التي تجعل سير المشاة ثقيلاً .

فقاطع انطوان :

ـ كيف هو المدفع الرشاش ؟

فاخذ روميل يضحك .

ـ انه شيء وسط بين بندقية جندي المشاة والآلة الجهنمية التي صنعها فيشي Fieschi . وتعرفون ذاك الذي اخطأ هو الملك لويس ـ فيليب . انها ادوات رهيبة نظرياً في حقول الرماية . ولكن في التطبيق يبدو انها تتوقف لدى كل حبة رمل .

وتابع وهو اكثر جدية ، ملتفتاً نحو روا :

ـ حسب قول الاختصاصيين فالمهم هو مدفعية الميدان . اجل ، فمدفعيتنا متفوقة جداً على مدفعية الالمان . وعندنا من مدافع عيار ٧٥ اكثر مما عندهم من مدافع عيار ٧٧ ، ومدفعنا من عيار ٧٥ لا مجال لمقارنته بمدفعهم من عيار ٧٧ .. اطمئن ايها الشاب .. الحقيقة هي ان فرنسا منذ ثلاث سنوات بذلت جهداً عظيماً . وجميع قضايا الحشد ، واستعمال الطرق الحديدية ، والتموين ، قد حلّت اليوم . فاذا نشبت الحرب ، صدقني : ففرنسا ستكون في وضع ممتاز . وحلفاؤنا يعرفون ذلك جيداً .

فهمهم ستودلر :

ـ وهذا هو الخطر !

فرفع روميل حاجبيه بوقاحة ، كما لو ان تفكير الخليفة بداله غير مفهوم . ولكن جاك هو الذي قال ملحاً :

ـ ربما كان الأفضل لنا ، فعلاً الا يكون لروسيا ثقة بالجيش الفرنسي في هذه الفترة .

كان حتى الآن يصغي صامتاً ، امينا لمقاصده ، ولكنه عضّ على لجامه .

فالمسألة - الرئيسية بنظره : معارضة جماهير الشعب - لم يدنُ منها أحـــد . فاختبر نفسه بسرعة وتاكد من سيطرته على نفسه ليختـار بدوره تلك النبرة المنفصلة ، العلمية التي كانت تبدو هنا كقاعدة ؛ ثم التفت نحو الدبلوماسي، وبدأ بصوت موزون :

- لقد استعرضت منذ قليل الأسباب التي تدعو إلى الثقة . ألا تعتقـد أن من المناسب عدّ مقـاومة الاحزاب الداعية إلى السلم بين حظوظ السلام الرئيسية ؟

وانزلق نظره على وجه انطوان ، والتقط منه اثناء مروره شيئاً من القلق ، وعاد يستقر على روميل :

- مهما كان الأمر ، يوجد في الساعة الحـالية في اوروبا عشرة او اثنا عشر مليوناً من الاميين المقتنعين ، العازمين ، اذا ازداد التهديد ، على منع حكوماتهم من الاستسلام لميول الحرب ..

واستمع روميل دون أية حركة . وتأمل جاك بانتبـاه ، ولفظ اخيراً بهدوء لا يخفي سوى نصف المضمرات الساخرة .

- ربما لا اعلـّق نفس الأهمية التي تعلقها أنت على هذه المظاهرات الرعاعية . ومع ذلك فسّجِلْ ان حركات الحماسة الوطنية هي في جميع العواصم أكثرعدداً وأكبر روعة من احتجاجات بعض المناهضين .. فمساء البـارحة ، في برلين ، طاف مليون متظـاهر في المدينة ، وأهانوا السفارة الروسية ، وأنشدوا نشيد « وخت أم رين » [1] تحت نوافد القصر الملكي، وغطوا تمثال بسمارك بالزهور.. ولا يعني هذا انني انفي وجود بعض حركات المعارضة ولكن عملها سلبي بحت .

فهتف ستودلر :

- سلبي ؟.. ما من تهديد بالحرب بعد ، أثار بين جماهير الشعب ما يشبه هذا السخط .

---

١ - Wacht Am Rhein ·

فسأل جاك برصانة :

– ماذا تعني بكلمة سلبي ؟

فاجاب روميل متظاهراً انه يبحث عن الكلمات :

– يا إلهي . أعني بذلك ان هذه الاحزاب التي تتكلم عنها ، والمعادية لكل مشهد حربي ، ليست كثيرة العدد بشكل كاف ، ولا هي منظمة بشكل كاف ولا متحدة دولياً بشكل كاف لتشكل في اوروبا قوة يمكن أن يُحسب لها حساب .

فردد جاك : ١٢ مليوناً .

– ١٢ مليوناً ، ربما . ولكن معظمهم من الأشياع ، « أناس يدفعون أقساطاً في نفقة مشتركة » . لا تنخدع بهم ! كم عدد المناضلين الحقيقيين العاملين ؟ وبين هؤلاء المناضلين يوجد ايضاً عدد كبير ذو حساسية بردود الفعل الوطنية .. هذه الأحزاب الثورية في بعض البلدان ربما تكون قادرة على اقامة بعض العراقيل ضد سلطة حكوماتها ؛ ولكنها عراقيل نظرية ؛ وعلى كل حال وقتية ؛ لأن هذا النوع من المعارضة لا يمكن ممارسته إلا بالقدر الذي تتسامح به السلطة . فاذا أصبحت الظروف خطيرة فليس على كل حكومة إلا أن تشد قليلاً برغي حرية المبادىء ، حتى دون أن تلجأ إلى حالة الحصار ، لتتخلص حالاً من هؤلاء المشاغبين .. كلا .. ليس هناك أي مكان بعد ، تمثل فيه الأممية قوة ذات فاعلية لتعاكس فعلياً أعمال الحكومة . ولا يستطيع المتطرفون ارتجال مقاومة جدية في أوج الأزمة . – وابتسم – لقد تأخر الوقت .. هذه المرة .

فاجاب جاك بسرعة :

– إلا إذا كانت قوى المعارضة هذه تغفو في وقت السلم ، ولا تثور غضباً تحت ضغط الخطر ، وتصبح لا تُغلَب فجأة ! في تلك اللحظة ، هل تعتقد أن عنف الاضرابات الروسية لا تشل حكومة القيصر ؟

فقال روميل ببرود :

– خطأ . اسمح لي أن أقول لك أنكم تأخرتم اربعاً وعشرين ساعة على

الأقل .. فالبرقيات الأخيرة هي حاسمة لحسن الحظ : لقد قمعت الحركة الثورية في بطرسبورج بشراسة ، ولكن نهائيا .

وابتسم ايضا كأنه يعتذر لأنه على حق بالتأكيد؛ ثم لفت عينيه نحوانطوان، ورفع الساعة المثبتة في معصمه علنيا :

- يا صديقي العزيز ، من المؤسف أن الساعة تستعجلني .

فقال انطوان ناهضا :

- انا تحت تصرفك .

كان يتهيب ردود الفعل عند جاك . ولم يكن غاضبا لإقفال هذا النزاع بسرعة .

وحين كان روميل يستأذن بالذهاب بطريقة مهذبة مدروسة، أخرج انطوان غلافا من جيبه واقترب من أخيه :

- هذه هي الرسالة للكاتب العدل . ستقفلها .. - ثم اضاف لاهيا : - كيف رأيت روميل ؟

فاكتفى جاك بان يلاحظ مبتسما :

- ان جسده يطابق شخصيته !

كان انطوان يبدو أنه يفكر باشياء أخرى يتردد في قولها . وقد تأكد بلمحة عين خاطفة أن أحداً لا يستطيع سماعه ، وخفض صوته وقال فجأة بنبرة طليقة زائفة :

- بالمناسبة .. انت ، في حالة الحرب .. كنت مؤجّلا ، اليس كذلك ؟ ولكن اذ أُعلنت التعبئة العامة ؟

فتفحصه جاك لحظة قبل أن يجيب ، وفكر : « ان جني ستلقي علي نفس السؤال بالتاكيد » . ثم أعلن بعنف :

- لن أتجند .

وتطلع انطوان بدافع الحيطة الى ناحية روميل . ولم يكن يبدو أنه سمع . وابتعد الاخوان الواحد عن الآخر دون اضافة كلمة .

٤١

صرح روميل حين أصبحا وحيدين :

– ان إبرك رائعة . أشعر الآن انني أفضل . أنهض دون كبير جهد ، وشهيتي أفضل .

– ألا يوجد حمّى في المساء ؟ ألا يوجد دوار ؟

– كلا .

– اصبح باستطاعتنا زيادة كمية الدواء .

كانت الغرفة التي دخلا اليها ، والمتصلة بغرفة العيادة ، مكسوة بالخزف الأبيض المطلي ؛ ويشغل وسطها سرير عمليات تمدد عليه روميل طائعاً بعد أن تعرّى نصف تعرية .

وانطوان وقف مديراً ظهره بالقرب من آلة التطهير العاملة بالبخار المضغوط، يحضر كمية الدواء وقال حالماً :

– ان ما قلته يدعو إلى الاطمئنان .

فلفت روميل عينيه نحوه وتساءل إذا كان يتكلم في الطب أو في السياسة . وتابع انطوان :

– اذن ، لماذا يتركون الصحف تلح بطريقة مقصودة على خداع من المانيا وعلى ما تضمره من محرضات ؟

– انهم لا « يتركونها » : انهم يشجعونها على ذلك . يجب إعداد الرأي العام لكل احتمال ..

كانت النبرة رصينة . ودار انطوان نصف دورة . لقد فقد وجه روميل اطمئنانه . كان يهز رأسه ، ونظره ثابت وغائب . وقال انطوان :

– إعداد الرأي العام؟ إن الرأي العام لن يقبل ابداً أن تجرنا المصالح الصربية إلى تعقيدات خطيرة .

فقال روميل بكشرة رجل مسموع الكلمة :

- الرأي العام ؟ .. يا عزيزي ، بقليل من قوة الزند والتصفية الحصيفة للمعلومات ، يلزمنا ثلاثة أيام لإحداث تغيير في الرأي العام ، **لأية جهة كانت** ! ومع هذا فقد بدت أكثرية الفرنسيين مادحةً الحلف الفرنسي الروسي. وسوف يكون من السهل الضرب على هذا الوتر مرة أخرى !

فاعترض انطوان وقد اقترب :

- يا لها من دراية !

وبكتلة من القطن مشبعة بالاثير نظف مكان الابرة ، وبحركة رشيقة غرز الابرة عميقةً في العضلة ، وصمت ملاحظاً الحقنة التي كان مستوى المائع فيها ينخفض بسرعة ، ثم سحب الابرة وتابع :

- لقد استقبل الفرنسيون الحلف الفرنسي - الروسي بحماسة ؛ ولكن هذه هي المرة الأولى التي سنحت لهم فيها الفرصة ليتساءلوا بماذا يُلزمهم ذلك .. إبقَ ممدداً دقيقة .. ماذا يوجد في معاهداتنا مع روسيا ؟ .. ليس هناك من يعرف شيئاً .

كان السؤال غير مباشر . وقد أجاب روميل عليه بطيبة خاطر. فقال وهو يتكىء على مرفقه :

- لستُ مطلعاً على اسرار الآلهة . اني أعرف ما يعرفونه في المقاصير الوزارية . هناك اتفاقان تمهيديان ، عام ١٨٩١ وعام ١٨٩٢ ؛ ثم معاهدة تحالف حقيقية وقعها بعد ذلك كازمير - بيريه [١] . ولا أعرف نصها كله . ولكن - وهذا ليس من أسرار الدولة - فرنسا وروسيا تواعدتا فيها على النجدة العسكرية في حال تعرض إحداهما لتهديد المانيا .. ومنذ ذلك الوقت كان هناك السيد ديلكاسيه ، وكان السيد بوانكاريه ، وكانت رحلاته إلى روسيا . ومن المؤكد أن كل هذا قد أكد ووضح تعهداتنا .

---

١ - كازمير بيريه : انتخب رئيساً للجمهورية الفرنسية في ٢٧ حزيران ١٨٩٤ واستقال في ١٥ كانون الثاني ١٨٩٥ .(١٨٤٧ - ١٩٠٧) .

فلاحظ انطوان :

– واذا تدخلت روسيا اليوم ضد السياسة الجرمانية ، فانها هي التي تكون قد هددت المانيا . وعندئذ فلن نكون ملزمين ، وفقاً لنصوص المعاهدة ..

فابتسم روميل نصف ابتسامة مكشرة اختفت بسرعة .

– الامر اكثر تعقيداً من ذلك يا عزيزي...لنفرض ان روسيا، وهي الحامية الحازمة لسلاف الجنوب ، قطعت علاقاتها غداً مع النمسا وعبأت جيشها للدفاع عن الصرب ، فان المانيا المرتبطة بالنمسا بموجب معاهدة ١٨٧٩ ، تُستدرج بالضرورة الى تعبئة جيشها ضد روسيا ... وهذه التعبئة سوف تضطر فرنسا الى القيام بتعهداتها التي اتخذتها حيال روسيا ، وبأن تعبىء جيشها حالاً ضد المانيا التي تهدد حليفتنا . وهذا يحدث آلياً .

فلم يستطع انطوان ان يكبح حركة غضب :

– بنوع ان هذه الصداقة الفرنسية – الروسية الغالية الثمن ، والتي تباهى دبلوماسيونا بأنهم اشتروا بواسطتها تأمين السلامة ، تجد نفسها اليوم على العكس تماماً ! كلا ، ليس ضمانة للسلم ، بل خطر الحرب !

– ان للدبلوماسيين ظهراً مسنوداً . فكـّر بما كانت عليه وضعية فرنسا في اوروبا عام ١٨٩٠ . فهل اخطأ دبلوماسيونا لأنهم فضلوا مهر بلادهم بسلاح ذي حدين على ان يتركوها منزوعة السلاح ؟

وبدت الحجة لانطوان مشبوهة ؛ ولكنه لم يجد شيئاً يجيب به : كان يجهل التاريخ المعاصر . ومع ذلك فكل هذا لم يكن له سوى فائدة متعلقة بالماضي . وقال :

– مهما كان الامر في الساعة الحاضرة ،اذا كنت فهمتك جيداً ، فان مصيرنا يتوقف على روسيا فقط . – ثم اضاف بعد لحظة من التردد: – او بصورة اصح، كل شيء متوقف على مدى اخلاصنا للميثاق الفرنسي الروسي .

وابتسم روميل ايضاً ابتسامة قصيرة متشنجة .

– يا عزيزي ، لا تعتمد على ان باستطاعتنا التملص من تعهداتنا . فالسيد

برتلو في هذه الفترة هو الذي يدير السياسة الخارجية . فما دام في مركزه ، وما دام السيد بوانكاريه وراءه ، فكن متأكداً ان اخلاصنا لحلفائنا لا يمكن ان يكون موضع بحث . — وتردد : — وقد استعرض ذلك كما يبدو في جلسة مجلس الوزراء التي عقبت عرض شون المليء بالشر .

فهتف انطوان بانزعاج :

— اذن ، اذا لم يكن هناك اي حظ في إعتاقنا من الوصاية الروسية ، فيجب إجبار روسيا على البقاء على الحياد .

— والوسيلة ؟

واثبت روميل على انطوان نظره الازرق ، وتمتم :

— ومن يقول لنا ان الوقت لم يفت ؟

ثم تابع بعد صمت :

— الحزب العسكري في روسيا قوي جداً. والاندحارات في الحرب الروسية اليابانية تركت في هيئة الاركان الروسية حاجة شديدة للثأر؛ ولم يستسيغوا ابداً الاهانة التي وجهتها النمسا اليهم بضم البوسنه والهرسك . ورجال كالسيد إيزولسكي — الذي سيصل الى باريس هذا المساء — لا يخفون ابداً رغبتهم في حرب اوروبية لينقلوا الحدود الروسية حتى القسطنطينية . وكانوا يودون تأخير الحرب حتى موت فرنسوا جوزيف، واذا امكن حتى عام ١٩١٧ ؛ولكن اذا لم تسنح الفرصة قبل ذلك .

كان يتكلم بسرعة ، قصير النفس ، وقد خمدت همته فجأة؛ وقطع الحاجبين غضن من الهم ، وبدا انه اسقط القناع .

— نعم ، يا عزيزي ،بصراحة لقد بدأت أيأس. منذ قليل، كنت مضطراً امام اصدقائك الى اخفاء الواقع ، ولكن الحقيقة هي ان الامور تسير بشكل سيء . ووزير الخارجية أقلع عن مرافقة الرئيس الى الدانمرك وجعله يعزم على العودة رأساً الى فرنسا ... كانت برقيات الظهر سيئة ، فالمانيا ، بدلاً من ان ترضى بسرعة باقتراحات السير ادوارد غراي ، بدت مراوغة ، مماحكة ، تفعل كل

ما يلزم لنسف اجتماع التحكيم . فهل كانت تتمنى حقيقةً تسميم الامور؟ ام انها ترفض فكرة المحادثات الرباعية لانها تعرف مسبقاً ، وقد علمت بتوتر العلاقات النمساوية الايطالية ، ان النمسا في هذا المجلس لا بد ان تدان بثلاثة اصوات مقابل واحد ؟.. هذا هو الافتراض الاكثر مدعاة للكدر ... والاكثر احتمالاً . ولكن خلال هذا الوقت تتسارع الحوادث..وفي كل مكان تتخذ الآن احتياطات عسكرية .

– احتياطات عسكرية ؟

– هذا حتمي : فجميع الدول من الطبيعي ان تفكر بتعبئة عامة ممكنة ، وهم يستعدون لها **في كل فرصة** ... ففي بلجيكا يوجد اليوم ايضاً برئاسة السيد بروكفيل مجلس غير عادي ، له كل مظاهر مجلس الحرب الاحتياطي : يرمي الى تنبيه الطبقات الثلاث لتستطيع وضع مئة الف رجل في خط النار .. وعندنا ، الشيء نفسه : فقد اجتمع مجلس الوزراء في الكه دورسي هذا الصباح للنظر في الاستعدادات الحربية **بداعي الحيطة** . وفي طولون ، وبرست مُنع الاسطول من الخروج من المرافىء . وهناك امر ارسل برقياً الى المغرب لارسال خمسين فرقة من الجيوش السوداء دون تأخير للعمل في فرنسا . الخ.. ان جميع الدول تتورط معاً في هذا السبيل ؛ وهكذا تزداد الوضعية خطورة من تلقاء نفسها . لانه لا يوجد فنّي في رئاسة الاركان لا يعرف، حين يحرك هذا التشابك الشيطاني الذي هو التعبئة العامة، انه يصبح غير ممكن مادياً تخفيف الاستعدادات، والانتظار. وعندئذ فان الحكومة الاكثر رغبة في السلام تجد نفسها موضوعة امام هذا البرهان ذي الحدين : تحريك الحرب لسبب وحيد هو انها استعدت لها.وإما...

– وإما اصدار اوامر معاكسة . ارجاع الآلة الى الوراء، ايقاف الاستعداد.

– فعلاً . ولكن في هذه الحالة يجب ان تكون متأكداً تمام التأكد **بأنك لست بحاجة الى التعبئة قبل شهور عديدة ...**

– لأن ؟ ..

– لأن – وهذه حقيقة بديهية لم يناقشها الفنيون – لأن قراراً واضحاً يحطم

كل دواليب هذه الآلة المعقدة ويجعلها غير قابلة للاستعمال لوقت طويل . ومع ذلك فأية حكومة في الساعة الحالية تستطيع ان تكون متيقنة انه ليس هناك حاجة للتعبئة العامة حالاً ؟

فصمت انطوان ، وتأمل روميل بتأثر شديد ، وتمتم اخيراً :

– هذا يبعث على الاضطراب .

– ان ما يبعث على الاضطراب يا عزيزي هو انه لا يوجد لعب تقريباً تحت كل هذه المظاهر ! أن ما يجري في اوروبا في هذه اللحظة ليس سوى لعبة بوكر ضخمة يحاول كل واحد فيها ان يربح عن طريق التهويل ... بينما تقوم النمسا بخنق الصرب المخاتلة بهدوء، تتخذ المانيا، شريكتها في المغامرة ، هيئات مهددة – دون هدف آخر سوى شل العمل الروسي وتدخل الدول للصلح . وكما في لعب البوكر ، فان الذين **يبلفون** افضل من غيرهم هم الذين يربحون لوقت طويل ... فقط كما في البوكر ، لا يعرف احد اوراق جاره ، لا يعرف احد اي قسم من الاحتيال واي قسم من الارادة الاعتدائية هو الحقيقي في موقف المانيا وفي موقف روسيا . كان الروس حتى الآن يخضعون دائماً امام الجرأة الجرمانية . وعندئذ يصبح من حق المانيا والنمسا ان يعتقدا : « مقابل اجادتنا **البلف** وظهورنا بمظهر العازم على كل شيء ، فان روسيا ستخضع » . ولكن من الممكن ايضاً ، وبالضبط لان روسيا كانت تضطر دائماً إلى الخضوع، فانها ستلقي بسيفها في اللعب هذه المرة ...

وردد انطوان : هذا يبعث على الاضطراب .

وبحركة فاترة وضع في طبق آلة التطهير الحقنة التي كان قد احتفظ بها في يده ، وخطا بضع خطوات حتى النافذة . وبسماعه روميل وهو يرسم هذه اللوحة للسياسة الاوروبية ، شعر بقلق المسافر الذي يكتشف فجاة ، في وسط الزوبعة ، ان جميع الضباط الذين على ظهر المركب قد فقدوا عقولهم .

وساد صمت .

وكان روميل قد نهض ، فضبط حاملتي بنطلونه ، وبحركة آلية القى

نظرةً حوله . كان يتأكد من انهم لا يستطيعون سماعه، واقترب من انطوان وقال خافضاً صوته :

– اسمع يا تيبو . ما كان علي ان افشي هذه الامور . ولكن ، انت طبيب، وتستطيع الاحتفاظ بسر ، اليس كذلك ؟

وتطلع في وجه انطوان ، فحنى هذا رأسه بصمت .

– اجل ... ان ما يجري في روسيا لا يُصدَّق ! فقد ابلغنا السيد سازانوف مقدماً ، وبشكلٍ ما ، ان حكومته سوف ترفض كل عمل يدعو الى الاعتدال ! وبالفعل فقد تلقينا من بطرسبورج منذ قليل اخباراً خطيرة جداً: ان نية روسيا لا تبدو موضع شك : انها الآن في حالة التعبئة العـامة ! والمناورات السنوية قد قطعت؛والجيوش التحقت بثكناتها بمنتهى السرعة؛والدوائر العسكرية الرئيسية الروسية الأربـع ، موسكو ، كييف ، قازان ، واوديسا ، قد عبأت الجيوش ! والبارحة في الخامس والعشرين منه ، وربما اول البارحة ، أثناء انعقـاد مجلس حربي ، فان رئاسة الاركان انتزعت من القيصر امراً خطياً بالاستعـداد بصورة سريعة « باسم وقاية » للقيام بعمل عسكري ضد النمسا . والمانيا تعرف ذلك دون شك ، وهذا يكفي لإيضاح موقفها . وقد عبأت جيوشها سراً ايضاً ؛ ومن المؤسف ان ليس لها سوى سبب غير كاف لتستعجـل ... الا انها قامت اليوم بسعي على اكبر قدر من الاهمية : فقد انذرت بطرسبورج علناً انه اذا لم تتوقف الاستعدادات العسكرية الروسية ، او بالاحرى ، إذا اسرعت ، فستجد نفسها مجبرة على اصدار الاوامر بتعبئة جيوشها . واوضحت ان هـــذا يعني الحرب العامة ... فبماذا اجابت روسيا ؟ .. ان مسؤوليتها التي هي الآن ثقيلة جداً ، ستكون ساحقة إذا لم تخضع ... وخضوعها قليل الاحتمال .

– ولكن نحن ، في كل هذا ؟

– نحن يا صديقي العزيز ؟ نحن ؟ ما العمل ؟.. أنشهّر بروسيا لكي نضعضع معنويات بلادنا عشية اليوم الذي ربما نكون فيه بحاجـــة الى كل قوانا ، وكل اندفاعنا القومي ؟ أنشهر بروسيا لنعزل انفسنا حالاً ؟ لنختلف مع حلفائنـــا

الوحيدين ؟ ولكي ينبذ الرأي العام الانكليزي ، الساخط ، ظهرياً الجماعة الفرنسية – الروسية ويجبر حكومته على ابداء نيتها لصالح الجرمانيين ؟

وقاطعتهما ضربتان رصينتان على الباب ، وارتفع صوت ليون من الرواق :

– انهم عادوا الى طلب السيد على الهاتف ...

فأتى انطوان بحركة ملل وصاح :

– قل انني ... كلا ، انا آتٍ .. – ووجه الكلام الى روميل : – أتسمح ؟

– اذهب يا عزيزي .. ومع ذلك فقد تأخر الوقت جداً ، انا ذاهب .. الى اللقاء .

وبلغ انطوان بسرعة مكتبه الصغير ورفع السماعة :

– ما الامر ؟

في طرف الخط اصطدمت آن بهذه النبرة الجافة وارتعشت، وقالت بخضوع:

– صحيح ، نهار الاحد ! ربما عندك اصدقاء في بيتك .

فكرر : ما الامر ؟

– اردت فقط ... ولكن اذا ازعجتك ؟

فلم يجب انطوان .

– انا ...

وادركت انه غاضب بحيث لم تعد تعرف ماذا تقول ، ولا أية كذبة ترتجل .

وتمتمت بخجل لانها لم تجد شيئاً أفضل :

– هذا المساء ؟

فقاطعها حالاً : مستحيل .

وعاد يقول ملطفاً صوته :

– مستحيل هذا المساء يا عزيزتي ...

وانتابته الرأفة فجأة . وشعرت آن بذلك . وكان هذا لذيذاً ومؤلماً معاً . وقال :

– كوني عاقلة (وسمعته يتنهد). اولاً ، انا لست حراً اليوم . وحتى لو كنت

حراً ، فالخروج مساء ، في هذه الفترة ...

– اية فترة ؟

– وأخيراً يا آن ، اقرأت الصحف ؟ أتجهلين ما يجري ؟

فاعتدلت . الصحف ؟ السياسة؟ الأجل هذه الحكايات أبعدها من حياته؟.. وقالت لنفسها : « يجب أن يكون كاذباً ».

– وهذه الليلة ... عندنا ؟ .. كلا ؟

– كلا ، سأعود متأخراً دون شك ، تعباً ... اؤكد لـك يا عزيزتي .. لا تلحّي .

وأضاف برخاوة :

– ربما غداً .. سوف اكلمك غداً بالهاتف ، اذا استطعت .. الى اللقاء يا عزيزتي ..

وعلق السماعة دون ان ينتظر .

٤٢

لم ينتظر جاك عودة اخيه ليذهب، حتى انه أسف لتأخره عند انطوان حين أنبأته حارسة البيت في شارع الاوبسرفاتوار ان جني عادت منذ ساعة . وصعد الطوابق بخطى كبيرة ، ورن الجرس . كان يترقب خطوة جني وراء الباب وهو خافق القلب ؛ ولكنه سمع صوتها :

– من هناك ؟

– جاك .

وسمع جلبة مزاليج وسلاسل ، واخيراً فتح مصراع الباب .

وقالت موضحة سبب هذا الإرتاج :

– لقد ذهبت امي ، وأوصلتها الى القطار .

وظلت في اطار الباب كأنها تشعر ببعض القلق في اللحظة التي تدعه يدخل. ولكنه كان يتطلع في وجهها بتعبير سامٍ مرحٍ بدد اضطرابهـــا حالاً . انه

هنا ، واستمر حلم البارحة !

ومد لها يديه معاً بشدة كلها حنان . وبنفس الحركة العزوم الصريحة تركت له يديها ، وتراجعت خطوتين دون ان تسحبهما وجعلته يجتاز العتبة .

كانت تتساءل وهي تنتظره : « اين استقبله ؟ » كان الصالون مخبأ تحت أغطية الاثاث . غرفتها ؟ انها ملجأها . مكان صالح لها ، وهي تشعر بالحياء من إدخال أي كان اليها . حتى دانيال نفسه لم يكن يدخلها الا في النادر . بقيت غرفة دانيال ، وغرفة مدام دي فونتانان حيث كانت المرأتان تجلسان فيهما عادةً . واخيراً اختارت جني غرفة اخيها ، وقالت :

– تعال الى غرفة دانيال . انها الغرفة الوحيدة الباردة في الشقة .

وبما أنه لم يكن لديها بعد ثوب اسود خفيف ، فقد كانت ترتدي في البيت ثوباً صيفياً قديماً ذا طوق مفتوح ، من القماش الابيض يكسبها منظراً ربيعياً ورياضياً . ومع انها ضيقة الخصر ، طويلة الساقين فلم يكن ممكناً القول انها مرنة ، لانها كانت تراقب حركاتها بالغريزة وتتشدد في مشيتها عمداً ؛ ولكن بالرغم من احتراسها فان اعضاءها المشيقة كانت تشي بليونة شبابها .

كان جاك يتبعها شارد الفكر : لم يستطع الامتناع عن النظر إلى ما حوله بتأثر . كان يعرف كل شيء : الدهليز وخزانته الهولندية ، وصحونها من صنع دلف Delft فوق الأبواب ؛ وجدار الرواق الرمادي الذي كانت مدام دي فونتانان تعرض عليه في السابق أولى رسوم ولدها بالفحم ؛ والتجويف ذو الزجاج الأحمر الذي كان الولدان يجعلان منه مختبراً فوتوغرافياً؛ وغرفة دانيال، وخزانة الكتب ، وساعتها الرخامية القديمة ، والمقعدان الصغيران من المخمل بلون العقيق ، حيث جلس مقابل صديقه كثيراً من المرات .

واوضحت جني وهي ترفع الستار لتخفي خجلها :

– امي في رحلة . فقد ذهبت الى فيينا .

– إلى أين ؟

– الى فيينا في النمسا .. اجلس .

قالت ذلك وهي تلتفت دون ان تلاحظ دهشة جاك .

(مساء البارحة لم تتلق أي سؤال عن تأخرها ، بعكس ما كانت تنتظر . فقد كانت مدام دي فونتانان مشغولة جـــداً بالاستعدادات لرحلة الغد – استعدادات لم تكن تستطع البدء بها امام دانيال . حتى انها لم تنظر إلى الساعة اثناء غياب ابنتها – اذن فلم يكن على جني أن تقدم ايضاحات ، بل كانت امها هي التي اسرعت وصرحت ، ليس بدون اضطراب بسبب كتمان السر ، انهـا ستغيب حوالي عشرة ايام : الوقت الكافي للذهاب « وتسوية القضايا ») .

وردد جاك دون أن يجلس :

– إلى فيينا ؟ وتركتها تذهب ؟

فسردت جني عليه باختصار كيف جرت الامور ، وان امها قطعت الحديث لدى اول اعتراض قامت به ، مؤكدة ان وجودها في فيينا هو وحده يمكن ان يضع حداً لمصاعبهم .

كان جاك يتفرس بها بحنان حينما كانت تتكلم . كانت جالسة أمام مكتب دانيال على كرسي ، مستقيمة الجذع ، رصينة الوجه دون استرخاء ، وثنية الفم ، والشفتان المضمومتان قليلاً – « المعتادتان على الصمت » كما كان يفكر – تدل كلها على التفكير والنشاط . كانت الجلسة منقبضة قليلاً ؛ والنظر يتفحص دون أن يستسلم . حذر ؟ كبرياء ؟ خجل ؟ كلا . كان جاك يعرفها بما فيـــه الكفاية ليعلم ان هذا التشدد كان طبيعياً ، ولا يدل على شيء سوى بعض التنوع في الطبع ، بعض التحفظ المقصود ، موقف اخلاقي .

وتردد في قول كل ما يعتقده حول عدم مناسبة الاقامة في النمسا في هــذه الفترة . وسأل بحذر :

– هل كان اخوك على علم بهذه الرحلة ؟

– كلا .

فقال وقد عزم فجأة !

– آه ! انا متأكد من أن دانيال كان عارضها حتماً . اذن فمدام دي

فونتانان لا تعلم ان النمسا اعلنت التعبئة العامة ؟ وان الحدود محروسة عسكرياً ؟ وان النمسا يمكن ان تكون غداً في حالة حصار ؟

وكان دور جني في الدهشة . لم تسنح لها الفرصة لقراءة صحيفة منذ ثمانية ايام . واعلمها جاك بالحوادث الرئيسية ببضع كلمات .

كان يتكلم باحتراس ، محاولاً أن يكون صادقاً دون ان يزيد من قلقها . والأسئلة التي ألقتها ، والتي يستشف منها قلة التصديق ، أظهرت ان الهموم السياسية تشغل مكاناً صغيراً في حياة جني . واحتمال حرب ، احدى تلك الحروب التي تعلمها كتب التاريخ ، لم تكن تتوصل إلى إخافتها . وفكرة تعرض دانيال للخطر الشديد في حال حدوث النزاع لم تخطر لها على بال . لم تكن تفكر بسوى التعقيدات المادية التي يمكن ان تحدث لأمها .

وأسرع جاك يقول :

ـ من المحتمل أن تقلع مدام دي فونتانان عن مشروعها اثناء الطريق . انتظري ان تريها عائدة .

فقالت بحرارة : أتظن ؟

واحمر وجهها .

واعترفت له بانها كانت رغم كل شيء سعيدة بهذا الرحيل الذي يؤخر ساعة الايضاحات . واسرعت تقول ، لا لأنها تخشى الاصطدام بعدم الموافقة ، ولكنها تتهيب اكثر من كل شيء ان تتحدث عن نفسها ، وان تظهر عواطفها عارية . وأضافت وهي تنظر اليه برصانة .

ـ يجب ان تتذكر ذلك يا جاك . انا بحاجة لمن يحزر ما في نفسي .

فقال ضاحكاً : وأنا ايضاً .

واتخذ الحديث دورة خاصة . فسألها عن نفسها ، واضطرها إلى ايضاحات ، وساعدها على تحليل نفسها . ورضيت بذلك دون جهد كبير . ولم تكن تغتاظ من اسئلته . وأظهرت بعض الرضى شيئاً فشيئاً لأنه ألقى هذه الأسئلة. ودهشت قبله لشعورها بنوع من السرور لتخليها عن تحفظها المعتاد معه . ذلك لأن ليس

هناك من مال عليها بتلك النظرة الحادة الأخّاذة ؛ وما من أحد تحدث معها بذلك الاهتمام خوفاً من إغاظتها ، ولا بتلك الرغبة في فهمها . وغمرها فتور مجهول، وبدا لها انها عاشت حتىاليوم سجينة وأن حدود سجنها ، وقدانحسرت فجأة ، كشفت لها افقاً لم يخطر لها ببال .

كان جاك يبتسم دائماً بدون سبب . وأكثر من جني ايضاً ، كان يبتسم لسعادته الخاصة . وقد ظل متخدراً . ونسي اوروبا : لم يكن يوجد شيء إلا هي وهو . وكل ما كانت تقوله ، حتى لو لم يكن ذا معنى ، كان يبدو له غنياً بالنجوى والمودة ، ويثير فيه اندفاعات عنيفة من الشكران . وتوطد في ذهنه يقين جديد ملأه بالفخر ، هو أن حبها لم يكن شيئاً نادراً وثميناً فقط ، بل يتضمن مغامرة غير عادية لا مثيل لها . وكلمة « روح » كانت تتردد في كل لحظة على شفاهها ، وفي كل مرة . فان هذه اللفظة المبهمة ، الغامضة ، كانت ترن فيها باهتزاز خاص ككلمة سحرية ، مشحونة باسرار لم يكن يعرفها سواهما .

وهتف فجأة :

– أتعرفين ما الذي يدهشني ؟.. هو انني قليل الدهشة . اشعر في اعماق نفسي بأنني لم أشك ابداً بما كان ينتظرني .

– وأنا أيضاً .

كان هذا خطأ بالنسبة اليها كما هو بالنسبة اليه . ولكن كلما ازداد تفكيرهما بذلك بدا لهما انهما لم ينقطعا عن الأمل يوماً واحداً . وتابع :

– وأجد وجودي هنا طبيعياً جداً .. يخالجني ، بجانبك ، الشعور بأنني اخيراً في مناخي الحقيقي .

– وأنا أيضاً .

(كان هذا ، بالنسبة اليهما معاً ، رغبة لذيذة استسلما بسببها للشعور في كل لحظة انهما متفقان قلبا وقالبا ، وللتصريح بأنهما متشابهان في كل شيء) .

وكانت قد غيرت مقعدها وجاءت تجلس قبالته ، في جلسة متراخية . لقد بدا حبها انه غيّرها جسديا : تكشف في اوضاعها ، واكسبها كياسة ومرونة

غير معتادتين . وكان جاك يرقب هذا التبدل بنشوة . كان يداعب بنظره لعب الظلال على الجذع المتحرك ، وتموج العضلات تحت الثوب ، وايقاع التنفس . ولم يكن يشبع من منظر هاتين اليدين الرشيقتين اللتين تبحثان عن بعضهما البعض ، وتتلامسان ، وتنفصلان ، وتنضمان من جديد ، كيامتين عاشقتين . كانت ذات اظافر صغيرة جداً ، مستديرة ، محدبة ، وبيضاء . « شبيهة بنصف اللوزة » كما كان يفكر . وانحنى بعد لحظة وقال :

– تصوري انني اكتشفت كدسة من الأشياء الرائعة .

– ماذا إذن ؟

ولكي تستمع ، وضعت مرفقها على ذراع الكنبة ، وأسندت ذقنها على كفها ، وعانقت الاصابع منحنى الخد ؛ والسبابة الحرة كانت تلعب مع الشفاه باسترخاء . أو أنها تمتد لحظة حتى الصدغ .

وقال وهو ينظر اليها عن قرب :

– ان لحدقتيك في وضح النهار بريق حجرين صغيرين ازرقين ، ياقوتتين صافيتين .

فابتسمت قلقة ، وخفضت رأسها . ثم اعتدلت ، وتفحصته بدورها بانتباه كما بدافع اللعب ، ولتعامله بالمثل .

– وانا أجد انك تغيرت منذ البارحة يا جاك .

– تغيرت ؟

– نعم ، كثيراً .

واتخذت هيئة لغزية . وأرهقها بالأسئلة ، واخيراً ، ومن خلال كثير من التردد ، وكلمات « تقريبا » ، والتنقيح ، انتهى إلى فهم ما لم تجرؤ على قوله : منذ مجيء جاك كانت تحدس بوجود مهمة سرية مسيطرة عليه وغريبة عن حبهما .

وبحركة من اليد أعاد الى الوراء خصلة الشعر التي كانت تحجب جبهته ، وقال بدون مقدمة :

– اليك كيف كانت حياتي منذ البارحة .

وحدثها طويلاً عن ليلته في حدائـــق التويلري ، وصباحيته في جريدة « الانسانية » ، وزيارته لانطوان . وضاعف التفاصيل . واصفا ، بكياسة روائي ، الأماكن ، والكائنات ، معيداً أقوال ستيفاني ، وغالو ، وفيليب ، ورومبل ، موضحا ردود الفعل عنده ، معترفا بمتاعبه وآماله ، ساعيا لاعطائها فكرة عن الصراع الذي يقوده ضد تهديد الحرب .

كانت تصغي دون أن تضيع كلمة ، لاهثة ، مندهشة . ووجـدت نفسها مرتمية بعنف ليس في وسط حياة جاك فقط ، بل في قلب الأزمة الاوروبية ، مواجهة المشاكل الرهيبة التي كانت تجهلها . وترنح البناء الاجتماعي فجـــأة . وشعرت برعب اولئك الذين يرون ، اثناء هزة أرضية ، انهيـــار الجدران حولهم ، والسطوح ، وكل ما يؤمن الحماية والسلامة ، والذي كـان يبدو أنه غير قابل للخراب .

أما فيما يتعلق بفعالية جاك الشخصية في هذا الكون الذي كانت البارحة لا تزال تجهله ، فلم تدرك مرماها إلا بشكل ناقص ، ولكنها كانت بحاجة إلى أن تضع جاك في مركز عالٍ جداً وذلك لتبرر حبها – مينستريل ، وستيفاني وجوريس – جديرون باعتبـار استثنائي . وآمالهم يجب أن تكون مشروعة لأن جاك يقاسمهم إياها .

واندفع جاك ، فقد سيطر عليه انتباه جني وملأه نشوة . وقال :

– .. نحن الثوريين ...

فرفعت عينيها وقرأ فيهما دهشة .

كانت هي المرة الأولى التي تسمع فيها صوتا جذابا يلفظ بذلـك الاحترام الديني كلمة « ثوري » التي أيقظت في ذهنها صورة أفراد ذوي هيئة عكرة ، خليقين باحراق ونهب الاحياء الغنية ليشبعوا شهيات منحطة : رجال متشردون ، يخبئون قنابل تحت ستراتهم وليس للمجتمع من وسيلة ضدهم سوى النفي .

وأخذ عندئذ يتحدث عن الاشتراكية وعن انضمامه إلى الأممية .

– لا تعتقدي انهـــا اندفاعة ساذجة من الأريحية هي التي القتني في حزب

الثورة . لقد وصلت إلى ذلك بعد شكوك طويلة ، وفي حالة شقاء كبير ، وفي عزلة اخلاقية كبيرة . عندما عرفتني كنت اريد الايمـان بالأخوة البشرية ، وبانتصار الحقيقة ، وبالعدالة ؛ ولكني كنت اتخيل هذا الانتصار سهلاً ، قريباً جداً . وقـد اكتشفت وهمي بسرعة ، وأظلم كل شيء في نفسي . واجتزت في تلك الفترة اسوأ لحظـات حياتي . تركت نفسي اغرق .. لمست القعر ، اسفل القعر .. اجل ، ان المثل الأعلى الثوري هو الذي انقذني – وتابع مفكراً بمينستريل بشكران مقرون بالتأثر : – ان المثل الأعلى الثوري هو الذي وسع أفقي فجأة وأثاره ، وأعطى سبباً للحيـاة لذلك الكائن المتمرد ، غير النافع الذي كنته منذ طفولتي .. لقـد أدركت ان من المستحيل الاعتقاد ان انتصار العدالة سهل وقريب ، ولكن الاكثر استحالة والأكثر إحراجاً هو اليـأس ! وفهمت على الخصوص ان هناك طريقة فعالة للايمان بهذا الانتصار ؟ وان تمردي الغريزي يمكن ان يصبح فعالاً إذا جعل لنفسه مهمة ، هي أن يعمل مع متمردين آخرين مثلي في سبيل التطور الاجتماعي .

كانت تصغي دون ان تقاطع . ووراثتها البروتستانتية أعدتها سلفاً لهـذه الفكرة القائمة ان المجتمع يجب ان لا يخضع بشكل صارم لمبدأ التوافق مع العادات المقررة ! وايضاً ان واجب الكائن ان يثير شخصيته ، وان يسير بعمل أملاه عليه ضميره حتى آخر النتائج . وشعر جاك انه ٌفِهم . فقد ادرك من صمت جني ارتعاشة ذكاء في حالة الترصد ، متزن وسليم ، ومقاد بشكل سيء دون شك نحو المجادلات النظرية ، ولكنه خليق بالارتفاع بحرية الى مـا فوق الاحكام المسبقة ؛ ووراء هذا التحفظ الذي لم تتخلّ عنه ، شعر بتحرك حساسيةٍ تحت الضغط ، مستعدة لاعتناق وخدمة كل قضية كبرى تكون جديرة بتضحية كلية .

الا انها لم تستطع ان تكبح مطة شفة تدل على عـدم التصديق وعدم الاستصواب تقريبـاً عندما سمعت جاك يؤكد ان هذا المجتمع الرأسمالي الذي تعيش فيه دون ان تفكر بشرّ ، كان تكريساً لظلم غير مقبول . وبدون ان

تفكر بذلك كثيراً فقد كانت تقبل بعدم مساواة الاوضاع كنتيجة لا يمكن تجنبها لعدم المساواة في الطبائع . وهتف :

– آه ! عالم المحرومين هذا يا جني ! انا واثق انك لم تتمثليه كما هو . وإلا لما كنتِ هززتِ رأسك هكذا ! انت تجهلين انه يوجد بالقرب منك عدد غفير من البؤساء ليس العيش بنظرهم سوى التعب يوماً بيد يوم ، الظهر منحن تحت وطأة الشغل ، دون أجرة ملائمة ، دون تأمين للمستقبل ، دون إمكان اي أمل ! وتعلمين جيداً انهم يستخرجون الفحم ، وانهم يبنون المصانع . ولكن هل فكرت أحياناً بأولئك الملايين من الناس الذين يتلفون اعصابهم في جلبة آلات المصانع ؟ وايضاً بذوي الميزة النصفية في الارياف الذين تتكون مهمتهم اليومية من خدش الارض طوال عشر ساعات ، اثنتي عشرة ساعة ، اربع عشرة باليوم ، وفقاً للفصول ليبيعوا وسطاء يختلسون اموالهم محصول كل ذلك العرق؟ هذا هو همُّ الرجال ! فهل أبالغ ؟ ابداً .. اني اتكلم عما رأيته .. فلكي لا أموت من الجوع في هامبورغ اضطررت الى القيام بالعمل مع مئة شيطان مسكين ، تدفعهم نفس الضرورة التي تدفعني : الحصول على الخبز . طوال ثلاثة اسابيع كنت اطيع من الصباح إلى المساء رؤساء فرقٍ شبيهين بحراس السجناء وكانوا يصرخون : « ارفعوا هذه الجسور الخشبية ، احملوا هذه الأكياس ؛ جرُّوا عربات الرمل !» وفي الليل كنا نترك المرفأ بأجرتنا الهزيلة لننقضّ على الطعام، على الكحول ، عاجزين عن المشي ، مطليين بالاقذار ، الجسد فارغ ، والدماغ فارغ ، منهوكين من التعب إلى درجة اننا اصبحنا عاجزين عن التمرد ! لأن معظم هؤلاء التعساء ، وهذا هو الاكثر رهبة ، ليس لديهم اي ريب بالمظالم الاجتماعية التي كانوا ضحاياها ؟ ويجري التساؤل حقيقة من اين يأتون بالقوة ليتحملوا حياتهم الرهيبة هذه ، والتي تشبه حياة السجناء ، كأمر طبيعي . كنت استطيع الهرب من هذا الجحيم ، لأنه كان لدي من الحظ انني اعرف عدة لغات ، ولأنني كنت قادراً على خربشة مقال لصحيفة .. ولكن الآخرون ؟ انهم يتابعون عملهم هناك كمحكومين بالاشغال الشاقة ! هذه الاشياء يا جني ،

هل لنا الحق ان نقبل بوجودها ، وبأن تستمر ، وان تكون هي الوضع الطبيعي للرجال على الأرض ؟

خذي المصانع مثلاً ... لقـد اشتغلت فترة في فيوم Fiume ، كمدير مخبز للجنود ، وفي مصنع ازرار . كنت عبداً لآلة يجب تغذيتها دون انقطاع كل عشر ثوان : يستحيل على المرء ان يتشاغل تفكيره او يده دقيقة واحدة .. انها دائماً حركة واحدة يجب تكرارها طوال عشر ساعات بدون تعب حقيقي ، وهذا ما أريده . ولكني اقسم لك انني كنت اخرج من هناك اكثر خبالاً ، بسبب تفاهة هذا العمل ، مما كنته في هامبورغ ، بعد ان احمل طوال ساعتين اكياس الاسمنت التي كان غبارها يتلف عيني ويجفف حنجرتي .. وقد رأيت في مصنع ايطالي للصابون نساءً تتألف مهنتهن من أن يرفعن ، ويحملن كل عشر دقائق صناديق صابون بودرة يزن الواحد منهـا اربعين كيلو ؛ وأثناء الوقت الباقي يبقين واقفات يحركن مقبضاً لإدارة الآلة : مقبض قاس جداً كان عليهن لتحريكه ان يسندن ارجلهن الى الحائط ، ويقضين ثمان ساعات باليوم في هذا العمل ... اني لا ابتكر ! وقد رأيت في محل لصناعة الفراء ، في بروسيا فتيات في السابعة عشرة يعملن في تنظيف الجلود بالفرشاة من الصباح إلى المساء . وكان هؤلاء الصغيرات يبتلعن كثيراً من الوبر ليتابعن عملهن ، ويذهبن يتقيأن في الخارج عدة مرات باليوم .. وبأية اجرة حقيرة ! لأن من المقبول في كل مكان ان تتساوى المرأة بالتعب مع الرجل ولكنها تقبض اجرة اقل .

فسألت : لماذا ؟

- لأنهم يفترضون ان لها اباً أو زوجاً يساعدها على العيش .

فقالت : هذا صحيح في الغالب .

- هيه كلا ! إذا كان هؤلاء البائسات مضطرات إلى الشغل ، ألا يعني ذلك ان الرجل في مجتمعنا لا يربح ما يكفي لإعالة اولئك الذين هم على عاتقه بشكل ملائم ؟ اني اذكر لك حالات شغيلة اجانب . ولكن ليس عليك الا ان تذهبي في اي صباح الى ايفري ، وبوتو ، وبيلانكور .. وسترين قبل الساعة السابعة

استعراض النسوة اللواتي ياتين ويضعن اطفالهن في ملجأ نهاري وذلك ليصبحن حرّات في أن يذهبن وينهكن انفسهن في المشاغل . وأرباب العمل الذين نظموا هذه الملاجىء (على حساب المصنع) يعتقدون ، وربما عن حسن نية ، انهم محسنون الى عمالهم .. اتتصورين ما هي حياة أم عائلة ، قبل أن تؤدي ساعاتها الثماني في العمل اليدوي ؟ تنهض في الساعة الخامسة صباحاً لتصنع القهوة، وتغسل وتلبس صغارها ، وترتب الغرفة قليلاً ، وتصل في الساعة السابعة الى عملها .. اليس هذا بشعاً ؟ ومع ذلك فهو موجود ! بثمن هذه الحيوات المضحاة يزدهر المجتمع الرأسمالي ! بالحقيقة يا جني ، هل نستطيع التسامح بهذا ؟ هل نستطيع الاحتمال طويلاً أن يزدهر المجتمع الرأسمالي على حساب الملايين من الحيوات المضحاة ؟ كلا ! ولكن لكي يتبدل كل هذا ، وغيره ، يجب أن تنتقل السلطة إلى أيدي أخرى : يجب أن تستولي البروليتاريا على السلطة السياسية ، هل فهمت الآن ؟ .. هذا هو معنى الكلمة التي طالما افزعتك : **ثوري** .. يجب قيام تنظيم جديد ومختلف تماماً للمجتمع يتيح للانسان ليس فقط أن يدوم ، بل أن يعيش ! يجب أن نعيد للفرد ليس فقط نصيبه المادي من أرباح الشغل ، بل ذلك النصيب من الحرية ، وأوقات الفراغ ، والراحة ، التي لا يستطيع بدونها أن ينمو في جدارته كانسان .

فرددت الفكرة : جدارته كانسان ؟

لقد وعت فجأة – وكانت متشوشة من ذلك – انها بلغت سنتها العشرين دون أن تعرف شيئاً عن عناء وشقاء العالم . فبين جماهير الشغيلة وبينها ، هي البورجوازية الشابة عام ١٩١٤ ، كانت حواجز الطبقات أكثر إحكاماً من تلك الحواجز التي تفصل بين طوائف المدنية القديمة . وقالت لنفسها بسذاجة : «جميع الأغنياء الذين أعرفهم ليسوا بمسوخ ». كانت تفكر بتلك الأعمال البروتستانتية التي تساهم فيها والدتها والتي « تقوم بالاحسان » الى عائلات محتاجة .. وشعرت انها احمرت من الاضطراب . الاحسان ! لقد اصبحت تدرك الآن أن اولئك المعوزين الذين يطلبون الحسنة ليس لديهم شيء مشترك مع الشغيلة المستثمَرين

الذين يطالبون بحق العيش ، وباستقلالهم ، و « كرامتهم » . اولئـك المعوزون ليسوا هم الشعب كما كانت تعتقد ببلاهة : انهـم ليسوا سوى متطفلين على العالم البورجوازي ؛ وربما غرباء ايضاً عن عـالم العمال الذي ذكره جاك أكثر من سيدات المؤسسات الخيرية اولئـك اللواتي يزرنهم ! لقد كشف لها جاك عن **البروليتاريا** !

ورددت مرة ثانية : جدارة الانسان .

ودلت لهجتها على أنها تعطي هذه الكلمات كل معناها . وقال :

ـ اوه ! سوف تكون النتائج الأولى حتمـاً مصدر هزء .. فالشغيلة الذين ستعتقهم الثورة سينقضّون اولاً على المسرات الأكثر انانية . ولنقـل ايضاً : الأكثر انحطاطاً .. يجب أن ينالوا نصيبهم منها : تلك الشهوات الدنيا يجب أن تشبع اولاً لكي يكون التقدم الحقيقي .. الداخلي ممكناً . ـ وتردد قبـل أن يضيف : ـ .. والثقافة الروحية ..

واختفت رنة صوته ، وقبض على حنجرته قلق يعرفه جيداً . إلا أنـه تابـع :

ـ مما يؤسف له اننا يجب ان نرضى بهذه الضرورة: ان تتبع ثورة المؤسسات ثورة الاخـلاق من بعيد . ولكن لا يجب .. كلا .. ليس لنا الحق ان نشك بالانسان .. عيوبه ، أراها جيداً !.. ولكني أعتقد **وأريد** الاعتقاد انها فيقسم كبير منها نتيجة المجتمع الحالي .. يجب الكفـاح ضد الميول التشاؤمية ، يجب الوصول الى الايمان بالانسان .. يوجـد في الانسان ، ويجب ان يكون فيه توق خفي لا يفنى نحو العظمة .. يجب النفخ بصبر على هذه الجمرة المخبـأة بالرماد ، لكي تتوهج .. لتلتهب ذات يوم !

فاستصوبت بانحناءة عنيفة من رأسها . كان وجهها نشيطاً أكثر من المعتاد ؛ ونظرتها ملأى بالرصانة .

وابتسم سروراً .

ـ ولكن التغييرات الاجتماعية مرجأة لما بعد.. الأكثر ضرورة اولاً : يجب

اليوم ان نمنع الحرب .

وفكر فجأة بموعد ستيفـاني ، والقى نظرة على الساعة الرخامية . كانت متوقفة . فاستشار ساعته وانتصب بوثبة ، وقال كأنه خرج من حلم :

ـ الساعة الثامنة الآن .. ويجب ان اكون في البورصة في مدى ربع ساعة .

ووعى فجـأةً المنعطف غير المنتظر ، الجدي ، الذي تحول اليه حديثهما . وخشي أن يكون قد أغضب جني ، فاراد أن يعتذر ، فقاطعته قائلة :

ـ كلا ، كلا . اريد أن اعرف تفكيرك في كل شيء .. اريد أن اعرف حياتك .. وأفهم ..

وكأن لهجتها العاطفية بدت انها تقول : « بابداء دخيلتك هكذا ، وباظهار نفسك لي كما أنت على حقيقتك ، فانك تقدم الي افضل برهان على مودتك ، تلك التي أعلق عليها أغلى ثمن » .

وقال وهو يبلغ الباب :

ـ غداً ، سآتي في ساعة أفضل ، أتريدين ؟ بعد الغداء مباشرة .

وابتسمت ابتسامة هللت وجهها حتى اعماق حدقتيها . وكانت تريد أن تقول : « نعم ، تعال ، كن هنا أكثر وقت ممكن .. وحين تكون هنا اشعر انني اعيش » .

ولكنها احمرت وصمتت وتبعته خلال الشقة .

وتوقفت امام باب الصالون الذي كان مفتوحاً قليلاً .

ـ اتسمحين ؟.. هذا يذكرني بذكريات كثيرة ..

كانت المصاريع مقفلة . فدخلت قبله وفتحت النافذة . كانت لها طريقتها الخاصة في المشي ، في اجتياز الغرفة والسير رأساً نحو الشيء الذي تريد عمله ، دون سرعة ، وبصلابة عذبة لا تلين .

وعبقت رائحة ثياب ودهـان من الستائر المنضدة ، والطنافس الملفوفة ، والأرض الخشبية . وكان جاك يتطلع الى كل شيء مبتسماً . وتذكر زيارته الأولى مع انطوان .. وكانت جني مستاءة فذهبت تتكىء على الشرفة ؛ أما هو فظل

هناك في تلك الزاوية، واقفاً ببلاهة أمام هذه الخزانة الزجاجية. ولم يكن بحاجة لرفع القماش الذي يغطيها اليوم ليرى من جديد علب الملبّس، والمراوح، والتحف الصغيرة، وكل هذه الأشياء التي كان يتأملها في ذلك النهار لاهياً، والتي وجدها في مكانها بعد عشر سنوات .. صور جني المختلفة طوال هـذه السنوات كانت تتنضدد أمام عينيه كرسوم منقولة عن رسم اصلي، وتذكر اوضاعها كطفلة، كفتاة، ونزقها، واندفاعاتها الخائبة، واحمرار وجهها الشديد، وكلامها الذي كان نصف مسارّة.

والتفت نحوها وابتسم. هل حزرت بماذا كان يفكر؟ ربما. لم تقل شيئاً. وتأملها بضع ثوان صامتاً. لقد وجدها اليوم هنا، في نفس الصالون، مسيطرة على نفسها كما في السابق، دون خجل، ولكن دون اهمـال. بتلك النظرة الصادقة، القاسية قليلاً، وذلك الوجه الأملس الغامض.

– جني، أريني غرفة والدتك ايضاً، اتريدين؟

فقالت دون أن تظهر الدهشة:

– تعال.

كان يعرفها جيداً في أدق تفاصيلها، تلك الغرفة ذات الجدران المغطاة برسوم وصور، بسريرها الكبير من الحرير الأخضر الموشى بالأباريم! فقد أدخله دانيال اليها بعد أن طرق الباب. في أغلب الأحيان، فان مدام دي فونتانان، تحت ضوء عاكس النور الوردي، وعلى أحد المقعدين اللذين يحيطـان بالموقد، كانت تقرأ في زاوية النار، مؤلفاً اخلاقياً، رواية انكليزية. وقـد وضعت آنذاك كتابها على ركبتيهـا واستقبلت الشابين بابتسامة مشرقة كأن ليس هناك شيء يسبب لها السرور أكثر من هذه الزيارة. وقد اجلست جاك قبالتها وسألته عن حياته، ودروسه بنظرة مشجعة. واذا خطر ببال دانيال أن يرفع الاحطاب المنهارة فان امه، بحركة لاعب، تنتزع الملقط من يديه برشاقة وتقول ضاحكة: «كلا، كلا، اترك، أنت لا تعرف **عادات النار**»!

واضطر إلى بذل الجهد لينتزع نفسه من كل هذه الذكريات. وقال وهو يبلغ

الباب : هيا !

فقادته الى الغرفة الملاصقة .

وتأملها فجأة برصانة ، بحيث استولى عليها خوف لا داعي له وجعلها تخفض وجهها .

– هل كنتِ سعيدة هنا ؟ سعيدة حقيقة ؟

وفقاً لضميرها وقبل ان تجيب ، اخذت تنبش في الماضي . وعاشت من جديد ، لبضع ثوان ، السنوات المنصرمة ، طفولتها القلقة ، الموسوسة ، طفولتها المتحرزة ، المنقبضة ، الصامتة . وكان هناك شيء من الألق في ذلك الشحوب : حنان امها ، ومحبة دانيال ... ومع ذلك ، كلا ... سعيدة ، سعيدة حقيقة ؟ كلا ، ابداً .

ورفعت عينيها وهزت رأسها سلباً .

ورأته يتنفس بعمق ، ويرفع خصلة الشعر بحركة حازمة ، وابتسم فجأة . ولم يقل شيئاً ؛ ولم يجرؤ على ان يعدها بالسعادة ؛ ولكن دون ان يكف عن الابتسام والنظر اليها حتى اعماق حدقتيها ، اخذ يديها كما فعل عند وصوله ووضع شفتيه عليهما ، فلم ترفع نظرها عنه ، وشعرت بقلبها يخفق ، ويخفق .

ولم تعرف الا بعد وقت متأخر جداً بأي وضوح ارتسمت صورة جاك – كما كان هنا ، واقفاً ، منحنياً نحوها – في تلك اللحظة المحدودة في ذاكرتها ، وبأي اضطراب حاد كان عليها ان تستعيد طوال حياتها رؤية تلك الجبهة ، وخصلة الشعر القاتمة ، وتلك النظرة النافذة ، العنيدة ، الجسورة ، وتلك الابتسامة الواثقة التي كانت تسطع بالوعود .

٤٣

جلبة اجراس سان اوستاش الخاصة بالأقاليم ، والتي كانت تتغوّر في فناء العمارة ، ايقظت جاك باكراً . كان تفكيره الاول بجني . والبارحة اثناء السهرة ، وحتى اللحظة التي نام فيها ، اعاد عشرين مرة تذكّر زيارته لشارع الاوبسرفاتوار

وكان دائماً يجد تفاصيل جديدة يستخرجها من ذكراها . وظل بضع دقائق متمدداً على سريره ، بجيلاً نظراً لامبالياً في زخرف منزله الجديد. كانت الجدران متعفنة والسقف متقشراً ؛ وأسمال بالية مجهولة كانت تتدلى من المشاجب ؛ ورزم أوراق ونشرات سياسية منضدة على الخزانة ؛ وفوق طست الزنك تلمع مرآة رخيصة ، مبقعة بالطين .

ماذا يمكن ان تكون حياة الرفيق الذي يسكن هنا ؟

كانت النافذة قد ظلت مفتوحة طوال الليل؛ ولكن رغم الساعة الصباحية ، فان الهواء المتصاعد من الفناء كان ذا رائحة نتنة ، وخانقاً .

وقال لنفسه وهو يستشير مفكرة الجيب الموضوعة على طاولة الليل : « الاثنين ، ٢٧ ، هذا الصباح ، الساعة العاشرة ، جماعة المركز العام للشغيلة... وبعد ذلك يجب ان اهتم بذلك المال، وأرى الكاتب العدل، ووكيل الصرف... ولكن في الساعة الواحدة سأكون عندها ، معها !وبعد ذلك ، في الساعة الرابعة والنصف ، لدي ذلك الاجتماع الذي نُظم في فوجيرار لأجل كنيبردنك ...وفي الساعة السادسة سأمرّ على « الليبرتير ». وفي هذا المساء ، المظاهرة ... كان هنالك صخب في الهواء تلك الليلة ، واليوم يمكن ان تحدث امور ، والشوارع لن تكون دائماً للشبان المتحزبين للوطن ! ان مظاهرة هذا المساء تبشر بالخير . إعلانات في كل مكان ... اتحاد عمال السفن استنجد بالنقابات ... من المهم ان تكون الحركة النقابية على علاقة بحركة الحزب ..»

وركض يملاء وعاءه الكبير من صنبور الرواق ، ونصفه الاعلى عارٍ ورّش على نفسه الماء الطازج .

وفجأة ، عاودته ذكرى مانويل روا ، واخذ يحمل على الطبيب الشاب : « في الاساس ، ان اولئك الذين تتهمهم بالنزعة المعادية للوطنية هم الذين يتمردون ضد رأسماليتكم ! يكفي المرء ان يهاجم نظامكم ليكون فرنسياً رديئاً ! — وزمجر ورأسه تحت الماء — تقولون « وطن » ولكنكم تفكرون « مجتمع » ، « طبقة » . ودفاعكم عن الوطن ليس شيئاً آخر سوى دفاع متنكر عن نظامكم

الاجتماعي » . وأمسك طرفاً من المنشفة بكل يد ، وحك ظهره بشدة ، وهو يحلم بعالمآتٍ تستمر الاوطان المختلفة فيه كتجمعٍ إقليمي مستقل ادارياً،ولكنها مجتمعة تحت تنظيم بروليتاري واحد .

ثم عاد تفكيره إلى النقابية :

« يجب على المرء أن يكون داخل النقابات ليقوم بعمل جيد .. » وتجهمت جبهته . لماذا هو في فرنسا ؟ مهمة استعلامات ، نعم ؛ قام بها على افضل ما يستطيع : البارحة أيضاً ارسل الى جنيف بعض « التقارير » الموجزة التي يمكن أن يستفيد منها مينستريل دون شك ؛ ولكنه لم يكن مخدوعـاً بأهمية دور المحقق هذا . « ليكون مفيداً ، مفيداً بشكل حقيقي ... يجب أن يعمل .. » لقد جاء إلى باريس مع هذا الامل . وكان يغضب لكونه ليس سوى متفرج ، مسجل أحاديث ، أخبار ؛ لا يعمل شيئاً ، وبالاجمال – لا يستطيع ان يعمل شيئاً ! ليس هناك عمل على الصعيد الاممي يجد نفسه فيه محدوداً بالقوة . ليس هناك عمل حقيقي لأولئك الذين لا يشكلون جزءاً من الفرق ، لأولئك الذين ليسوا منضمين،ومنذ وقت طويل،الى المنظمات المقررة.وقال لنفسه بفتور مباغت: « هذه هي مشكلة الفرد أمام الثورة . لقد هربت من البورجوازية بدافع غريزة الهرب .. بتمرد الفرد وليس الطبقة ... وقضيت وقتي بالاهتمام بنفسي،بالبحث عن نفسي .. « انت لن تصبح ابداً ثورياً صالحاً يا رفيقي .. » عادت إلى ذهنه توبيخات ميتورغ . وبتفكيره بالنمساوي ، وبمينستريل ، وبكل أولئك الذين كانت الواقعية الاختيارية عندهم قد قبلت دفعـة واحدة ضرورة الدم الثورية ، شعر ان مسألة العنف المقلقة قد أمسكت بخناقه .. « آه ! ان استطيع الخلاص ذات يوم .. وبذل النفس .. الخلاص بالعطاء الكلي .. »

وأنهى زينته في احدى تلك الحالات من الاضطراب والخور التي لا يعرفها الا قليلاً ؛ والتي لا تدوم لحسن الحظ ، وتخضع بسرعة لدينامية الحياة الخارجية .

وقال لنفسه متحركاً : هيا الى الاخبار .

هذه الفكرة تكفي لإعادة شجاعته اليه ، فأقفل غرفته بالمفتاح ، ونزل بسرعة الى الشارع .

لم يعلم من الصحف كبير أمر . صحف اليمين تثير ضجة حول المظاهرات التي قامت بها عصبة المتحزبين للوطن امام تمثال ستراسبورغ . وفي معظم صحف الاستعلامات فان البرقيات الرسمية كانت مغطاة بتعليقات مهذارة ومتناقضة ، ويبدو ان الشعار هو المناوبة بحكمة بين عناصر القلق وأسباب الامل . واجهزة اليسار كانت قد دعت جميع دعاة السلام للمجيء والتظاهر مساء ، في ساحة الجمهورية . وأعلنت صحيفة « المعركة النقابية » في الصفحة الاولى : **الجميع ، في الشوارع هذا المساء .**

قبل أن يصل جاك إلى شارع بوندي توقف في صحيفة « الانسانية » لأن موعده لم يكن إلا في الساعة العاشرة .

وعلى باب مكتب غالو اقتربت منه مناضلة قديمة كان يعرفها لانه التقى بها في اغلب الأحيان في اجتماعات مقهى « التقدم » . كانت منضمة إلى الحزب منذ خمس عشرة سنة . وهي محررة في صحيفة « المرأة الحرة » . ويسمونها الأم اوري . وكانت تتمتع بالمحبة العامة مع انهم يحرصون جيداً على الهرب منها ليتخلصوا من ثرثرتها الملحة . تخدم بافراط ، مخلصة لجميع القضايا الشريفة ، باذلةً نفسها ، غاضبة اذا اوصى الناس بعضهم ببعض ، لا يتطرف اليها التعب رغم سنها وتمدد أوردتها حين يتعلق الامر بايجاد شغل لانسان عاطل ، او انقاذ احد الرفاق من المصاعب . وكانت تؤوي بيرينه Périnet عندها بشجاعة اثناء منازعاته مع الشرطة . انها مخلوقة غريبة . يكسبها شعرها الرمادي الاشعث ، في الاجتماعات ، هيئة مضرمة النار في النفط . وقد ظل الرأس جميلاً . كان بيرينه يقول بلهجة الضواحي : « لديها الكثير عند العرض » . نباتية مقتنعة ، وقد أنشأت تعاونية هدفها ان تهدي كل حي في باريس مطعماً اشتراكياً نباتياً . ورغم الحوادث ، لم تضيع اية فرصة لاجتذاب الاشياع . وقد تعلقت بذراع

جاك وشرعت تعظه .

– إستعلم يا صغيري ! استشر علماء الصحة . ان جهازك لا يستطيع تحقيق تناسقه الوظيفي ، ودماغك لا يستطيع بلوغ إنتاجه الأقصى إذا أصررت على اعطاء جسدك تغذية متعفنة ونظام جيفة .

ولاقى جاك صعوبة كبرى في التخلص منها والدخول بدونها الى مكتب غالو .

ولم يكن هذا وحده . فقد كان سكرتيره باجيس يقدم اليه لائحة اسماء كان يتفحصها ويضع بجانبها نقاطاً بالقلم الاحمر . وقد رفع حلقومه من فوق الملفّات المتكدسة على طاولته ، وأشار الى جاك أن يجلس ، بينما تابع وضع النقاط .

ورآه جاك من مظهره الجانبي ؛ وهذا المظهر الجانبي لأحد الحيوانات القارضة لا يكاد يشبه مظهراً بشرياً : فخط الجبهة والأنف المنحني الهارب يشكل كل الوجه تقريباً ؛ وكان هذا الخط يضيع في أعلى الفرشاة المشعثة من الشعر المفلفل ، وفي اسفل ، في اللحية المفروسة كمسحة قلم حيث يختفي فم منكمش وذقن مجهضة . كان جاك ينظر دائماً الى غالو بدهشة وفضول كما يتفحص المرء قنفذاً حين يكون له من الحظ غير العادي أن يفاجئه قبل أن يتحول الى كرة .

وفُتح الباب كما بهبة ريح ، وظهر ستيفاني دون سترة ، وأكمام ملفوفة حتى المرفق على ذراعين معقدين . والنظارات معسكرة بمتانة على أنفه الذي يشبه أنف العصفور . وكان يحمل جدول الأعمال الذي صوت عليه البارحة المؤتمر النقابي في بروكسل .

ونهض غالو بعد أن أخذ اللائحة من باجيس ووضعها باعتناء في ملف . وناقش الرجال الثلاثة لحظةً النص البلجيكي دون ان يهتموا بجاك . ثم تبادلوا انطباعاتهم حول أخبار النهار .

لا مشاحة في ان الجو هذا الصباح كان أقل توتراً . فأخبار أوروبا الوسطى تسمح ببعض الآمال . والجيوش النمساوية لم تكن قد اجتازت الدانوب. ووقت

التوقف هذا ، بعد سرعة تحركات النمسا لقطع العلاقات مع الصرب ، كان ذا مغزى حسب رأي جوريس . فأمام الارادة الحسنة التي أظهرها الجواب الصربي واستنكار الدول العام ، فان فيينا بالتأكيد كانت لا تزال مترددة في البدء بالعداوة . ومن ناحية أخرى فان التهديد بالتعبئة العامة الصادر البارحة عن المانيا وروسيا ، والذي أقلق المستشاريات جداً ، يبدو انه ، بعد كل حساب ، قد فُسّر تفسيراً أقل جنوحاً الى الشر : وفقاً لنظر البعض ، كان عملاً فعالاً بشكل ارادي مستوحى من رغبة صادقة في انقاذ السلام. وبالفعل، فانالنتيجة المباشرة بشرت بالخير : فقد حصلت روسيا من الصرب على تعهد بالتراجع دون حرب ، في حاله التقدم النمساوي : الأمر الذي يتيح ربح الوقت وايجاد صيغ للمصالحة دون شك .

وكان جاك قد تلقى معلومات متنوعة مشجعة بشكل كافٍ حول المقاومة الدولية . ففي ايطاليا ، فان النواب الاشتراكيين اضطروا الى الاجتماع فيميلانو لفحص الوضع وتوضيح الموقف السلمي للحزب الايطالي . وفي المانيا ، فان الاحتياطات النشيطة التي قامت بها الحكومة لم تتوصل إلى كمّ افواه قوى المعارضة : فقد كانت تُعَدّ مظاهرة كبرى ضد الحرب في برلين نهار غد . وفي فرنسا كلها فان الفروع الاشتراكية والنقابية قد أُنذرت بالخطر،دُرست خطط الاحزاب الاقليمية .

وجاء من يخبر ستيفاني ان غيسد ينتظره . ولما كان جاك يتعجله موعده فقد خرج من الغرفة معه ، ورافقه حتى مكتبه . وسأل :

– خطط اقليمية؟ .. لأجل امكان المساهمة في اضرابعام في حالة الحرب؟

فأجاب ستيفاني : – انه عام بالتأكيد .

ولكن النبرة وفقاً لما رأى جاك كان ينقصها شيء من الثقة .

كان مقهى « ريالتو » قائماً في شارع بوندي . وقد جعل جيران الاتحاد العام للشغيلة من هذا المكان مركزاً لجماعة من النقابيين العاملين بشكل خاص . وكان

على جاك ان يلتقي هناك بأثنين من مناضلي الاتحاد العام للشغل كان ريشاردلي رجـــاه ان يتصل بهما . احدهما كان مدرساً ، والآخر رئيساً قديماً لعمال المعادن .

ودام الحديث ما يقرب من ساعة ؛ ولم يفكر جاك بأن ينهيه – فقد شاقته جداً المعلومات التي حصل عليها حول الاساليب التي هي حاليـــا قيد الدرس للحصول على تعاون وثيق جداً بين فعالية المركز العام للشغل وفعالية الاحزاب الاشتراكية في معارضتهم المشتركة ضد الحرب – حين ظهرت صاحبة المقهى على باب الغرفة الخلفية المحفوظـة للاجتماع ، وصاحت كأنها تخاطب شخصا غير موجود :

– انهم يطلبون تيبو على الهاتف .

فتردد جاك بالنهوض . ليس هنـاك من تخطر له فكرة ملاحقته الى هنا . أيكون هناك تيبو آخر في القاعة ؟ ولما لم ينزعج أحد قرر الذهاب ليرى .

لقد كان باجيس . وتذكر جاك بالفعل انه حين ترك مكتب غالو أشار إلى موعده في شارع بوندي . وقال باجيس :

– من حسن الحظ اني عثرت عليك . فقد استقبلت رجلاً سويسرياً يريد أن يكلمك .. وهو يبحث عنك منذ البارحة في كل مكان .

– اي سويسري ؟

– رجل صغير ، قزم ذو شعر ابيض ، شاحب اللون .

– آه ! عرفت .. انه ليس سويسرياً . انه بلجيكي . اهو في باريس اذن ؟

– لم اشأ ان اقول له أين انت . وقد أشرت عليه أن يذهب حسب الصدفة الى مقهى « الهلال » في الساعة الواحدة .

فقال جاك لنفسه : « وزيارتي لجني ؟ » .. ثم قال على الأثر :

– كلا . لدي موعد في الساعة الواحدة ولا استطيع ابداً .

فقطع باجيس :

– كما تشاء . ولكن الأمر يبدو ضرورياً . لديه رسالة يريد ايصالها اليك من

مينستريل ... اخيراً ، أنبأتك . إلى اللقاء .

– شكراً .

وترك جاك مقهى « ريالتو » حائراً . لم يكن يستطيع التصميم على ارجاء زيارته لشارع الاوبسرفاتوار . ومع ذلك فقد تغلب العقل . قبل ان يذهب إلى الكاتب العدل دخل غاضباً إلى مكتب بريد وكتب برقية بعنوان جني يعلمها انه لا يستطيع أن يأتي إلى عندها قبل الساعة الثالثة .

كان مكتب بينو يشغل الطابق الاول من بناية جميلة في شارع ترونشيه . في أي ظرف آخر ، فان وقار الاستاذ بينو الشديد ، ومنظر المكان ، والاثاث ، والكتّاب ، والجو الكالح الغباري لمدفن الاوراق هذا ، كان بدا له هزلياً . وقد استقبل بشيء من الحفاوة . فهو الابن الوارث للمرحوم السيد تيبو؛ وهو زبون في المستقبل دون شك. فمن الغلام الساعي حتى رب العمل كان يسيطر احترام ورع للثروة المكتسبة . وقد جعلوه يوقع على اوراق . ولما كان يبدو متعجلاً للاستيلاء على هذا الرأسمال الضخم ، فقد حاولوا خفيةً ان يعرفوا ماذا يريد ان يفعل به .

وقال الاستاذ بينو وقد وضع يديه على رأس الاسدين الموجودين في نهاية ذراعي مقعده :

– من الواضح ان البورصة ،في اوقات الأزمة هذه ،تقدم فرصاً غير متوقعة ، لمن يعرف الاسواق جيداً ... ولكن من ناحية اخرى ، فان الاخطار ...

فقطع جاك الحديث واستأذن بالانصراف .

كان على مركز الصراف حمّى غير عادية تحرك المستخدمين وراء حاجز مكان عملهم . التلفونات ترن ، والأوامر تلقى بالصراخ . فساعة افتتاح البورصة قريبة وخطورة الوضع العام تبعث على الخوف من جلسة متقلبة . وكانوا يزيلون الصعوبات عندما طلب جاك ان يستقبله السيد جونكو بنفسه . واضطر إلى الاكتفاء بوكيل عنه . وما ان ابدى ارادته ببيع مجموع اسهمه حالاً حتى

اظهروا انه لم يحسن اختيار اللحظة المناسبة . وانه سيتحمل على مجموع العمليات خسارة كبيرة جداً .

فقال جاك : قليلا ما يهم !

كان يبدو مصمماً بحيث فرض عزمه على رجل البورصة . فلارتكاب جنون كهذا والبقاء هادئاً يجب بالتأكيد ان يكون هذا الزبون الغريب ذا مصادر سرية وهو يُعِدُّ ضربة معلم. الا ان الامر يحتاج إلى يومين تقريباً لتحقيق اوامر البيع هذه . ونهض جاك معلناً انه سيعود نهار الاربعاء،وانه يرغب في ذلك النهار ان تكون ثروته كلها نقداً في صندوق الصراف .

ورافقه الوكيل حتى الدرج .

كان فانهيد وحده جاثماً على المقعد الصغير ، بقرب الباب ، والمرفقان على الطاولة ، والذقن في الكفين ، وكان يطرف بعينيه مراقباً الداخلين . وكان يرتدي بزة غريبة من ملابس المستعمرات ، من القماش الكاكي ، ناحلة اللون كشعره ؛ ومع انهم معتادون في مقهى «الهلال» على الملابس الشاذة ، فانه لم يمر طي الخفاء .

وعندما رأى جاك اعتدل ، وتلون وجهه الشاحب فجأة . وظل لحظة دون ان يستطيع لفظ كلمة . وتنهد :

– اخيراً ...

– انت اذن في باريس يا صغيري فانهيد ؟

فردد الشاحب اللون بصوت مرتجف :

– اخيراً ... لقد بدأت اخاف بشكل رهيب يا بولتي ، اتعلم ؟

– لماذا ؟ ماذا جرى ؟

فجعل فانهيد يده كرفرف ليقي حدقتيه ونظر بحذر نحو الطاولات المجاورة:

وارتبك جاك وجلس إلى جانبه وحنى اذنه . وهمس الشاحب اللون :

– انهم بحاجة اليك .

فمرت صورة جنى امام عيني جاك. ورفع خصلة الشعر بعصبية وسأل بصوت مضطرب :

– في جنيف ؟

فهز فانهيد رأسه المشعث نفياً ، وبحث في جيبه واخرج من محفظته رسالة مختومة دون عنوان . وبينما جاك يفتحها بحمّى همس فانهيد :

– لدي ايضاً شي آخر لك . اوراق هوية باسم إيبرله .

كان الغلاف يحتوي على ورقة مزدوجة : على وجه الصفحة الاولى رسمت بضعة اسطر بخط ريشاردلي . والصفحة الاخرى بيضاء . وقرأ جاك :

« الربان يعتمد عليك. رسالة تلي. سنلتقي كلنا نهار الاربعاء في بروكسل ... صداقتنا ». – ر –

« رسالة تلي ... » كان جاك يعرف معنى هذه الصيغة . فالصفحة البيضاء تتضمن معلومات بالحبر السري .

– يجب ان اعود إلى المنزل لأفكّ رموز هذه ...

وادار الرسالة بملل بين اصابعه وسأل :

– ولو لم تجدني ؟..

فابتسم فانهيد ابتسامة ملائكية :

– ميتورغ معي . وفي حالة كهذه فهو الذي يجب ان يفتح الرسالة وينفذ كل شيء مكانك ... علينا ان نجد الآخرين نهار الاربعاء في بروكسل ... اذن فانت لا تسكن عند ليبرت في شارع البرناردين؟

– اين ميتورغ ؟

– يبحث عنك من ناحيته . ويجب ان اجده في الساعة الثالثة في شارع باربيس ، عند أوردنغ ، وهو احد مواطنيه ، وقد آوانا .

فقال جاك وهو يضع الرسالة في جيبه :

– اسمع افضّل ألاّ أسير بك إلى غرفتي : لا فائدة من لفت نظر حارسة البيت . ولكن كن انت وميتورغ في الساعة الرابعة والربع امام كشك القطار

الكهربائي في محطة مونبارناس ، أتعرفه ؟ وسأسير بكما إلى اجتماع شائق ، في شارع فولونتير ... وهذا المساء بعد العشاء سنذهب معـــاً الى ساحة الجمهورية للتظاهر .

بعد نصف ساعة كان جاك قد اقفل غرفته عليه واخذ يفك رموز الرسالة:

« كن في برلين نهار الثلاثاء في ٢٨ الجاري .

« ادخل في الساعة الثامنة عشرة الى مطعم أشنجر في ساحـــة بوتسدام . وستجد فيه تر. الذي سيعطيك ارشادات واضحة .

« وحالما تصبح هذه الارشادات في حوزتك ، اذهب الى بروكسل في أول قطار .

« اتخذ الاحتياطات الفائقة . يجب ألا يكون معك أية ورقة أخرى سوى الاوراق التي سيعطيكها ف .

« اذا قبض عليك لسوء الحـــظ واتهمت بالجاسوسية فاختر محاميا ماكس كرفن في برلين .

« قضية أعدّها تر. واصدقاؤه . وقد أصرّ تر. بوجه خـاص على العمل معك » ..

وقال جاك بصوت منخفض : اجل ، هوذا .

وفكر حالاً : « اكون نافعاً .. اعمل » !

كانت تعبق رائحة قلوية من الطست الذي غسل فيه الرسالة السرية . وقـد مسح اصابعه وجاء يجلس على سريره .

وقال محاولاً ان يظل هادئاً :

ـ لنر .. برلين .. غداً مساءً .. قطار الصباح لا يضعني هنـــاك بالسرعة الكافية لكي أكون في الساعة السادسة في مكان الموعد . يجب أن أذهب اليوم في قطار الساعة العشرين .. ومهـــما كان الأمر فلدي الوقت الكافي لرؤية جني .. حسنا .. ولكن المظاهرة تفوتني .

وكان يفكر ونفسه قصير قليـــلاً . في الحقيبة المفتوحة على الأرض يوجد

دليل . فأخذه واقترب من النافذة . كانت الحرارة تبدو له خانقة .

« لماذ لا اسافر عنـد اللزوم في عربة (اومينبوس) في الساعة الثانية عشرة والربع ليلاً ؟ .. ستكون الرحلة أطول ، ولكن هذا يتيح لي أن اكون هذا المساء في الشوارع » ..

كان يتصاعد من منزل مجـاور صوت امرأة خشن ومرتجف ؛ يجب أن تكون آخذة في كوي الملابس لأن طقطقة المكاوي على الموقـد كانت تقطع غناءها بين لحظة وأخرى .

« تر. انه تروتنباخ .. دون أي شك .. فأية دسيسة قد حاك ؟ ولماذا أراد أن اكون انا » ..

وجفف وجهه السابح بالعرق . كان متحمسا لما يأمله من العمل ، وللصفة الغامضة لهذه المهمة ، وللخطر الذي يمكن أن يتعرض له ، وكان يائسا لأن عليه أن يترك جني . وفكر : « ما داموا قد ضربوا لي موعداً نهـار الاربعاء في بروكسل ، فلا شيء يمنعني من العودة الى باريس نهار الخميس – اذا مر كل شيء على خير » .

وهدأته هذه الفكرة . ليس سوى غياب ثلاثة أيام .

« يجب اعلام جني حالاً .. ولدي الوقت الكافي اذا اردت ان اكون في الساعة الرابعة والربع امام محطة مونبارناس ..

ولما لم يكن متأكداً من امكان عودته الى غرفته قبـل رحيله ، فقد افرغ محفظة اوراقه ، وجعل من وثائقه الشخصية رزمة كتب عليها عنوان مينستريل ، عند أي حادث ، ولم يبق معه سوى اوراق إيبرله التي جاء بها فانهيد .

ثم سار الى شارع الاوبسرفاتوار .

٤٤

فتحت جني بسرعة حين رن الجرس كـأنها ظلت منذ البارحة مترصدة في المكان الذي تركها فيه .

وتمتم دون ان يلقي تحية الصباح :
– خبر سيء . يجب ان اسافر هذا المساء الى الخارج .
فتمتمت : تسافر ؟ ..
وشحب لونها وتفرست فيه . وبدا تعسا جداً لأنه سبب لها هذا الهم بحيث ارادت ان تخفي يأسها عنه . ولكن ان تفقد جاك من جديد فهذه تجربة فوق قواها . وأسرع يضيف :
– سأعود نهار الخميس ، أو الجمعة على أبعد تقدير .
فأبقت رأسها منخفضا ، وتنفست بعمق ، وعاد الى خديها شيء من اللون الوردي . وتابع جاهداً ليبتسم :
– ثلاثة ايام ! ليست بالوقت الطويل ، ثلاثة ايام .. ما دامت الحياة كلها امامنا لنكون سعيدين .
ورفعت نحوه نظراً خائفا مستفهما ، فقال :
– لا تسأليني شيئا . لقد كُلِفت بمهمة ، ويجب ان اذهب .
ولدى كلمة « مهمة » انطبع وجه جنى بطابع قلق بحيث ظن جاك أن من واجبه ان يطمئنها ، مع انه هو نفسه لا يعرف ماذا سيفعل في المانيا :
– الأمر يتعلق فقط بالاتصال ببعض رجال السياسة في الخارج ..وبما انني اتكلم لغتهم بسهولة ..
كانت تلاحظه بانتباه . فقطع الحديث واشار الى عدة صحف منشورة على الطاولة الموجودة في الدهليز .
– ارأيت ماذا يجري ؟
– نعم .
قالت موجزة ، وبنبرة تدل دلالة كافية على انها تعي الآن مثله خطورة الحوادث .
واقترب منها وامسك يديها وضمها وقبلها . واقترح وهو يدل باصبعه نحو غرفة دانيال :

– هيا الى **مكاننا** ، ليس لدي سوى بضع دقائق ، فلا نفسدها .
فابتسمت اخيراً وسارت امامه في الرواق .
– اليس هناك اخبار من والدتك ؟
فقالت دون أن تلتفت :
– كلا . امي يجب ان تصل الى فيينا في فتره بعد الظهر هـذه . ولا اعتقد اني سأتسلم برقية قبل غد .
في الغرفة كان كل شيء مهيأ لاستقباله . الستار المسدل يجعل النور مرحباً ، واعمال البيت قد قامت بها . ستائر على الزجـاج مكوية حديثاً وعلّقت في النافذة ؛ والساعة عاودت سيرها ، وعلى زاوية المكتب وضعت باقة من الجلبان المعرش .
كانت جني قد توقفت في وسط الغرفة ، وكانت تتأمل الشاب بنظرة مثابرة ، قلقة قليلاً . فابتسم دون أن ينجح في أن يحملها على الابتسام .
وقالت بصوت مضطرب :
– اذن . اصحيح ؟ بضع دقائق فقط ؟
فألقى عليها نظرة حنان ، مبتسماً ، متفرساً نوعاً . نظرة لم تكن ذاهلة ؛ بل كانت واضحة ، منتبهة ، ولكنها سببت لجني شعوراً خفيفـاً بالاضطراب النفسي . لقد شعرت ، منذ مجيء جاك ، ان هذه النظرة العميقة لم تنفذ حقيقة الى نظرتها كهذه المرة .
ورأى شفتي جني ترتجفان ، فأخذ يدها وتمتم :
– لا تدعيني أفقد شجاعتي .
فاعتدلت وابتسمت له ، وقال وقد أجلسها : حسناً .
ثم قال بصوت منخفض دون أن يوضح تسلسل افكاره :
– يجب الايمان بالنفس . حتى انه يجب عدم الايمان بشيء آخر سوى الايمان بالنفس .. ليس هناك حياة داخلية متينة الا لأولئـك الذين وعوا مصيرهم بوضوح وضحّوا له بكل شيء .

فتمتمت : نعم .

وتابع كأنه يكلم نفسه :

– يعي قواه !.. ويخضع لهـا . ولا يهم اذا رأى الآخرون ان هذه القوى سيئة .

فرددت وقد خفضت جبهتها من جديد : نعم .

في كثير من المرات كانت تفكر في هذه الايام الاخيرة كما تفكر في هـــذه اللحظة : « هذا شيء قاله ، ويجب ان اتذكره .. لأفكر فيه .. لأفهمه بصورة افضل .. » وظلت جامدة طوال دقيقـــة ، منخفضة الاهداب ، وكان يوجد كثير من التأملات على هذا الوجه المنحني. اضطرب جاك وصمت لحظة . ثم أضاف بنبرة مرتعشة ، مستمرة :

– ان احد الايام الحاسمة في حياتي سيكون اليوم الذي أدرك فيه ان ما فيّ من صفات رآها الآخرون معيبة ، وخطرة ، هي ، بعكس ذلك ، الأكثر إصالة في كياني .

كانت تصغي وتفهم ، ولكنها اصيبت بالدوار . منذ يومين ودعائم عالمهـا الداخلي تنهار واحدة أثر واحدة : وانحفر حولها فراغ لم تتوصل بعد إلى أن تملأه تلك القيم الجديدة التي تبدو احكام جاك كلها مرتكزة عليها .

وفجأة رأت وجه جاك يتهلل . وابتسم من جديد ولكن بشكل مختلف . فقد جاءته فكرة ، واستجوب الفتاة بعينيه :

– اسمعي يا جني ... ما دمت وحدك هذا المساء . لماذا لا تأتين لتناول العشاء معي ، في أي مكان ؟

فتأملته دون أن تجيب ، متميزةً من هذا العرض البسيط - غير العادي بالنسبة اليها . وأوضح :

– لست حراً قبل الساعة السابعة والنصف . ويجب أن اكون في الساعة التاسعة في ساحة الجمهورية ، ولكن اتريدين ان نقضي هذه الساعة الكبيرة معاً؟

– نعم .

وفكر جاك : ان لها طريقة خاصة بها . طريقة صلبة وعذبة معاً في قول « نعم » او في قول « لا » .

وهتف فرحاً :

— شكراً ، لن يتسع وقتي لأعود وآخذك .ولكن اذا استطعت أن تكوني في الساعة السابعة والنصف امام البورصة ؟

فوافقت باشارة من رأسها . ونهض .

— سأذهب الآن . إلى اللقاء القريب ..

فلم تحاول إبقاءه ، ورافقته صامتة حتى الدرج .

وحين بدأ الهبوط والالتفات في ابتسامة وداع اخيرةٍ حنون ، انحنت على الدرابزين ؛ وتجرأت فجأة وتمتمت :

— احب أن اتخيلك بين رفاقك .. في جنيف ؛ مثـلاً . فهناك يجب ان تكون انت نفسك .

— لماذا تقولين هذا ؟

فقالت وهي تبحث عن الكلمات :

— في كل مكان وحتى هنا ، كنت اراك . انك تبدو دائماً — كيف اقول ؟ انك في غير محيطك .

فوقف على الدرجات مرفوع الرأس ، وتأملها جدّياً وقال بحيوية :

— صححي خطأك . فهنـاك ايضاً اكون في غير محيطي .. في كل مكان أنا في غير محيطي . كنت دائمـاً في غير محيطي . وقد ولدت في غير محيطي ...

- وابتسم واضاف : — هذا الشعور بوجودي في غير محيطي يتركني .. قليلاً فقط حين اكون بجانبك .

وامّحت ابتسامته ، وبدا متردداً في قول شيء آخر .. ورسم حركة مبهمة بيده وابتعد .

وكان يفكر : « انها تامة ، تامة ولكن لا يمكن فهمها » . ولم يكن هـذا لوماً : فالجاذبية التي كانت جني تمارسها عليه في كل وقت ، الم تكن في قسم منها

ناشئة عن هذا الغموض ؟

ودخلت جني إلى البيت ، وظلت بضع دقائق واقفة امام الباب المقفل ، مصغية إلى الخطوات التي كانت تبتعد . وقالت لنفسها فجأة : « آه ! كم هو معقدا ! » ولم تكن هذه حسرة : كانت تحبه كلياً وتحب حتى ذلك الشعور بالذعر المبهم الذي يتركه وراءه كأثر سفينة ، كطابع .

٤٥

كان مكان اجتماع فوجيرار في القاعة الخاصة في « مقهى غاريبالدي » ، شارع فولونتير .

وقد قدم جاك فانهيد وميتورغ فاستقبلا كمفوضين للحزب السويسري وجلسا في الصفوف الأولى .

وجيبوان الذي كان يترأس الجلسة اعطى الكلام لكنيبردنك . وكان خطاب العالم النظري العجور مكتوباً باللغة السويدية ، ولكن تأثيره اجتاز منذ وقت طويل حدود البلدان الشمالية ، وكتبه الكثيرة الخطورة تُرجمت ، وكثير من الحاضرين كانوا قد قرأوها . وكان يتكلم فرنسية مضبوطة . وجسده المرتفع المتوج بشعر ابيض جداً ، وسطوع نظرته التي تشبه نظرة رسول كانا يضافان إلى خطورة افكاره. كان ينتمي إلى بلد مسالم ومحايد بشكل اساسي، حيث النزعه القومية المهتاجة للدول الرئيسية في القارة كانت تثير القلق وعدم الاستحسان منذ وقت طويل . وقد عالج الوضع الأوروبي بوضوح حازم. وكان خطابه الحار المدعم بالوثائق يقاطع بالهتافات دون انقطاع .

وكان جاك ذاهلا . يستمع بشكل سيء . كان يفكر بجني . وكان يفكر ببرلين . وما ان انهى كنيبردنك خطابه بنداء مؤثر للمقاومة ، حتى نهض دون ان ينتظر المناقشة العمومية ؛ واقلع عن السير بفانهيد وميتورغ الى «الليبرتير» ، فأعطاهما موعداً لاجل مظاهرة المساء .

في ساحة المسرح الفرنسي ، وقــد رأى الساعة ، غير مشاريعه . كانت

مونمارتر بعيدة . من الافضل الاقـــلاع عن زيارته « لليبرتير » والعودة إلى جريدة « الانسانية » ليعلم درجة حرارة بعد الظهر .

بوصوله إلى شارع الهلال شاهد على الرصيف مورلان العجوز في بلوزة عامل طباعة يخرج من الجريدة مع ميلانوف. فسار معهما بضع خطوات .

وكان جاك يعلم ان ميلانوف يرعى علاقات مع الاوساط الفوضوية . فسأله اذا كان ينوي حضور مؤتمر لندن في نهاية الاسبوع . فأجاب الروسي بايجاز :

– لا يمكن ان يأتي من هناك شيء نافع .

فلاحظ مورلان :

– ومع ذلك فالمؤتمر لا يبشر بالخير . ما من شخص يهتم بأن يُكتشف في هذه الفترة. انهم يختبئون في الأرض .. في دائرة الشرطة ، وفي وزارةالداخلية يلقون شباكهم الآن : انهم متعجلون كما يبدو لاخراج الدفتر : ب !

فقال ميلانوف : دفتر ماذا ؟

– لائحة جميع المشبوهين . فعندما تفسد الأمور قليلاً يجب أن تكون مصيدتهم جاهزة ..

وسأل جاك مشيراً إلى نوافذ جريدة « الانسانية » .

– وهناك فوق ، ماذا يقال هذا المساء ؟

فهز مورلان كتفيه . كانت آخر البرقيات مثبطـة للعزائم .

بسبب عدم رصانة مرسل خاص لصحيفة التايمس ذي معلومات حسنة ، فقد عُلم من بطرسبورج ان القيصر سمح بتحريك أربعة عشر فيلقاً موجودين على الحدود النمساوية : انـه جواب على الانذار الالماني . فروسيا ليس فقط لم تترك الخوف يتسرب اليهـا كما املوا ذات لحظة ، ولكنها أصبحت هجومية بشكل مكشوف : لقد هددت الحكومة الروسية باصدار الامر حالاً بالتعبئة العامة اذا سمحت المانيا لنفسها بتعبئة ولو جزئية . وبواسطة برقيات من برلين اصبح معروفاً انحكومة القيصر الالماني تركت كل حذر وأخذت تعمل بفعالية في التعبئة . وقد استُدعي رئيس الأركان دي مولتكه على الفور . وكان قـد

جرى إعلام الجمهور الالماني بواسطة الصحافة الرسمية عن قرب وقوع الحرب . وقد نشرت صحيفة « برلينر لوكالانزيجر » دفاعا طويلاً عن الانذار النمساوي ونادت بسحق الصرب . وفي برلين ، منـــذ الصباح الباكر ، تعرضت شبابيك المصارف كما يبدو لهجوم اصحاب الودائع الذين اصابهم الذعر .

وفي فرنسا فان المصارف حوصرت ايضاً . وفي ليون وبوردو ، وليل خلق نقصان الاحتياطي للمصارف وضعية صعبة . وفي بورصة باريس بعد ظهر اليوم حدثت فتنة حقيقية : سمسار نمساوي اتهم بانه احدث هبوطاً في الدخل . وقد اخلى مدير الشرطة الرواق . وبذل افراد الشرطة جهداً كبيراً ليمنعوا جمهوراً مجنوناً من ان يثخن النمساوي بالجراح . وكان الحادث مضحكاً ولكنه يدل على غليان النفوس الحربي .

وسأل جاك :

– وفي البلقان ؟ الم تقم الجيوش النمساوية باجتياز الحدود الصربية ؟

فقيل : بعد .

ولكن وفقــاً لآخر البرقيات فان الهجوم تأخر هذا النهار ، ويجب أن يتم ليلاً . وأوضح غالو ، وفقاً لمصدر وثيق ، ان التعبئة العامة النمساوية قد قررت فعلاً ، وسيصدر الامر بها غداً وتنفذ بعد ثلاثة أيام .

وقال مورلان :

– عندنا ، الضباط في اجـــازة ، والجنود مأذونون ، ومستخدمو السكك الحديدية ومستخدمو البريد في عطلة . وقد دُعوا تلغرافيا . وبوانكاريه كان قدوة : فقد عاد دون تمهل ، وسيكون نهار الاربعاء في دنكرك .

فقال ميلانوف :

– بمناسبة رئيسكم بوانكاريه .

وردد حكاية ذات دلالة كانت منتشرة في فيينا : ففي يوم ٣١ تموز ، عند استقبال الجسم الدبلوماسي في قصر الشتاء ، القى رئيس الجمهورية بصوته القاطع على سفير النمسا هذه العبارة التي احدثت تأثيراً : « ان للصرب اصدقاء حميمين

في الشعب الروسي يا حضرة السفير . ولروسيا حليف ، فرنسا ! »

فتمتم جاك مفكراً بستودلر :

– دائماً سياسة التهويل !

واقترح ميلانوف الذهاب إلى مقهى « التقدم » بانتظار ساعة المظاهرة ، ولكن مورلان رفض ، وقال بنبرة متعجرفة :

– كفى ثرثرة هذا المساء .

وقال له جاك حين تركهم ميلانوف .

– اني اطلب منك خدمة . فقد تركت في غرفتي في شارع دي جور رزمة مربوطة تحتوي على اوراق خاصة . فاذا حدث لي حادث في هذه الايام ، فهل تريد ان توصلها الي جنيف ، الى مينستريل ؟

وابتسم دون ان يزيد . وتفرس به مورلان بضع ثوان ولكنه لم يُلق اي سؤال ، ووافق باشارة من رأسه . وحين افترقا أبقى يد جاك لحظة بين يديه وقال :

– حظ سعيد .. (لأول مرة تمالك عن مناداته بكلمة « غلام ») .

وعاد جاك إلى الصحيفة . ولم يكن قد بقي له سوى نصف ساعة على موعد جني .

وخرج جماعة من الاشتراكيين من مكتب جوريس عرف من بينهم كاديو ، وكومبير – موريل ، وفابان ، وسامبا ؛ ورآهم يدخلون إل عند غالو ، فدار نصف دورة وراح يطرق باب ستيفاني الذي وجده وحده ، واقفاً ، منحنياً على طاولة ملأى بالصحف الاجنبية .

كان ستيفاني كبيراً وهزيلاً ، بجوف الصدر ، والكتفان مروسان . ووجهه الطويل المحاط بشعر شديد السواد كان قد أتلفه التشنج العضلي الذي يكسبه احياناً هيئة معتوه . لقد كان رجلاً ذا فعالية مفترسة ، جنوبية (كان من آفينيون) . أغريجه بالتاريخ ، وقد علّم بضع سنوات في الريف قبل أن يكرس نفسه للكفاح الاجتماعي ؛ وأولئك الذين كان لهم استاذاً لم ينسوه .

وقد أدخله جول غيسد إلى جريدة « الانسانية » . وكان جوريس يعتبره دون ان يحبه، لأنه ذو صحة متينة بعيدة عن الطبائع المرَضية ؛ وقد تركه يحتل في الجريدة مركزاً في الصف الأول ، وأوكل اليه المهام الصعبة .

كان مكلفاً هذا المساء ، بصورة خاصة ، ان يظل على اتصال بجماعة من الاشتراكيين في البرلمان ، وباللجنة المركزية في الحزب . وكان جوريس يحاول اثارة اعتراض رسمي يقوم به البرلمانيون الاشتراكيون ضد كل تدخل مسلح من جانب روسيا ؛ فضاعف مساعيه في الكه دورسي للحصول على ان لا تكون باريس قضية مشتركة من بطرسبورج ، وان تحتفظ بكل حريتها في العمل لكي تستطيع ان تمارس في اوروبا دور الحكم الداعي إلى السلام .

وقد اجرى ستيفاني حديثاً طويلاً مع المعلم ، ولم يخفِ عن جاك انه وجده متوتر الاعصاب بشكل غير مألوف . لقد عزم جوريس على أن يحمل عدد الغد من « الانسانية » هذا العنوان التهديدي : « ستبدأ الحرب هذا الصباح » .

وقد كتب مع ستيفاني مشروع بيان يؤكد فيه الحزب الاشتراكي امام العالم الخارجي ، ارادته السلمية باسم جميع الشغيلة الفرنسيين. وقد حفظ منه ستيفاني عبارات بكاملها ، تلاها بصوته المغني وهو يذرع الغرفة الضيقة، وعيناه الصغيرتان ، بنظرهما الذي يشبه نظر العجوز ، كانتا تروحان وتجيئان وراء نظارتيه ، وانفه العظمي الاعقف كان يبرز كالمنقار . وألقى وهو يرفع ذراعه :

– **ضد سياسة العنف فان الاشتراكيين يوجهون النداء الى البلاد بكاملها.**

والحاجة التي كان يشعر بها هذا المساء ، ليقوي ثقته وهو يردد معدداً هذه التصريحات المشجعة ؛ كانت ظاهرة ومؤثرة .

وتلقوا في النهار نصاً مماثلاً اصدره اشتراكيون المان وترجمه جوريس بنفسه ، يساعدة ستيفاني : « الحرب فوق رؤوسنا ! نحن لا نريد حرباً : تعيش المصالحة الدولية . البروليتاريا الواعية في المانيا ترفع احتجاجاً ملتهباً ، باسم الانسانية

والمدنية .. انها تدعو الحكومة الالمانية بالحاح إلى استعمال نفوذها على النمسا لحفظ السلام . وإذا كانت الحرب الرهيبة لا يمكن منعها ، فانها تطلب ان تظل المانيا كلياً خارج النزاع » .

وكان جوريس يرغب في اعلان البيانين معاً في منشورين متشابهين بألوف النسخ ، في كل باريس ، وفي كل المدن الكبرى ، وبأسرع ما يمكن ؛ وكانت المطابع الاشتراكية ، منذ تلك الليلة قد سخرت لهذا العمل .

وقال ستيفاني .

– في ايطاليا يقومون بعمل جيد . فجماعة النواب الاشتراكيين المجتمعين في ميلانو صوتوا على جدول اعمال طالبين اجتماعاً غير عادي وعاجلاً لمجلس النواب الايطالي لارغام الحكومة على التصريح علناً ان ايطاليا لن تتبع حلفاءها في الحلف الثلاثي (تريبليس) .

وبحركة نشيطة اخذ ورقة عن الطاولة :

– هذه هي ترجمة البيان الاشتراكي الذي نشر في صحيفة موسوليني (الأفانتي) : « ليس لايطاليا سوى موقف تتخذه : الحياد ! الا تتألم البروليتاريا الايطالية من ان تقاد من جديد إلى المسلخ ؟ يجب أن ترتفع صرخة بجمعٌ عليها : لتسقط الحرب ! لارجل ! ولا سنتيم ! ».

هذه الترجمة يجب أن تظهر غداً في الصفحة الأولى من جريدة « الانسانية » وتابع :

– نهار الاربعاء في بروكسل ، لن يكون اجتماع للمكتب الاشتراكي الدولي فقط ، بل ايضاً هناك اجتماع كبير في المساء للاحتجاج برئاسة جوريس ، وبرئاسة فاندرفيلد عن بلجيكا ، وهاز ومولكنبوهر عن المانيا ، وكيرهاردي عن انكلترا ، وروبانوفيتش عن روسيا ... وهذا سيكون عظيماً .. ففي جميع البلدان ، فان المناضلين المستعدين مدعوون للقيام بالرحلة لكي يصبح هذا الاجتماع مظاهرة اوروبية كبرى . يجب اظهار البروليتاريا في العالم بكامله انه تقف معارضةً لسياسة الحكومات .

كان يروح ويجيء مشنجاً انفه، مقاصاً شفتيه، يلتهمه العجز، ولكنه صامد ويرفض أن ييأس.

وفتح الباب ليفسح ممراً لمارك لوفوار. كان محمر الوجه هائجاً. وما كاد يدخل حتى سقط على كرسي.

– اصبح الامر يدعو الى التساؤل اذا لم يكن الجميع يريدونها..

– الحرب؟

كان عائداً من الكه دورسي يحمل منها خبراً غريباً: يقال أن السيد شون سوف يأتي ليعلن انه يعد بالحصول من النمسا على تعهد قطعي بأن سلامة الاراضي الصربية ستكون محترمة، وذلك ليقدم لروسيا عذراً مشرفاً لتقلع عن تشددها. وسيقترح السفير بعد ذلك على الحكومة الفرنسية ان تنشر في الصحف تصريحاً رسمياً لتبيان ان فرنسا وألمانيا «متضامنتان تضامناً كلياً بالرغبة الحارة بعدم قطع السلام». وانهما يعملان باتفاق ويضاعفان في بطرسبورج نصائحهما بالاعتدال. والحكومة الفرنسية، تحت تأثير برتلو، سوف ترد هذا الاقتراح وترفض أن تعلن عن وجود أقل تضامن مع المانيا، خوفاً من إثارة قابلية التأثر عند الحليف الروسي.

واختتم لوفوار:

– ما ان تقترح المانيا اي شيء حتى تصرح الكه دورسي: «هذا فخ!». وقد دام هذا اربعين سنة.

واستقرت عينا ستيفاني الصغيرتان على لوفوار بتعبير قلق. وبدا وجهه الاصفر انه ازداد امتداداً كما لو أن لحم الخدين الجيلاتيني يخضع لثقل الفكين. وتمتم:

– ومما يدعو للذعر هو ان هناك سبعة او ثمانية في أوروبا – وربما عشرة – يصنعون التاريخ فيما بينهم. وإني افكر بالملك لير [1]: «ملعون هو العصر

١ – الملك لير: بطل مسرحية لشكسبير بهذا الاسم.

الذي يكون فيه قطيع من العميان تحب قيادة قبضة من المجانين ! »
وقال فجأة وهو يضع يده على كتف لوفوار :
- يجب إخبار المعلم .
وظل جاك وحده فنهض .. لا يزال لديه وقت ليذهب لملاقاة جني. «وغداً مساءً اكون في برلين .. » لم يكن يفكر بمهمته إلا في فترات ؛ ولكن كل مرة يكون ذلك بارتعاشة سرور يمازجها شيء من القلق : الخوف من ان لا يتم على خير وجه ما ينتظر منه .

٣٦

لم تكن ساعة البورصة تسجل النصف حتى كانت جني هناك . ورآها جاك من بعيد وتوقف . كانت القامة الدقيقة تنفصل جامدةً امام السياج الحديدي المقفل ، في رواح ومجيء باعة الصحف ومستخدمي الاوتوبيس . وظل دقيقة طويلة على حافة الرصيف يتأملها . وقد استعاد تأثراً قديماً جداً بأن يفاجئها هكذا ، في وحدتها.ففي السابق ، في ميزون - لافيت ،لكي يلمحها لحظة ، كان يأتي في أغلب الأحيان ليطوف حول حديقة آل فونتانان . وتذكر فترة بعد الظهر ، حيث رآها بثوب ابيض ، تخرج من ظل الصنوبر وتجتاز شعاع الشمس الذي احاطها بهالة من النور وكأنه رؤيا ...
في هذا المساء لم تكن تعتمر خمارها الاسود . كانت ترتدي بزة سوداء تجعلها اكثر رقة . وفي طريقتها بارتداء الملابس ، كما في سلوكها ، لم تكن تخضع لرغبة الارضاء . لم تكن تبحث عن الاستحسان الا في نفسها (كانت كثيرة العنفوان فلا تهتم بحكم الغير ، وكثيرة التواضع لتفكر ان الآخرين يمكن ان يهتموا باصدار حكم عليها) . كانت تحب الملابس ذات التفصيلة القنوع ، العملية بضبط ، الانيقة : ولكنها اناقة جافة قليلاً ورصينة مصنوعة خصوصاً من البساطة ومن السمة الطبيعية .
حين اقترب منها ارتجفت وتقدمت نحوه مبتسمة . لانها كانت تبتسم الآن

دون كثير من الجهد : أو بصورة أصح ، فان ارتعاشة حائرة تبعث الرجفة في زاوية الشفتين ، بينما يتأجج ألق صغير في اعمــاق عينيها الصافيتين كان جاك يعرف ان يلتقطه عند عبوره – الأمر الذي كان ينفخ قلبه بالفرح كل مرة .

وتصدى بشيء من المناكدة :

– حين تبتسمين تبدو هيئتك انك تؤدين حسنة .

– صحيح ؟

لم تستطع ان تنكر شعورها بانها جرحت قليلاً في كبريائها . الا انها قالت لنفسها انه على حق؛ وكانت على وشك المزايدة ! «صحيح ان لي قسمات جامدة، خشنة » . ولكنها كانت دائماً تكره التكلم عن نفسها .

وتنهد فجأة :

– كل شيء يسير من سيء إلى أسوأ . كل حكومة تكابر وتهدد .. وتحاول ان تكون هي الأكثر تشدداً .

منذ وصول جاك لاحظت جني وجهه المتعب المهموم . فاستجوبته بالنظر ليوضح الاخبار . ولكنه هز رأسه باصرار :

– كلا ، كلا.. لن نتكلم بشيء.. ما الفائدة ؟ كفى .. ساعديني،بالعكس، على نسيان كل شيء اثناء هذه الساعة من الاستراحة .. اني اقترح عليك ان نتناول العشاء في الحي حتى لا نضيع الوقت .. اني لم اتناول غدائي . واشعر بجوع مخيف .. تعالي .

قال ذلك وهو يسير بها . فتبعته ، وكانت تفكر : « لو ان امي أو دانيال رأيانا » . ان هذا الهروب الثنائي اكسب على حين غفـــلة مودتها التي لا يزال الجميع يجهلونها ، نوعاً من التكريس المادي الذي كان يبعث فيها الاضطراب كطفل ارتكب هفوة .

– ولماذا ليس هنا ؟

قال وهو يدلها ، في زاوية شارعين ، على مطعم ذي مظهر حقير ، واجهته مفتوحة بشكل واسع على الرصيف بحيث تتيح رؤية بضع طاولات ذات

اغطية بيضاء .

— سنكون هنا باطمئنان ، الا تعتقدين ذلك ؟

واجتازا الطريق ، وقطعا معاً عتبة القاعة الصغيرة التي كانت باردة ومقفرة تماماً . وفي الداخل ، ومن باب المطبخ الزجاجي ، يشاهد من الظهر امرأتان جالستان الى طاولة تحت قنديل معلق ومضاء . ولم تلتفت اية واحدة منهما .

وألقى جاك قبعته على المقعـــد الصغير بحركة متعبة ، وتقدم نحو الداخل لاجتذاب انتباه القائمتين على المطعم . وصبر دقيقة وهو واقف ، جامـــد ، ورفعت جني عينيها نحوه . وفجأة ، فان هذا الوجه الهرم ذا النتوءات المشوهة بشكل غريب بفعل نور المطبخ ، بدا لها وجه انسان مجهول ، وشعرت كأنها مصابة بكابوس ، شعرت بذعر فتاة اجتذبها سارق اطفال إلى مكان مشؤوم .. وهذا الدوار لم يدم سوى ثانية ؛ فقد عاد جاك نحوها ، وأعاد اليه انتقال الظلال وجهه الحقيقي .

وقال وهو يسهل عليها الوصول إلى المقعد :

— إجلسي . كلا . إجلسي هنا فلا يكون الضوء في عينيك .

لقد كان ذلك بالنسبة اليها احساساً جديداً بان تشعر ان هنـاك من يسهر عليها بهذه العناية الرجولية ، واستسلمت إلى ذلك بلذة .

وفي المطبخ ، فان صغرى المرأتين ، وهي فتاة ضخمة ، مسترخية ، بفتحة ثوب وردية ، الشعر مغروس بشكل منخفض على جبهة عِجْلة ، نهضت اخيراً وجاءت اليهما بسحنة شرسة لحيوان أُزعج في ساعة طعامه .

وسأل جاك بنبرة بشوش :

— انستطيع ان نتعشى يا آنسة ؟

فقاسته الفتاة وقالت : هذا يتوقف ..

وكانت عينا جاك تروحان وتجيئان بمرح من الخادمة الى جني .

— هل عندك بيض ؟ نعم ؟ وشيء من اللحم البارد ؟

فسحبت الفتاة ورقة من صدرها :

– هذا هو الموجود .

قالت ذلك وكأنها تقول : « إما ان تأخذا وإما ان تتركا » .

وبدا مزاج جاك الرائق غير متزعزع . فصرح بعد أن قرأ اللائحة بصوت مرتفع واستشار جني بنظره : ممتاز .

فدارت الخادمة على أعقابها دون كلمة . وتمتم جاك :

– طبيعة فاتنة .

وجلس ضاحكاً تجاه جني .

ثم نهض بعد قليل ليساعدها على خلع سترتها . وكانت تفكر : « لو كنت خلعت قبعتي ايضاً ... كلا سأكون مشوشة الشعر » . وشعرت فجأة بخجل من هذه الفكرة المفناجة ، ونزعت قبعتها بحركة ارادية ، وامتنعت حتى عن إمرار يدها على شعرها .

وظهرت الفتاة ذات الوجه المتذمر من جديد بوعاء شورباء يتصاعد منه الدخان . فهتف جاك وهو يأخذ المغرفة من يديها :

– برافو يا آنسة ! انك لم تخبرينا عن الشورباء .. انها تتضوع طيباً – والتفت نحو جني – سأقوم بخدمتك .

كان مرحه زائفاً . فهذه الوليمة الاولى لوحدهما كانت تخيفه اكثر من الفتاة تقريباً . ولم يتوصل الى التخلص من شواغل النهار .

وهناك مرآة زرقاء موضوعة وراء جني كانت تضاعف كل حركة من حركاتها وتتيح لجاك أن يشاهد ، فيما وراء الجذع الحي الموجود امامه ، الصورة البديعة للكتفين والرقبة .

وشعرت أنه يتفحصها فقالت فجأة :

– جاك .. اني اتساءل .. اذا كنت تعرفني جيداً .. هذا رهيب . الم تتخيل كثيراً من الاوهام عني ؟

وابتسمت لتخفي القلق الحقيقي الذي استولى عليها منذ أن تساءلت : « هل اتوصل الى أن اصبح كما يتمنى ان اكون ؟ الست مقضياً علي أن اخيب أمله ؟ » .

وابتسم بدوره :

– واذا سألتك انا ايضاً : « هل تعرفينني جيداً ؟ ... » بماذا تجيبين ؟

فترددت لحظة .

– اعتقد اني سوف اجيب : كلا .

فاجاب وهو دائم الضحك :

– ولكنك في الوقت نفسه سوف تفكرين : « هذا لا أهمية له مطلقاً » . وستكونين على حق .

فاقتنعت بذلك بانحناءة رأس ، وفكرت : « نعم ، هذا لا أهمية له . هذا يحدث من تلقاء نفسه . انها فكرة تشبه فكرة الأهل الذين كانوا لي هناك ! » .

وقال بقوة :

– يجب أن يكون لدينا ثقة بأنفسنا .

فلم تجب . وكان يلاحظها بريبة قلق . ولكن تعبير السعادة الذي كان في هذه اللحظة يغير هيئتها كان أدعى جواب إلى الاطمئنان .

وانتشرت في القاعة رائحة زبدة حارة . فقال جاك :

– هذا هو القنفذ Le porc-épic .

والخادمة ذات فتحة الثوب الوردية جاءت بالعجة ، فهتف جاك :

– إلى شحم الخنزير . مدهش ! أأنت التي تقومين بالطبخ يا آنسة ؟

– سيدة !

– تهنئتي !

فتنازلت وابتسمت . واتخذت هيئة متواضعة .

– اوه ! انت تعلم ، هنا ، العشاءات بسيطة .. في الصباح يجب أن تأتي . عند الظهر لا تجـــد طاولة فارغة . ولكن في المساء . فالمكان هادىء .. من ناحية العشاق ..

فتبادل جاك وجني نظرة لاهية . وبدا بالحقيقة انه تعزى لأنه ازال غضون هذا الوجه الكريه . وقال بفرقعة استحسان من لسانه :

– يا لها من عجة !

فأخذت الفتاة تضحك هذه المرة بفعل الاطراء . وتمتمت وهي تنحني كأنها تلقي سراً :

– انا ، اقوم بشغلي دون أن أطلب شيئاً من احد ، واعتمد على ذوي الخبرة .

وغمست قبضتها في جيبي مريلتها ، وابتعدت وهي تدير خصرها .

وسأل جاك ضاحكاً :

– هل يجب أن نعتبر هذا كإطراء رصين ؟

كانت جني لاهية ، تفكر . هذا المشهد الصغير ليس شيئاً . مع ذلك فقد اكتشفت فيه اشياء مدهشة . من المؤكد أن جاك يملك موهبة بعث نوع من الحرارة ؛ ويخلق ابتسامة بكلمة ، وبالاهتمام الذي يوليه للكائنات يخلق جو ملائمة لخلق الثقة ، والتعاطف . وكانت جني تعرف ذلك اكثر من أي شخص : فالطبائع الاكثر جموحاً والأكثر انغلاقاً تتفلت ، بالقرب منه ، من اضرار سحرها ، وذلك بأن تتبسط ، وتتفتح . ولكن ما من شيء كان يدهشها كهذه الموهبة ! بعكس جاك ، بعكس دانيال ، لم يكن لديها أي فضول للغير . كانت تعيش سجينة في عالمها . منتبهة قبل كل شيء للحفاظ على صفاء جوها ، كانت تسعى ايضاً للاحتفاظ بمسافة بينها وبين القريب منها ، وان لا تقدم للاحتكاك بالناس سوى سطح أملس لا يستطيع أن ينهشه شيء.وتقول وهي تفكر بأخيها : « ولكن هذا الفضول الذي يدفع جاك نحو اي كائن حي ، اليس له ، كمعاكس له ، شيء من الاستحالة لتركيز اختياره ؟ » .

وسألت بغتة :

– هل أنت قادر على التفضيل ؟ هل انت قادر على الارتباط بكائن اكثر من ارتباطك بجميع الآخرين ؟ والى الأبد ؟

وأدركت حالاً كم كانت عبارتها غامضة وخرقاء . فاحمرت خجلاً ، ونظر اليها مندهشاً ، محاولاً معرفة تداعي الافكار ! وردد السؤال ، راغباً قبل كل

شيء ان يجيب عليه بامانة . لأن الاثنين كانا يشعران ، وبطريقة شبه خرافية، ان خداع احدهما للآخر مهما كان قليلاً يعني تدنيساً لقدسية حبهما .

وكاد يقول : « قادر على الارتبــاط بكائن ؟ وصداقتي لدانيــال ؟ » ولكن المثل كان مغشوشاً لأن ذلك الارتباط لم يتفلت من عوامل الزمن . فاعترف بشيء من النشوفة :

– حتى الآن ، من الممكن ان لا .

ثم أضاف بخشونة أكثر :

– ولكن ماذا ؟ هل هذا سبب للشك ؟

فتمتمت بسرعة :

– اني لا أشك .

ودهش من هيئتها الدالة على الشقاء . وخطرت بباله ، بعد فوات الاوان ، الاحتياطات التي تتطلبها هذه الحساسية المتناهية . وأراد ان يضيف شيئاً ، فتردد . وبما ان الخادمة جلبت بقية الطعام فقد اكتفى بتوجيه ابتسامة مداعبة إلى جني ، كانت بشكل ظاهر طلباً للصفح عن قساوته .

وكانت تلاحظه . هذه السرعة التي ينتقل جاك بموجبها من طرف إلى آخر كانت تخيفها كأنها خطر ، ولكنها تبعث فيها النشوة ايضاً دون ان تعرف لماذا. ايمكن انها وجدت فيها الدليل على تفوق في القوة ؟ وفكرت بكبرياء حنون : « حبيبي البربري ... » واختفى الظل الذي كان يجهم وجههـا ؛ وشعرت من جديد ان ذلك اليقين بالسعادة الذي قلب كيانها وجدده منذ يومين قد نفذ اليها .

وحين تركت الفتاة القاعة قال جاك مقرراً :

– كم ان ثقتك لا تزال واهنة !

لم يكن في لهجته اقل لوم : لا شيء سوى الأسف ، وتوبيخ الضمير ، لانه لم يكن ينسى ان موقفه الماضي يبرر كل حذر من ناحية جني .

وحزرت وسواسه حالاً فقالت بسرعة محاولة ابعاد كل ذكرى مرة: – ذلك

لانني ، كما ترى ، غير مُعَدّة جيداً للثقة ... ولا اذكر ابداً اني عرفت ... (كانت تبحث عن اللفظة . وجاءت إلى شفتيها كلمة من جاك) الطمأنينة . حتى وانا طفلة .. لقد خُلقت هكذا .. - وابتسمت : - او على الاقل ، كنت كذلك ... - ثم اضافت بصوت منخفض وهي تخفض عينيها : - اني لم اعترف بهذا لأحد ابداً .

وتلقائياً ، بعد نظرة قصيرة نحو باب الخدمة ، مدت من فوق الطاولة يديها نحو جاك ؛ يدان ناعمتان ، عاريتان ، كانتا ترتجفان . ووعت نفسها كلياً . ولم تكن ترغب الا ان تزيد من استسلامها ، ان تتلاشى وتذوب فيه . وتمتم :

- كنت مثلك ... وحيداً ... دائماً وحيداً ، ودائماً قلقاً .

فقالت وهي تسحب يديها بهدوء :

- اعرف ذلك .

- تارة كنت اعتقد نفسي اسمى من الآخرين، وانتشي بالكبرياء ، وطوراً اجد نفسي ابله جاهلا ، قبيحاً فأموت من الخزي .

- مثلي تماماً .

- دائماً غريباً .

- مثلي .

- محاطاً بخصوصياتي .

- وأنا ايضاً . دون امل ان اخرج منها ، ولا ان اصبح شبيهة بالاخريات .

وتابع باندفاعة عنيفة من الشكران :

- وإذا كنت في بعض الأحيان لم أيأس تماماً من نفسي ، فهل تعلمين لمن انا مدين بذلك ؟

ومرة ثانية امّلت فيها بجنون ان يقول : « لك » ولكنه قال :

- لدانيال ! كانت صداقتنا هي تبادل ثقة قبل كل شيء . ان محبة دانيال وثقته هما اللتان انقذتاني .

فتمتمت :

– مثلي ، مثلي تماماً . لم يكن لي صديق آخر سوى دانيال .
ولم يتعبا من أن يصرح واحدهما للآخر بأفكاره ، واحدهما بواسطة الآخر، وينظران إلى بعضهما البعض حتى في اعماق العينين ، نظرة شرهة ومنتشية .
كان كل منهما ينتظر ، كاقرار ، كشهادة قطعية على تفاهمهما ، ان تجيب ابتسامة الآخر على ابتسامته . انه لمدهش . وانهـا لأعجوبة لذيذة ان يشعر احدهما ان حدس الآخر قد نفذ اليه بسهولة وأن يكتشفا انهما شبيهان ! وكان يبدو لهما ان تبادل الأسرار هذا لا ينضب ، وان لاشيء في العالم ، في هذه اللحظة ، اكثر اهمية من هذا البحث المزدوج .
واضاف بعد تفكير :
– نعم ، اني مدين لدانيال بعدم هلاكي .. وكذلك لإنطوان .
وظهر برود لاارادي على وجه الفتاة ، أبصره حالاً ، فقلق وسألها بنظره. وأخيراً سأل مستعداً للانطلاق في خطاب مديح لانطوان :
– أتعرفين أخي جيداً ؟
فأوشكت ان تعترف : « اني أكرهه » ولكنها قالت فقط :
– لا أحب عينيه .
– عينيه ؟
كيف تصيغ فكرتها دون ان تجرح جاك ؟ الا انها لم تكن تريد ان تخفي عنه شيئاً ؛ حتى ما يمكن أن يكون مؤلماً له .
وألح محتاراً :
– ما هو مأخذك على عينيه ؟
ففكرت قليلاً :
– يقال ... انهما لا تعرفان ، لا تعرفان ابداً ان تريا ما هو حسن وما هو غير حسن .
حكم غريب جعل جاك مرتبكاً . وتذكر عندئذ كلمة عن انطوان قالها له دانيال : « اتدري ما الذي يربطني بأخيك ؟ انها حريته في الحكم » . كان

دانيال يعجبه في انطوان تلك الخاصة التي يستطيع ان يتصفح بشكل طبيعي أية مشكلة في ذاتها كما يتفحص قطعة تشريحية بمعزل عن كل شاغل اخلاقي . انه موقف عقلي فيه كثير مما يميل اليه احد المتحدرين من الهيغنوت .

كانت نظرة جاك تبدو انها تتطلب ايضاحات . ولكنها عارضت هذه النظرة بوجه هادىء ، مقفل ، بحيث لم يجرؤ على أن يزيد من سؤالها . وفكر: « لا يمكن فهمها » .

وكانت الفتاة ذات فتحة الثوب الوردية قد جاءت ترفع آنية الطعام ، فاقترحت :

– جبن ؟ فواكه ؟ فنجانا قهوة .

فقالت جني :

– لي انا ، لا شيء .

– اذن فنجان قهوة واحد .

وانتظرا تقديم القهوة ليعودا إلى حديثهما بحرية . كان جاك ينظر إلى جني خلسة . ولاحظ مرة اخرى كم أن تعبير عينيها يتناقض مع تعبير الوجه ، وكم كان هذا التعبير اكبر « سناً » من تعبير القسمات التي ظلت فتية ، وكأنها لم تتم .

وانحنى متعمداً وقال مبتسماً ليعتذر عن هذا الفحص :

دعيني انظر في عينيك . أريد ان **أتعلمها** . فيهما ماء صاف ، وزرقة واضحة ، زرقة باردة ... والحدقة ! تغير شكلها دون انقطاع .. لا تتحركي ، هذا مؤثر .

وهي أيضاً كانت تتأمله ، ولكن دون ان تبتسم ، ومتعبة قليلاً ؛ وتابع :

– حين تبذلين جهداً للانتباه يتقلص البؤبؤ الأزرق ... وتضيق الحدقة ، وتضيق الى ان تصبح نقطة صغيرة ، مستديرة واضحة كثقب مثقب ... أية ارادة موجودة في عينيك ؟

وخطرت له فكرة ان جني تستطيع ان تصبح رفيقة نضال رائعة .

وفجأة ، اجتاحته كل شواغله من جديد . فلفت رأسه آلياً ليتحقق من الساعة بواسطة المنبه المعلق في الجدار .

وتمتمت خائفة فجأة امام تلك الجبهة المتجهمة :

– بماذا تفكر يا جاك ؟

فرفع خصلة الشعر بحركة عنيفة ، وقال وهو يشد قبضتيه رغماً عنه :

– آوه ! أفكر، انه يوجد في هذه اللحظة، في أوروبا بضع مئات من الرجال يرون بوضوح ، ويبذلون جهدهم في سبيل سلامة الآخرين دون ان يتوصلوا إلى اسماع صوتهم لمن يريدون إنقاذهم ! انها استحالة مؤثرة. هل سنتوصل الى هز خمود جماهير الشعب ؟ هل سيعرفون ذلك في الوقت المناسب ؟

واستمر في الكلام وبدت جني انها تصغي اليه ! ولكن لم تسمع اقواله . فمنذ ان فاجأت نظرة جاك نحو الساعة تشوش انتباهها ولم تعد تسيطر على خفقان قلبها . ثلاثة ايام بدونه ! كانت تكافح ضد قلق نفسي لم تكن تريد أن تدعه يراه بأي ثمن ؛ وشعرت بسرور مؤلم لوجوده هنا ، لبضع دقائق ايضاً ، حياً وقريباً . انها تتابع كل ألعاب سحنته ، كل انقباض في الفكين ، كل تقطب في الحاجبين ، كل بريق في عينيه المتحركتين – دون أن تحاول فهم ما كان يقوله ، ضائعة في زفير الكلمات والافكار المشوش ، كما بين حزمة من الشرر .

وسكت فجأة :

– انك لا تصغين إلي .

فرفت بأهدابها واحمرّت .

– كلا .

ثم بلطف ، ولكي يسامحها ، مدت اليه يدها. فأخذها وقلبها وأسند شفته إلى الكف . وشعر حالاً بارتعاش جميع عضلات الزند ، وفطن بشيء من الاضطراب – اضطراب جديد – الى ان اليد الصغيرة انسحقت بأناة على الفم بدلاً من أن تستسلم طائعة .

ولكن الوقت يضغط ، ولا يزال لديه اعتراف يجب ان يقوم به .

– جني ، هناك أمر اريد ان اقوله لك منذ هذا المساء .. في السنة الماضية ، عند موت والدي ، كنت ارفض ان استمع الى اي كلام عن الحسابات.. لم اكن اريد ان اقبض فلساً من ذلك المال .. والبارحة غيرت رأيي .

وتوقف . وكانت قد اعتدلت مندهشة وتجنبت نظرته ، واضطربت رغماً عنها بسبب الافكار المشوشة المتناقضة التي اجتازت ذهنها .

– كنت انوي ان آخذ كل هذا المال وأصبه في صناديق الأممية ليستعمل حالاً في الكفاح ضد الحرب .

وتنفست بعمق . وعاد الدم إلى وجهها وتساءلت : « لماذا يكلمني عن هذا ؟ » .

– انت تستصوبين عملي ، اليس كذلك ؟

فخفضت جني جبهتها غريزياً . أية فكرة مضمرة لديه بإلحاحه هكذا على كلمة « تستصوبين » ؟ كان يبدو انه يريد اعطاءها الحق بمراقبة اعماله ... فرسمت اشارة من رأسها ورفعت عينيها بخجل . وظل تعبير وجهها استفهامياً . وتابع :

– حتى الآن ، بفضل مقالاتي ، كنت دائماً أربح معيشتي ... اللازمة الضرورية .. قليلاً ما يهم .. انا اعيش في وسط اناس لا موارد لهم ، وانا مثلهم ، وهذا حسن ..

واستنشق نفساً طويلاً وتابع بسرعة ، وبنبرة جعلها بعض القلق شرسة :

– اذا كانت هذه الحياة .. المعتدلة لا تخيفك يا جني فأني لا أخاف علينا من شيء .

كانت هذه هي الاشارة لمستقبلهما ، لحياة مشتركة ، فحنت جبهتها من جديد. وقطع نفسها التأثر والأمل .

وانتظر ان تعتدل ، وما ان ابصر ذلك الوجه الواله من السعادة حتى قال ببساطة : شكراً .

وجاءت الخادمة بالحساب فدفع ، ورفع عينيه إلى الساعة .

- إلا عشرين دقيقة . ليس لدي وقت لإيصالك إلى منزلك .

وكانت جني قد نهضت دون ان تنتظر اشارة منه . وكانت تقول لنفسها متضايقة : « انه ذاهب . اين سيكون غداً ؟ ثلاثة ايام ... ثلاثة ايام مميتة » .

وحين عاونها على ارتداء سترتها التفتت فجأة وتفرست به عن قرب :

– جاك ، اليس في الأمر خطر على الأقل ؟

كان صوتها يرتجف . وسأل لكي يربح الوقت : ماذا اذن ؟

وعادت إلى ذهنه عبارات رسالة ريشاردلي ، ولم يكن يريد ان يكذب عليها ولا ان يقلقها ، فبذل جهداً وابتسم :

– خطر ؟ لا اعتقد .

وبدا ألق من الرعب في حدقتي الفتاة . ولكنها خفضت جفونها بشدة ، وابتسمت حالاً برباطة جأش . وقال لنفسه :

– انها على خير ما يرام .

وبلغا مترو سانتيه دون كلام ، احدهما بجانب الآخر .

وعلى حافة الدرج توقف جاك . وجني التي كانت قد هبطت الدرجة الاولى التفتت نحوه . لقد أزفت الساعة .. فوضع يديه على كتفي الفتاة .

– الخميس . الجمعة على أبعد تقدير .

ونظر اليها بشكل غريب . وكان على وشك ان يقول لها : « انت لي . لن نترك بعضنا البعض بعد الآن . تعالي معي » . مفكراً بالجمهور ، بالفتن الممكنة ، وقال بسرعة وبصوت منخفض .

– اذهبي .. وداعاً .

ورسمت شفتاه . حركة لم تكن ابتسامة حقيقية ، ولا قبلة . ثم سحب يديه فجأة وألقى عليها نظرة طويلة ، وذهب .

٤٧

كان الوقت لا يزال نهاراً . وكان الهواء حاراً ، مشبعاً بسائل عاصفي .

وكانت الشوارع ذات مظهر غير عادي : فجميع اصحاب الحوانيت انزلوا ستائرهم الحديدية ؛ ومعظم المقاهي كانت مقفلة ، وبأمر من الشرطة فان تلك التي ظلت مفتوحة كانت قد عرّت شرفاتها لتتجنب إمكان استعمال الكراسي والطاولات لارتجال المتاريس ، ولترك المجال حراً للحرس البلدي . وكثر الفضوليون · وبدأت السيارات تقل ، واستمرت بعض الاوتوبيسات في السير نافخة الابواق .

بولفار سان مارتان ، بولفار ماجنتا ، وبالقرب من المركز العام للشغيلة كان الاحتشاد كثيفاً بشكل خاص . شعب من الرجال والنساء كان يهبط مرتفعات بلفيل ، وعمال من جميع الاعمار ، بثياب الشغل ، يتدفقون من جميع زوايا باريس والضواحي ، ويتجمعون جماعات تزداد كثافة . وفي الحفريات وفي المشاغل التي هي قيد البناء ، وفي زوايا الشوارع جماعات من الشرطة مجتمعون ، وسيارات مديرية الشرطة مستعدة لنقلهم إلى هنا أو إلى هناك عند اول نداء .

كان فانهيد وميتورغ ينتظران جاك في حانوت في ضاحية التامبل .

وفي ساحة الجمهورية يقطع سير العربات جمع غفير من اصحاب الاعمال حوصروا في اماكنهم . وجاك ورفيقاه ، استعملوا مرافقهم محاولين شق طريق خلال هذا المستنقع البشري ليلتحقوا بمحرري صحيفة «الانسانية» الذين كانوا ، كما يعلم جاك ، متجمعين عند النصب المركزي · ولكن كان من المستحيل بلوغ التراب المركوم الذي تنظم عليه رأس الموكب ·

وفجأة موّجت الرؤوس ارتعاشة شبيهة بتمتمة الريح ، وانتصب فوق الجمهور حوالي الخمسين بيرقاً كانت غير منظورة حتى ذلك الوقت ، وتحرك الموكب باتجاه باب سان مارتان ، دون صراخ ، دون اناشيد ، ثقيلاً وملتصقاً بالارض كحيوان زاحف يبسط حلقاته . وببضع دقائق ، فالجمهور الشبيه بنهر من الحمم وجد منحدره ، قد ملأ عرض الشوارع ، وأخذ يكبر باستمرار من روافد الطرق الجانبية ، ويسيل ببطء نحو الغرب .

وجاك وفانهيد وميتورغ، وقد علقوا بين جماهير الشعب ، مختنقين من الحر، كانوا يتقدمون متلاصقين لئلا يضيعوا بعضهم البعض ، وحملتهم الموجة وأغرقتهم في ضوضائها ، وجمدتهم لحظة لترفعهم من جديد ، وتقذفهم يميناً أو شمالاً ضد الواجهة القائمة التي كانت نوافذها مجهزة بالفضوليين . وكان الليل قـد جاء ؛ والكرات الكهربائية تنشر على هذه الفوضى المتحركة نوراً غير كافٍ ، مفجعاً.

وقال جاك لنفسه منتشياً بالفرح والكبرياء :

– آه ! يا له من تحذير ! شعب بكامله منتصب ضد الحرب ! لقــد فهمت جماهير الشعب . وأجابت جماهير الشعب النداء ! لو كان روميل يستطيـع ان يرى هذا !

وأبقتهم مسمرين وقفة اطول من الاخريات امام رواق الجيمناز . وانفجرت صرخات في المقدمة . وكان يبدو ان هنـاك ، عند مدخل شارع بواسو نيير ، قد اصطدم رأس العمود بحائط .

ومضت خمس دقائق ، عشر . وفرغ صبر جاك فقال آخذاً فانهيد الصغير بيـده :

– تعال .

وتبعهما ميتورغ الذي كان يتذمر ، ودخلوا شاقين الجماعات ، دائرين حول الجماهير الاكثر مقاومـــة ، متقدمين مهما كان الأمر بشية خطوط منكسرة . وقال احد الناس :

– هناك مظاهرة معاكسة . ان عصبة المتحزبين للوطن تشغل المنعطف وتسد الطريق !

فترك جاك زميله الشاحب الوجه وتوصل الى تسلق أعلى دكان ليرى .

كان ذلك في زاوية ضاحية بواسونيير عند بناية جريدة الصباح « **الماتان** » الحمراء قد توقفت الاعلام. وكان الصفان الاولان من كلا الجماعتين قد اصطدما، مع شتائم وصراخ . وحصرت الفتنة في مكانها ولكنها عنيفة : الوجوه تهدد بعضها البعض ، والقبضات ممدودة ، والشرطة بجماعات صغيرة ، مندمجة في الجمهور ،

كانت تتحرك في مكانها ، ولكن يبدو انها تركت الأمور تجري . وتحرك علم ابيض كاشارة : فانشد المتحزبون للوطن نشيد « المارسيلياز » ؛ وعندئذ ، وبصوت واحد ، ارتفع وغطى على كل ضجيج بايقاعه القوي ، اجاب الاشتراكيون بانشاد النشيد الاممي . وفجأة رفعت موجة من الاعماق المنملة وهزتها . وانبجس من اليمين والشمال ، من الشوارع المجاورة ، فصائل من الشرطة يقودها ضباط امن دخلوا في الموجة بعنف ليسترجعوا مفرق الطرق . واشتد الشغب على الاثر ، وتوقف الانشاد ، ثم استؤنف ، ثم قطعته هتافات : « إلى برلين ! » ؛ « تحيا فرنسا » ؛ « لتسقط الحرب ! » ، ودخلت الشرطة في قلب الفوضى ، وهاجمت دعاة السلام الذين ردوا بسرعة . وارتفع الصفير . وانتصبت أذرع وعصي : « بقر ! مزابل ! » ورأى جاك شرطيين ينقضان على متظاهر كان ينتفض ، وقد انتهى الشرطيان بأن ألقياه نصف ميت في احدى عربات الشرطة الواقفة في زاوية الشارع .

وغضب لكونه بعيداً . لو سار على محاذاة البيوت ، هل يستطيع الوصول إلى المفرق ؟ وتذكر في الوقت المناسب مهمته وقطاره .. انه اليوم ليس ملكاً لنفسه : ليس له الحق ان يخضع لمحرضاته .

وسمعت ضجة صماء في المقدمة ، في الشوارع . وفي البعيد خوذ تلمع . انها فرقة من الحرس البلدي كانت تتقدم خبباً لملاقاة المتظاهرين .

– لقد عبأوا بنادقهم .

– ليهرب من يستطيع !

كان الجمهور المذعور حول جاك يحاول العودة إلى الوراء . ولكنه اصبح عالقاً بين الفرسان الذين يقتربون وذيل الموكب الطويل الذي كان يدفع ، بالعكس ، ويمنع اي تراجع . وجاك جاثم على اعلى الدكان كأنه على صخرة ضربتها العاصفة ، وكان يتشبث بالمصراع الحديدي لئلا يسقط الى الارض بواسطة زوبعة الموجة البشرية التي كانت تغلي عند قدميه . وكان يبحث بعينيه عن رفيقيه ولم يشاهدهما ، فقال لنفسه : « انهما يعرفان اين انا ، ولو استطاعا

لأتيا للحاق بي » .

وفكر مذعوراً : « من حسن الحظ انني لم آت بجني .. » .

كانت الخيول على المفترق تفحص بأرجلها . وهناك مشاة قد انقلبوا ، ووجوه هائمة ، غاضبة ، وجباه مخدشة تبدو وتختفي وفقاً للجيشان .

ماذا يجري ؟ يستحيل معرفة ذلك .. الآن ، فان منتصف المفترق قـد أخلي . وكان دعاة السلام قد اضطروا الى الخضوع للحركات المنظمة التي قام بها الحرس على خيولهم وشرطة المدينـة . وفي وسط الطريق حيث انتثرت العصي والقبعات والحطام ، كان ضباط الأمن يتجولون بشرائطهم الفضية ، وكذلك بعض المدنيين الذين يجب ان يكونوا من السلطات البوليسية . وكان صف الشرطة حولهم يتقدم موسعاً الدائرة . وعلى الأثر أصبح كل عرض الشارع مسدوداً بالشرطة .

وعندئذ دار المتظاهرون نصف دورة واسرعوا كالاعصار نحـو شارعي ستراسبورغ وسباستبول ، كقطيع عضته الكلاب في سيقانه فأجرى انقلاباً في المكان بعد بضع دقائق من الوطء الفوضوي .

– الاجتماع في مفترق دروو !

وقال جاك لنفسه : « ليس من الحكمة البقاء هنا » . (وتذكر انه ، في حالة توقيفه ، ليس معه سوى بطاقة هوية باسم جان سباستيان إيبرله ، طالب في جنيف) .

واستطاع التفلت من شارع هوتفيل.وتردد . ماذا صار بفانهيد وميتورغ؟ ما العمل ! أيركض الى شارع دروو ، أيعود إلى المعركة ؟ وإذا أوقف ؟ أو علق في الدوامة فقط واحتجز بين شجارين وأجبر على ان يفوته القطار ؟ كم الساعة ؟ انها الحادية عشرة الا خمس دقائق ، ان الحكمة ، مهما كلفته ، تقضي بان يدير ظهره للمظاهرة ويقترب من محطة الشمال .

ووجد نفسه بعد قليل في ساحة لافاييت امام كنيسة سان فنسان دي‌بول. الحديقة الصغيرة ! جني ... وشعر بالرغبة في الصعود ليحج إلى مقعدهما ...

ولكن فصيلة من حرس الامن كانت تشغل الادراج، في حالة انتظار .

وكاد يموت عطشاً . فتذكر عندئذ أنه يعرف بالقرب من هناك في شارع فوبورسان دنيس ، باراً كان يجتمع فيه الاشتراكيون من فرع دنكرك . وكان لديه الوقت الكافي ليمر من هناك نصف ساعة قبل أن يذهب ويأخذ قطاره .

الغرفة الخلفية حيث يلتقي المناضلون عادة كانت فارغة . ولكن بقرب منضدة البائع ، وحول صاحب المقهى – وهو عجوز من الحزب – يوجدنصف دزينة من الشاربين كانوا يعلقون على اخبار الحي الذي كان مسرحاً لعدة وقائع خطيرة . وحول محطة الشرق مظاهرة ضد الحرب مُزقت بقساوة . وكانت قد نُظمت ثانية امام المركز العام للشغيلة ؛ وهناك بداية حقيقية لفتنة احتاجت إلى قوة من الشرطة ؛ ويقال ان الجرحى كثيرون . ومراكز مفوضيات الشرطة في تلك الدائرة كانت ملأى بالمتظاهرين الموقوفين . وسرت اشاعة ان مدير الشرطة البلدية الذي يتولى القيادة في الشوارع قد تلقى طعنة سكين . وأحد الشاربين الذي جاء من باسي روى أنه رأى في ساحة الكونكورد تمثال ستراسبورغ مزيناً بقماش مثلث الألوان . ويحرسه جماعة من الشبان المتحزبين للوطن كانوا يشعلون نيران البنغال تحت حماية حراس السلام . وآخر ، وهو عامل عجوز ذو شاربين رماديين كانت زوجة صاحب المقهى ترفوله سترته الممزقة اثناء المعركة ، زعم ان عـــدة جماعات من مظاهرة الشوارع عادت واجتمعت في البورصة ، ومعها علم احمر منشور . وكانوا يسيرون الى قصر البوربون ويصرخون : « لتسقط الحرب ! » .

ودمدم صاحب المقهى !

– لتسقط الحرب !

كان قد شاهد حرب ١٨٧٠ ؛ واشترك في الكومونه ، وكان يهز رأسه بغضب :

– لا يزال هنا متسع من الوقت للصراخ : « لتسقط الحرب » وهذا كما لو

انك صرخت : « ليسقط المطر ! » حين تأتي الزوبعة .

وغضب الهرم الذي كان يدخن وهو مغمض العينين !

– ليس الوقت متأخراً يا شارل ! لو كنت رأيت ذلك ، بين الثامنة والتاسعة ، في ساحة الجمهورية .. انهم متلاصقون ! ككومة من سمك الأنشوا .

فقال جاك مقترباً : لقد كنت هناك .

– حسناً . اذا كنت هناك ايها الصغير ، فبامكانك القول مثلي : لم يُشاهَد ابداً مثيل لذلك . والمظاهرات ، لقد رأيت بعضاً منها ! كنت هناك حين كانوا يصيحون ضد تنفيذ حكم الاعدام بفريه Ferrer : كانوا مئة الف . وكنت هناك حين كانوا يصيحون ضد السجون العسكرية لأجل اطلاق سراح روسه Rousset : وهناك ايضاً كانوا مئة الف .. وأكثر من مئة الف بالتأكيد في مرج سان جرفيه ضد قانون الثلاث سنوات .. ولكن هذا المساء ! هل كانوا ثلاثماية الف ؟ خمسماية الف ؟ مليون ؟ ما من احد يستطيع ان يعلم . من بلفيل إلى مادلين لم يكن سوى موجة ، لم يكن سوى صيحة « يحيا السلم ! » كلا يا أولاد : مظاهرة كهذه . اني لم ار مثلها بعد ، واعترف بذلك ! ومن حسن الحظ ان رجال الشرطة كانوا بدون سلاح ، وإلا لكان الدم في السواقي حسب الطريقة التي اتخذت ! هذا المساء ، أقول لكم لو كانت هناك جرأة لانهار النظام ! لقد اخطأوا الفرصة الجميلة .. ساحة الجمهورية ، حين اخذوا يهتزون مع الاعلام . اجل ، دم صالح يا شارل . لو كان يوجد في تلك اللحظة رجل على المستوى المطلوب ، اتدري الى أين كان يقودنا كلنا كرجل واحد ؟ إلى الاليزيه للقيام بالثورة .

وكان جاك يضحك من السرور :

– ستعاد الكرة : سيكون ذلك غداً ايها الجد .

وبلغ المحطة فرحاً . وبدون صعوبة قطعوا له تذكرة في الدرجة الثالثة إلى برلين .

كانت هناك مفاجأة تنتظره على الرصيف : فانهيد وميتورغ كانا هناك .

ولما كانا يعرفان ساعة رحيله فقد ارادا ان يشدا على يده. وكان فانهيد قد أضاع قبعته ؛ وكان وجهه شاحباً وكأن الحزن قد أبلاه . أما ميتورغ ، فبالعكس، كان احمر الوجه غاضباً . وقد ادخل قبضتيه في جيبيه. كان قد أُوقف وأُوسع ضرباً ، واقتيد نحو عربات الشرطة ، ولم يستطع الهرب الا في اللحظة الاخيرة بواسطة الجذب والدفع . وقص مغامرته ، النصف بالفرنسية والنصف الآخر بالالمانية مع فيض كبير من اللعاب ، مديراً عينين كبيرتين غاضبتين وراء نظارتيه .

وقال لهما جاك :

– لا تبقيا هنا . لا فائدة من استلفات الانتباه لثلاثة .

فأخذ فانهيد يد جاك بين يديه . وفي وجهه الذي يشبه وجـه الأعمى ، فان اهدابه الطويلة التي لا لون لها كانت تطرف بعصبية . وتمتم بنبرة مداعبة ورجاء :

– كن حذراً يا بولتي .

فضحك جاك ليخفي اضطرابه :

– الاربعاء في بروكسل .

في تلك الساعة ، وفي صالونها في الطابق الأول ، شارع سبونتيني ، كانت آن مرتدية ملابسها ومستعدة للخروج . وكانت واقفة ، ثابتة العين والسماعة بالقرب من وجهها .

وكان انطوان قد أطفأ النور واستعد للنوم بعد أن قرأ كل الصحف ، والجرس العادم الرنين لجهاز الهاتف الذي وضعه ليون في المساء على طاولة الليل ، جعله يعتدل في جلسته .

وتمتم الصوت الحنون البعيد !

– هذا انت يا توني ؟

– ها ؟ .. ما الأمر ؟

ـ لا شيء .

فقال قلقاً : ولكن بلى . تكلمي .

- لا شيء ، اؤكد لك .. لا شيء ابداً .. لأسمع صوتك .. هل نمت ؟

ـ نعم .

ـ اكنت نائماً يا عزيزي ؟

ـ نعم ، لا ، بعد.. تقريباً .. أصحيح انه ليس هناك اي امر خطير ؟

فضحكت :

ـ ولكن كلا يا توني ... انت لطيف لتقلق هكذا ... لأسمع صوتك . قلت لك .. اذن انت لا تفهم هذا ، باني اشعر بغتة بالرغبة ، بالرغبة في سماع صوتك ؟

كان متكئاً على مرفق ، والحدقتان مقروحتان من النور . وقد تذرع بالصبر ، مضطرباً عابساً .

ـ توني ..

ـ ماذا ؟

ـ لا شيء ، لا شيء .. أحبك يا توني .. لكم اريدك بقربي هذا المساء ، في هذه اللحظة ..

ومضت بضع ثوان بصمت لا ينتهي .

ـ اسمعي يا آن .. اني أوضحت لك .

فقاطعته متنفسة :

ـ ولكن نعم . انا اعلم ، لا تلق بالاً : أُسعدتَ مساءً يا غرامي .

ـ اسعدتِ مساءً .

وكان هو الذي علق السماعة . وأحست بالوخزة في لحمها . فأغمضت عينيها وأبقت اذنها مدة دقيقة طويلة ملتصقة بالجهاز ، منتظرة اعجوبة . وقالت اخيراً بصوت شبه مرتفع ! انا بلهاء .

ضد كل حسي سليم ، كانت تأمل ـ حتى انها كانت متيقنة ـ انه سيقول

لها : « تعالي الى عندنا بسرعة .. وسألحق بك » .

وكررت وهي تلقى على الطاولة المستديرة محفظتها ، وقبعتها ، وقفازيها :

– : انا بلهاء ! بلهاء ! بلهاء !

وفجأة بدت لها الحقيقة ، البسيطة ، الخفية ، الفظيعة : كانت بحاجة موجعة اليه ، اليه هو الذي لم يكن له أية حاجة بها .

٤٨

في محطة هام Hamm ، حوالي الساعة الثامنة صباحاً ، فان جاك الذي لم ينم ابداً نزل واشترى بعض الصحف الالمانية .

الصحافة بالاجمال كانت تلوم النمسا لاعلانها رسمياً انها «في حالة حرب مع الصرب » . وحتى صحف اليمين . صحيفة الجامعة الجرمانية « بوست » ، أو « صحيفة الرين » التابعة لمؤسسة كروب ، كانت تبدي اسفها بسبب العنف الاعتدائي للسياسة النمساوية . وعودة القيصر (الالماني) السريعة ، وكذلك عودة ولي العهد (كرونبرنز) قد أعلنتا بعناوين كبيرة جلية . ومعظم الصحف – بعد ان ذكرت ان الامبراطور ما كاد يصل الى بوتسدام حتى عقد اجتماعاً طويلاً وهاماً مع المستشار ورؤساء اركان الجيوش البرية والبحرية – كانت بخلاف الرأي العام تبني على نفوذ القيصر آمالاً كبيرة لحفظ السلم .

وحين عاد جاك إلى مقصورته ، فان رفاق الليل المجهزين مثله بصحف النهار كانوا يناقشون الاخبار . كانوا ثلاثة : قس شاب كان نظره المفكر يدور في الغالب نحو النافذة المفتوحة اكثر مما يدور نحو الصحيفة الموضوعة على ركبتيه ! وعجوز ذو لحية بيضاء يجب أن يكون اسرائيلياً ؛ ورجل في الخمسين من عمره ، بدين ، بشوش ، حليق الوجه والرأس تماماً . وقد ابتسم لجاك ورفع صحيفة « برلينر » المنشورة التي كان يمسكها بيده ، وسأل بالالمانية :

– انت ايضاً تهتم بالسياسة ؟ انت غريب دون شك .

– سويسري .

– سويسرا الفرنسية ؟

ـ جنيف .

– انتم ترون الفرنسيين عن قرب اكثر منا . كل واحد منهم فاتن ، اليس كذلك ؟ لماذا لا يمكن احتمالهم حين يجتمعون كشعب ؟

فابتسم جاك مراوغاً .

واصطدم الالماني الثرثار بنظرة القس ثم بنظرة الاسرائيلي وتابع :

ـ انا ، كنت أسافر في اغلب الاحيان الى فرنسا لأجل تجارتي . ولي فيها اصدقاء كثيرون . وظننت لوقت طويل ان نزعة المانيا السلمية سوف تنتصر على المقاومة الفرنسية ، واننا سننتهي الى التفاهم . ولكن لا يمكن عمل شيء مع هذه الادمغة الملتهبة : انهم في دخيلة نفوسهم لا يفكرون الا بالانتقام . وهذا كل تفسيرٍ لسياستهم الحالية .

فجازف جاك :

– اذا كانت المانيا متعلقة بالسلم هكذا فلماذا لا تزيد اليوم من اثبات ذلك ، بان تقوم بصراحة بعمل سلمي مع حليفتها النمسا ؟

ـ هذا ما تفعله بالتأكيد ... إقرأ الصحف ... ولكن اذا كانت فرنسا من ناحيتها لا تتمنى الحرب ، فهل كانت تساند السياسة الروسية في هذه الفترة ؟ خطابات بوانكاريه في بطرسبورج فيها دلالة . ان فرنسا هي التي تمسك بين يديها السلم والحرب . ويكفي ان ينقطع اعتماد روسيا على الجيش الفرنسي حتى تتحول الى المفاوضة السلمية ؛ وبنفس الطريقة يصبح كل خطر للحرب مستبعداً .

واستصوب القس ، والهرم ايضاً : لقد كان لعدة سنوات استاذاً للقانون في ستراسبورغ ، وكان يكره الالزاسيين .

ورفض جاك بحركة محببة ، تقدمة سيكارة ،وبدا مستغرقاً في قراءة صحفه ، مقلعاً عن كل مناقشة بدافع الحيطة .

وتناول الاستاذ الكلام ، كان ذا نظرة سطحية ومتحزبة للسياسة البسماركية بعد سنة ٧٠ : وكان يجهل ، او يتظاهر بجهل ، الرغبة التي كانت

تساور المستشار العجوز بضرب فرنسا نهائياً بواسطة اندحار عسكري جديد ، وبدا انه لا يريد التذكر سوى حركات قامت بهـــا الامبراطورية لتقترب من الجمهورية . وقاد هو الحديث فتتابع على الصعيد التاريخي . وكان الثلاثة متفقين. وكانوا يفصحون عن افكار هي افكار اكثرية الالمان العظمى .

فهم يرون بكل وضوح ان المانيا لم تنقطع ، حتى هذه السنوات الاخيرة ، عن تقديم بوادر كريمـة الى الشعب الفرنسي . وبسمارك نفسه قدم شواهد على روح المصالحة عنده ، بسماحه ليس بدون غفلة ، بهذا النهوض السريع للمغلوبين. وكان باستطاعته منعه ؛ وكان يكفيه ان يعاكس جنون الفتح الاستعماري الذي استولى على الفرنسيين غداة اندحارهم . والحلف الثلاثي (تريبليس) ؟ انه لم يكن يهدد احداً . انه في الاصـل لم يكن حلفاً عسكرياً ، بل ميثاق تعاضد وقائي عقده ثلاثة ملوك متشابهين بالقلق من جراء الغليان الثوري الذي تتمخض عنه اوروبا . فبين عامي ١٨٩٤ و ١٩٠٩ ، خمس عشرة سنة متتالية. وبعد التحالف الفرنسي – الروسي ، فقـــد سعت المانيا لمعاونة فرنسا لتسوية المشاكل السياسية ، وعلى الخصوص المسائل الافريقية . وبين عام ١٩٠٤ و ١٩٠٥ فان حكومة غليوم الثاني ضاعفت ، عن حسن نية ، عروضاً ذات تأويـــل واضح . ودائماً كانت فرنسا ترفض اليد التي مدها القيصر الالماني اليها ! ولم تكن تجيب على العروض الاكثر استمالة الا برفض حذرٍ ، تنكيدي ، او بالتهديد ! واذا كانت صفة الحلف الثلاثي قـــد تغيرت فالخطأ اذن يمكن ان يُعزى الى فرنسا الـتي اظهرت بوضوح ، بتحالفها العسكري غـير المفهوم مع القيصرية الروسية ، وبتحركات وزرائها ، وخصوصاً ديلكاسيه ، ان سياستها الخارجية ظلت موجهة ضد المانيا ! وان هدفها هو تطويق الدول الجرمانية . وقد توجب ان يصبح الحلف الثلاثي (تريبليس) سلاحاً دفاعياً ضـد تقدم التفاهم الثلاثي La Triple Entente – الذي بدا لعين العالم كمؤامرة فاتحين. فاتحون ! لم تكن الكلمة قوية وقد وجدت تبريرها في الوقائع : بفضل التفاهم الثلاثي استطاعت فرنسا الاستيلاء عـلى الاراضي المراكشية الواسعة ؛ وبفضـل التفاهم الثلاثي

استطاعت روسيا تنظيم العصبة البلقانية التي يجب ان تتيح لها ذات يوم التقدم حتى القسطنطينية دون اخطار ؛ وبفضل التفاهم الثلاثي استطاعت انكلترا ان تجمل تفوقها على بحار الدنيا في حرز حريز ! والكتلة الجرمانية هـي العائق الوحيد لهذه السياسة الامبريالية الوقحة . ولكي تتوطد هيمنة التفاهم الثلاثي فقد بقي عليـه ايضاً تفسيخ تلك الكتلة . وقد سنحت فرصة ، فاغتنمتها فرنسا وروسيا حالاً : قررتا الاستفادة من هياج البلقان وحركة فيينا غير الحكيمة وحاولتا الآن حمل المانيا على استنكار عمل النمسا على امل ان تختلف برلين مع حليفتها الوحيدة ، وان يوصلا جهودهما طوال عشر سنوات الى عزل المانيا في وسط اوروبا معادية .

هذا على الاقل رأي القس والاستاذ الاسرائيلي. وكان الالماني الضخم يعتقد ان هدف التفاهم الثلاثي كان اكثر اعتدائية : فبطرسبورج تريد هدم المانيا ، بطرسبورج تريد الحرب . وقال :

– كل الماني يفكر ، فانه يضطر الى ان يفقد ثقته بالسلام شيئاً فشيئاً . لقد رأينا روسيا تضاعف خطوطها الستراتيجية في بولونيا ، وفرنسا تزيد عدد جنودها وتسليحها ،وانكلترا تُعِدُّ مع روسيا اتفاقاً بحرياً . فأي معنى يُعطى لهذه الاستعدادات كلها سوى ان التفاهم الثلاثي يرغب في تأمين نفوذه بواسطة انتصار حربي ضد الحلف الثلاثي ؟ اننا لن ننجو من حربهم . واذا لم يكن الآن فسيكون عام ١٩١٦ ، ١٩١٧ على أبعد تقدير ... ـ وابتسم: – ولكن التفاهم الثلاثي واهم جداً ! فالجيش الالماني مستعد ! ولن يحتك احد بقوة المانياالحربية بدون ان ينال عقابه .

وابتسم الهرم ايضاً . ووافق القس بحركة رصينة من رأسه . كان الثلاثة متفقين حول النقطة الاخيرة بكثير من الكبرياء .

كان جاك قد اقام في برلين عـدة مرات . وقد قال لنفسه : « سأنزل في محطة زو Zoo . وفي الناحية الغربية يقل الخطر من عثوري على بعض الاصدقاء

القدماء » .

كان عليه أن يقضي حوالي الساعتين قبل الموعد الغامض في بوتسدام بلاتز ؛ وعزم على البحث عن ملجأ عنـــد كارل فونلو الذي كان يسكن في اوهلاند ستراس . وكان هذا صديقاً لليبنخت ، صديقاً موثوقاً به وكتوماً مجرباً ... وهو طبيب اسنان ، ولدى جاك الحظ كله في ان يجده في بيته في هذه الساعة .

وادخل الى صالون فيه شخصان ينتظران : سيدة عجوز ، وطالب شاب . وحين فتح فونلو الباب لينادي زبونته ، شمل جاك بنظرة مقتضبة ولم يحرك ساكنـاً ..

ومضت عشرون دقيقة . وظهر فونلو ثانية واستدعى الطالب . ثم عاد بعد ذلك وحده :

— انت ؟

ومع انه لا يزال شاباً فان خصلة شعر بيضاء تقريباً كانت تقطع شعره الكستنائي . نفس الحمّى تلتهب دائمـــاً في اعماق عينيه السمراوين المزدانتين بالذهب ، والمغمضتين بشكل عميق .

وتمتم جاك :

— مهمة . نزلت من القطار . لدي ساعة انتظار . ويجب الا ارى احداً .

فقال فونلو دون دهشة :

— سأخبر مرتا . تعال .

وقاد جاك الى غرفة ، حيث كانت امرأة بجانب النافذة ، في الثلاثين من عمرها ، تخيط مديرة ظهرها للنور . كانت الغرفة رطبة وفيها سريران متشابهان ، وطاولة عليها كتب ، وسلة على الارض ينـــام فيها هران سياميان . وتراءى حالاً لجاك داخل بيت مشابه ، مرحّب وهادىء ، حيث هو وجني ..

وبدون عجلة ، غرزت مدام فونلو ابرتها في القطعة التي تشتغلها ونهضت . وانبثق انطباع خاص من النشاط والهدوء من وجهها المسطح المتوج بضفائر

شقراء. وكان جاك قد التقى بها في الاجتماعات الاشتراكية في برلين حيث كانت ترافق زوجها دائماً .

وقال فونلو :

– إبق بقدر ما يحلو لك . انا عائد إلى عملي .

وعرضت المرأة الشابة :

- اتأخذ فنجاناً من القهوة ؟

وجاءت بطبق وضعته امام جاك .

– اخدم نفسك بدون تكليف .. أ آتٍ من جنيف ؟

– من باريس .

فقالت باهتمام :

– آه ! يعتقد ليبنخت ان كثيراً من الأمورتتوقف اليوم على فرنسا. ويقول أن لديكم اكثرية بروليتارية معادية للحرب بصراحة . وان من حظكم ان لديكم في الوقت الحاضر رجلا اشتراكياً في مجلس الوزراء .

– فيفياني ؟.. اشتراكي قديم .

– اذا أرادت فرنسا ، فأي مثل عظيم تستطيع إعطاءه لاوروبا !

فوصف لها جاك مظاهرة الشوارع. وكان يفهم دون جهد كل ما كانت تقوله له ،ولكنه يوضح افكاره بالالمانية بشيء من البطء . وقالت :

– عندنا ايضا ، البارحة ، حدث قتال في الشوارع . حوالي المئة جريح ، وخمسماية او ستماية موقوف . وستعاد الكرة هذا المساء .. وقد أعلن لليوم اكثر من خمسين اجتماعاً ضد الحرب .. في جميع الاحيـــاء .. في الساعة التاسعة ، اجتماع كبير في براندبورجر تور .

فقال جاك :

– في فرنسا علينا ان نناضل ضد جمود الطبقات الوسطى الذي لا يُصدّق .

ودخل فونلو وابتسم :

– في ألمانيا أيضاً .. جمود في كل مكان . أتصدق ان مـــا من احد في

الريخستاغ ، رغم اقتراب الخطر ،طلب اجتماع لجنة الشؤون الخارجية؟القوميون يشعرون ان الحكومة تحميهم ، ومعركتهم الصحفية ذات عنف غريب ! انهم يطالبون يومياً بحالة الحصار في برلين وتوقيف جميع زعمـــاء المعارضة ، ومنع الاجتماعات الداعية إلى السلام ! قليلاً ما يهم ! فلن يكونوا الأشد قوة .. في كل مكان ، في جميع مدن ألمانيا ، فان البروليتاريا تتحرك ، وتحتج ، وتهدد .. وهذا رائع .. اننا نعيش من جديدايام تشرين الأول ١٩١٢ ،حينأ ثرنا ، مع ليديبور والآخرين جمهور العمال بصرخة « الحرب على الحرب ! » في ذلكالوقت فهمت الحكومة ان كل انقلاب سياسي عـام في الدول الرأسمالية سيعمم حالاً حركة ثورية في أوروبا . فخافت ، وكبحت جماح سياستها . وهذه المرة ايضاً سننجح ! ـ وكان جاك قد نهض ـ اتريد الذهاب الآن؟

فأجاب جاك باشارة ايجابية من رأسه واستأذن المرأة الشابة بالذهـاب ، فقالت له وعيناها تتألقان :

ـ الحرب على الحرب .

وصرح فونلو وهو يرافق جاك نحو الدهليز :

ـ هذه المرة ايضاً سننقذ السلم . ولكن الى كم من الوقت ؟ لقد انتهيت الى الاعتقاد ، انا ايضاً ، ان حرباً عامة لا يمكن تجنبها ، وان الثورة لن تحدث الا اذا مررنا من هنا .

ولم يشأ جاك ان يترك فونلو دون أن يسأله رأيه حول قضية تشغله اكثر من غيرها ، فقاطعه :

ـ ماذا يعرفون عندكم بشكل واضح حول الاتفاق بين فيينا وبرلين ؟ وأية مهزلة تمثلانها في أوروبا ؟ وماذا كان يجري في الكواليس ؟ وهل هناك ،حسب رأيك ، تواطؤ ؟ نعم ام لا ؟

فابتسم فونلو بخبث :

ـ فرنسي !

ـ ولماذا فرنسي ؟

– لانك تقول : « نعم ام لا » .. « هذا وذاك »... انها عادتكم ، انـــتم الآخرون ، بإرادتكم تحويل كل شيء الى صيـــغ واضحة ! كما لو ان الفكرة الواضحة تصبح ، مبدئياً ، فكرة صحيحة !

وابتسم جاك بدوره ، متحيراً ، وتساءل : « على اي قياس بُني هذاالنقد؟ وبأي قياس يُطبّق علي ؟ »

وكان فونلو قد عاد الى رصانته .

– تواطؤ ؟ هذايتوقف.. تواطؤ مكشوف، وقح ، هذا ليس أكيداً . واقول انا : « نعم ولا » .. من المؤكداً ان هناك جزءاً من المداجاة في المفاجأة الـــتي اعلنها قادتنا يوم الانذار النهائي . ولكنه جزء فقــط . ويقال ان المستشار النمساوي قد خدع مستشارنا كما خدع كل مستشاريات اوروبا . وان وزيرنا بتمان – هولويغ قد تصرف ، بكل بساطة ، بخفة لا يسامح عليها . ويقال بــأن برختولد لم يُرِ لدوائرنا في ولهمستراس سوى ملخص لطيف للانذار؛ وقد وعد بتعديل النص وذلك للحصول على مساندة المانيا مقدماً للسياسة النمساوية لدى الوزارات الاوروبية . وقد صدّقه بتمان . وتورطت المانيا بثقة ، وبغفلة ... وحين عرف بتمان وجاغوف والقيصر الالماني اخيراً المحتوى الصحيح ، صُرعوا كما تحدّث مصدر موثوق .

– في اي يوم عرفوه ؟

– في الثاني والعشرين او الثالث والعشرين .

– القضية كلها هنا . فاذا كان اليوم هو الثاني والعشروين كما اكدوا لي في باريس ، فقد كان لدى ولهمستراس الوقت الكافي للتأثير على فيينا قبل ارسال الانذار . ولم تفعل ذلك .

فقال فونلو : كلا ، صحيح يا تيبو. انا اعتقدان برلين خُدعت . وحتى مساء اليوم الثاني والعشرين كان الوقت قد فات ؛ لقد فات الوقت للحصول على تغيير للنص من فيينا ؛ وفات الوقت للتبرؤ من النمسا امام الحكومات الاخرى . وعندئذٍ ،

وقداصبحت المانيا في مركز حرج رغماً عنها ، لم يبق لها سوى وسيلة واحدة لانقاذ الوجه : أن تبدو متشددة ، في سبيل ارهـــاب اوروبا ، وان تربح بواسطة التهويل هذه الجولة الدبلوماسية المغامرة الذي تورطت فيها طوعاً او كرهاً ... هذا على الأقل ما يقال . . حتى انهم يزعمون ، ومن مصادر حسنة الاطلاع جداً، ان القيصر الألماني كان حتى صباح البارحة يتصور انه قام بضربة معلم :

كان يعتقد انه واثق من الحياد الروسي .

– هذا ، كلا . فبرلين بالتأكيد لم تكن تجهل شيئاً من مقاصد بطرسبورج الحربية .

– يؤكدون أن الحكومة وجدت نفسها ، منذ البارحة فقط ، انه قد زُج بها في هذا المأزق الخطر .

واضاف بابتسامة شباب :

– وايضاً ، فان لمظاهرات هذا المساء اهمية غير عادية . كل حكومة تتردد فان من الممكن أن يكون للتنبيه الشعبي تأثير حاسم ! اتأتي إلى انتردن لندن ؟

فهز جاك رأسه نفياً وترك فونلو دون ان يوضح اكثر من ذلك .

وكان يفكر وهو يهبط الدرج : « عادة فرنسية . الفكرة الواضحة فكرة صحيحة . كلا ، لا اعتقد ان هـذا صحيحاً بالنسبة الي .. كلا .. بالنسبة الي ، فالافكار ، سواء أكانت واضحـــة ام مشوشة ، فهي مع الاسف ليست سوى درجات احتياطية . وهذا هو ضعفي .

٤٩

في الساعة السادسة تماماً دخل جاك إلى « آشنجر » في بوتسدام بلاتز – احدى المؤسسات الرئيسية لذلك الغليان الشعبي الذي يوجد في كل احياء برلين فروع لها .

وشاهد تروتنباخ ، وحده ،جالساً إلى طاولة صغيرة امام شورباء الخضار . وبدا الألماني مستغرقاً في قراءة صحيفة مطوية اربع طيات ، ومستندة إلى زجاجة الماء ؛ ولكنه كان يراقب الباب بعينه الصافية . ولم تفته اية مفاجأة.

وتصافح الشابان باهمال كأنهما تركا بعضهما البعض البارحة : ثم جلس جاك وطلب شورباء .

كان تروتنباخ يهودياً اشقر ، شبه امغر ، ذا قامة مصارع ، وشعره مجعد قليلا ، محلوق ، يبرز جبهة كبش فتي ؛ وكانت بشرته بيضاء مبقعة بالنمش ؛ والشفتان كثيفتان ، مكفوفتان ، لا تكادان تكونان اكثر تلويناً من صبغته . وتمتم بالالمانية :

— كنت خائفاً من ارسال غيرك . اني أحذر السويسريين في هذا النوع من العمل .. لقد وصلت على الوقت تماماً. فغداً يكون قد فات الاوان .

وابتسم بتوان مقصود . وكان يلعب باناء الخردل كما لو أنه يتحدث عن أشياء لا طائل تحتها ؛ وأضاف بشكل غامض :

— انها عملية دقيقة — بالنسبة الينا على الأقل . وانت ، ليس لك ما تعمله .

فشعر جاك بخيبة أمل :

— لا شيء اعمله ؟

— لا شيء سوى ما سأقوله لك .

وبنفس النبرة الخفية ، وبنفس تعبير الخفة المبتسمة ، قاطعاً كلامه بضحكات صغيرة اصطلاحية لاجل الخداع في حالة وجود من يراقبهما ، أوضح تروتنباخ القضية بايجاز .

بدافع ميل شخصي كان متخصصاً في الادارة الخفية لنوع من المصلحة الثورية الدولية للجاسوسية. وقد نمي اليه قبل بضعة أيام خبر مجيء ضابط نمساوي إلى برلين ، الكولونيل ستولباخ ، الذي افترض انه مكلف بمهمة سرية لدى وزير الحربية . ولهم كل الحق أن يعتقدوا ان تلك الزيارة في هذه الفترة ،هدفها تحديد تعاون اركان الجيشين النمساوي والالماني . وقد وضع تروتنباخ المشروع الجريء باختلاس اوراق الكولونيل ؛ ولأجل هذا العمل اراد تأمين مساعدة كبيرة يقوم بها زميلان . وقد قال بابتسامة ذكية : « اثنان من ذوي المهنة أثق بهما كما أثق بنفسي » . وهذا الايضاح الاخير لم يدهش جاك . فقد كان يعلم ان

تروتنباخ عاش مـــدة طويلة بين طبقة اللصوص البرلينيين ، واحتفظ في ذلك المحيط المشبوه بعلاقات استخرج منها فائدة للقضية .

وستولباخ يجب أن يحصل في بـــدء السهرة على لقاء اخير مع الوزير . وفي الفندق حيث حل ، كان قد اعلن انه سيسافر هذه الليلة الى فيينا . اذن ليس هناك وقت للضياع ؛ ويجب الاستيلاء على الاوراق بين الفترة التي يترك فيهـا ستولباخ الوزارة والفترة التي يصعد فيها إلى قطاوه .

ومن الطبيعي الا يكون لجاك اية حصة في عملية السلب هذه (وقد اعترف انه كان مسروراً من ذلك) . وتحدد دوره بتلقي الوثائق وإخراجها من ألمانيا حالاً ، وايداعها باسرع وقت ممكن مينستريل الذي كان لتروتنباخ معهعلاقات خاصة منذ سنوات عديدة . وحسب اهمية هذه الاوراق فان الربان يرسلهـــا أو لا يرسلها الى قادة الأممية المجتمعين غداً في بروكسل. اذن يجب ان يقطعجاك بطاقة سفره مقدماً إلى بلجيكا ، وأن يكون موجوداً هذا المساء ، ابتداءً من الساعة العاشرة والنصف في محطة فريدريكستراس ، في قاعة انتظار الدرجة الثالثة ، متمدداً على مقعد كأنه ينـام نوماً عميقاً . والرزمة الملفوفة بصحيفة سوف توضع خفية عند رأسه،بواسطة مسافر يختفي على الاثر ، دون أن يكلمه . وهذه التعليمات كررت مرتين .

وعندئذ قال تروتنباخ :

— لنشرب ايضاً كأساً من الجعة وسنفترق .

كان جاك يصغي صامتاً . وشعر بقلق غامض . فاختطاف الاوراق هذا ، مهما كان مفيداً ، لم يكن يعجبه . وبقبوله مهمته لم يكن يفكر ان يكون نسالعاً بهذا النوع من المجازفات . وكانت حركته الأولى تهنئة لنفسه بانهم لم يطلبوا منه سوى مساعدة عديمة الأهمية . ولكنه في الوقت نفسه شعر بخيبة الامل وبالمعاكسة لأنه تحول إلى هذا الدور السلبي ، دور مخبىء المسروق ، دور العميـــل .

وقبل أن يترك تروتنباخ القى عليه نفس السؤال الذي القاه على فونلو : هل

هناك تواطؤ ، حسب رأيه ، بين الحكومة النمساوية والحكومة الالمانية ؟

– تفاهم بين برختولد وبيتمان ، لا أدري . ولكن ما هو ممكن ، هو أن هناك تواطؤاً بين اركان الجيش النمساوي وأركان جيشنا . ومن الممكن ايضاً ان مستشارنا قد خدعه وزير النمسا وأركان جيشنا معاً .

فقال جاك :

– آه ! لو أمكن العثور على البرهان من ان الحزب العسكري الالماني يتآمر منذ البدء مع أركان الجيش النمساوي ! لو كان بالامكان التأكد من أن العمل المداجي لجنرالاتكم المتواطئين مع جنرالات فيينا منذ ثلاثة اسابيع، مسؤول عن السياسة الالمانية، وهو الذي يدفع المانيا حالياً الى التملص من طلبات التحكيم الانكليزية .. (كان بحاجة ماسة ليبرر امام نفسه مساهمته في سرقة الاوراق ، وليتصور ان هذه الاوراق تستطيع ان تحمل الى القضية مساعدة ناجعة بشكل غير عادي) .

– اعتقد مثلك ، ان هذا يمكن ان تكون له نتائج لا تحصى .. ان الأكثر تحزباً للوطن من زعمائنا الاشتراكيين لا يترددون في الوقوف ضد الحكومة . ولهذا كان من المهم وضع الانف في أوراق الكولونيل ! إبق جالساً – اضاف تروتنباخ وهو ينهض : – انا ذاهب أولاً . الساعة العاشرة والنصف في المحطة . ومن الآن حتى ذلك الوقت كن مطمئناً ، وتجنب الاجتماعات . يوجد بوليس في الخارج ..

ان التهديد بمظاهرات متوقعة في المساء لم يمنع وزير الحربية من مواصلة الحديث الطويل ، الاخير الحاسم الذي أراد اجراءه مع المبعوث غير الرسمي لاركان الجيش النمساوي ، الكولونيل الكونت ستولباخ فون بلومانفيلد .

وانتهى الاجتماع حوالي الساعة التاسعة والربع في جوٍ ودي خاص ، وقد بلغ من لطف معاليه انه رافق زائره حتى سطح درج الشرف الكبير . وهناك ، بحضور الحرس وضابط الخدمة ، مد الوزير يده الى الكولونيل الذي انحنى

ليشد عليها . كان الرجلان بالملابس المدنية .. وكان وجهاهما متعبين رزينين . وتبادلا نظرة ملأى بالمضمرات . ثم ان الكولونيل ، وحقيبته الثقيلة الصفراء تحت ابطه ، يتبعه ضابط الخدمة ، دار على الدرجات العريضة المغطاة بالطنافس الحمراء . وعلى اسفل الدرجات التفت . كانت الكياسة قد دفعت معاليه إلى أن يتبعه بنظره ليشير اليه بآخر اشارة ودية .

في الباحة كانت سيارة للوزارة تنتظر. وبينما اولع ستولباخ سيكاراً وجلس في داخل العربة فان ضابط الخدمة انحنى نحو السائق ودله على الطرقات التي يجب اتباعها ليتجنب المظاهرات ويوصل الكولونيل دون حادث الى فندق كورفور ستندام حيث كان ينزل .

كان الليل حاراً . وقد هطل المطر : ولكن هذا الوابل القصير العنيف البعيد عن تلطيف الجو ، ترك في الشوارع بخار مخنقة . وتداركاً للاضطرابات فان اضواء المخازن كانت مطفأة ، ومع ان الساعة لم تبلغ العاشرة فان برلين كانت تقدم ذلك المظهر الاحتفالي القاتم الذي لا تتخذه عادة الا في الساعات الأخيرة من الليل. كان نظر الكولونيل يشرد لاهياً على مناظر العاصمة الواسعة. ويفكر مسروراً بالنتائج العملية لرحلته وبالتقرير الذي سوف يقدمه غداً في فيينا الى الجنرال فون هوتزندورف . وكان عند جلوسه قد وضع آلياً حقيبته بجانبه . وانتبه اليها واستعادها ليحفظها على ركبتيه. كانت حقيبة جميلة جديدة من الجلد الاشقر ، ذات قفل منكل ؛ نموذج دارج ، جميل ، جدير باجتياز عتبة غرفة وزارية ؛ وكان قد اشتراها من احد الدباغين في كورفورستندام لحاجات مهمته ، عند وصوله الى برلين .

حين وقفت السيارة امام الفندق أسرع البواب الى امام الكولونيل وسار به ، وهو يقوم بالتحيات ، حتى مدخل القاعة الكبرى . وتوقف ستولباخ أمام المكتب ليصدر امراً كي يأتوه بطعام خفيف ،وليعدوا له حسابه لأنه يرغب في ركوب قطار الليل السريع . ثم بلغ المصعد بخطى سريعة ، رغم بدانته ، وأصعد إلى الطابق الاول .

في الرواق الفسيح ، المضاء المقفر ، كان احد الخدم جالساً على مقعد صغير على باب المكتب . لم يكن ستولباخ يعرفه ؛ ويجب أن يكون البديل لخادم الطابق . ونهض الرجل حالاً ومشى امام الكولونيل وفتح له باب شقته؛ وأدار معكس التيار وأسدل الستار الخشبي . كانت الغرفة ذات نافذتين ، مرتفعة السقف ، مغطاة بورق اسود ذي رسوم ذهبية ، وتتصل بغرفة زينة من السيراميك الأزرق .

— اليس السيد الكولونيل بحاجة إلى شيء ؟

— كلا . لقد اعددت حقيبتي واريد فقط ان استحم .

— ايسافر السيد الكولونيل مساء ؟

— نعم .

والقى الخادم نظرة لامبالية نحو الحقيبة التي كان الكولونيل عند دخوله قد وضعها بقرب الباب ، على كرسي ، ثم لما القى ستولباخ قبعته على السرير وأمر منديله على قبعته الجرداء حيث يتلألأ العرق ، دخل الخادم إلى غرفة الزينة وأجرى الماء . وحين عاد الى الغرفة ، فان المبعوث فوق العادة رئيس أركان حرب الجيش النمساوي كان بلباس داخلي من الحرير الأشقر وبالجورب . والتقط الخادم الحذاء المكسو بالغبار ، والذي كان ملقى على الطنفسة ، وقال وهو يترك الغرفة :

— سآتي به بعد لحظة .

لم تكن غرفة الحمام والمكتب مفصولين إلا بحاجز رقيق . والخادم ، واذنه على الجدار كان يترصد الضجيج وهو يحيل قطعة قماش قطني على الحذاء. وابتسم عند سماعه جسد الكولونيل الثقيل يغطس في الماء محدثاً جلبة . وعندئذ اخرج من خزانته حقيبة جميلة جديدة من الجلد الاشقر ذات قفل منكل ، محشوة باوراق قديمة ، فغلفها بصحيفة ووضعها تحت ابطه ، وأخذ الحذاء بيده وجاء يطرق باب الغرفة . فصاح ستولباخ :

— ادخل !

فقال الخادم لنفسه حالاً : « عملية فاشلة » . وبالفعل فقد كان الكولونيل قد ترك باب غرفة الحمام مفتوحاً على مصراعيه . وكان يبدو من الغرفة طرف المغطس حيث تبرز جمجمة وردية اللون .

وبدون ان يلح ، وضع الغلام الحذاء على الارض وخرج برزمته .

والكولونيل الغاطس في الماء الفاتر حتى ذقنه ، كان يغوص بلذة حين انطفأ النور فجأة . وغرقت الغرفة وغرفة الزينة معاً في الظلام . فصبر ستولباخ بضع دقائق . ورأى انهم تأخروا باصلاح التيار الكهربائي ، فتلمس طول الجدار ووجد الجرس ، واستند على الزر غاضباً .

فارتفع صوت الخادم في ظلام الغرفة :

– هل رن السيد الكولونيل الجرس ؟

– ماذا يجري ؟ هل توقفت الكهرباء في الفندق ؟

– كلا ، فالمكتب مضاء .. انها دون شك رصاصة الغرفة قد انفجرت . سأصلحها .. قضية لحظة .

ومضت دقيقة طويلة .

– وبعد ؟

– ليعذرني سيدي الكولونيل .. اني ابحث عن قاطعة التيار .. وكنت اعتقد انها هنا بقرب الباب .

ورفع الكولونيل رأسه خارج الماء ، وحملق بعينيه نحو الغرفة السوداء حيث سمع الخادم يبحث . وقال الصوت :

– لا اجد . ليعذرني سيدي الكولونيل .. سأرى في الخارج . فقاطعة التيار في الرواق دون شك .

وخرج الخادم برشاقة من الغرفة وركض الى مكتبه ، ووضع حقيبة الكولونيل في مكان امين واسرع باعادة التيار .

بعد ثلاثة ارباع الساعة ، حين كان يتجفف الكولونيل الكونت ستولباخ فون بلومانفيلد باعتناء ، ووضع عطراً وارتدى ملابسه ، وشرب شايه ،

واكل قطعة الخنزير والفواكه واولع سيكاراً ، استشار ساعته ، ومع ان الوقت قد تقدم به ،فلم يكن يحب الاستعجال – فكلم المكتب بالهاتف ليأتوا ويأخذوا محفظة ثيابه .

وقال لحامل الامتعة الذي استولى على الحقيبة الصفراء الموضوعة قرب الباب علـــى كرسي :

– كلا .هذه احملها بنفسي .

واخذها بيديه وتأكد بلمحة عين اذا كان القفل مقفلاً ، ووضعها بوقار تحت ابطه ، وخرج من الغرفة بعد ان تأكد انه لم ينس شيئاً : لقد كان دائماً على شيء كثير من النظام .

وقبل ان يترك الطابق بحث عن الخادم ليعطيه اكرامية . كان الرواق مقفراً ، فدفع باب المكتب . الغرفة فارغة . واختفى الرجل .

فدمدم الكولونيل : تباً لهذا الأبله .

وراح يأخذ القطار السريع الى فيينا .

وفي نفس الساعة تقريباً . كان الطالب الجنيفي إيبرله (جان سباستيان) يصعد الى قطار بروكسل في محطة فريدريكستراس . لم يكن يحمل معه أي متاع : لا شيء سوى رزمة تشبه كتاباً كبيراً مغلفاً . فقـــد اتسع الوقت لتروتنباخ ليكسر القفل ويلف الوثائق في صحيفة ، ويخفي الحقيبة الجميلة ذات الجلد الاشقر ، والتي تعرّض للخطر دون فائدة .

وكان جاك يقول لنفسه : « لو قُبض علي في الاراضي الالمانية وهذا الملف تحت ابطي ...» ولكنه رأى ان من السخرية ان تتحول «مهمته» الى هذا الخطر الوحيد الذي كان يلهو بـه ويأبى ان يرى فيه خطراً . وفكر بغضب : « اقلقت جني من غير جدوى ! »

وأثناء الطريق راح يفتح الرزمة في دورة الميـــاه ويوزع الاوراق جهد استطاعته في جيوبه وبطانة ثيابـــه ليتجنب أسئلة رجال الجمرك . وزيادة في

الاحتياط ، في احدى آخر المحطات الألمانية ، نزل يشتري سكاير ليكون معه شيء يعلن عنه على الحدود .

ورغم كل شيء فإن زيارته للجمرك جعلته يقضي بضع دقائق كريهة . وحين تأكد من سير القطار أخيراً على خطوط بلجيكا ، انتبه عندئذ فقط إلى أنه مغمس بالعرق . فقبع في زاويته ، وصالب ذراعيه على سترته المزررة باعتناء واستسلم إلى النوم بلذة .

٥٠

من أعلى إلى أسفل الطوابق الستة كان بيت الشعب في بروكسل يدوي كعشّ الزنابير . فمنذ الصباح ، كان المكتب الاشتراكي الدولي يعقد جلسة استثنائية . وهذا الجهد الملحاح لإحباط السياسة الامبريالية للحكومات جمع في العاصمة البلجيكية ليس فقط جميع زعماء الأحزاب الاشتراكية الأوروبية ، بل عدداً كبيراً من المناضلين الآتين من كل مكان والعازمين على أن يكونوا لاجتماع الاحتجاج الذي ينعقد مساء هذا الأربعاء في السيرك دوي دولي .

وبفضل المال الذي استطاع مينستريل أن يضعه تحت تصرف الجماعة — (لم يكن أحد يعرف كيف يغذي الربان وريشاردلي نفقات « المكان » السرية) — فإن اثني عشر منهم جاؤوا إلى بروكسل وانتخبوا مكاناً لتجمعهم معملاً للجعة في شارع الهال ، **حانة الأسد** ، بالقرب من شارع أنباك .

وهناك وجد جاك أصدقاءه ، وهناك أوكل إلى مينستريل أمر رزمة وثائق ستولباخ . (وكان الربان قد ذهب حالاً وأغلق على نفسه في غرفته في الفندق ليجري فحصاً أولياً على الغنيمة . وكان على جاك أن يلحق به بعد قليل) .

وقوبل ظهور جاك بهتافات فرحة ، وكيلليف الذي شاهده أولاً رفع صوته :

— تيبو ! ما أحسن أن نراك ثانية ! كيف الحال ؟ ها ! بحرارة !

جميع رواد « المكان » كانوا هناك : مينستريل والفريدا ، وريشاردلي ،

وباترسون ، وميتورغ ، وفانهيد ، وبيرنيه ، وسافريو تاجر العقاقير ، وسرجي بافلوفيتش زيلافسكي ، والأب بواسوني الصغير البطين ، وسكادا « التأملي الأسيوي » ؛ وحتى الصبية اميلي كارتيه الوردية الشقراء تحت خمار المرضة الذي كان كيلليف يريد منذ الرحيل أن يجبرها على خلعه « بسبب أيام الحر الشديد » .

وكان جاك يبتسم لجميع تلك الأيدي الممدودة ، سعيداً – وأكثر سعادةً مما كان يعتقد – لأنه وجد من جديد ، وفجأة ، في معمل الجعة البلجيكي ، جو اجتماعات جنيف الحار . وقال كيلليف الذي كان يظن ان جاك قد جاء من فرنسا :

– هيه ! بيه ! إذن فقد أعفوك من السيد كايو ؟ ماذا تشرب ؟ انت أيضاً تشرب من جعتهم ؟ (كان يحتقر « شراب فتيان الشمال » هذا ، وظل مخلصاً لشراب الفرموت الصرف) .

ومرح كيلليف الصاخب كان يعبر جيداً عن التفاؤل العام الذي كان لا يزال يسيطر في هذه الأيام الأخيرة على جنيف : مناقشات « لابارلوت » ، التي كان مينستريل لا يحضرها إلا في النادر ، لم تحد قيد شعرة عن صعيد الأممية الغامض ؛ ومظاهرات السلم الأوروبي المتنوعة كانت تسجل في هذه المناقشات بحماسة لم تستطع أن تنال منها الأخبار الأقل دعوة للاطمئنان . ومجيء الجماعة إلى بروكسل ، واحتكاكاتها الأولى بالمندوبين الأوروبيين الآخرين ، ووجود الزعماء الرسميين ، وهذا التحالف الاحتفالي لعمل مشترك ضد الحرب ، كان بالنسبة إلى معظمهم أكثر من شهادات على تعاضد دولي عامل وواثق من النصر . وكانت برقيات الصباح قد أنبأتهم بإعلان النمسا الحرب على الصرب . وكذلك قذف بلغراد بالقنابل الذي بدأ منذ الليلة الماضية ؛ ولكنهم خُدعوا بسهولة وفقاً لمعلومات صادرة عن مذكرة نمساوية من أن القلعة وحدها تلقت بعض القذائف ، وإن هذا الضرب بالقنابل لا أهمية حقيقية له : نوع من التحذير ، من الدليل الرمزي ، وليس بدء أعمال عدوانية .

وكان بيرنيه قد اجلس جاك بالقرب منه . وكان قـد قضى فترة الصباح في بار « الاطلانطيك » ، مركز البعثة الفرنسية ، وحمل منه صدى آخر اخبار باريس . وروى أن جماعـة الاشتراكيين في مجلس النواب ، بقيادة جوريس وجول غيسد ، اجرت البارحة في الكه دورسي محادثـة طويلة مع الوزير بالوكالة. وعلى أثر هذه الزيارة كتب نواب الحزب تصريحاً عاماً أعلنوا فيه بقوة أن « فرنسا وحدها تستطيع أن تقرر مصير فرنسا » . وأن البلاد ، في أية حالة كانت لا يمكن أن « تُلقى في نزاع رهيب بسبب تأويل معاهدات سرية » . وقد طالبوا أيضاً « في أقصر مهلة ، بدعوة المجلس الى الاجتماع رغم العطلة البرلمانية » . اذن فالاشتراكية الفرنسية كانت تستعد لنقل الكفاح الى الصعيد البرلماني . وكان بيرنيه متأثراً بنشاط وهدوء وأمل البعثة الثابت . وجوريس ، أكثر من أي فرد ، كان يتظاهر بثقة صلبة . وتليت كلماتـه الحديثة العهد بكبرياء . فقـد سمعوه يقول لفاندرفيلد : « سترون ، سيكون هذا كما في أغادير ، سيكون هنـاك عالون وسافلون ، ولكن الأمور لا يمكن إلا أن تتسوّى » . وكانوا يروون أيضاً ، كأكبر برهـان على تفاؤل المعلم ، ان لديه ساعة لا عمل فيها بعد غدائه ، فكان يذهب ويقضيها باطمئنان أمام مجموعة فان إيك في المتحف .

وقال بيرنيه :

– لقد رأيته ، وأؤكد لكم أن مظهره لم يكن مظهر رجل خمدت همته . فقد مر بجانبي بحقيبته الثقيلة التي رفعت كتفه ، وقبعته ذات الرفارف المسطحة ، وسترته السوداء ... له دائماً هيئة استاذ ذاهب الى إلقاء دروسه .. وقد أعطى ذراعه لرجل لا أعرفه ، وقيل لي فيما بعد أنه هاز ، الألماني .. سترون .. لقد توقف الالماني تماماً في اللحظة التي مرّا بها من أمام طاولتي . وسمعتـه يقول بالفرنسية ، وبلهجة رديئة : « القيصر (الالماني) لا يريد الحرب . انه لا يريدها فهو كثير الخوف من « النتائج » . عندئذ لفت جوريس رأسه ، لامع العين ، والابتسامة على الشفتين . وأجـاب : « حسناً ، دعوا القيصر فقط يؤثر على

النمسا بفعاليـــة . وسنعرف ، عندئذ في فرنسا ، ان نجبر حكومتنا على التأثـير على روسيا ! » أمام طاولتي بالضبط .. لقـــد سمعت الاثنين كما تسمعونني هنا .

فتمتم ريشاردلي :

– التأثير على روسيا ... لقد حان الوقت !

والتقت نظرة جاك بنظرته ، وشعر ان ريشادرلي – الذي يعكس في ذلك نفسية مينستريل دون شك – كان بعيداً جداً عن مشاطرة التفاؤل العام . وهو شعور اكده ريشاردلي على الاثر ، لأنـــه اضاف ، وقد انحنى على جاك ، بنبرة استفهامية وبصوت منخفض :

– هذا يدعو الى التساؤل اذا كان اولئك الذين يقودون فرنسا قـــد قبلوا الحرب ضمناً ، بقبولهم قيام روسيا بالتعبئة ، وبقبولهم ان تجيب روسيا عـلى التحدي النمساوي بتحدٍ آخر ، وعلى الانذار الالماني بعدم الاهتمام به .

فقال جاك محدداً دون كثير من اليقين :

– التعبئة الروسية ليست إلا جزئية .

– تعبئة جزئية ؟ اي فرقٍ بينها وبين تعبئة عامـــة متنكرة من قبيل الاحتياط .

وصوت ميتورغ الذي كان جالساً عـــلى المقعد في الداخل ، بالقرب من شارشوفسكي وريشاردلي ارتفع عنيفاً :

– روسيا ؟ كن واثقاً انهـا تعبىء جيشها ! ان روسيا واقعة بين ايدي العسكريين القيصريين . وجميع حكومات اوروبا اليوم تبدو سجينة قوى رد الفعل . سجينة نظام ايضاً ، سجينة طريقة هي بحاجة الى الحرب بسبب كيانها نفسه ! هذا هو الواقع ياصديقي ! تحرير السلاف ؟ ذريعة ! ان القيصرية لم تفعل شيئاً آخر سوى اضطهاد السلاف ! ففي بولونيا سحقتهم ! وفي بلغاريا تظاهرت بتحريرهم لتبقيهم مضطهدين بصورة أفضل ! والحقيقة ، فهي المعركة القديمة التي تبدأ من جديد بين العسكرية الروسية والعسكرية النساوية .

على الطاولة المجاورة كان بواسوني و كيلليف وباترسون وسافريو يتجادلون حول نوايا حكومة برلين التي لا يسبر غورها . لماذا يرفض القيصر (الالماني) القيام بوساطته بينما هو يضاعف الاحتجاجات السلمية ، بينما نصيحة صلبة قليلاً كانت تكفي لارغام فرنسوا جوزيف على الاكتفاء بنجاح دبلوماسي هـو باهر منذ الان ؟ ليس لالمانيا اية فائدة في ان تجتاح الجيوش النمساوية الصرب . فلماذا تعريض المانيا واوروبا لخطر كهذا ، اذا كانت لا تريـد الحرب كما اكد الاشتراكيون الديموقراطيون ؟ وقد لاحظ باترسون ان موقف بريطانيا لم يكن تحديده اكثر سهولة .

وقال بواسوني كمن يضرب مثلاً :

– كل انتباه اوروبا يتوجه نحو انكلترا . فبسبب الاعلان النمساوي للحرب، والذي قطع المحادثات من الجانبين بين فيينا وبطرسبورج ، فان المفاوضات لا يمكن متابعتها إلا بواسطة لندن . ودور انكلترا التحكيمي يتخذ الآن أهمية متزايدة.

وباترسون الذي اسرع منـــذ وصوله الى بروكسل لرؤية ابناء وطنه الاشتراكيين ، اكد انهم في المفوضية الانكليزية شعروا بقلق كبير بسبب اشاعة تدور في وزارة الخارجية : بين المحيطين بغراي شخصيات ذات نفوذ مصابة بالذعر لفكرة ان احتجاجات الحياد يمكن ان تساعد ، بصورة غير مباشرة ، المخططات الحربية للامبراطوريات الوسطى ، وتدفع الوزير ، كما قيل ، على ان يحزم امره ، او على الاقل يحذِّر المانيا من ان الحياد الانكليزي في حالة احتمال نزاع نمساوي – روسي لا يعود موضع بحث . ولا يمكن ان يكون الامر نفسه في حالة افتراض حرب فرنسية – المانية . والاشتراكيون الانكليز المخلصون للحياد كانوا يخشون الا يخضع غراي لهذا الضغط؛ وفضلاً عن ذلك فان تصريحاً بهذا المعنى اليوم لا يلاقي لدى الرأي العام الانكليزي نفس الاستحسان الذي لاقاه في الاسبوع المنصرم : وبالفعل ، فان قساوة الانذار المفرطة ، واصرار النمسا على مهاجمة الصرب قد أثارت فيما وراء البحر الاشمئزاز العام ضد فيينا.

وجاك المنهوك بسبب سفره كان يتابع كل هذه المجادلات باذن متعبة قليلاً .

والسرور الذي شعر به لرؤية هذه الوجوه الصديقة من جديد قد تلاشى بأسرع مما كان يريد .

ونهض ليقترب من الطاولة التي كان يتحدث حولها فانهيد الصغير وزيلافسكي وسكادا بصوت منخفض .

وكان الشاحب الوجه يتمتم بصوته الزامر :

ـ يعيش الناس اليوم جنباً إلى جنب ، وكل امرىء يعمل لنفسه دون أي إحسان .. في هذا الأمر يجب التغيير يا سرجي ... في قلب الانسان اولاً ... فالاخوة امر لا يحدث من الخارج ، بواسطة القوانين .. – وابتسم لحظة لملائكة غير منظورين ، وتابع : ـ وبدون ذلك ، بامكانك تحقيق **نظام** اشتراكي ،نعم. اما تحقيق **الاشتراكية** ، فهذا ، كلا : انك لم تبدأ بعد .

ولم يكن قد رأى جاك يأتي إلى جانبهم . وشاهده فجأة فاحمر وجهه ، وسكت .

وكان سكادا قد وضع على قدح الجعة بعض الكتب غير المجلدة (كانت جيوبه دائماً منتفخة بالمجلات الدورية والكتب) وتطلع جاك إلى العناوين لاهياً: إبيكتيت .. **مؤلفات** باكونين ، الجزء الرابع .. اليزيه ريكوس : **الفوضوية والكنيسة** ..

وانحنى سكادا على زيلافسكي . ووراء عدستي نظارتيه السميكتين نصف سنتيمتر، كانت عيناه الكرويتان الكبيرتان بشكل غير قياسي تتدفقان كبيض مطبوخ لم يُمزج . وقال موضحاً بعذوبة . وهو يحك شعره المجعـــد المحلوق بأظافره ، وبانتظام أهوس :

ـ أنا ، لا أشعر بأي ملل . لا اريد الثورة لنفسي . انها سوف تحدث في عشرين ، في ثلاثين ، وربما في خمسين سنة ! انا اعرف ذلك . وهذا كل ما انا بحاجة اليه لأعيش واعمل ...

وفي الداخل عاد ريشاردلي الى الكلام. فارهف جاك اذنه . كان يبحث عن فكرة الربان من خلال تأكيدات ريشاردلي التنبؤية – الحرب سوف تجبر الدول على

ملاشاة سلبيتها في إسقاط قيمة النقد . انها تعجل بافلاسها ، وبنفس الضربة تفقر المدخرين الصغار ، وسوف تحدث البؤس العام بسرعة كبيرة . وسوف تحشد ضد النظام الرأسمالي كدسة من الضحايا الجدد يأتون الينا . وسوف تلغي بصورة آلية ..

فقاطعه ميتورغ . وأخذ بواسوني وكيلليف وبيرنيه يتكلمون كلهم دفعة واحدة .

وانقطع جاك عن الاصغاء . وتساءل : « هل انا تغيرت ؟ هل هم ؟ » كان يحلل سبب قلقه بشكل سيء : « هـــذا التهديد بالحرب فاجأ جماعتنا ... وفسّخها.. كل واحد يعمل على طريقته ، وفقاً لمزاجه .. حاجة عمل ، نعم .. عامة ، عنيفة . ولكن ما من احد منا يصل الى ارضائها . لقد ظلت جماعتنا معزولة ، غريبة ، دون أطر ، دون نظام .. ممن الخطأ ؟ ربما من مينستريل». وقال لنفسه وهو يتطلع بالساعة : مينستريل ينتظرني .

واقترب من الفريدا الجالسة إلى جانب باترسون :

ـ أي قطار كهربائي استطيع ركوبه لأصل إلى فندقكم !

فقال باترسون ناهضاً :

ـ تعال سنقودك قليلاً . فريدا وانا .

كان على موعد مع اشتراكي انكليزي ، صديقٍ لكير ـ هاردي ، فأخذ ذراع جاك وسار به إلى خارج الحانة تتبعه الفريدا . وقد بدا ناشطاً جداً . فصديق كير ـ هاردي ، وهو صحفي في لندن ، حدثه عن تحقيق يقوم به في ارلندا لإحدى صحف الحزب . فاذا تقرر الأمر فان بات سيبحر غداً منـــذ الفجر إلى انكلترا . وقد بعث ذلك فيه الاضطراب : منذ السنوات الخمس التي قضاها في القارة لم يجتز القناة ابداً .

كانت الشمس تصفع بقوة ، وكان البلاط محرقاً . ما من نسمة تخفف الخمود الذي يثقل على المدينة . دون سترة ، دون غليون ، قبعته الصغيرة ، قميصه المفتوح على عنقه الابيض ، ساقاه الطويلان في بنطلون قديم من الفانيلا، لقد كان

لباترسون ، اكثر من اي وقت ، هيئة طالب من جامعة او كسفورد في رحلة .
كانت الفريد تمشي بجانبهما ، وثوبهـــا القطني الازرق ، المخفف لونه بسبب الماء ، قد اتخذ الصبغة الدقيقة لزهور الكتان ، بأهدابها السوداء ، وأنفهـــا الصغير المغضّن ، وعينيها الكبيرتين كعيني دمية ، وهيئتها العاقلة ، وذراعيها المتدليين ، بحيث تُحسب انها طفلة . كانت تصغي دون ان تقول شيئاً ، جرياً على عادتها . الا إنها سألت بارتجاف خفيف في الصوت :
– اذا ذهبت ، فمتى تعود إلى جنيف ؟
فتجهم وجه الانكليزي وقال : لا أدري .
وبدت مترددة ، ورفعت نظرها اليه ، وخفضت جفونها على الاثر بحركة سريعة جعلت ظل الاهداب يرتجف على خديها ، وتمتمت :
– أتعود يا بات ؟
فقال بحيوية : نعم .
وترك ذراع جاك ، واقترب من المرأة الشابة ووضع يـــده الكبيرة على كتفها بمودة :
– نعم يا عزيزتي .. لا ريب في ذلك .
وقطعوا قسماً من الطريق دون كلام .
وكان باترسون قد اخرج غليونه من فمه . وكان ، وهو يمشي قالبـــاً رأسه قليلاً ، يتفرس بجاك كما ينظر المرء الى متاع :
– اني أفكر بصورتك يا تيبو.. جلستان ايضاً.. جلستان صغيرتان وأنتهي منها .. يوجد قدر مشؤوم على تلك القماشة يا عزيزي .
وانفجر بضحكته الدالة على الشباب، ثم حين اجتازوا مفترق طرق التفت نحو جاك ، ودله بمكر على بيت صغير منخفض في زاوية شارع صغير .
– أنظر جيداً : هنا يسكن الشاب وليم ستانلي باترسون . غرفـة نومي واسعة . فاذا اردت يا عزيزي ، بنصف علبة تبـغ ، أقدم لك نصفها .
ولم يكن جاك قد استقر بعد في غرفة ، فابتسم :

– قبلت .
– في الطابق الأول ، النافذة مفتوحة .. الغرفة رقم ٢ . هل ستتذكّر ؟
وكانت الفريدا جامدة ، وعيناها مرفوعتان ، تنظر إلى نافذة باترسون .
وقال الانـكليزي لجاك :
– يجب الآن أن نفترق . أترى المحطة ؟ إن شارع الربان وراءها تماماً .
فسأل جاك المرأة الشابة ، معتقداً أنها ستعود إلى بيتها معه :
– أتدلينني ؟
فارتجفت وتطلعت إليه . كانت حدقتاها متمددتين كأنهما مليئتان بحيرة مؤثرة .
وسادت لحظة صمت . وقال الانـكليزي بتراخ :
– كلا . الآن تذهب وحدك . وداعاً يا عزيزي .

٥١

طوال هذين الأسبوعين الأخيرين كان مينستريل يردد : « الحرب على الحرب » ، بجدة كرفاقه في « المكان » . ولكن لا شيء كان يزعزع يقينه بأن جميع الأعمال التي قامت بها الأممية ضد الحرب لم تتوصل إلى منعها . وكان يقول لالفريدا : « الحرب واجبة لأجل خلق وضعٍ ثوري حقيقي . ما من أحد يستطيع القول فيما إذا كانت الثورة ستنبثق من هذه الوضعية ، أو من حرب تالية ، أو من أزمة نظام آخر . فهذا يتوقف على كثير من الأمور .. يتوقف كثيراً على « الانتصارات الأولى » . فمن سينالها أولاً ؟ الجرمانيون أم الفرنكو – روسيون ؟ هذا أمر لا يمكن التكهن به .. وبالنسبة إلينا فالمسألة ليست هنا . ان الخطة الواجب اتباعها في هذه اللحظة بالنسبة إلينا هي التصرف **كما لو كنا** واثقين من استطاعتنا تحويل حربهم الاستعمارية إلى ثورة بروليتارية .. زيادة خطورة وضعية ما قبل الثورة بجميع الوسائل . يعني : توحيد جهود جميع الإرادات الصالحة السلمية من أي مكان أتت ؛ ومساعدة البلبلة بجميع

الوسائل ! إحداث أكثر ما يمكن من الاضطرابات ! عرقلة مشاريع الحكومة إلى أقصى درجة ! » وكان يفكر بينه وبين نفسه : «بشرط عدم تجاوز الهدف ؛ وتجنب كل مناورة قليلة الجدوى والتي يخشى أن تؤخر الحرب » .

وعند وصوله إلى بروكسل كان قد سكت عمداً بعيداً عن « التافيرن » . كان يسكن وراء محطة الميدي في بيت صغير في داخل ساحة .

وبعـــد أن قضى ساعتين وحده في غرفته ، وحيداً مع وثائق ستولباخ ، أصبح على يقين من تواطؤ أركان حرب الجيشين الجرمانيين ؛ والبراهين كانت هنا، لايمكن دحضها ! كانت الغنيمة التي أتى بها جاك مؤلفة فقط من ملاحظات أخذها ستولباخ يومياً أثناء المحادثات التي أجراها الكولونيل في برلين مع أركان الجيش ووزير الحربية . ملاحظات تفيده دون شك في تحرير الرسائل التي كان يرسلها إلى فيينا بعد كل محادثة . وهذه الملاحظات ليس فقط كانت تلقي ضوءاً قوياً على حالة المفاوضات بين أركان حرب الجيشين ، بل كانت توضّح ، بواسطة إشارات عديدة إلى الماضي القريب ، تاريخية المفاوضات بين فيينا وبرلين أثناء الأسابيع الماضية . وفائدة هذه الاكتشافات المتعلقة بالماضي كانت عظيمة : لقد أكدت لدى مينستريل الشكوك التي أوصلها إليـه في جنيف هوسمر الاشتراكي بواسطة جاك وبوهم ، في ١٢ تموز ؛ وقد أتاحت له أن يعيد بناء كل تسلسل الوقائع .

بعد بضعة أيام من عمليـــة الاغتيال في ساراجيفو ، أخذ برختولد وهوتزندورف يعملان ليجعلا امبراطورهما الهرم يقرر اغتنام الظروف وإعلان التعبئة حالاً ، وسحق الصرب بقوة السلاح . ولكن فرنسوا جوزيف بدا حروناً : كان يعترض بأن عملاً عسكرياً نمساوياً سوف يصطدم بفيتو القيصر الألماني . وكان مينستريل يقول لنفسه : « آه ! آه ! هذا ما يثبت أنه كان يرى بوضوح آنذاك خطر تدخل روسي وخطر حرب عامة » .. ولـكي يتغلّب برختولد على مقاومة مليكه خطرت له فكرة جريئة ، بأن يسرع بإرسال رئيس غرفته الخاص الكسندر هويوس إلى برلين بمهمة الحصول على موافقة

ألمانيا . وكما كان يُنتظر من ذلك ، فإن هويوس اصطدم أولاً برفض القيصر الألماني والمستشار ، اللذين كانا فعلاً يخشيان ردود الفعل الروسية ، ولم يكونا يهتمان أبداً في أن تجرّهما النمسا إلى حرب أوروبية . وعندئذ دخل الحزب العسكري البروسي إلى المسرح . ووجد هويوس فيه مساعداً مستعداً تمام الاستعداد وقوياً جداً . ورئاسة الأركان الألمانية ، منذ شباط ١٩١٣ لم تكن تجهل شيئاً عن الخطر السلافي ، ولا عن المؤامرات التي تحاك بين الصرب وروسيا ، ضد النمسا - وبالنتيجة ضد ألمانيا . حتى أنها كانت ترتاب ببطرسبورج بأنها ضالعة بالتواطؤ مع بلغراد ، بشكل غير مباشر يكثر اويقل ، في حادثة الاغتيال في ساراجيفو . ولكن الجنرالات الألمان كانوا يجاهرون ، كحقيقة بديهية ، أن روسيا لا تستطيع ، ولا بأي حال ، أن تقبل باحتمال حرب آتية وانها لن تدع نفسها تنقاد في أية مغامرة قبل سنتين على الأقل - قبل أن ينتهي تسليحها .

وقادة الجيش الألماني ، مدفوعين بهويوس ، قد توصلوا إذن إلى إقناع غليوم الثاني وبتمان انه في حالة أوروبا الحاضرة ، فإن الخطر من أن يحرك التشدد الروسي نزاعاً عاماً أصبح ضعيفاً ؛ وان للنفوذ الجرماني بذلك فرصة غير مأمولة ليتوطد بشدة . وكذلك فإن هويوس استطاع أن يحصل على تفويض مطلق للنمسا ، وحمل إلى فيينا وعداً بأن ألمانيا سوف تساند حليفتها في جميع مطالبها دون ضعف . الأمر الذي أوضح أخيراً سياسة النمسا غير المفهومة في هذه الأسابيع الأخيرة ، وأثبت ، فضلاً عن ذلك ، أن القيصر (الألماني) وحاشيته منذ تلك اللحظة قبلوا ، بشكل أقل وأكثر غموضاً ، إمكان حدوث حرب عامة ان لم يكن احتمال حدوثها .

وقال مينستريل لنفسه : « من حسن الحظ انني وضعت أنفي هنا وحدي . مع القول انني كدت آتي بجاك وريشاردلي لمساعدتي ! » .

كان واقفاً منحنياً على السرير حيث نشر الوثائق ، لعدم وجود المكان ، رزماً صغيرة مصنّفة بإيجاز . وأخذ الملاحظات التي وضعها إلى يمينه ،

والتي كانت كلها تتعلق بالماضي ، بشكل أقل أو أكثر ، بالحوادث منذ أول تموز ، فوضعها في غلاف وختمه بعد أن كتب عليه رقم واحد .

ثم ادنى كرسياً وجلس . وقال لنفسه ، جاذباً نحوه الملاحظات التي نضدها إلى شماله : « كل هذا ، انها مهمة صديقنا ستولبـــاخ .. هذه الرزمة . خطة المعركة النمساوية : التحركات الحربية ، تفاصيل فنية ، ليست من دائرة اختصاصي . للوضع في الغلاف رقم ٢ .. اجل .. اما ما يهمني فهو الباقي .. والملاحظات مؤرخة . فمن السهل إذن إعادة تركيب بقية المحادثات .. هدف المهمة .. بالحروف الكبيرة : **استعجال التعبئة الألمانية** .. هذه هي الأوراق الأولى .. لقاء مع دي مولتكه منذ وصوله إلى برلين ... الخ .. والكولونيل يلح على أن تعجّل رئاسة أركان الجيش باستعداداتها العسكرية .. ولكنه اجيب : « مستحيل ! فالمستشار يعارض بذلك ، ويسانده القيصر (الألماني) » . لماذا هــذه المعارضة من بتمان ؟ انه يصرح : « قبل الأوان ! » لنر الأسباب التي يدلي بها :

أولا – بسبب السياسة الداخلية : انه يتحرّق ضد المظاهرات الشعبية ، ومهاجمات « فورورارتز Vorwârts » الخ .. آه ! آه ! انه في دخيلة نفسه متكدّر من مقاومة الاشتراكية الديموقراطية !

ثانيا – بسبب السياسة الخارجية ؛ قبل كل شيء ان يؤمن لألمانيــا موافقة المحايدين ، والانــكليز بشكل رئيسي . وبعد ذلك ، الانتظار إلى أن يشتد التهديد الروسي : « لأنه في اليوم الذي تجد الحكومة الامبراطورية أمامها روسية اعتدائية بشكل ظاهر » ، فستستطيــع إقناع الاشتراكيين الألمان وأوروبا معاً ان ألمانيا تجد نفسها « في حالة دفاع مشروع » وانها ُجرّت رغماً عنها إلى إعلان التعبئة العامة « بداعي الحيطة » .. وهذا مفهوم ! منطق تام ! ماذا ستكون خطة العمل لدى ستولباخ والجنرالات الألمــان ليرغموا الرفيق بتمان ؟ كل هذه الملاحظات ترى بشكل جيد كيف ولدت مكيدتهم .. المقصود إذن إجبار روسيا دون تأخير على أن ترتكب حيال ألمانيا « عملاً يمكن أن يعتبر

عدائيا » .. « إجبارها مثلاً على إعلان التعبئة العامة » كما أشار ستولباخ في مساء الخامس والعشرين . أسلوب قديم . وبماذا أجيب : « فعلاً . لأجل هذا ، هناك وسيلة جيدة ، وسيلة واحدة وتتوقف على النمسا : **التعبئة النمساوية .. »** ليس هؤلاء الجنرالات بلهاء كما يُظَن ! فقد أدركوا جيداً أنه إذا أقرّ فرنسوا جوزيف تعبئة جيشه كله ، (الأمر الذي لن يكون تهديداً ضد الصرب الصغيرة فقط ، بل انه تهديد قاطع ضد روسيا الكبيرة ، كما كتب ستولباخ) . فسوف يصل القيصر الروسي حتمياً إلى الجواب بإعلان التعبئة العامة . وأمام تعبئة روسيا عامة فإن القيصر الألماني لن يستطيع رفض قرار إعلان التعبئة . ولن يبقى للمستشار ما يقوله : لأن تعبئة المانية تبررها بشكل واضح غزوة روسية ، يمكن فرضها على العالم كله ؛ في الخارج كما في الداخل ؛ على الرأي العام الأوروبي ، كما على الرأي العام الألماني الذي اثير ضد الروس : وتفرض أيضاً على الاشتراكيين الديموقراطيين .. وهذا أمر عادل جداً . ان السودكام Les Sudekum وأصحاب المصالح ملأوا آذاننا بخطرهم الروسي في جميع المؤتمرات ! وبيبل Bebel نفسه ، منذ عام ١٩٠٠ كان يصرّح انه سيحمل بندقية أمام تهديد روسي .. وسوف يجد الاشتراكيون أنفسهم هذه المرة ، قد علقوا بالكلمة ، علقوا بالفخ ! بفخّهم الخاص ! ويستحيل عليهم – يستحيل اشتراكياً ديموقراطياً – الا يتعاونوا مع حكومتهم حين تستعد هذه للدفاع عن البروليتاريا الألمانية ضد الامبريالية القوزاقية ! لعبة مُحكمة ! إذن فالتعبئة العامة النمساوية بعد قليل ! إليكم لماذا يضاعف صديقنا ستولباخ ، منذ وصوله إلى برلين ، رسائله إلى هوتزندورف حتى تتجه النمسا بعزم نحو **التعبئة العامة**.. برافو ! شرك مكيافيلي ينصبه جنرالات برلين لروسيا ، بواسطة النمسا ! واثناء هذا الوقت يدخن القيصر الألماني ومستشاره سيكاريهما باطمئنان دون أن يرتابا بالضربة !

وبحركة اعتيادية لدى مينستريل قرص وجهه بين الابهام والسبابة ، على ارتفاع الاصداغ ، وزحلق أصابعه برشاقة على طول الخدّين حتى

منبت اللحية الضامر .

« ممتاز ، ممتاز .. يسيرون رأساً .. وبسير سريع ! »

والتقط بسرعة الملاحظات المبعثرة على الغطاء ووضعها في غلاف ثالث وردد بصوت منخفض : « من حسن الحظ أنني وحدي وضعت أنفي هنا » !

واستند إلى مسند كرسيه ، وصالب ذراعيه وظل جامداً بضع دقائق . هذه الوثائق جاءت بالتأكيد « بواقع جديد » ذي أهمية عظيمة . فالاشتراكيون الديموقراطيون الألمان ، مع بعض الاستثناءات ، لا يعرفون بهذا التواطؤ بين فيينا وبرلين . وأشد المشنعين ضراوة على النظام الامبراطوري كانوا يرفضون الاعتقـــاد بأن هـذا النظام يرتكب حماقة تعريض سلم العـالم ومستقبل الامبراطورية للخطر ، في سبيل الدفاع عن نفوذ النمسا ؛ إذن فقد قبلوا التأكيدات الرسمية : كانوا يعتقدون ان ولهلمستراس قد « فوجيء » بالانذار النمساوي ؛ وانه لم يكن يعرف مسبقاً محتواه الصحيح ولا صفته الاعتدائية ، وان ألمانيا ، عن حسن نية ، حاولت التوسط بين النمسا وخصومها . وكان الأكثر اطلاعاً بينهم يشتمُّون إمكان وجود بعض التفاهم بين رئاستي أركان الجيشين في فيينا وبرلين . (هاز ، المبعوث الألماني إلى بروكسل ، والذي التقى به مينستريل في الصباح ، حدثه عن المسعى الذي قام به نهار الأحد لدى الحكومة مذكّراً علناً باسم الحزب ان التحالف الجرماني – النمساوي هو دفاعي محض ؛ وبدا قلقاً بشكل غامض من ذلك الجواب الذي اعطي له : « ولكن إذا اتخذت روسيا المبادرة بعمل عدائي حيال حلفائنا ؟ » إلا أن هاز نفسه كان حتى الآن بعيداً جداً عن الافتراض ان التعبئة النمساوية العامة كانت مخصصة للقيام بدور الشخص المعلق به طعم جيد ، والذي يريد الحزب العسكري الألماني إلقاءه إلى روسيا) . هذا البرهان الذي لا يدحض عن التواطؤ الذي كشفت عنه ملاحظات ستولباخ ، يمكن أن يصبح ، إذا وقع بين أيدي زعماء الاشتراكيين الديموقراطيين ، أداة رهيبة في نضالهم ضد الحرب . وسوف يحوّلون حالاً إلى حكومتهم الهجمات العنيفة التي احتفظوا بها حتى الآن

لحكومة فيينا .

وكان مينستريل يقول لنفسه : « أداة ذات قوة انفجارية كهذه ، يمكن ان يتجاوز مفعولها كل ما هو متوقع إذا استعملت جيداً .. نعم : بالمستطاع افتراض كل شيء – حتى اجهاض الحرب عند اللزوم » .

وظل طوال بضع ثوان يتخيل القيصر الالماني والمستشار ، المهددين برؤية هذا البرهان منشوراً في رابعة النهار – او انهما موضع مقاضاةٍ في معركة صحفية لاذعة يخشى منها أن يتحول ضد الحكومة الألمانية ليس الشعب الألماني فقط ، بل الرأي العام العـــالمي . ويصبح موقفهما أمام هذا البرهان ذي الحدين : أما القيام بتوقيف جميع الزعماء الاشتراكيين ، وبهذا يعلنان الحرب بصورة مكشوفة على البروليتاريا الألمانية كلها ، وعلى الأممية الأوروبية (وهو ظن لا يكاد تصوره ممكناً) ؛ واما الخضوع أمام تهديد الاشتراكيين وإعادة الآلة إلى الوراء بسرعة ، ورفض مساعدة النمسا التي وُعد بها هويوس . وعندئذٍ ؟ عندئذٍ ، فإن النمسا التي تُحرم من المساعدة الألمانية لا تجرؤ بالتأكيد على الاستمرار في مشاريعها الحربية ، وتضطر إلى الاكتفاء بمساومة دبلوماسية .. وبذلك يمكن أن تنقلب جميـع خطط الحرب الرأسمالية رأساً على عقب .

وتمتم : هذا موضع نظر !

ونهض ، ومشى بضع خطوات وعاد إلى الجلوس أمام الوثائق :

« والآن أيها الربان ، ليس هناك خطأ في الخطة المتبعة ! هناك حـلّان : اما تفجير الآلة ، واما إخفاؤها ، والاحتفاظ بها إلى ما بعد .. الافتراض الأول ؛ اضع هذه الأوراق بين يدي ليبنخت ؛ وتنفجر الفضيحة . وهنا حالتان يجب أخذهما بعين الاعتبار : الفضيحة أما أن تمنع الحرب واما لا تمنعهـــا . لنفترض أنها لا تمنعها ، وهذا هو المحتمل ؛ فما هي الفوائد ؟ بالتأكيد سوف تذهب البروليتاريا إلى الحرب متأكدة انها خُدعت .. دعاية جيدة للحرب الأهلية .. نعم ، ولكن الريح تهب باتجاه معاكس : يوجد في كل مكان « عقلية حرب » . وهذا واضح جداً هنا في بروكسل .. معرفة ما إذا كان جميـع

زعماء الاشتراكيين الديموقراطيين اليوم يقبلون بتفجير الآلة .. لست متأكداً .. ومع ذلك فلنقبل أنهم ينشرون الوثائق في صحيفة « فورروارتز » . سوف تصادر الصحيفة ؛ والحكومة سوف تكذّب بوقاحة ؛ والحالة النفسية في ألمانيا تبدو اليـــوم انه سيكون للتكذيب من الوزن أكثر من اتهاماتنا .. لنفترض الآن ، ضد كل احتمال ، ان ليبنخت ، بلعبه بأوراق الاستياء الشعبي والنفور العام ، سوف يجعل القيصر الألماني يتراجع ويتوصل إلى منع الحرب . بالتأكيد ستزداد قوة الاممية والوعي الثوري عند الجماهير .. نعم ، ولكن ، ان تمنع الحرب ؟ أفضل ما بيدنا من أوراق » !

وظل بضع ثوان متجمد القسمات ، متوقفاً أمام خطورة المسؤولية الواجب اتخاذها . وقال بصوت منخفض : « ليس بهذا ! ليس بهذا ! ليس هناك سوى واحد بالمئة من الحظ لإمكان منع الحرب ، ولا يجب التعرض لذلك ! » .

بضع ثوانٍ أيضاً . وكان يفكر بشدة .

« كلا ، كلا .. من أية جهة نقلب المسالة .. حالياً ، الحل الوحيـــد : التدقيق في الآلة » ..

وانحنى ، وبحركة حازمة سحب من تحت السرير صندوقة صغيرة : « اخفاء كل هذا . عدم القول لأحد عنه .. انتظار الساعة الملائمة » !

والساعة التي كان يتوقعها ، هي الساعة التي يبدأ فيها الفساد ، حتمياً ، يعمل عمله في جماهير الشعب المجندة ، ولتعجيل هذا الفساد ، لتسميمه ، لن تهمل استطاعة القيام بضربة كبيرة بافشاء هذا البرهان القاطع على دسائس الحكومات .

وابتسم ابتسامة مقتضبة ، ابتسامة رجل به مس : « على ماذا تتوقف الأمور ؟ الحرب ، وربما الثورة ، تتوقفان الى حدٍ ما على ثلاثة غلافات هي معي هنا » !

واخذها بين يديه وصار يروزها آلياً .

وطرق احدهم الباب :

ـ أهذا أنت يا فريدا ؟
ـ كلا ، تيبو .
ـ آه !
ورتب الغلافات بسرعة في الصندوق الصغير وأقفله بالمفتاح قبل أن يذهب ويفتح الباب .
وغريزياً ، كانت اول حركة لجاك أن يلقي على فوضى الغرفة نظرة دائرية بحثاً عن الأوراق . وسأل مينستريل ، خاضعاً لحركة معاكسة ، شبه قلقة ، كبحها حالاً :
ـ ألم تعد فريدا معك ؟
ثم تابع مجاملاً ، ومشيراً بحركة الى فوضى الثياب النسائية التي تزحم المقعدين الموجودين في الغرفة :
ـ لم أعرض عليك الجلوس . ومع ذلك فأنا على وشك الخروج . أود أن أرى قليلاً ما يفعلون في بيت الشعب .
وسأل جاك :
ـ و ... تلك الأوراق ؟
كان الربان وهو يتكلم يدفع الصندوق الصغير تحت السرير . وقال بهدوء :
ـ اعتقد تماماً أن تروتنباخ قد ذهب تعبه ضياعاً . وأنت ايضاً .
ـ صحيح ؟
كان جاك منذهلاً أكثر منه مذعوراً . ففكرة عدم فائدة هـذه الأوراق لم تساوره أبداً . وتردد بزيادة الأسئلة . إلا أنه جازف :
ـ ماذا فعلت بها ؟
فأشار مينستريل برجله إلى الصندوق الصغير .
ـ كنت أعتقد أن في نيتك إيصال كل ذلك، في هذا المساء ، الى المكتب.. إلى فاندرفيلد ، وإلى جوريس .
فابتسم الربان ببطء : ابتسامة باردة من العينين أكثر من الشفتين، وفي وجهه

الذي تكسوه صبغة كصبغة الموت كانت ابتسامة تلك النظرة جلية جداً وقليلة الانسانية معاً ، بحيث خفض جاك عينيه . وقال مينستريل بصوته الحاد :

– الى جوريس ؟ الى فاندرفيلد ؟ لن يجدا فيها ما يجعلهما يكتبان خطاباً !

وأمام هيئة جاك الخائبة ، أضاف متخلياً عن نبرته التهكمية :

– سوف أتفحص هذه الملاحظات عن قرب في جنيف . ولكن من النظرة الأولى ، كلا ، لا شيء : تفاصيل ستراتيجية ، إحصاءات عن الجنود .. لا شيء يمكن استخدامه في هذه الفترة .

وارتدى سترته وأخذ قبعته .

– أتأتي معي؟ سنسير بهدوء ونتحدث .. يا له من حر ! بروكسل في تموز ، سوف أتذكرها ! أين يمكن أن تكون الفريـــدا ؟ لقد قالت لي أنها ستأتي لتأخذني .. سر وأنا أتبعك .

كان طوال المسافة كلها يسأل جاك عن إقامتــه في باريس ولم يلفظ أية كلمة عن الوثائق .

كان يجر قدمه اكثر من المعتاد . واعتذر عن ذلك بشدة . أثناء الصيف على الخصوص ، وبعد دور تعب ، فإن عضلات ساقـــه تؤلمه احياناً كما آلمته غداة حادث الطيران الذي تعرض له .

ولاحظ بضحكة مقتضبة :

– هذا يجعل مني « كسيح حرب » وستتحسن الحالة بعد شيء من الوقت .

على عتبة بيت الشعب ، حين عزم على الابتعاد ، لمس ذراعه فجأة وقال :

– وأنت ؟ ماذا جرى يا صغيري ؟

– ماذا جرى ؟

– أجدك متغيراً . لا أعرف كيف أقول : متغيراً جداً .

وكان يتفرس به بنظرته القاسية ، السوداء ، الذكية .

وطفت ذكرى جني ، بضع ثوان ، أمام عيني جاك ، فاحمر وجهه . كان

يكره الكذب بقدر ما يكره الايضاح . فابتسم بغموض ولفت رأسه . فقال الربان دون الحاح :

– الى الملتقى القريب ، سأذهب لتناول العشاء مع فريدا في (التافيرن) قبل الاجتماع . سنحتفظ لك بمكان إلى جانبنا .

٥٢

منذ الساعة الثامنة فان الخمسة آلاف مكان في (السيرك) لم تكن وحدها مشغولة فقط ، ولكن الأروقة كانت ملأى بالمتظاهرين الواقفين ، وفي الخارج ، في الشوارع الضيقة التي تحيط بالسيرك كان يتكدس جمهور متحرك ، قدرّه مناضلون متحمسون آنذاك بخمسة أو ستة آلاف شخص .

وبذل جاك واصدقاؤه جهداً كبيراً لشق الطريق والدخول الى القاعة .

والأشخاص « الرسميون » المحتجزون في بيت الشعب حيث لا يزال المكتب الدولي قائماً لم يكونوا قد وصلوا بعد . وسرت إشاعة أن الجلسة هائجة وأنها سوف تمتد إلى وقت متأخر . كان كير – هاردي وفايان منهمكين في الحصول من جميع المبعوثين الحاضرين على مناصرة مبدأ الاضراب العام الوقائي ، والتعهد القطعي ، باسم أحزابهم ، أن يعملوا بجد في بلادهم على تهيئة هذا الاضراب لكي تستطيع الأممية في حالة الحرب ، أن تقيم حاجزاً أمام المشاريع الحربية للحكومات . وقد ساند جوريس هذا الاقتراح بنشاط . وكانت المناقشات تتتابع بعنف منذ الصباح . قضيتان كانتا تتجابهان ، هما نفسهما دائماً. البعض كانوا يرضون بمبدأ الاضراب في حالة حرب هجومية ؛ ولكن في حالة حرب دفاعية – ان بلاداً يشلها الأحزاب تتعرض حتماً لاجتياح المعتدي – وكانوا يساندون المبدأ القائل أن شعباً يتعرض للهجوم ، من حقه ، ومن واجبه أن يدافع عن نفسه بالسلاح. ومعظم الالمان ، وكثير من البلجيكيين والفرنسيين كانوا يعتقدون بذلك واكتفوا بالبحث عن تحديد واضح لا يمارى للدولة المعتدية . والآخرون كانوا يستندون الى التاريخ ، ويستخرجون حجة مقنعة

من الأصداء ذات الدلالة التي ظهرت في هذه الأيام الأخيرة في الصحف الفرنسية والالمانية والروسية . مشهِّرة باسطورة الحرب ذات الدفاع المشروع . وكانوا يقولون: «الحكومة العازمة على جر شعبها الى الحرب» تجددائماًحيلة تجعلهامهاجَمة، أو لتبدو كذلك ! واذا اريد احباط هذه المناورة ، فمما لا بد منه اذن اعلان مبدأ الاضراب الوقائي مقدماً ، بنوع أن الجواب على كل تهديد بالحرب يكون آلياً ؛ ومما لا بد منه أن هذا المبدأ يكون مقبولاً بالاجماع منذ الآن ، وبدون مناص ممكن ، من الزعماء الاشتراكيين في جميع البلدان لكي تستطيع هذه المقاومة الجماعية – الوحيدة الناجعة ، المقاومة بالانقطاع العام عن الشغل – ان تتحرك في ساعة الخطر ، **في كل مكان معاً** ، **وفي وقت واحد** . ولا تزال نتائج هذا النزاع مجهولة ، حيث من الممكن أن يتقرر مصير أوروبا القريب .

وشعر جاك أن هناك من يدفعه بمرفقه . أنه سافريو الذي شاهده ومشى حتى وصل اليه . وقال وهو يسحب عدة أوراق مطوية كان يحتفظ بها كشيء ثمين بين قميصه وصدره :

– بودي أن أحدثك عن الرسالة الجميلة جداً التي تلقاها بالازولو من موسوليني . فقد نسختها على أفضل وجه ... وريشاردلي ترجمها بانشاء جيد لأجل صحيفة (فانال) . سترى .

كانت الضوضاء شديدة اضطرت جاك إلىأن يقرب أذنه حتى شفتي سافريو.

– اسمع ... هذا اولاً : « إن البورجوازية ، بواسطة الحرب ، تضع البروليتاريا أمام هذا الاختيار المفجع : إما التمرد ، وإما الاشتراك بالمجزرة . التمرد يغرق بالدم سريعاً ؛ والمجزرة تحتمي وراء كلمات كبيرة مثل « الواجب ، الوطن ... » أتسمع ؟ وكتب بنيتو أيضاً : « الحرب بين الأمم هي الشكل الأكثر دموية لتعاون الطبقات . البورجوازية مسرورة حين تستطيع سحق البروليتارية على مذبح الوطن .. » وأيضاً : « الأممية هي النهاية التي لا يمكن تجنبها للحوادث المستقبلة ... » وقال بصوت مهتز : « نعم ، قال بالضبط : **الاممية** ، انها الهدف ! وانت ترى أن **الاممية** هي الآن ذات قوة كافية لانقاذ

الشعوب ! وترى هنا ، هذا المساء ، اتحاد البروليتاريا . انها سلام العالم » .

وانتصب . وكانت عيناه تلمعـــان . واستمر في الكلام ، ولكن الجلبة المتكاثرة كانت تمنع جاك من فهم كلامه .

لأن الجمهور المكدس في هذا الجو الخانق بدأ يشعر بالملل . ولإلهائه ، خطرت للمناضلين البلجيكيين فكـــرة انشاد نشيدهم : **ايها البروليتاريون ، اتحدوا .** بحيث اتفق الجميع على انشاده . اولاً بشكل متردد ، كل صوت يشتد باستناده الى جاره ؛ وليس فقط كل صوت : كل قلب . لقد خلق هـذا النشيد رباطاً ، واصبح شعاراً رناناً ، محسوساً للتعاضد .

وحين ظهر المندوبون أخيراً ، بعد انتظارهم طويلاً ، في داخـــل السيرك ، نهضت القاعة بكاملها ، وتصاعد الضجيج ، ضجيج فرح ، مألوف ، واثـــق . وتلقائياً ، دون أن تعطى أية اشارة ، فان النشيد الاممي (**الانترناسيونال**) سال من جميع الصدور وغطى على جلبة الهتافات. ثم باشارة من فاندرفيلد الذي كان مترئساً ، صمتت الاناشيد على مضض . وحين استتب الصمت شيئاً فشيئاً ظلت جميع الرؤوس ملتفتة نحو تلك الكتيبة من الرؤساء ، فقد اصبحت صورهم شعبية بفضل صحف الحزب . وكان يشار اليهم بالبنان ، ويجري التهامس بأسمائهم . ليس هناك بلد لم يلب النداء . في تلك الساعة المقلقة من حياة القارة ؛ فان كل اوروبا العمالية كانت هنا ، ممثلة على هـــذه المنصة الصغيرة حيث كانت تتركز عشرة آلاف نظرة مشحونة بنفس التصلب والأمل .

هذه الثقة الجماعية ، الناقلة للعدوى ، تضاعفت حين علم من فم فاندرفيلد أن المكتب ، بناء على اقتراح الحزب الالماني ، قرر اجراء الاجتماع في باريس ، منذ التاسع من آب ، للمؤتمر الاشتراكي الدولي المدعو في بادىء الأمر الى الاجتماع في فيينا في ٢٣ . وباسم الحزب الفرنسي ، فان جوريس وغيسد قبلا مسؤولية التنظيم ؛ واستنجدا بحمية الجميع ، وقصدا اعطاء هذه الظاهرة ، التي سيكون عنوانها : « الحرب والبروليتاريا » دوياً غير عادي .

وهتف فاندرفيلد :

– في اللحظة التي يمكن فيها لشعبين كبيرين ان ينقضّ الواحـــد منهما على الآخر ، فليس بالمنظر المبتذل رؤية ممثلي النقابات والتجمعات العمالية لأحد هذين البلدين الذين انتُخبوا بأكثر من اربعة ملايين صوت ، وهم يأتون الى اراضي هذه الأمة المسماة عدوة ، لأجل التآخي ، ولأجـل اعلان ارادتهم بحفظ السلام بين الشعوب !

ونهض هاز ، وهو نائب اشتراكي في الريخستاغ ، وسط التصفيق . وخطابه الجريء لم يبق أقل التباس حول صدق تعاون الاشتراكيين الديموقراطيين .

– كان الانذار النمساوي تحرشاً حقيقياً . لقد ارادت النمسا الحرب .. ويبدو انها تعتمد على مساندة المانيا .. ولكن الاشتراكية الالمانية لا تعتقد أن بالامكان إلزام البروليتاريا بواسطة معاهدات سرية .. ان البروليتاريا الالمـانية تصرح بان المانيا يجب ألا تتدخل ، حتى ولو دخلت روسيا في النزاع !

كانت الهتافات تقاطع كل عبارة من عباراته . ووضوح هذا التصريح كان تعزية للجميع .

وهتف منهياً كلامه :

– ليحذر خصومنا ! من الممكن ان الشعوب ، وقد لقيت الكثير من البؤس والظلم ، تستيقظ اخيراً وتتحد لتأسيس المجتمع الاشتراكي .

وتناوب على الكلام الايطـالي مورغاي ، والانكليزي كير – هاردي ، والروسي روبا نوفيتش . لم يكن لاوروبا البروليتارية سوى صوت واحد لهتك ستر امبريالية حكوماتها الخطرة والمطالبة بالاجراءات اللازمة لحفظ السلام .

وحين تقدم جوريس بدوره ليتكلم ، تضاعفت الهتافات .

كانت مشيته أكثر ثقلاً من السابق . كان تعباً من نهاره ، وقد اغرق عنقه بين الكتفين ؛ وعلى جبهته المنخفضة ، كان شعره الملتصق من العـرق مشعثاً . وحين صعد الدرجات ببطء ، والجسم مكوم عمودياً على ساقيه ، جمد ، ووجهه الى الجمهور . كان يبدو كعملاق يتكتل ويمد ظهره ، ويتقوس ، ويتـــأصل في الأرض ليسد الطريق على الكوارث المتهافتة . وصاح :

– ايها المواطنون !

وباعجوبة تتكرر في كل مرة يصعد الى المنبر ، كان صوته يغطي دفعة واحدة على هؤلاء الألوف من الهاتفين ، ويحدث صمتاً دينياً : صمت الغاب قبل العاصفة .

وبدا أنه يجمع افكاره لحظة . ويشد قبضتيه . وبحركة عنيفة وضع ذراعيه القصيرين على صدره . وقد قال باترسون بوقاحة :

« هيئته كهيئة فقمة تنذر » . وبدون عجلة ، بدون عنف عند الانطلاق ، بدون قوة ظاهرة ، بدأ خطابه ؛ ولكن منذ الكلمات الأولى ، فان صوته الداوي كجرس برونزي اخذ يهتز ، واستولى على الفضاء ، وشعرت القاعة فجأة برنة الخطر .

وجاك منحن الى الامام ، وذقنه على قبضته ، والعين ممتدة نحو ذلك الوجه المرتفع – الذي يبدو دائما انه ينظر الى الماوراء – ولم يكن يفوته مقطع .

ولم يأت جوريس بشيء جديد . فقد شهّر مرة أخرى بخطر سياسات الفتح والنفوذ ، ورخاوة الدبلوماسيات ، والجنون الوطني عند متطرفي الوطنية ، ورعب الحرب العقيم . كان تفكيره بسيطا ، ومفرداته محصورة ؛ ونتائجه في الغالب من المستميلات الدارجة جداً . إلا أن هذه المبتذلات السمحة ادخلت خلال هذه الكتلة البشرية التي كان جاك ينتمي اليها هذا المساء تياراً ذا توتر عالٍ جعلها تترنح انصياعا لأمر الخطيب ، وتهتز من الأخوة أو من الغضب ، من الاشمئزاز أو من الأمل. ترتجف كعود في الريح؛ من أين اتت قوة جوريس الساحرة ؟ من ذلك الصوت المتماسك الذي كان يتفخم ويتموج موجات حلزونية واسعة على تلك الألوف من الوجوه المشرئبة ؟ من محبته الأكيدة للناس ؟ من ايمانه ؟.. من غنائيته الداخلية ؟ من روحه المثالية التي يتناسق فيها كل شيء باعجوبة ، الميل الى البحث النظري الكثير الكلام القليل المعنى والمعنى الواضح للعمل ، جلاء المؤرخ واحلام الشاعر ، تذوق النظام وإرادة الثائر ؟ هذا المساء على الخصوص ، فان يقيناً عنيداً نفذ الى كل مستمع حتى النخاع كان ينبثق من

هذه الأقوال . من هذا الصوت ، من هـذا الجمود : يقين النصر القريب جداً ، اليقين بان رفض الشعوب يجعل الحكومـات تتردد وان قوة الحرب الشنيعة لن تستطيع أن تفوز على قوى السلام .

وحين ترك المنبر اخيراً بعد خاتمة مؤثرة ، متشنجاً ، مزبـداً ، ملتوياً من الهذيان المقدس ، فان القاعة كلها هتفت له وقوفـا . وتصفيق الأيدي والدبيب احدثا جلبة تصم الآذان كانت طوال عدة دقائق تنتقل من جدار الى آخر كصدى الرعد في غار في احد الجبال. وكانت أذرع ممدودة تهز بجنون قبعات ، ومناديل ، وصحفا ، وعصيّا كأن ريحا صرصراً تهز حقـلا من السنابل . في لحظات الشدة هذه ، لم يكن على جوريس إلاّ صرخة يطلقها ، وحركة يدٍ يقوم بها ، حتى ينطلق هـذا الجمهور المتعصب وراءه ، منخفض الرأس ، لمهاجمة أي باستيل .

وتنظمت تلك الضوضاء شيئا فشيئا واصبحت ايقاعا . ولكي تتخلص تلك الصدور اللاهثة من الكلاّبة التي تضغط عليهـا لجأت من جديد إلى الموسيقى ، الى الغناء :

وقوفا ، ايها المعذبون في الأرض .

وفي الخارج فان الوف المتظاهرين الذين لم يستطيعوا الدخول ، والذين رغم انتشار الشرطة كانوا يسدون جميع الشوارع المجاورة ، تناولوا لازمة النشيد الاممي :

وقوفا ، ايها المعذبون في الأرض .

. . . .

انها فورة النهاية .

٥٣

فرغت القاعة شيئاً فشيئاً . وجاك الذي كان الحشد يرفعـه ويتقاذفه من جميع الجهات ، كان يقي جهد استطاعته فانهيد الصغير الذي تعلق به كالغريق ،

ولم تفارق عينه الجماعة التي تبعد عنه بضعة امتار ، والمؤلفة من مينستريل ، وميتورغ ، وريشاردلي ، وسافريو ، وزيلافسكي ، وباترسون والفريدا . ولكن كيف الوصول اليهم ؟ دفع الشاحب اللون امامه ، مستفيداً من اقل جيشان يحيد به الى جهة اصدقائه . وتوصل شيئاً فشيئاً الى اجتياز المسافة القصيرة التي تفصله عنهم .. وعندئذ فقط كف عن الصراع ، واستسلم للتيار الذي كان يجرفه نحو المخرج مع الآخرين .

وامتزجت بالنشيد الأممي (الانترناسيونال) ، الذي كان تارة ينفجر كالبوق ، وطوراً يجري بهدوء ، صرخات : حادة « لتسقط الحرب ! » تحيا الاشتراكية ! « يحيا السلم » .

وقال مينستريل :

– تعالي ايتها الفتاة الصغيرة . تكادين تضيعين .

ولكن الفريدا لم تسمع . كانت متعلقة بذراع باترسون . وكانت تريد ، مهما كان الأمر ، ان ترى ما يحدث في المقدمة . وتمتم الانكليزي :

– انتظري يا عزيزتي .

وشبك اصابع يديه بشكل متين ، وانحنى ، وقدم للمرأة الشابة نوعاً من الركاب حيث نجحت في وضع قدميها .

– هوب !

وانتصب بانتفاضة ، ورفعها فوق الرؤوس . وكانت تضحك . ولكي تحتفظ بتوازنها اسندت جسدها إلى جذع باترسون . وعيناها الواسعتان كعيني الدمية ، والمفتوحتان ، كانتا تلمعان هذا المساء بنار وحشية . وقالت بصوت مرتخ ، منتش :

– لا أرى شيئاً . لا شيء سوى غابة من الاعلام !

ولم تسرع في النزول . اما الانكليزي ، وقد اعماه ذيل التنورة ، فقد استمر في سيره متعثراً .

ووجدا نفسيهما في الخارج دون ان يعرفا كيف .

وفي الشارع كان الازدحام اكثر كثافة مما كان في القاعة. وكانت الضوضاء من القوة والاستمرار بحيث يكف المرء تقريباً عن سماعها . وبعد بضع دقائق من تحريك الأرجل ، فان هذه الكتلة البشرية بدت انها تأخذ اتجاهاً، وتتحرك، غامرة نطاقات الشرطة، مبتلعة أثناء سيرها الفضوليين المكدسين على الأرصفة، واخذت تسير ببطء في الليل .

وسأل جاك :

– الى اين يسيرون بنا ؟

فصاح ميتورغ الذي كان وجهه الرخو احمر منتفخاً كأنه خارج من ماء في حالة الغليان :

– السير جماعات ايها الرفيق .

وأوضح ريشاردلي :

– اعتقد انهم سائرون للتظاهر امام الوزارات .

وزعق ميتورغ :

– لا حرب . السلام ! السلام !

وقال زيلافسكي منغماً بنبرة حلقية !

– لتسقط الحرب ! سلام ! سلام !

وتمتم مينستريل :

– اين فريدا اذن ؟

والتفت جاك ليبحث بعينيه عن المرأة الشابة. وكان يسير وراءه ريشاردلي مرتفع الرأس ، وابتسامته الخالدة على شفتيه ، ابتسامته الكثيرة الجرأة. ثم جاء فانهيد بين ميتورغ وزيلافسكي : كان الشاحب الوجه قد عقد مرفقيه في ذراعي رفيقيه ، وبدا كأنهما يحملانه ؛ لم يكن يصيح ، ولم يكن ينشد ؛ بل يرفع نحو السماء وجهه الشفاف ذا العينين نصف المطبقتين، بتعبير ألم وذهول.. ويتبعهم على بعد قليل الفريدا وباترسون . ولم يشاهد جاك سوى وجهيهما ؛ ولكنهما متقاربان جداً بحيث بدا الجسدان متشابكين .

وردد الربان بصوت قلق :

— اين هي اذن ؟

كان كالأعمى الذي اضاع كلبه .

لقد كانت ليلة صيف حارة ، قاتمة وعميقة . وكانت الواجهات مطفأة . وفي جميع النوافذ ، التي كان الكثير منها مضاء ، اطياف سوداء كانت تنحني. وعند تلاقي الطرقات الكبرى سلسلة قطارات كهربائيــة فارغة بدون نور ، كانت تقف بالصف على الخطوط الحديدية . وجماهير المشاة تتقاطر من الشوارع وتكبّر الموجة المتحركة دون راحة . وكانت اكثرية المتظاهرين مؤلفة من عمال المدينة والضواحي . ومن كل مكان ، من أنفرس ، وغاند ، ولياج ، ونامور ، ومن جميع مراكز المناجم ، جاء مناضلون للانضمام الى اشتراكيي بروكسل والمبعوثين الاجانب : كانت بروكسل هـــذا المساء تبدو انها اصبحت عاصمة السلام الاوروبية .

وقال جاك لنفسه : « ولكن تم الأمر ! لقد أُنقذ السلام ! ما من قوة في العالم تقلب هذا السد ! اذا أراد هذا الجمهور فان الحرب لن تمر » .

والشرطة العاجزة اكتفت بوقاية القصر الملكى والبارك Parc والوزارات بنطاق مربع الصفوف من الشرطة يسير امامــه رأس الموكب دون توقف ، وللوصول الى الساحة الملكية والهبوط نحو منتصف المدينــة . وبمروره امــام احتفاليه القصر الصامتة ، كانت الأفواه بالالوف تصيح باندفاعــة واحــدة : « تعيش الاشتراكية ! » ، « لتسقط الحرب ! »

وفي المقدمة جماهير متجمعة كانت تسير بكبرياء حول راياتهــا . والبقية تتبع دون نظام ، مؤلفة مما يشبه السوق الخيرية السائلة ، الصاخبة ، حيث يتسنم اطفال اكتاف آبائهم ويفتحون عيوناً مبهورة . وكان الجميع يعون انهم يمثلون جزءاً من القوة البروليتارية الكبرى . القسمات مشرئبة ، والنظرة ثابتة ، كانوا يمشون دون ان يكلموا بعضهم البعض تقريباً ؛ وفي حال الوقوف يستمرون في رسم خطوات موقعة . الجباه المكشوفة كانت تلمع تحت الكرات الكهربائية .

وعلى جميع تلك الوجوه النشوى بالثقة والقاسية بنفس الارادة ، كان يُقرأ اليقين بربح الجولة هذا المساء ضد الحكومات . وفوق هذه الامواج الصاخبة ، فان نشيد الاممية الذي كانوا يصيحون به دون راحة ، وبملء الأصوات كان ينشر غناء كضربات المطرقة وكان كنبضات كل هذه القلوب .

وفي عدة مناسبات كان جاك يشعر ان مينستريل يحاول الاقتراب منه كأنه يريد ان يكلمه ؛ ولكن كل مرة كانت تمنعه دفعة او معاودة الهيجان .

وصاح فيه جاك :

– واخيراً ، ها هو عمل الجماهير !

وحاول الابتسام ، ببقية من الاحترام الانساني ؛ ولكن نظرتـه كانت تسطع بذلك السرور المحموم الذي كان يتفجر من جميع العيون .

ولم يجب الربان . كانت حدقتاه قاسيتين ، واحتفظ فمه بثنية غم لم يستطع جاك تفسيرها .

وأمامهما ، فان ارتعاشة مضطربة بعثت الارتجاف في الموكب . يجب أن يكون رأس العمود قد اصطدم بعائق ما . وبما ان جاك انتصب على رؤوس اصابعه ليحاول فهم سبب الفوضى ، فقد سمع صوت الربان في اذنه ؛ بضع كلمات القيت بسرعة كبيرة ، بتلك النبرة الحادة المحيرة دائماً :

– اعتقد يا صغيري ان فريدا هذا المساء لن ...

وضاع نصف بقية الجملة في الضوضاء . والتفت جاك منذهلاً . فقد ظن انه سمع : لن تعود إلى الفندق .

وتلاقت نظراتهما . وكان وجه الربان في الظلام ، وحدقتاه السوداوان العاطلتان من التعبير كانتا تتوهجان بوميض فوسفوري حيواني .

في تلك اللحظة انتشر جيشان عميق حتى وصل اليهما ورفعهما .

عند تقاطع جادة الميدي ، جماعة صغيرة من القوميين اجتمعت على عجـلٍ حول بيرق ، وقد ارادت ، بتهور ، ان تسد طريق المسيرة . انـه شغب قصير الأمد لم يمنع المتظاهرين من متابعة طريقهم . ولكن هذا الوقوف ، وهـــذه

الهزات كانت كافية لفصل جاك عن مينستريل و اصدقائه .

وأبعد نحو اليمين ، فوجد نفسه محاصراً بالبيوت ، بينما في الوسط ، تحت ضغط المؤخرة ، تشكل تيار قوي كان يجر جماعة مينستريل الى الامام . وفجأة ، من المكان الذي كان متجمداً فيه وقتياً ، شاهد على بعد بضعة امتار وجه باترسون . كان الانكليزي دائماً مع الفريدا . وقد مرّا دون ان يشاهداه . ولكن وقته اتسع لرؤيتهما . انهما لم يكونا يشبهان نفسيهما... فالظل ، بانصبابه على النتوءات العظمية نحت وجه باترسون بشكل غريب . وعيناه المتحركتان عادةً والضاحكتان ، كان لهما بريق ثابت ، كبدء جنون شرس . ولم يكن وجه الفريدا اقل تغيراً : تعبير متوقد ، عزوم ، شهواني بشكل وقح ، كان يشوه ويبتذل قسماتها : حتى ليشبه وجه فتاة ، وجه فتاة سكرى . كانت تسند صدغها الى كتف باترسون ، مفتوحة الفم : انها تنشد النشيد الاممي بصوت ابح ، مرتجّ ، وتبدو انها تحتفل بانتصارها الخاص ، بخلاصها ، بانتصار الغريزة ... وعادت كلمات مينستريل الى ذهن جاك : « أعتقد ان فريدا لن تعود هذا المساء » .

وشعر بالخوف ؛ وبدون ان يدري ما سوف يقول لهما حاول ان ينزلق بين الجمهور للوصول اليهما ، وصاح : « بات » ولكنه كان سجين تلك الكتلة التي تشد عليه . وبعد جهود على غير طائل اضطر الى الكف عن ذلك . وتبعهما بنظره بعض الوقت ، ثم أضاعهما كلياً واستسلم استسلاماً اعمى للموجة التي كانت الآن تحمله الى الامام .

واصبح وحيداً ، فاستولت عليه الظاهرة السحرية للعدوى الجماعية . وتلاشى كل مفهوم للفضاء والزمن ؛ وامّحى الضمير الفردي . وكان ذلك كعودة مظلمة ، كعودة سباتية الى المحيط الاصلي . وشعر انه تخلص من نفسه بانغماسه وذوبانه في هذا الجمع الغفير المتنقل . في اعماق الكائن ، كالينبوع الحار الذي لا ينبجس حتى سطح الارض ، كان يحتفظ دون شك بالوعي المشوش بأنه يشكل جزءاً من كل ،

من كل هو العدد ، والحقيقة ،والقوة. ولكنه لم يكن يفكر بذلك . واستمر في السير فارغ الرأس ، فريسة سكر خفيف ، مريح كأنه النوم .

هذه الحالة السعيدة امتدت ساعة ، وربما اكثر. وصدمة رجله بحافة الرصيف أخرجته من حالة سحره . واكتشف تعبه فجأة .

والعمود المحتبس بين واجهات البيوت الداكنة لا يزال يتقدم بزحف بطيء لا يهدأ . وفي المؤخرة انقطع الانشاد تقريباً . وبين لحظة واخرى صرخة شرسة تمتق صدراً مضغوطاً عليه : « يعيش السلام » « تعيش الاممية » وهذه الصرخة شبيهة بتحية الديك الصباحية يستيقظ منها آخرون هنا وهناك . ثم عاد الهدوء ولم يبق طوال بضع دقائق سوى لهاث خفي . وطء اقدام قطيع .

وسعى لينحرف نحو الحافة ويقترب من البيوت . وترك التيار يجري على محاذاة الدكاكين المقفلة ، مترقباً فرصة ليتخلص . وظهر شارع صغير . كان مليئاً بأهالي الحي المتكدسين هناك ليشاهدوا . واستطاع ان يدخل اليه ويصل الى مساحة فارغة بالقرب من صنبور ماء داخل في الجدار . وكان الماء يسيل بارداً ، صافياً بضجة محببة . فشرب ، وبلل جبهته ويديه وظل فترة طويلة يتنفس . وسماء الصيف فوقه كانت تتلألأ . فتذكر شغب باريس اول البارحة ؛ وشغب البارحة في برلين . في كل مدن اوروبا خلعت الشعوب الطاعة ، بنفس العنف، ضد التضحية غير المجدية . في كل مكان ، في فيينا في ساحة رانفستراس ، وفي لندن في ساحة ترافلغار ، وفي بطرسبورج في ساحة نيوسكي حيث ينهال القوزاق ، شاهري السيوف ، بالضرب على المتظاهرين . وفي كل مكان كانت ترتفع نفس الصيحة : « فريدي ! بيس ! مير [1] » ومن فوق الحدود فان ايدي جميع الشغيلة كانت تمتد نحو نفس المثل الاعلى الاخوي ؛ ومن كل اوروبا كانت تنبجس صيحات الاحتجاج . فكيف يشك بالمستقبل ؟ غداً ، فان الانسانية المنعتقة من قلقها تستطيع من جديد ان تعمل على صنع مصير افضل .

---

١ – كلمة « السلام » باللغات الالمانية والانكليزية والروسية .

المستقبل . . جني .

واستولت عليه صورة الفتاة بعنف ، طارداً كل شيء ، مستعيضاً عن حماسات هذا المساء العنيفة برغبة شديدة بالحنان والعذوبة .

ونهض ، واخذ يسير في الليل .

النوم ... انه الشيء الوحيد الذي يميل اليه الآن . لا يهم اين ، على اول مقعد يلقاه ...وحاول ان يعرف اتجاهه في هذا الجزء من المدينة الذي لا يعرفه معرفة جيدة . وفجأة ، وجد نفسه في ساحة مقفرة تذكر انه اجتازها بعد الظهر هذا اليوم مع باترسون والفريدا . ليتشجع ... فالفندق الذي توجد فيه غرفة الانكليزي يجب الا يكون بعيداً .

ووجده فعلاً بدون كثير من الجهد .

واحتاج الى الوقت الذي خلع فيه حذاءه ونزع سترته وطوق قميصه ، وارتمى بنصف ملابسه على السرير .

٥٤

حين فتح عينيه كانت الغرفة مضاءة بشكل قوي . فظل بضع دقائق ليعيد قدميه الى الواقع . وشاهد ظهر رجل راكع في داخل الغرفة : باترسون ... كان الانكليزي يطوي بسرعة بعض الملابس في حقيبته المفتوحة على الارض . أكان ذاهباً الآن ؟ كم الساعة ؟

– اهذا انت يا بات ؟

فأقفل باترسون الحقيبة دون ان يجيب ، ووضعها بقرب الباب واقترب من السرير . كان شاحباً ونظره كان متحدياً . وقال :

– اني آخذها معي .

كان نوع من التهديد يهتز في صوته .

وكان جاك ينظر اليه منذهلاً وعيناه متورمتان من التعب .

وقال باترسون متلجلجاً مع ان جاك لم يحرك شفتيه .

- هوش ! اسكت . انا اعلم ! الامر هكذا . ما من شخص يستطيع شيئاً.
وفهم جاك فجأة ، فتفرس بالانكليزي ، بهيئة ولد ايقظوه من كابوس :
- انها تحت في سيارة اجرة . انها مسيّرة ،وانا ايضاً. لم تقل له شيئاً. وهي تشكو منه ، لا تريد ان تقول له شيئاً ، حتى انها لم تشأ ان تستعيد امتعتها الخاصة . اننا ذاهبان ، ولن تراه ابداً . اول قطار الى اوستاند . غداً مساءً في لندن ... كل شيء انتهى هكذا ، ما من احد يستطيع شيئاً .
وكان جاك قد انتصب . وأسند رأسه الى خشب السرير ولم يقل شيئاً . كان يفكر : « حلقوم قاتل » .
وتابع باترسون جامداً تحت قنديل السقف :
- انا ، كان ذلك منذ شهور . ولكني لم اكن اجرؤ ... هذا المساء فقط علمت انها هي ايضاً.. الحبيبة المسكينة! انت لا تعرف حياتها مع ذلك الرجل. أقل من رجل : **لا شيء** ! .. اوه ! انه يلعب دور النبيل . وقد اخبرها ، وقبلت بكل شيء . كانت تعتقد انها تستطيع . لم تكن تعرف .. ولكن منذ ان أحبتني ، كلا . التضحية مستحيلة ..
وردد فجأة كأنه قرأ حكماً صارماً على أمائر جاك المشدوهة :
- لا تحكم عليها .. انت لا تعرف أي رجل هو : خليق بكل شيء .. بدافع اليأس من عدم الايمان بشيء ، من عدم استطاعته الايمان بشيء ، حتى ولا الايمان بنفسه . لأنه **لا شيء** .
ولم يقم جاك بأية حركة ، وذراعاه ممتدان على السرير ، ورأسه منقلب قليلا ، والعينان احرقهما الضوء. كانت النافذة مفتوحة. وهناك بعوض لم يحاول طرده ، كان يطن في اذنيه . كان يشعر بذلك الضعف الكريه ، ضعف اناس فقدوا كثيراً من الدم .
وتابع الانكليزي بفظاظة :
- لكل انسان الحق بالعيش ! تستطيع أن تطلب من أحد الناس القاء نفسه في الماء لينقذ رجلاً ، ولكنك لا تستطيع أن تطلب منه أن يبقى دائماً رأس

الرجل فوق الماء لينتحر هو نفسه .. انها تريد أن تعيش ، اجل ، انا هنا لأصحبها .. هوش .

فتمتم جاك دون أن يحرك رأسه :

– اني لا ألومك ، ولكني افكر به ..

- انت لا تعرفه . انه خليق بعمل اي شيء ! هذا الرجل مسخ .. مسخ حقيقي .

– ربما يموت من ذلك .

فانفتحت شفتا باترسون ، وانقبضت قسماته الشاحبة كأنه تلقى ضربة . ولم يستطع جاك احتمال منظر هذا الوجه الذي بدا له شنيعاً فجأة . وكان يفكر من جديد : « قاتل » . وحوّل عينيه لحظة ، ثم تابع بصوت خفيف :

– انى افكر بالحزب . فالحزب بحاجة الى زعمائه أكثر من أي وقت.وهذه خيانة يابات . خيانه مزدوجة . خيانة على أي صعيد كان .

كان الانكليزي قد تراجع حتى الباب ، وقبعته المعترضة ، وصبغته الشاحبة ، وعينه الشاردة ، وفرجة فمه ، اكسبته فجأة وجه رجل سوء ، فانحنى بحدة وامسك الحقيبة . لم تكن هيئته هيئة قاتل ، بل هيئة سلاّب ، وقال :

– ليلة سعيدة .

وكانت جفونه منخفضة فلم يرفعها ، وهرب .

وما كاد ينغلق الباب حتى عادت فكرة جني تفرض نفسها على جاك بشدة لا تحتمل . لماذا جني ؟ وسمع من الشارع الصامت صوت اقلاع السيارة . وظل وقتاً طويلا ، الرأس مستند الى خشبة السرير ، والعين محملقة بالباب المغلق ، وظل جامداً ، تارة يرى أمامه وجه بات الجميل ، ونظرته الفضة وابتسامته ابتسامة ولد اشقر . وطوراً ذلك الوجه الاسود لخادم مسرّح ، لسارق قبض عليه متلبساً بالجريمة ، ذلك الوجه الوقح المخزي . وجه تغيرت سحنته بشكل بشع من الألم .. الوجه الذي كان له ، هو نفسه ، دون شك ، في رواق المترو

عندما كان يلاحق جني .. وفي ذلك النهار، ألم يكن هو ايضاً، خليقاً بالرذائل، بالخيانات ؟

منذ الساعة السادسة والنصف ، فان جـاك الذي لم يعد يستطيـع النوم ، ركض الى عند مينستريل .

كان كل شيء لا يزال نائماً في النزل سوى امرأة عجوز كانت وحدها تغسل بلاط الدهليز . وتردد جاك دقيقة : أيجب أن يذهب أم يصعد؟ اذا أراد ركوب قطار الساعة الثامنة فليس لديه وقت لتـأخير زيارته ؛ وبعد المشهد الليلي ، لم يكن باستطاعته أن يعقد العزم على ترك بروكسل دون أن يرى صديقه .

وطرق ، أول مرة ، غرفة الربان ، بدون جواب . هل كان مخطئاً ؟ كلا . لقد جاء البارحة الى هنا ، الرقم ١٩ . ومينستريل ، بعد ليلة انتظار على غير طائل ، ربما كان نائماً . وكاد يطرق الباب مرة ثانية ، وحين اعتقد انه احس وراء الباب بسير سريع لأقدام عـارية ، وملامسة يد للقفل . فاجتازت ذهنه فكرة مجنونة ، رهيبة . وغريزياً امسك بالقفل وأداره ، فانفتح الباب وصدم مينستريل تماماً في اللحظة التي هم فيها هذا بأن يدير المفتاح .

وتفرس الرجلان احدهما بالآخر . لم يكـن على قسمات الربان المتجمدة أي تعبير يمكن تأويله : ربما بريق حزن غاضب .. وبدا متردداً طوال ثانية . هل سيطرد الزائر ويعيد إغلاق الباب ؟ لقد راود جاك هذا الشك . وخضع لنفس الحدس الذي جعله يدير لسان القفل ، ودفع الباب بكتفه ودخل .

وأدرك للنظرة الأولى أن الغرفة متغيرة، كأنها اتسعت. فالطاولةوالكراسي دُفعت حتى الجدران تاركة في الوسط مكاناً فارغاً أمام مرآة الخزانة . وكان السرير شاحبا لكنه مغطى، وبدت الغرفة مرتبة ، مهيأة لشيء ما. ومينستريل ايضاً : كان مرتدياً بيجاما زرقاء لا تزال طيات المكواة ظـاهرة عليها . ولا يوجد ملابس معلقة في المشجب ، ولا ادوات زينة على المغسلة. كل شيء بدا معبأ لأجل الرحيل في صندوقين مقفلين مدفوعين إلى امام النافذة . إلا أن الربان لا

يمكنه الخروج بالبيجاما عاري القدمين .

وعادت عينا جاك الى مينستريل ، لقد ظل في نفس المكان ؛ وكان ينظر الى جاك . كان واقفاً جامداً ولكن هيئته لم تكن تدل على أنـــه مرتاح على ساقيه . انه يبعث على التفكير بانسان أجريت له عملية جراحية وقد أفاق من التخدير ، بحيث استخرج من العدم .

وتمتم جاك :

ــ ماذا عزمت أن تفعل ؟

فقال مينستريل : انا ؟

وانخفضت جفونه رغما عنه ، وترنح ، وتراجع حتى الجدار ، وتمتم كأنه لم يسمع جيداً .

ــ ما عزمت أن افعل ؟

ثم جلس بقرب الطاولة ، ووضع جبهته بهدوء بين يديه .

وعلى الطاولة نفسها كان يسود ترتيب غريب. رسالتان مختومتان موضوعتان الواحدة بجانب الأخرى على القفا؛ وعلى صحيفة مطوية صُفّت أمتعة شخصية : قلم حبر ، محفظة أوراق ، ساعة ، سلسلة مفاتيح ، وقطع نقدية بلجيكية .

وظل جاك حائراً بضع لحظات، دون أن يجرؤ على القيام بحركة ،ثم اقترب من مينستريل الذي رفع رأسه حالاً :

ــ اصمت ..

ونهض بجهد ومشى بضع خطوات وهو يعرج ، وعاد نحو جاك ، وردد مرة ثانية ، ولكن بنبرة تختلف :

ــ ما عزمت أن افعل ؟ حسنا ! سأرتدي ملابسي يا صغيري . ثم أخرج من هنا معك !

وبدون أن ينظر الى جـــاك فتح أحد الصندوقين وأخرج منه امتعته ، ونشرها على السرير ، وأخرج حذاءه المليء بالغبار من صحيفة ، وبدأ يرتدي ملابسه كما لو أنه وحده . وحين اصبح جاهزاً تقدم نحو الطاولة ، ودائما دون

أن يهتم بجاك الذي كان يجلس صامتا ، اخذ الرسالتين ومزقهما قطعا صغيرة وألقاهما في الموقد .

في تلك اللحظة ، رأى جاك الذي لم يرفع نظره عنه ان الموقد مليء برماد اوراق أحرقت حديثاً . فتساءل : « هل كان لديه كثير من المذكرات الشخصية ؟ » وفجأة : « وثائق ستولباخ ؟ » والقى نظرة شاردة على الصندوقة المفتوحة : كانت مملوءة قليلا ، ولم يشاهد فيها رزمة الاوراق . وقال جاك لنفسه دون أن يريد التوقف عند الشك المستحيل الذي ساوره : « ربما وضعها في الصندوقة الأخرى » .

وكان مينستريل قد عاد نحو الطاولة . فالتقط القطع النقدية ، والمحفظة ، والمفاتيح ووضع الجميع في جيوبه بنظام .

وعندئذ فقط تذكر وجود جاك ، فنظر اليه وتقدم نحوه :

- فعلت حسناً بمجيئك يا صغيري .. من يدري ؟ ربما قمت لي بخدمة .

كان وجهه هادئاً . وابتسم بشكل غريب .

- لا شيء يستحق الجهد كما ترى .. لا يوجد شيء ابداً يستحق ان ترغب به ؛ ولكن لا شيء ايضاً يستحق ان تخشاه .. لا شيء .. لا شيء ..

وبحركة غير منتظرة مد الى جاك يديه معا . وبما أن جاك أمسك بهما بتأثر فان مينستريل تمتم دون أن يكف عن الابتسام :

- والآن ، خذ بيدي وسر بي [1] .

ثم أضاف متخلصا : هيا .

واقترب من الصندوقين وحمل واحداً : وانحنى جاك ايضا ليأخذ الآخر .

- كلا ، هذا ليس لي . اني اتركه .

وفي نظرته المقنّعة مرت ابتسامة سريعة ذات كآبة ، وذات حنان مؤثرين .

---

١ - بالالمانية في الاصل .

وقال جاك لنفسه منذهلاً : « لقد أتلف الوثائق » . ولكنه لم يجرؤ على إلقاء أي سؤال .

وخرجا من الغرفة معاً . وكان مينستريل يجر ساقه أكثر قليلاً من المعتاد . وفي اسفل ، مر أمام باب المكتب دون أن يدخل . ففكر جاك : « لقد فكّر أيضاً بتسوية حسابه » .

وتمتم مينستريل متطلعاً بلائحة توقيت الخطوط الحديدية المعلقة على جدار الدهليز :

– قطار جنيف السريع في الساعة السابعة والدقيقة الخمسين . وأنت ؟ أتأخذ قطار الساعة الثامنة الى باريس ؟ لا يزال لديك الوقت الكافي لإيصالي الى القطار .. كم أن كل شيء يتسوّى كما رأيت !

٥٥

زخّة مطر قصيرة وحارة غسلت باريس ، وكانت شمس الظهر تتألق ببريق لاذع جداً حين نزل جاك من قطار بلجيكا .

كان متجهماً . فدلائل الشؤم كانت تتراكم . وطوال رحلته لم يلتقط سوى الدلائل المقلقة . وكان قطاره مكتظاً . ويسيطر على سكان الحدود غليان شديد . والجنود المأذونون ، والضباط الذين هم في أجازة في الشمال ، أُنبئوا برقياً بالالتحاق بقطعاتهم . وكان منعزلاً عن الاشتراكيين الفرنسيين الذين تركوا بروكسل بنفس القطار ، وسافر محشوراً في مقصورة ملأى بأُناس من الشمال كانوا يتحادثون دون أن يعرفوا بعضهم البعض ، ويتبادلون الصحف ويتناقلون الأخبار . وكانوا يعلّقون على الحوادث بقلق تحتل فيه الدهشة ، والفضول ، وقلة التصديق مكاناً أكثر من الذعر ؛ والواضح أن معظمهم كانوا معتادين على فكرة حرب ممكنة . والمعلومات التي تجول على ألسنة هؤلاء الناس حول الاحتياطات المتخذة من قبل الحكومة الفرنسية كانت ذات دلالة . في كل مكان ، فإن الطرقات ، والجسور ، والاقنية ، والمعامل التي تمتُّ بصلة الى

المصانع الحربية كانت تحت مراقبة الجيش . وهناك فرقة عاملة كانت تحتل مطاحن كورباي ، إذ اتهمت صحيفة العمل الفرنسي (الأكسيون فرانسيز) مديرها بأنه ضابط احتيـاط في الجيش الألماني . وفي باريس ، فان جر المياه ، ومستودعات التغذية كانت تحت حراسة الجيش . وهناك سيد يحمل وساماً كان يشرح ، بتفصيل مهندس ، الأشغال التي بوشر بها على عجلة في برج إيفل لضبط أجهزة اللاسلـكي . وباريسي يعمل في صناعة السيارات كان يشتـكي من أن عدة مئات من السيارات جمعت بصورة عرضية لإجراء سباق قد احتجزت في مكانها على الأقل حتى أمر آخر ، ان لم تكن صودرت .

ومن جريدة « الانسانية » التي استطاع جاك الحصول عليها من محطة سان كانتان ، علم ، بذهول وغضب ، ان الحكومة تجاسرت في آخر دقيقة على منع الاجتماع الذي كان المركز العام للشغيلة قد نظمه البارحة ، الاربعاء في ٢٩ ، في قاعة واغرام ، وان جميع المنظمات العمالية في باريس والضواحي قد دعيت للتظاهر بالجملة . والمتظاهرون الذين جاؤوا رغم المنع الى حي تيرن شوهدوا وهم يرتدّون الى الوراء بسبب حملات الشرطة العنيفة. ودام الشغب قسماً من الليل؛ ولولا القليل لبلغت صفوف المناضلين وزارة الداخلية في الاليزيه . وعزيت الى عودة بوانـكاريه هذه الحركة ذات السلطة القوية التي بدت أنها تفصح عن نيه الحكومة في تحطيم حدة الاجتماع العمالي دون احترام حق الاجتماع وبدون مراعاة أقدم الحريات الجمهورية .

وكان القطار قد تأخر نصف ساعة . وعند خروج جاك من مطعم المحطة حيث تناول بعض الشطائر التقى بصحفي عجوز كان قد لقيه عدة مرات في « مقهى التقدم » . انه رجل يدعى لوفيل ، محرر في صحيفة « الحـــرب الاجتماعية » ، كان يسكن كراي ويأتي كل يوم ليقضي فترة بعد الظهر في الصحيفة . وخرجا معاً من المحطة . وكانت الباحة ، وبيوت المـكان لا تزال مزدانة بالأعلام : ان عودة رئيس الجمهورية البارحة أثارت في باريس انفجاراً من الوطنية كان لوفيل شاهداً عليه وكان يرويه بتأثر غير منتظر .

وقاطعه جاك :

– اعرف ذلك . فالصحف كلها ملأى به . وهذا يدعو الى الاشمئزاز . وأعتقد أنكم ، في صحيفة « الحرب الاجتماعية » ، لم تسيروا في الركاب .

– في « الحرب الاجتماعية » ؟ إذن لم تقرأ مقالات رئيس التحرير في هذه الأيام !

– كلا ، فأنا آت من بروكسل .

– لقد تأخرت ، فان...

– غوستاف هرفيه ؟

– ليس هرفيه بالحالم الأبله .. فهو يرى الأمور كما هي .. لقد أدرك منذ عدة أيام أن الحرب لا يمكن تجنبها ، وأنه سوف يكون مجنوناً ، سوف يكون مجرماً أيضاً إذا أصرّ على المعارضة . أبحث عن مقاله يوم الثلاثاء وسترى .

– هرفيه ، مفرط في وطنيته ؟

– مفرط في وطنيته إذا أردت .. واقعي ، بكل بساطة ! لقد اعترف باخلاص انه ليس بالامكان اتهام الحكومة بأية حركة تحريض . وقد استنتج من ذلك ، أنه إذا أُجبرت فرنسا على الحرب في سبيل أراضيها ، فما من شيء في السياسية الفرنسية في هذه الأسابيع الأخيرة يبرر ترك البروليتاريا .

– أهرفيه يقول ذلك ؟

– لقد كتب أيضاً بكل وضوح ، أنها ستكون **خيانة** ! لأن هذه الأرض التي يُطلب الدفاع عنها هي وطن الثورة الكبرى ، بعد كل شيء .

وكان جاك قد توقف وتطلع الى لوفيل صامتاً . وبعد التفكير لم يكن مندهشاً : فقد تذكر أن هرفيه وقف بعنف ضد فكرة الإضراب العام التي كانت موضع مناقشة منذ خمسة عشر يوماً من قبل فايان وجوريس في مؤتمر الاشتراكية الفرنسية .

وتابع لوفيل :

– لقد تأخرت يا صديقي ، لقد تأخرت .. اذهب واسمع ما يقال في غير

مكان .. في صحيفة « الجمهورية الصغيرة » مثلاً... او في مركز الحزب الجمهوري حيث مررت مساء البارحة .. في كل مكان نفس رنة الجرس .. في كل مكان العيون مفتوحة . وليس هرفيه وحده هو الذي فهم ٠٠ ان اخوة الشعوب جميلة جداً . ولكن الحوادث هي هنا ، ويجب مواجهتها. ماذا تريد ان تفعل ؟

– أي شيء كان . أو بالأحرى ..

– حرب أهلية لاجتناب الأخرى ؟ يوتوبيا ! في الساعة الحالية لن يمشي احد .. وأمام التهديد بغزوة أجنبية فان حركة عصيان سوف يكون نصيبها الاخفاق . حتى في الأوساط العمالية ، حتى في أوساط الأممية ، فـــان الاكثرية متفقة مع مجموع السكان ، وتريد الدفاع عن الأرض .. الاخوة العامة ، نعم ، كمبدأ . ولكن في اللحظة الحاضرة فانها تنتقل الى الدرجة الثانية ؛ الناس كلهم يشعرون اليوم بأخوة محصورة : اخوة فرنسية يا صديقي . وثم ، لقـــد مضى وقت طويل والبروسيون يزعجوننا ! فاذا ارادوا المجيء للاحتكاك !..

ودوى المكان بصياح نصف دزينة من المنادين على الصحف كانوا يركضون صائحين : باري – ميدي .

فاجتاز لوفيل الطريق ليشتري العدد . وكاد جاك يتبعه لولا ان مرت من امامه سيارة أجرة فارغة فوثب اليها . يجب ان يسرع الى جني قبل كل شيء .

وفكر مشمئزاً : « هرفيه ... اذا تخاذل هؤلاء فكيف يستطيع أن يبقى الآخرون ، الصغار ، طبقة عامة الشعب ... اولئك الذين يقرأون كل يوم في جميع الصحف انه يوجد حروب عادلة وحروب ظالمة ، وان حرباً ضـــد الامبريالية البروسية ، للانتهاء دفعة واحدة من دعاة الجامعة الجرمانية ، سوف تكون حرباً عادلة ، حرباً مقدسة ، حرباً صليبية لأجل الدفاع عن الحريات الديموقراطية ؟!

عند وصوله الى شارع الاوبسرفاتوار رفع عينيه نحو شرفة آل فونتانان . كانت النوافذ كلها مفتوحة .

وقال لنفسه : ربما عادت أمها ..

كلا . كانت جني وحدها . لقــد تأكد من ذلك منذ أن رآها ، شاحبة ، مضطربة من السرور ، تفتح الباب وتتراجع إلى ظل الدهليز .. وأثبتت عليه نظرة قلقة ، ولكنها كثيرة الحنان ، بحيث تقدم نحوها وفتح ذراعيه تلقائياً . فارتعشت واغمضت عينيها ، وارتمت على صدره . انــه عناقهما الأول الذي لم يتعمده احد منهما ، ولم يدم سوى بضع ثوان . وفجأة ، كما لو ان جني وعت حقيقة ملحّة. تخلصت ، ورفعت يداً إلى الطاولة حيث ألقيت صحف منشورة.

– أصحيح هذا ؟

– ماذا ؟

– الـ .. التعبئة العامة !

فأمسك الصحيفة التي اشارت اليها . انها عدد من صحيفة « باري – ميدي » التي كانوا ينادون عليها في ساحة المحطة ؛والتي بيعت منذ ساعة بألوف النسخ في جميع أحياء باريس ، وحملتها حارسة البيت الى جني . وتدفق الدم إلى وجه جـاك :

« لقد ُعقد مجلس حرب هـــذا المساء في الاليزيه ... وسار الجيش الثالث بسرعة إلى الحدود .. وتلقت فيالق الجيش الرابع امتعتها ، وذخيرتهـــا ، ومؤونتها للمعركة ، وهي تنتظر الأمر بالمسير .. »

كانت تنظر اليــه وقسماتهـا متجمدة من القلق . وأخيراً ، وبتردد عنيف مقهور ، تمتمت :

– هل تذهب يا جاك اذا وقعت الحرب ؟

كان ينتظر السؤال منذ خمسة ايام . فرفع عينيه واشار برأسه بعزم :

– كلا .

وفكرت:« كنت اعرفه ». ثم قالت لنفسها ايضاً وهي تناضل القلق الغادر الذي بعث فيها الاضطراب : « لرفض الذهاب يلزم الكثير من الشجاعة » .

وكانت هي التي قطعت الصمت :

ـ تعال .

وقادته . كان باب غرفتها قـد ظل مفتوحـاً . فترددت لحظة ، وأدخلته اليها . فتبعها دون ان يعير ذلك اهتماماً . وتأوه :

ـ ربما كان هـذا غير صحيح . ولكنه يمكن أن يحدث غـداً . الحرب تضغط علينا من جميع الجهات . والحلقة تضيق . روسيا تصر والمانيا ايضاً . والسلطة في كل بلد تتصلب بنفس العروض الساخرة ، بنفس التشدد ، ونفس الرفض .

وكانت تفكر : « كلا ، ليس هو الخوف ، انه شجاع ، انه منطقي . يجب الا يفعل كالآخرين ، يجب الا يخضع ، يجب الا يذهب » .

وبدون اية كلمة ، اقتربت منه وتلبدت على صدره . وقالت لنفسها فجأة : « سيبقى لي » .

ووثب قلبها .

وأحاطها جاك بذراعيه ، وكان واقفاً ، منحنياً عليها ، وقبّل الجبهة المخبأ نصفها . فخارت قواها من العذوبة وشعرت باستسلامها ، وحاولت ان تجعل نفسها صغيرة ، خفيفة ، ليستطيع - لم تكن تعرف مـاذا ـ ان يرفعهـا ، ويحملها .. كانت تتحرق شوقاً لسؤاله عن رحلته ، ولكنها لم تكن تجرؤ . وبفعل ضغط وجهه فقط اضطرها بلطف الى رفع رأسها ، ولامست شفتاه الخد الطويل الأملس ، حتى الفم الذي ظل مطبقاً ، مشدوداً ولكنه لم يحاول ان يزوغ . وضاق نفسها قليـلاً تحت وطأة هـذه القبلة الملحّة ، ولكي تتنفس ادخلت يدها بين وجهيهما ، وأبعدت جذعها . كانت قسماتها مدهشة بالهدوء والرزانة . لم تظهر ابداً اكثر وعياً وأكثر مسؤولية واكثر عزماً . ودون ان يرغمها ، فقـد ضمها بشغف ، فاستسلمت دون خجل ولا مقاومة . ولم تكن تتمنى شيئاً اكثر من ان تشعر انها محضونة بذراعيه ، متشابكان بتعقل ، الخد على الخد ، وجلسا على السرير المنخفض الذي يشكل اريكة ضيقة امام النافذة . وظلا عدة دقائق جامدين ، صامتين . وقالت بصوت منخفض :

– دائماً بدون رسالة من امي .

– صحيح .. امك ..

وحقدت عليه بضع ثوان لمقاسمتها بشكل سيء ذلك القلق الذي يقض مضجعها .

– ولا أي خبر ؟

– بطاقة من فيينا مكتوبة في المحطة ، ومؤرخة نهار الاثنين ! « وصلت بخير » . هذا كل شيء .

وهذه البطاقة تلقتها جني البارحة ، صباح الاربعاء . ومنذ ذلك الوقت ، وقد انتابها القلق بشكل مميت ، كانت تترقب البريد على غير طائل: لا رسائل، ولا برقية .. وقد ضاعت في التخمينات .

وأجال عينه الذاهلة في هذه الغرفة التي لم يكن يعرفها ، والتي أثر فيه اكتشافها كثيراً لبضعة ايام . لقد كانت غرفة صغيرة ، مضاءة ومرتبة ، مغلفة الجدران بأوراق ذات خطوط بيضاء وزرقاء . وكانت المدخنة تستعمل مكاناً لأدوات الزينة : فراشي عاج ، مغرز للدبابيس ، بضع صور مولجة بين المرآة والاطار . وعلى الطاولة قرطاس يوضع تحت اليد من الجلد الابيض وكان مطبقاً . وليس هناك سوى بضع صحف طويت بسرعة .

وبهمسة في اذنها قال :

– غرفتك ..

ولما لم تجب فقد تابع مراوغاً :

– حقيقة لم اكن اعتقد ان والدتك ستكمل رحلتها .

– انت لا تعرفها ! ان امي لا تتراجع ابداً عما تنوي عمله . والآن ، وهي في موضع العمل ، فستقوم بجميع المساعي التي في رأسها . ولكن هل تستطيع؟ ماذا تعتقد ؟ اليس من الخطر في هذه الفترة ان تكون في النمسا ؟ قل ؟ ماذا يمكن ان يحصل ؟ هل يتركونها تعود على الاقل اذا تأخرت ؟

فاعترف جاك : لا أدري .

– ماذا يمكن عمله ؟ حتى عنوانها ليس معي ... كيف أفسر هذا الصمت ؟ أقول لنفسي انها لو كانت عائدة لأبرقت إلي ... اذن يجب أن تكون باقية في فيينا ؛ وبالتأكيد ، تكتب الي ؛ والرسائل يمكن أن تضيع في الطريق . – وأشارت الى الصحف على الطاولة بحركة قلقة : – حين يقرأ المرء ما يجري لا يستطيع إلا أن يرتجف .

كانت جني قد أسرعت لشراء هذه الصحف منذ الساعة الأولى . وقد أسرعت بالعودة لكي لا تفوتها عودة جاك . وظلت تقرأها طوال فترة الصباح وتعيد قراءتها . واستولى عليها ذلك التهديد المعلق فوق جميع الكائنات العزيزة عليها . جاك ، أمها ، دانيال .

وقالت وهي تنهض : دانيال ايضاً كتب إلي .

وراحت تأخذ من القرطاس غلافاً ناولته الى جاك . ثم ، من تلقاء نفسها ، كحيوان مخلص ، عادت تتلبد ملتصقة به .

لم يكن دانيال يخفي القلق الذي أغرقته فيه رحلة مدام فونتانان . وكان يشفق على مصير جني الوحيدة في باريس أثناء هذا الاضطراب . وأشار عليها بالذهاب لرؤية انطوان ، وآل هيكيه . وتوسل اليها ألاّ تقلق ؛ فلا تزال تسوية كل شيء ممكنة . ولكنه ، في حاشية ، أعلن أن فرقته قد انذرت بالخطر ، ويعتقد أنها ستترك لونفيل ليلاً ، ومن الممكن أن يصبح ارسال أخباره صعباً عليه في الأيام الآتية .

وكانت تنظر إلى جاك وهو يقرأ ، ورأسها مستند إلى صدره ، والعينان مرتفعتان . وقد طوى الرسالة وأعادها اليها . ورأى انها كانت تنتظر كلمة أمل :

– دانيال على حق ، كل شيء ممكن تسويته بعد .. لو كانت الشعوب تدرك . لو أنها قررت العمل ... بهذا يجب العمل حتى اللحظة الأخيرة .

ودفعته فكرته الثابتة إلى التحدث باختصار عن مظاهرات باريس وبرلين وبروكسل ، وعن الحمية التي استولت عليه أمام الاندفاعية الجماعية لهذه الجماهير

التي كانت تهتف حيال وضد كل شيء ، في كل أوروبا ، بإرادتهـــا في السلام . وفجأة شعر بالخجل لكونه هنا . لقد فكر بفعالية رفاقه في الاجتماعات المنظمة هذا النهار في مختلف الفروع الاشتراكية ، وبكل ما كان عليه شخصياً أن يفعله – ذلك المال الذي يجب أن يأخذه ويضعه بأسرع ما يمكن تحت تصرف الحزب . ورفع رأسه وصرح وهو يداعب شعر الفتـــاة ، بمزيج من الكآبة والقسوة :

– لا أستطيع البقاء معك هنا يا جني .. هناك أمور كثيرة تدعوني ..

فلم تتحرك ؛ ولكنه شعر أنها انقبضت ورأى النظرة اليائسة التي ألقتهـا نحوه ، فضمها بعنف الى صدره ، وغطى بالقبلات الوجه المسكين المشوش . لقد شعر بالشفقة عليها ، وتفاقمت جميع أثقال الحوادث فجأة بالنسبة اليه بسبب هذا الألم الصامت الذي لم يكن يعرف كيف ينجده . وتمتم كأنه يفكر بصوت مرتفع :

– مع ذلك لا أستطيع أن آخذك معي .

فارتجفت وتجرأت على القول :

– ولماذا لا ؟

وقبل أن يدرك ما تريد أن تفعل تملصت من بين ذراعيه ، وفتحت خزانتها وأخذت قبعة وقفازاً .

– جني ! قلت لك ... ولكن هذا مستحيـــل . لدي أمور يجب عملها ، وأناس يجب أن أراهم .. يجب أن أذهب إلى صحيفة « الانسانيــة » .. وإلى « الليبرتير » ، وإلى أمكنـــة أخرى ايضاً . الى مونتروج هذا المساء .. ماذا يصير بك أثناء هذا الوقت ؟

– سأبقى تحت في الشارع ..

قالت ذلك بنبرة متوسلة فاجأتها كلاهما . لقد تخلت عن كل كبرياء . ان هذه الأيام الثلاثة من الفراق قد بدلتها :

– سأنتظرك بقـــدر ما يلزم ... ولن أزعجك في شيء ... دعني أتبعك

يا جاك ؛ دعني أقاسمك حياتك ... كلا ، لا أطلب منك ذلك . إني أعلم انه مستحيل ... ولكن لا تتركني هنا ... مع هذه الصحف .

لم يكن قد شعر أنها أكثر قرباً منه مثلها في هذه اللحظة . لقد أصبحت جني جديدة – انها شقيقة كفاح !

وهتف بفرح : ساصحبك ! سأقدم اليك أصدقائي ... سترين . هذا المساء سنذهب معاً إلى اجتماع مونتروج ... تعالي .

وصرح برصانة حين أصبحا في الخارج :

– أول شيء هو أن أنتهي من قضية الميراث تلك ، وبعد ذلك سنرى ما هناك من صحيح في أخبار « باري - ميدي » .

كان في صوته مرح . فوجود الفتاة أعاد اليه بشاشة أفضل أيامه ، ووضع يده تحت مرفق جني وسار بها بخطى سريعة نحو اللوكسمبورغ .

في مكتب الوكيل (كما هو الأمر في فروع ومؤسسات الاعتماد ، وصناديق التوفير ، ومكاتب البريد) كان الجمهور يحاصر شبابيك الدفع لإبدال الأوراق الأوراق المالية بالعملة النقدية . وفي البورصة منذ يومين والذعر سائد ووكلاء الصرف وسماسرة الصيرفة كانوا يشتغلون لدى الحكومة للحصول على أذونات تتيح الاستلاف في نهاية آب على تصفية حساب تموز .

واعترف المعتمد وقد طرفت عينه طرفة ملأى بالتقدير :

– تستطيع القول أنك كنت على تمام العلم يا سيد . لو تأخرت ٤٨ ساعة لما كان بإمكاننا تنفيذ أمرك .

فقال جاك برباطة جأش : أعلم ...

بعد بضع ساعات كانت نصف الثروة المحترمة التي تركها السيد تيبو – باستثناء مائتين وخمسين الفاً من الفرنكات من أوراق أميركا الجنوبية لم يكن من الممكن تصفيتها في هذه المهلة القصيرة – قد وضع بعناية ستيفاني ، بين أيدٍ

رصينة وشريفة كُلّفت قبل أربع وعشرين ساعة بوضع هذه الهبة المغفلة تحت تصرف المكتب الأمي .

٤٥

في نفس الساعة كان انطوان يتسلق درج الكه دورسي ليحقن روميل . ومنذ عدة أيام ، وعلى الخصوص منذ عودة الوزير ، فإن الدبلوماسي المتعب ليلاً ونهاراً كان قد أقلع عن المجيء إلى شارع الجامعة ؛ وبما أن جهازه العضوي المنهوك كان بحاجة أكثر من أي وقت إلى ضربة السوط اليومية هذه ، فقد كان مقتنعاً أن الدكتور سوف يأتي بانتظام إلى الوزارة . وكان انطوان مستعداً بكل طيبة خاطر لهذا الانزعاج . والدقائق العشرون التي كان يقضيها في مكتب روميل كانت تجعله يومياً على علم بمجرى الارتجاجات الدبلوماسية ، وبهذا كان يظن ، بواسطة فرصة سعيدة ، أنه أحد الرجال القلائل الأفضل اطلاعاً في باريس .

كان عدة أشخاص ينتظرون المقابلة في الرواق وفي الصالون الصغير المجاور. ولكن الحاجب كان يعرف الدكتور ويدخله من باب الخدمة .

وقال انطوان وهو يسحب من جيبه عدد « باري - ميدي » :

– وبعد ، فكل شيء يتدهور .

فقال روميل ، ناهضاً مقطباً :

– تست ... أتلف لي هذا بسرعة ... لقد أصدرنا تكذيباً على الأثر ! ستلاحق الحكومة ذكر البط الوقح هذا .. لقد صادرت الشرطة حالاً كل ما بقي من الطبعة .

فسأل انطوان مطمئناً :

– إذن فهو غير صحيح ؟

– ك ... كلا ...

ورفع انطوان رأسه ، وقد وضع حقيبته على طرف المكتب ، وتأمل ،

بصمت ، روميل الذي كان يخلع ملابسه ببطء ، وبهيئة متعبة .

– صحيح تمام الصحة اننا تلقينا هذه الليلة انذاراً حاراً ..

وبدت رنة صوته الخافتة من التعب متغيرةً لانطوان .

– في الساعة الرابعة صباحاً كنا كلنا واقفين ولم نذهب من هنا .. وزير الحربية ووزير البحرية طُلبا فوراً الى الاليزيه حيث يوجد رئيس مجلس الوزراء . وهناك بحثوا طوال ساعتين في الاحتياطات النهائية .

– ولم يتخذوها ؟

– نهائياً ، كلا . بعد .. ان الدلائل تبشر بهدوء خفيف منذ هذا الصباح . فقد أعلمتنا ألمانيا رسمياً انها لم تعلن التعبئة ، بل ، بالعكس ، فهي « تتحدث » فعلياً مع فيينا وبطرسبورج . إذن من الصعب علينا ، الآن اتخاذ مبادرات يُخشى ..

– ولكن هذه الحركة الألمانية علامة طيبة .

– مداجاة يا عزيزي ! لا شيء سوى مداجاة ! حركة تلطيف لتحاول ، إذا أمكن ، ان تربح إيطاليا لقضية الامبراطوريات الوسطى : حركة لا يمكن أن يكون لها ، في الواقع ، أية نتيجة : فألمانيا تعرف مثلنا أن النمسا لا تستطيع أن تتراجع وأن روسيا لا تريد أن تتراجع .

– ان ما تقوله يدعو الى القلق الشديد .

– لا النمسا ولا روسيا .. ولا الآخرون أيضاً .. وهذا يا عزيزي ما يجعل القضية شديدة الصعوبة : في كل مكان تقريباً ، في قلب الحكومات ، لا يزال يوجد ارادات سلام ؛ ولكن في كل مكان أيضاً يوجد الآن ارادات حرب .. ليس هناك أية حكومة ، وقد حاصرتها قوة الأشياء أمام افتراض التهديد ، الا وتقول لنفسها : « وبعد ، فهي جولة نلعبها . وربما هي فرصة يجب اغتنامها » . ولكن نعم . أنت تعلم جيداً ان لكل أمة في أوروبا هدفاً على حدة تريد بلوغه وربما تستخرجه من حربٍ تُجَرُّ إليها .

– حتى نحن ؟

ـ عندنا ، فان أكثر قادتنا محبةً للسلام يقولون لأنفسهم : « وبعد ، فهذا سبب للانتهاء من ألمانيا .. واستعادة الالزاس واللورين ». وألمانيا تفكر بكسر الطوق عنها ؛ وانكلترا بملاشاة البحرية الجرمانية وسرقة تجارة الألمان ومستعمراتهم . كل فرد فيما وراء الكارثة التي لا يزال يود تجنبها يريد الفائدة التي ربما امكنه تحقيقها .. إذا وقعت هذه الكارثة .

كان روميل يوضح أفكاره بنبرة منخفضة ، رتيبة . ويبدو تعباً من الكلام ، وأكثر تعباً للحصول على قوة تسكنه .

وقال انطوان : اذن ؟

وشعر برعشة جسدية بسبب الانتظار والشك ، بحيث كان يفضل في هذه االلحظة أن يعرف أن الحرب قد أعلنت وأنه لم يبق عليه سوى أن يذهب .

وبدأ روميل دون ان يجيب : وبعد ..

وصمت ، وأمرّ اصابعه ببطء في شعره الجعد ، وأبقى جبهتــه مضغوطة بين يديه .

وبسبب إطنابه في الكلام حول كل هذه المسائل ، وسماعه لها وهي تتطور منذ خمسة عشر يوماً ، من الصباح حتى المساء ، فقد كان يبدو انه لا يعي جيداً خطورة الحوادث التي يعلنها . وكان يبتسم ، واقفاً ، منخفض العينين ، ويداه على صدغيه . واذيال قميصه كانت تخفق على فخذيه اللذين كانا سمينين ، أبيضين ، يكسوهما زغب اشقر . ولم تكن ابتسامته موجهة إلى انطوان . فقد كانت ابتسامة مبهمة ، كاشرة ، شبه بلهاء : « أسدية » قدر المستطاع . وآثار الانهاك الأكثر ظهوراً كانت تقرأ على وجهه المنتفخ ، وعلى جبهته المخططة ، الترابية ، حيث ألصق العرق عليها تجعيدات شعر شقراء ، لقد قضى الليلتين الأخيرتين في الوزارة . وكان أكثر من متعب : فهزّات هذا الأسبوع الدرامي انهكت واتلفت واستنفدت قواه ، كقوى السمكة التي تسير طويلاً تحت الماء بخطوط منكسرة . وبفضل الابر (وبرشامات الكولا التي كان يقضمها كل ساعتين رغم منع انطوان) كان يتوصل إلى بذل جهده اليومي ؛ ولكن في

حالة قريبة من النومان . فالآلة التي أديرت كانت لا تزال تقوم بوظيفتها . ولكنه كان يشعر ان جهازاً جوهرياً انقطع : والآلة الآن لم تكن تلبّي .

كان يدعو الى الشفقة . الآن انطوان كان يريد ان يعرف ، فكرر :

– وبعد ؟

فارتجف روميـــل ، ورفع جبهته دون ان يسحب يديه ، وشعر برأسه مدوياً هشاً ، يتصدع عند أقل صدمة . كلا ، هذا لا يمكن ان يدوم . فهناك شيء في الداخل سوف ينتهي بالانفجار .. في هذه اللحظة كان يعطي الناس كل شيء يضحي بمركزه ، بمطامعه في سبيل نصف يوم من العزلة ، من الراحة الـكلية ، في اي مكان ، ولو كانا في زنزانة سجن ..

الا انه عاد الى الكلام وقد زاد صوته انخفاضاً .

– ثم اننا **نعرف** هذا : ان برلين أنذرت بطرسبورج بأن ألمانيا عند اقل زيادة في التعبئة الروسية سوف تقرر تعبئتها حالاً .. انه نوع من الانذار النهائي .

فهتف انطوان .

– ولكن ما الذي يمنع روسيا من إيقاف تعبئتها ؟ ألم يعلن بالأمس ان القيصر قد اقترح تحكيم بلاط لاهاي ؟

فلفظ روميل بنوع من اللامبالاة :

– تماماً . **فقط** يا عزيزي . فالواقع هو : في روسيا يتابعون تعبئة جيوشهم بإصرار بينما يتـكلمون عن التحكيم . تعبئة كانت قد بدأت ليس فقط بدون إعلامنـــا ، بل خفيةً عنا ! وبدأت منذ متى ؟ يقول البعض منذ **الرابع والعشرين** ! قبل إعلان النمسا الحرب بأربعة أيام ! وقبل التعبئة النمساوية بخمسة أيام ! ومعالي السيد سازانوف اخبرني البارحة بوضوح أثناء السهرة ان روسيا قد قامت باستعداداتها الحربيـــة . والسيد فيفياني الذي هو أكثر صدقاً من الآخرين كما اعتقد يرغب تجنب الحرب بأي ثمن ، وهو خائف تماماً . وإذا كان أمر التعبئة – التعبئة العامة – قد صدر رسمياً هذا المساء في بطرسبورج ،

فان هذا لن يدهش احداً منا ! وهذا كان سبب اجتماع مجلس الحرب هذه الليلة. وهذا ، بالفعل ، خطير حتى منتهى الخطورة اكثر من اقتراح تحكيم افلاطوني في لاهاي ! او حتى من الرسائل « الاخوية » التي يتبادلها من ساعة الى اخرى القيصر الالماني وابن عمه القيصر الروسي ! لماذا هـــذا الاصرار الاستفزازي في روسيا ؟ ألأن السيد بوانكاريه كـــان يردد دائماً ، وبحكمة ، ان المساندة العسكرية الفرنسية لن تكون مقبولة في روسيا الا اذا تدخلت المانيا عسكريا؟ ويجري التساؤل ... يبدو تقريبا ان بطرسبورج تريـــد ارغام برلين على القيام بالحركة الاعتدائية التي تضطر فرنسا الى القيام بتعهداتها كحليفة !

وصمت ، واخذ يتطلع الى ركبتيه بانتباه ، ويتلمس ساقيه . اكان يتردد في الاكثار من الكلام ؟ لم يكن انطوان يعتقد ذلك . كان لديه شعور هذا النهار ان الدبلوماسي لم يكن في حالة تمكنه من ان يزن ما يمكن ان يقوله وما يمكن ان يسكت عنه .

وقال دون ان يرفع رأسه :

– كان بوانكاريه قوياً جداً . قوياً جداً ولكن ان تحكم على ذلك : فقد تلقى سفيرنا في بطرسبورج ، هذه الليلة بالذات ، الأمر برقيـا بان يستنكر بوضوح التعبئة الروسية ، باسم حكومته .

فقال انطوان بسذاجة :

– نعم العمل ! لم أعتقد ابداً ان بوانكاريه يرضى بالحرب .

فلم يجب روميل حالاً . وتمتم بفرجة فم غير متوقعة :

– يحرص بوانكاريه على وضع مسؤوليتنا في مأمن . والآن ، كما ترى ، سواء اكان متأخراً ام لا ، ومهما يحصل ، فان هـــذه البرقية هنا : وستبقى في المحفوظات (الارشيف) وتكون شاهداً على ارادتنا للسلم ... الشرف الفرنسي سالم ... كان لا يزال هناك وقت ... هذا قوي جداً . . . .

وأخذ سماعة الهاتف وقد سمع رنة الجرس الضعيفة .

– غير ممكن ... قـــل له اني لا استطيع استقبال أي صحفي .. كلا ،

حق ولا هو !

وكان انطوان يفكر : « ولكن ، اذا ارادت فرنسا الآن ان توقف التعبئة الروسية بصورة أكيدة ، اليس لديها وسيلة اكثر فعالية من استنكار رسمي ! ووفقاً لما اوضحته في يوم سابق ، اذا عبأت روسيا جيشها **قبل** المانيا ، فـــان معاهدتنا لا تجبرنا على إسداء مساندتنا للروس . حسناً ، الا يكفي ان تذكر صديقك سازانوف بلهجة ما لتجعله يبطىء في استعداداته ؟

فهز روميل كتفيه بلطف كأنه امام ثرثرة ولد .

– يا عزيزي ، ماذا بقي من المعاهدات الفرنسية – الروسية في الماضي ؟ التاريـــخ سيقول اذا كنت مخطئاً . ولكني اشعر جيداً ، في هاتين السنتين الاخيرتين ،وخصوصاً في هذه الاسابيع الاخيرة – بواسطة لعب المداهنة السلافية الابدية الحاذق – وربما ايضاً بواسطة غفلة حكوماتنا السمحة – ان تحالفنا مع روسيا قـد تجدد **دون شرط** ... وان فرنسا مرتبطة مسبقاً بكل عمـــل عسكري تقوم به حليفتها ... وانه ليس عمل وزير خارجيتنا ...

وقد اضاف ذلك بصوت منخفض .

– ومع ذلك فبوانكاريه وفيفياني متفقان ...

فقال روميل :

– بوه ! متفقان ،نعم ، بالتأكيد ... بفرق ان السيدفيفياني كان دائماًيقاوم النفوذ العسكري ... وانت تعلم انه قبل ان يكون رئيساً لمجلس الوزراء ، فقد كان من اولئك الذين صوتوا ضد الثلاث سنوات ... والبارحة ايضاً ، عندما وصل ، كانت هيئته تبعث على الظن ان كل شيء يجب ويمكن ان يتصلح . فما هو رأيه بذلك الآن ؟ هذه الليلة بعـد الاجتماع الكبير لمجلس الوزراء ، كان متغيراً، ومنظره يبعث على الحزن ... واذا اعلنا التعبئة فلن أفاجأ اذا استقال .

وكان قد بلغ الأريكة بخطوة بطيئة وهو يتكلم ، وتمدد عليها عـلى جنبه ، وانفه في الوسائد ، وتابع بنفس النبرة العلمية :

– اظن اليوم انه الفخذ الايمن يا عزيزي ، اليس كذلك ؟

فاقترب انطوان ليقوم بعمل الحقنة .

وسادت دقيقة صمت طويلة . وهمهم روميل بصوت أخفته الوسائد :

– في البدء ، ظهرت النمسا ، وفقاً لقاعدة ، انها هي التي تعرقل جميع الجهود التي بذلت لانقاذ السلام . واليوم بكل وضوح ،هي روسيا .. - ونهض وبدأ يرتدي ملابسه – وهكذا فهي التي اتت ، بتشددها ، تجمد الجهد الجديد للوساطة الانكليزية . لقد علموا البارحة بشكل جدّي في لندن والتقطوا شيئاً ما : فقد اقترحت انكلترا القبول باحتلال بلغراد احتياطياً ، كواقع ، كرهينة بسيطة تأخذها النمسا؛ولكنها طلبت مقابل ذلك ان تجهر النمسا علناً بنواياها. وكانت هذه ، على الاقل ، نقطة انطلاق لبدء المفاوضات . الا انــه كان يجب موافقة الدول الجماعية . ولكن روسيا رفضت الموافقة عمداً ، متطلبة كشرط مطلق ايقاف الاعمال العداوانية في الصرب رسمياً وجلاء الجيوش النمساوية عن بلغراد ، الامر الذي هو في الحالة الحاضرة ، طلب من النمسا بالتراجع غير مقبول . وقد تحطم كل شيء من جديد . كلا ، كلا ، يا عزيزي ؛ لا فائدة من الخداع . ان روسيا تلبي قراراً قطعياً لا يبدو انه اتخذ البارحة . فهي لا تريد ان تسمع شيئاً؛ ولا تريد ايضاً الاقلاع عن هذه الحرب التي تأمل ان تكون مفيدة لها؛ وستجرنا كلنا الى الرقص . ولن نتفلت من ذلك !

وكان قد ارتدى سترته ، وسار آلياً نحو المدخنة ليتأكد في المرآة من عقدة رباط عنقه ، ولكنه التفت في نصف الطريق :

– وهل تعتقد ان احداً منا يعرف الحقيقة ؟ يوجد اخبار خاطئة اكثر من الاخبار الصحيحة ... فكيف نعرف ذلـك ؟ فكـّر يا عزيزي انه منذ خمسة عشر يوماً ، في كل مكان ، في جميـع مكاتب وزراء الخارجية ورئاسات اركان الجيوش ، يرن جرس الهــاتف دون توقف ، متطلباً اجوبة آنية ، دون ان يتركوا للمسؤولين المنهوكين وقتاً للتأمل ولا للدرس ! فكـّر انه في جميع البلدان ، على طاولات المستشارين والوزراء ورؤساء اركان الجيوش تتكدس من ساعة الى ساعة برقيات بالشيفرة تفضح النوايا الخفيـة للامم المجاورة ! انها قعقعة مجنونة

من الاخبار والتأكيدات المتناقضة وكلها خطرة ومستعجلة ، فكيف يمكن الرؤية بوضوح في هذه البلبلة الجهنمية ؟ ومعلومات كهذه ، سرية جداً ، جاءتنا بواسطة دوائرنا السرية تكشف لنا عن خطر غير متوقع ، آني يمكن ايضاً تلافيه بجواب سريع. والتحقق مستحيل . فاذا صممنا على الجواب ، وكان الخبر خاطئاً ، فان مبادرتنا تزيد من خطورة الواقع ،وربما تثير حركة حاسمة من الخصم فتفسد المفاوضات التي أوشكت على الانتهاء . ولكن اذا لم نجب وكان الخطر حقيقياً ؟ يصبح الوقت متاخراً ، يوم غد ، للعمل . ان اوروبا ، على وجه دقيق ، تترنح كامرأة سكرى تحت هذا الوابل من الاخبار التي نصفها صحيح ونصفها خطأ ..

كان يروح ويجيء خلال الغرفة ، مصلحاً طوق عنقه بيد خرقاء ، مترنحاًهو ايضاً كأوروبا تحت تشوش افكاره . ودمدم :

ـ ياللمستشاريات المسكينة ! جميع الناس يقذفونها بحجر .. ومع ذلك فهي وحدها تستطيع انقاذ السلام . ربما تتوصل الى ذلك اذا استطاعت تكريس كل جهدها الى اساس النزاع : ولكن قواها الرئيسية تبلى في مراعاة حب الذات للناس والامم ! وهذا أمر يدعو الى الرثاء يا عزيزي .

وتوقف بقرب انطوان الذي كان يعيد اقفال حقيبته بصمت . وتابع كأنه لا يستطيع الامتناع عن التفكير بصوت عالٍ .

ـ وبعد ، فالدبلوماسيون ورجال الحكومة ليسوا الوحيدين الذين يقررون اليوم .. فهنا ، في الكه دورسي ، منذ بضعة ايام ، كنا نشعر تماماً ان ساعة السياسة والدبلوماسية قد مضت ... ففي كل بلد يوجد الآن اناس قد تناولوا الكلام . هم العسكريون .. انهم الأكثر قوة . يتكلمون باسم السلامة الوطنية ؛ وجميع السلطات المدنية تستسلم هنا ، امامهم .. نعم ! حتى في البلدان القليلة النزعة الحربية فان السلطة الحقيقية هي الآن في ايدي اركان الجيش .. وحين يصل الأمر الى هنا يا عزيزي ، حين يصل الأمر الى هنا ..

وأتى بحركة رصينة . ومن جديد طفت الابتسامة المكشرة البلهاء

على شفتيه .

ورن جرس الهاتف . وظل بضع ثوانٍ محملقـــاً بالجهاز ، وتمتم دون أن يرفع عينيه :

- التشابك الشيطاني . تشابك يبدو انه يتحرك وحده .. اننا نتدرج إلى الهاوية كقطار لم تضبط كوابحه جيداً ، يهبط منحدراً ويبلغ بسبب ثقله سرعة تزداد من دقيقة الى أخرى .. اصبحت مسببة للدوار . وتبدو الأمور انهـــا **تفلتت** .. واصبحت تسير ، وتسير وحدها .. دون أن يقودها أحد ، دون أن يسهر عليها أحد . وليس هنـــاك شخص ، لا من الملوك ولا من الوزراء ، ليس هناك شخص يمكن تسميته .. كلنا نشعر أن الأمور تخطتنا ، وأن يدنا قـــد رُفعت ، وان سلاحنا انتزع منا ، واننا خُدعنا .. دون أن نعرف كيف ولا ممن .. كل فرد يفعل مـــا قال انه لن يفعله ، ما لم يكن يريد البارحة أن يفعله ابداً .. كما لو أن جميع المسؤولين اصبحوا لعبـــاً - لا ادري - لعباً للقوى والسلطات الخفية التي تقود الجولة من مكان عالٍ جداً ، بعيد جداً ..

وكان قد وضع يده على الهـــاتف ، وقد استمر في النظر اليه بعين شاردة . واخيراً اعتدل ، وقبل ان يأخذ السماعة اشار الى انطوان اشارة صداقة :

- الى الغد يا عزيزي .. عفواً لن اوصلك الى الباب .

٥٧

ترك انطوان الوزارة تعباً ، مضطرباً بحيث عزم ، مهما كان نهـــاره مثقلاً بالعمل ، على أن يرتاح برهة في منزله قبل أن يتم دورته .

وكان يردد ، دون أن يتوصل الى الاعتقاد بامكان ذلك: « في مدى شهر سأدعى الى التجنيد .. المجهول .. »

وحين دخل تحت القنطرة شاهد رجلاً فتيـــاً يخرج من الدهليز وقد وقف حين رآه .

انه سيمون دي باتنكور .

ففكر انطوان : « الزوج » . واستعد للدفاع .

ولم يكن قد عرفه حالاً مع انه التقى به عـــدة مرات . وفي السنة الماضية ايضاً ، حين اضطر الى وضع ابنة آن في الجبس .

وقال سيمون معتذراً :

— كنت اعتقد انه يوم معاينتك يا دكتور . وقد اخذت موعداً لنهار غد ؛ ولكن أود العودة هذا المساء الى بيرك .. لو كنت استطيع بدون أن ازعجك كثيراً ..

وقال انطوان لنفسه حذراً : « يا للشيطان ! ماذا يريد مني؟ » كان يريد أن يبقى في مكانه ولا يتملص . وقال بدون لطف :

— عشر دقائق .. اني اعتذر فلدي زيارات أقوم بها طول النهار . اصعد معي .

كان يجانب هذا الرجل في المصعد الضيق حيث امتزجت انفاسهما وما يرشح منهما . وقد تشدد انطوان في حقـــد زاد من خطورته شعور غريب بالتقزز . وكان يردد : « زوج آن . زوج .. »

وسأل باتنكور فجأة :

— اتعتقد انهم سيتجنبون الحرب ؟

وكانت تطوف على شفتيه ابتسامة غامضة طفولية عذبة . وتمتم انطوان متجهماً :

— بدأت اشك في ذلك .

وتحللت قسمات الشاب :

— هذا مستحيل .. مستحيل ان يصل الأمر إلى هنا .

وصمت انطوان وأخذ يلعب بسلسلة المفاتيح . ودفع الباب :

— ادخل .

وبدأ سيمون قائلاً :

— جئت استشيرك بشأن صغيرتي هيجيت .

لفظ بتأثر بالغ اسم تلـك الطفلة التي لم تكن تمتّ اليه بصلة ، ولكنه شغف بها حباً كأنهـا ابنته ، وكرس نفسه كلياً في سبيل شفائها . لم يكن يكثر من التفاصيل حول حياة المريضة الصغيرة . وقد أكد انها كانت تحتمل بصبر ملائـكي ذلك الجمود الطويل في الجبس ، وتقضي في الخارج تسع أو عشر ساعات باليوم . وقد اشترى لها أتاناً صغيرة بيضاء لتجرّ « التابوت » خـلال شوارع بيرك حتى رمال الشاطىء . وكان في المساء يقرأ لها ويعلمها شيئاً من قواعد اللغة الفرنسية والتاريخ والجغرافيا .

كان انطوان يصغي بصمت وهو يقود باتنكور الى مكتبه ، ودفعه انتباهه المهني الى أن يحاول ، في خيط هذه الثرثرة ، جمع الدلائل التي تزوده بالمعلومات عن حالة المريضة الفيزيولوجية . كان قد نسي آن كليـاً . وحين رأى باتنكور يجلس في تلك الكنبة نفسها التي كان يجلس عشيقته عليهـا في اغلب الاحيان ، قال لنفسه بالحاح عريب : « الرجل الموجود هنا ، والذي يكلمني ويبتسم لي ، والذي جاء يفضي إلي بأمور تشدّ على قلبه ، هو الرجل الذي اخدعه وأسرقه وهو لا يدري .. »

لم يشعر في بادىء الأمر بسوى معاكسة غير واضحة ، ذات نظـام طبيعي شبيه بالمكروه الذي يحدثه احتـكاك غير مرغوب فيه ، وكريه ايضاً . ثم ، لما كان سيمون قد صمت فجأة ، وظهر عليه شيء من القلق ، فـان شكـّاً اجتاز ذهن انطوان : « هل يعلم ؟ »

وعند ذلك قال باتنكور :

– ولكني لم اقم بهذه الرحلة لأحدثك عن حياتي كحارس لمريض .

ولكن نظر انطوان الباحث رغماً عنه حرض الآخر على متابعة الكلام :

– بل لأني في هـــذه الفتره ألقي على نفسي بعض الاسئلة المتنوعة المقلقة . واخشى من سوء الفهم اذا لجأت الى المراسلة . ففضلت ان أراك لإيضاح كل هذه الأمور .

وفكر انطوان بسرعة ! « وبعد ، فلماذا لا يعرف ؟ »

ومرت بضع ثوان من الصمت استسلم اثناءها للافتراضات الأكثر إضحاكاً.
وتابع سيمون اخيراً :
- لست أكيداً من أن الاقامة في بيرك تلائم هيجيت تمام الملائمة .
واندفع في توضيحات تتعلق بالمناخ .
كان يرى أن التقدم اصبح بطيئاً بشكل محسوس منذ عيد الفصح. وطبيب بيرك ، مع أن من مصلحته الدفاع عن بلاده ، لم يكن بعيداً عن الاعتقاد ان جوار البحر غير ملائم للطفلة . وربما الارتفاع عن سطح البحر ؟ ومس ماري ، مربية هيجيت ، حصلت بواسطة علاقات انكليزية على معلومات غير عادية عن طبيب شاب في البيرنيه الشرقية متخصص في الحالات التي من هذا النوع . وقد حصل على نتائج مدهشة .
كان انطوان جامداً يتفحص هذا الوجه الدقيق ذا الصورة الجانبية المحدودبة كوجه المعزاة ، وذلك اللحم الشاحب لرجل اشقر لم ينجح هواء تلال رمل الشاطىء في تلويحه. كان يبدو مصغيا ، يزن باعتناء ما لإيحاءات باتنكور ما عليها. وفي الواقع ، كان لا يسمع إلا بالجهد. كان يفكر بالحكم الذي كانت آن تصدره على زوجها في تلك الساعات النادرة من المسارّة : كائن تافه ، مخاتل ، اناني ، مزهو ، شرير مع المراءاة . كان قد قبل هذه الصورة حتى الآن دون حذر لأنها كانت تتحدث عن سيمون بتجردٍ مزدرٍ بدا انه ضمان للصدق ؛ ولكن منذ أن اصبح النموذج تحت نظره فإن ألف فكرة مشوشة اخذت تتشابك في دماغه .
وسأل باتنكور :
- الا يجب علي أن انقل هيجيت الى فون - رومو ؟
فتمتم انطوان :
- فكرة حسنة تقريبا . نعم .
- حسنا . وسأبقى بجانبها . قليلا ما تهم المسافة والعزلة اذا تحسنت حالة الطفلة . أما زوجتي ..
عند ذكر آن لامس وجهه تعبير من الألم اختفى بسرعة ، واعترف مع

ابتسامة تشي بالتساهل .

– انها لا تأتي كثيراً لرؤيتنا في بيرك. وباريس قريبة كما تعلم. فهي مدعوة دائما من قبل اصدقاء ، وحياتها الاجتماعية تبقيها رغما عنها . ولكن اذا استقرت إلى جانبنا في فون – رومو فربما تنسى باريس بعد قليل .

ومر في نظرته حلم استعادة مودة كان ظاهراً انه لا يعتقد بها . وبدون أقل شك كان يحب تلك المرأة بألم كما في اليوم الأول وتمتم بغموض :

– كل شيء يتغير بسرعة .

وكان انطوان يميز بماذا يمكن تبرير حكم آن على سيمون. فالرجل الجالس هنا أمامه – وهذا اليقين فرض نفسه عليه بوضوح متزايد – في تلك الكنبة كان يختلف اختلافاً عميقاً عن الصورة التي رسمتها آن له . زيف، أنانية ، سوء خلق: كثير من الاتهامات التي لم تصمد خمس دقائق للفحص ، ولذلك الحدس النيّر الذي يوقظه الوجود والاحتكاك المباشر عند ملاحظٍ على شيء من الموهبة في المهارة . بالعكس : الاستقامة ، والتواضع الطبيعي ، وطيبة باتنكور كانت كلها تتفجر في أقل مقاصده، حتى في بلاهة هيئته . وقال انطوان لنفسه: «ضعيف، ليكن. موسوس ، لا شك في ذلك . معذب ؛ وربما أحمق .. أما ان يكون مسخاً ماكراً ، بالتأكيد لا » .

كان سيمون يتابع مناجاته باطمئنان. وبنظرة طيبة مشحونة بالثقة وعرفان الجميل أوضح ان من الطبيعي الا يفكر باتخاذ قرار خطير دون أن يحصل على رأي انطوان . كان يسلم أمره اليه كلياً ، ويعرف نشاطه وإخلاصه . حتى انه كان يأمل بمجيء انطوان إلى بيرك ، بين فترة مسير قطارين ، ليرى المريضة الصغيرة وليعرف قضيتها تمام المعرفة . مع انه في الظروف الحالية ..

كان انطوان يصغي اليه بانتباه . فقد صمم على قطع علاقته نهائياً بآن .

هل تقرر هذا الآن في هذه الدقائق القليلة ؟ أم ان العزم النهائي قد اتخذ منذ وقت طويل في خفايا ارادته ؟ هل بالمستطاع ان نسمي عزماً هذا الخضوع المباشر بدون نزاع لضرورة أصبحت حتمية فجأة ، آمرة ، لا يمكن مقاومتها؟

لو كان لديه وقت فراغ لتحليلها لفكر دون شك ان اصراره طوال هـذه الأيام الاخيرة على تجنب مخابرات آن الهاتفية ، والتملص من المواعيـد المتتابعة التي كانت تقترحها عليه بواسطة ليون ، يعني انه كان يخفي سراً ورغبة لاشعورية بقطع العلاقات . واضطر إلى الاعتراف أيضاً ان السياسة لا يبدو ان لها أي دور تلعبه في هذه القضية ؛ وإن المأساة التي تتخبط بها اوروبا لم تكن غريبـة عن هذا الانفصال ؛ كما لو ان العلاقة مع هذه المرأة لم تكن على مستوى بعض العواطف الجديدة ولا على قياس الحوادث التي بعثت الاضطراب في العالم .

مهما يكن من أمر، فان ما عجل بقطع العلاقات وجعل من ذلك أمراً نهائياً مفروغاً منه هو وجود سيمون في غرفة عمله . لقد كان مما لا يستطيع احتماله أن يجد نفسه في بيته وجهاً لوجه مع هذا الرجل المخدوع ؛ وان يستقبل، بوجهٍ برائي بالاخلاص ، هذا التقدير ، وهذه الثقة ، وأن يرى هذا الرجل الذي يجهل كل ما صنع له من مصير يتوجه اليه كصديق موثوق به . وقد قال لنفسه باضطراب : « هذا لا يصح .. هـذا لا يمكن ان يكون .. الحياة يجب الا تكون هكذا .. انا اولاً ، نعم : ملذتي ، سروري .. ولكن في الوراء يوجـد كائنات ملتزمة ومصائر من الشناعة ان نضحيها بدون تروٍ .. وبسبب اناس مثلي ، وحياه كحياتي ، وأعمال كهذه ، فان الفوضى والكذب والظلم والألم المعنوي تعم العالم » .

شيء عجيب . فمنذ ان صرح لنفسه بنبرة قاطعة : « آن وانا ، انتهى الأمر » . فقد بدا له كل شيء انه دخل في الظـلام بشكل سحري . نعم ، حقيقة ، لقد كان ذلك كأن لم يكن شيء . واستطاع بدون أي قلق ان يتطلع في عيني باتنكور ، ويبتسم له ، ويفيض عليه من تشجيعه ونصائحه . وحين نهض سيمون ، خجلاً كتلميذ وتمتم : « اعتقد انني تجاوزت دقائقي العشر » لمس انطوان كتفه بمودة ضاحكاً . ورافقه مثرثراً حتى الدرج . وقد وعد بالذهاب إلى بيرك في الاسبوع القادم . (انه نسي كل شيء طوال لحظة ، حتى الحرب .. وعاد يفكر بها فجأة . وخطرت له فكرة بان اقتراب الكارثة التي تهدد بقلب

جميع القيم السائدة ستساعده دون شك على قبول هذه المراجهة غير المألوفة بقلب نقي . وقال لنفسه : « ربما قتلنا نحن الاثنين في مدى شهر . فما قيمة كل ما بقي بجانب ذلك .. ») .

وأوضح سيمون باشاً :

– قطار الساعة الثامنة والنصف يضعك في رانغ حوالي الساعة الحادية عشرة ، وفي بيرك عند الغداء .

فقال انطوان مشترطاً :

– اذا لم يحدث شيء ..

فشحب وجه الرجل وانقبض وشد لحظة قبضته على شفتيه ، ووسع نظرته شقاء مؤثر . ورأى انطوان بوضوح ان ابن البروتستانتي العجوز ، ابن الكولونيل الكونت دي باتنكور قد ارتجف في هذه الدقيقة أمام واجبه كجندي .

وقال سيمون دون ان ينظر إلى انطوان :

– ماذا يصير بهيجبيت إذا دعيت للجندية ؟ سوف تبقى لها المس ..

في هذه اللحظة فكر الرجلان بآن ، في نفس الوقت وبنفس الطريقة تقريباً.

وبلغ باتنكور الباب صامتاً . والتفت حين أصبح على سطح الدرج :

– في أي يوم ستذهب ؟

– في اليوم الأول .. مساعد ماجور في فرقة للمشاة .. الرابعة والخمسين في كومبيانيه .. وأنت .

– الثالث . ماريشال دي لوجي [1] .. في فردان . فرقة الفرسان الرابعة .

وتصافحا اخوياً . ثم بعد اخر حركة مودة اقفل انطوان الباب بهدوء .

وظل لحظة واقفاً ، جامداً ، ونظره ضائع على الطنفسة .. وتراءت له رؤيا حادة .. سيمون دي باتنكور متنكر بثياب ماريشال دي لوجي في فرقة

---

١ ـ رتبة عسكرية خاصة بالخيالة تعادل رتبة رقيب .

الفرسان . يركض جواده تحت النيران على رأس فرقته في احد سهول الالزاس.

وجعلته رنة الهاتف العنيفة ينتصب . وقال لنفسه مبتسماً بقساوة : « ربما كانت هي » . واستولت عليه رغبة في ان يثب إلى جهاز الهاتف وينتهي حالاً .

وفي طرف الرواق رفع ليون السماعة :

– نعم .. الجمعة ، السابع من آب ؟ حسناً . الساعة الثالثة . من قبل الاستاذ جانت ؟ مفهوم يا سيدي .. سأسجل ذلك ..

وكان انطوان يهبط الدرج مقلباً أوراق مفكرته حين جعلته جلبة أصوات معروفة على سطح درج الطابق يرفع رأسه . فدفع الباب وسار نحو الغرفة المخصصة للمحفوظات .

كان ستودلر وروا جالسين يتناقشان . ولم يكونا يرتديان البلوزة البيضاء ، وكانت صحف النهار حولهما مبعثرة على الطاولات والمقاعد .

– إذن يا ولديّ .. اهكذا يكون الشغل ؟

فهز ستودلر كتفيه متجهما . ونهض روا ، وابتسم ، ونظر إلى انطوان بهيئة مستفهم :

– ارأيت روميل ايها المعلم ؟

– نعم . أخبار صحيفة « باري – ميدي » مغلوطة . وقد كذبتها الحكومة . ولكن كل شيء يسير من سيء إلى أسوأ – وبعد فترة صمت أضاف بايجاز :

– انهم يدورون على حافة الهاوية .

ودمدم ستودلر .

– والمانيا تستعد .

فقال روا : ونحن أيضاً لحسن الحظ .

وساد صمت . وقال ستودلر متأوهاً :

– آخر حظوظ للسلام هي بين ايدي الطبقة العاملة ، ولكنها لن تعي ذلك إلا بعد فوات الاوان .. وفي الشعب حيال الحرب نوع من القدرية الرهيبة ..

وهذا يتوضح بمـــا يلي : منذ المدرسة زُيفت عقول الأولاد – بالطريقة التي يحدثونهم بموجبها عن الحروب القديمة ، وعن المجد ، والعلَم ، والوطن .. – بواسطة الأبهة التي يضفونها على استعراضات الجيوش والمفاخر العسكرية . وبعد ذلك بسبب الخدمة الاجبارية .. اننا اليوم ندفع غالياً ثمن هذه الغباوة .

كان روا يصغي مستهزئاً :

واستعاد انطوان مفكرته وتفحصها بانتباه ، وقال وهو يعتمر قبعته :

– إلى اللقاء . لم انهِ زياراتي .. إلى هذا المساء !

وظل الرجلان وحدهما . وجاء روا يقف أمام الخليفة :

– ما دام يجب « الذهاب » في يوم أو في آخر ، فاعترف على الأقل ان هذه ليست بشرى سوء .

– آه ! اسكت يا صغيري .

– ولكن كلا .. فكر ولو مرة ، دون تحزب .. فنحن في وضع حسن من جميع الوجوه .. ولفرنسا أكبر فائدة في ان تندلع الحرب أولاً بـــين روسيا والمانيا : هذا يضمن لنا مساندة الروس – انه يترك لنا دور السند الذي هو الأكثر نفعاً .. ومن ناحية اخرى ، فلدينا الوقت – وأريد ان آمل ذلك – لنعدّ على مهلٍ عملية التعبئة دون أن يكون علينا ان نقاسي وطء الهجوم المباغت الذي كان مصدر رعب لأركان جيشنا . كل هذا يزيد في حظوظنا .

كان ستودلر ينظر اليه صامتاً . وقال روا :

– هيا ! لو انك ذو نية حسنة لاقتنعت معي : ان اللحظة لم يُسأ اختيارها لتصفية تلك المعركة القديمة واقالة عثرة الشرف الوطني اخيراً .

فزمجر ستودلر غاضباً : الشرف الوطني !

وفتح الباب ودخل جوسلان ، وقال بتراخٍ :

– الا تزالان تتناقشان ؟

(لقد كان يرتدي بلوزته . ولم يكن يتعلق بالأوهام كالآخرين ؛ كان يعلم انه لن يكون هنا بعد واحد وعشرين يوما ليتأكد من نتيجة عمليات الزرع

التي كرس لها صباحه ، ولكنه يعتبر ان من الواجب العمل كأن ليس هناك شيء ــ وكان يقول لانطوان ، بابتسامة كئيبة في اعمــاق عينيه الرماديتين : « أولاً ، هذا يمنع التفكير ») .

وصاح فيه ستودلر وهو يهز كتفيه :

ــ في كل مكان نفس اللازمة البلهاء . هنا ، الشرف الفرنسي ! وهنـــاك انانية النمسا ! وفي روسيا الدفاع عن النفوذ السلافي في الباقان .. كأن ليس في تأمين سلام الشعوب « شرفٌ » يزيد الف مرة ، حتى مع الاعتراف بانهم تقدموا كثيراً في إثارة مجزرة عامة !

كان ينتابه الغضب لرؤية دعاة القومية يطالبون لهم وحدهم باحتكار النبل والتجرد ، والفضائل البطولية ، هو الذي لم يكن يجهل ، بدون ان ينضم إلى حزب ، كم ان المناضلين الثوريين المنهمكين بالنضال في جميع العواصم ضد قوى الحرب ، يملكون ، اكثر من أي كان معنى العظمة وانكار الذات ، وإرادة السبق إلى مثل أعلى صعب ، وحمية الروح وقوتها اللتين تصنعان الابطال .

ولم يكن ينظر لا إلى جوسلان ولا إلى روا ، وكان لعينه التي تشبه عين النبي بريق ثابت مركز .

ودمدم من جديد :

ــ الشرف الوطني ! لقد جندت جميع الكلمات الكبيرة لتخدير الضمائر ! يجب اخفاء استحالة كل هذا ، ومنع كل انتفاضة ذات نية حسنة ! **الشرف ! الوطن ! المدنية !** ماذا يوجد وراء مرايا القنابر [1] هـذه ؟ مصالح صناعية ، منافسات ، أسواق ، اتفاقات بين سياسيين ورجال اعمال . الجشع النهم للطبقات القائدة في جميع البلدان ! مستحيل ؟ وقاية المدنية ؟ بأسوأ الأعمال الوحشية ؟ باطلاق الغرائز الاكثر انحطاطاً ؟ الدفـــاع عن قضية الحق والعدل ؟ بواسطة

---

١ ــ آلة مرفوعة على مدار ومجهزة بقطع صغيرة من المرايا تعرض للشمس لتجتذب ببريقها القنابر والعصافير الصغيرة الاخرى . والمقصود بها فخ أو شرك .

القتل الغُفل ؟ باطلاق النار على اناس مساكين لا يريدون بنا اي شر ، وهم أيضاً عزموا على السير لقتالنا بدافع من الاغواءات المصطنعة نفسها ؟ مستحيل ! مستحيل !

فصاح روا باستخفاف .

– برافو ايها الخليفة !

وقال جوسلان بلطف ، واضعاً يده على كتفه :

– هيا ، هيا .

كان يشعر نحو مانويل روا ، بنيامينهم ، بنفس شعور انطوان . كان يحبه دون ان يستقصي السبب .. لشجاعته المطمئنة ، لسذاجته السمحة . ففي هذا المحارب الفارغ الصبر ، المستعد للتضحية ببساطة ، كان يرى جمالاً لم يكن يستطيع الا أن يشعر به ، هو رجل المختبر والبحث النظري في المطلق . كان يحترم في روا ذلك المثال للطهارة ، وذلك الايمان الساذج بتجديد النظام بواسطة الحرب ، واللذين سيدفع ثمنهما دماً دون شك .. وتمتم :

– الشرف .. اعتقد ان من الخطأ الفادح ان نُدخل قيماً اخلاقية هنا حيث لا معنى لها : في الصراع الاقتصادي الذي يقسم الدول .. ان هذا يزيف ويسمم كل شيء ، انه يشل كل اتفاق . ويخفي تحت شكل منازعات عاطفية ، وعقائدية ، وحروب دينية ما لا يجب ان يكون ، وما هو اكثر من منافسة بين شركتين تجاريتين .

فلاحظ الخليفة بجمية :

– لقد فهم كايو ذلك جيداً عام ١٩١١ . وبدونه ..

فقطع روا كلامه مهاجماً :

– سوف تفضل دون شك ان ترى صاحبك كايو في وزارة الخارجية بدلاً من ان تراه في محكمة الجنايات .

– بالتأكيد . ثق يا صغيري انه لو ظل في الحكم لما وصلنا إلى حيث نحن ! وبدونه ، فان الحرب العامة ، ذلك الحادث السعيد الذي يبدو ان اقترابه

يلأك ويلأ أصدقاءك بالراحة ، كانت قد حدثت لسعادة الشعوب قبل ثلاث سنوات !.. انه لم يكن يتكلم عن الشرف الوطني . كان يتكلم عن الأعمال ، ويتمسك حيال وضد الجميع بالمخطط الايجابي ، بمخطط المصالح المتضاربة ! وبفضل ذلك استطاع تجنب الأسوأ .

ورأى جوسلان نظرة سيئة تتألق في عيني روا ، فأسرع بالتدخل :

– أعتقد ايضاً ، انه لا يوجد على هذا الصعيد المتمسكين به بعناد ، نزاع لا يمكن حله بالطرق الدبلوماسية ، بتنازلات متبادلة . ان المصالح تتوافق بسهولة اكثر من العواطف .. وأعتقد أنا أيضاً ان واحداً مثل كايو .. وإذا وقعت الحرب ، فمن المحتمل جداً ان المؤرخين الذين عرفوا جيداً أن يصنعوا مصيراً لأنف كليوباطرة ، سوف يعرفون ايضاً ، بين تعقيدات اسباب النزاع ، ان يعطوا اهمية لطلقة مسدس الفيغارو المشؤومة .

وراح روا في ضحكة مطمئنة ، وقال بمرح :

– افضل ألا أجاريك واترك امر ذلك للمستقبل .

٥٨

قال جاك لجني : لنذهب معهم .

كانوا حوالي الاثني عشر ، موجودين في « مقهى الهلال » ليذهبوا معاً إلى مونتروج حيث يخطب ماكس باستيان .

(في جميع الدوائر هذا المساء – في غريفيل ، وفوجيرار ، وباتينيول ، وفيلليت – كانت الفروع الاشتراكية تعقد اجتماعات صغيرة . وفي بلفيلواز كان فايان قد أعلن انه سيتكلم ؛ وكان يُنتظر حدوث شغب . وفي الحي اللاتيني نظم التلامذة اجتماعاً في بوليه) .

وركبوا الاوتوبيس حتى الشاتيليه ، والقطار الكهربائي حتى باب اورليان ، ثم قطاراً كهربائياً آخر حتى ساحة الكنيسة . وهناك كان يجب ان ينزلوا ويسيروا على الاقدام في شوارع حاشدة بالسكان حتى المسرح المحوّل

لذي يعقد فيه الاجتماع .

كانت الأمسية خانقة ، وهواء الضواحي منتناً . وكان جميع السكان في الخارج بعد الطعام، بدون عمل ، قلقين . وفي الشوارع الكبيرة كانت تدوي صرخات باعة الصحف الذين يطوفون الضاحية لبيع طبعات المساء .

كانت جني تترنح على بلاط هذه الشوارع القديمة . لقد تعبت . وثقل خمارها المصنوع من (الكريب) ، ورائحة الصباغ المتصاعدة منه بفعل الحرارة بدءا يسببان ، الصداع . كانت تشعر انها في غير مكانها ، بملابس الحداد ، بين هؤلاء الرجال الذين كان معظمهم بملابس الشغل ؛ وبدافع الغريزة انتزعت قفازيها .

وجاك الذي كان يسير الى جانبها ادرك تماماً انها تلاقي جهداً في اتباعه ؛ فتردد في إعطائها ذراعه ، كان يعاملها كرفيقة امام اصدقائه . وكان يلقي عليها بين وقت وآخر نظرة مشجعة وهو يتحدث مع ستيفاني عن آخر الأخبار الواصلة الى صحيفة « الانسانية ».

كان ستيفاني يبني تفاؤله على التحرك العمالي الذي كان ، حسب رأيه ، في حالة انتكاس . وقد تضاعفت الاحتجاجات العامة . فهناك بيان الحزب الاشتراكي ، وبيان الجماعة الاشتراكية البرلمانية ، وبيان الاتحاد العام للشغل ، وبيان اتحاد السين ، وبيان المكتب الاتحادي للفكر الحر . وقال مؤكداًوعيناه اللتان تشبهان الكهرباء الملونة كانتا تسطعان أملاً :

– في كل مكان يبذلون الجهد ، وفي كل مكان يهددون !

وهناك اشتراكي ايرلندي كان عائداً من وستفاليا ، وكان يتناول عشاءه في « الهلال » ، اعلمه ان في هذا المساء نفسه ، في إيسن ، في قلب مركز التعدين الالماني ، في قلب مصانع كروب الحربية ، حدثت مظاهرة سلام حاشدة.وزعم الايرلندي ايضاً ان عدداً كبيراً من العمال كانوا قد استحسنوا في اجتماعات خاصة عرقلة الشغل ليمنعوا الحكومة الامبراطورية من المواظبة على مقاصدها الحربية .

وفي فترة بعد الظهر كان هناك انذار جدّي بالخطر. فقد سرت ضجة مقلقة آتية من المانيا في قاعات التحرير ، ان القيصر الالماني ، بعد ان طلب من سازانوف بنبرة انذار ، ايضاحات بشأن التعبئة الروسية ، وقبل أن يتلقى الجواب بان هذه التعبئة جزئية ، ولكن **لا يمكن تعليقها** ، كان قد اصدر امراً بإقرار التعبئة . وساور الجميع الظن ، طوال ساعتين ، ان كل شيء ضاع. وأخيراً اصدرت السفارة الالمانية تكذيباً ، وبعبارة قطعية ، بحيث بدا فعلاً ان خبر التعبئة الالمانية كان خاطئاً . وقد عُلم انها نشرت في برلين بواسطة صحيفة « لوكالانزيجر » جواباً على حادث « باري ـ ميدي » على المنحدر الآخر من الحدود . وهذه الرشات المتتابعة كانت تبقي الرأي العام في حالة محمومة خطرة. وكان جوريس يتهيب اكثر من كل شيء مساوىء هذه المخاوف. ولم ينقطع عن الترديد ان الواجب ، في كل تجمع ، في كل عائلة، هو الصراع ضد هذه المخاوف غير المحددة والتي تسلم النفوس إلى وساوس الدفاع المشروع وتقوم بلعبة خصوم اعداء السلام .

وسأل جاك :

ـ أرأيته منذ عودته ؟

ـ نعم ، وعملت ساعتين معه .

لم يكد المعلم يعود من بلجيكا ، وحتى قبل أن يذهب إلى الجماعة الاشتراكية البرلمانية ليقدم حساباً عن النتائج التي جاء بها من اجتماع بروكسل ، حتى جمع معاونيه ليباشر معهم بالاستعدادات للمؤتمر الأممي المدعو إلى الاجتماع في باريس في التاسع من آب ؛ كان لدى الحزب الفرنسي عشرة ايام ليؤمّن نجاح هذا الاجتماع الهام للاشتراكية الأوروبية ؛ ولم يكن هناك أية ساعة يمكن إضاعتها .

ووجوده في صحيفة «الانسانية» أنعش النشاطات. فقد عاد متشجعا بموقف الاشتراكيين الألمان الصلب ، واثقا بالوعود التي حصل عليها ، مليئا بنشاط جديد ليتعجل النضال ، ساخطاً على موقف الحكومة من قضية قاعة واغرام . وقرّ عزمه حالاً على أن يقف بوجه السلطات ويثأر للمدافعين عن السلام ثأراً

داوياً ، وذلك بأن ينظم لنهار الأحد المقبل ، في الثاني من آب ، اجتماعاً كبيراً للاحتجاج .

قال جاك ، لامساً ذراع جني :

– تشجعي . هنا .

ورأت مفرزة من رجال الشرطة كامنة تحت مدخل بيت . وهناك فتيان يبيعون صحيفتي « المعركة النقابية » ، « الليبرتير » .

ودخلوا في زقاق فيه رجال واقفون جماعات ليتكلموا بدلاً من الدخول إلى المسرح .. مع أن الجلسة قد بدأت ، والقاعة ملأى . وقال لجاك احد المناضلين الذي كان خارجاً .

– أجئت لتسمع باستيان؟ يبدو انه احتُجز في الاتحاد وانه لن يأتي .

وخاب أمل جاك ، وأوشك أن يدور على عقبيه ، ولكن جنى لم تكن في حالة تستطيع معها العودة حالاً . وبدون ان يهتم باصدقائه ، سار بالفتاة نحو الصفوف الأولى حيث رأى مكانين فارغين .

وكان امين سر الفرع ، ويدعى ليفور ، يترأس الجلسة ، جالساً على المسرح امام منضدة حديقة .

والخطيب الواقف امام الحاجز كان مستشاراً بلدياً لمونتروج . وقد ردد عدة مرات ان الحرب خطأ عفى عليه الزمن.

وكان المتجاورون يثرثرون دون ان يبدو انهم يصغون .

وكان الرئيس يوالي صياحه ضارباً المنضدة الحديدية بكفه :

– الصمت .

وقال جاك بصوت منخفض :

– تطلعي الى الوجوه عن قرب . بالمستطاع تصنيف الثوريين وفقاً لسحناتهم . فهناك اولئك الذين يحملون الثورة في الفك ، والذين يحملونها في العيون .

وفكرت جني : « وهو ؟ » وبدلاً من النظر إلى جيرانهـا أخذت تفحص وجه جاك ، وذقنه البارزة العنيدة ، ونظره المتحرك ، القاسي قليـلاً ، النشيط ، المتألق . وتمتمت بخجل :

– هل ستخطب ؟

كانت طوال الطريق تلقي السؤال على نفسها . كانت تتمنى أن يتكلم لتزداد إعجاباً به ؛ ولكنها كانت تتهيبه أيضاً بدافع الخجل .

وأجاب ، واضعاً يده تحت ذراع الفتاة .

– لا أعتقد . فأنا لا أحسن الكلام أمام الجمهور . والمرات القليلة التي حدث فيها ذلك كنت دائماً أصاب بالشلل بسبب العواطف التي تجرّني الكلمات اليها ، وتفسد التنوع ، وتفضح فكرتي الحقيقية .

لم تكن تحب شيئاً أكثر من أن تسمعه وهو يحلل نفسه لها ؛ إلا أنه كان يخيل اليها بشكل عام ان ما قاله عن نفسه كانت تعرفه قبلاً . فحين كان يتكلم كانت تشعر من خلال الثوب بحرارة اليد الممسكة بمرفقها . وكانت مضطربة بحيث لم تكن تستطيع التفكير إلا بذلك ، إلا بذلك الاحتراق العذب الذي يتغلغل في لحمها . وتابع :

– لدي دائماً شيء من الشعور بالكذب ، بأن أؤكد اكثر مما أعتقد .. شعور لا يحتمل .

كان هذا صحيحاً . ولكن الصحيح أيضاً انه كان يشعر بنشوة مسكرة حين يتناول الكلام ، وأنه ينجح دائماً على وجه التقريب في أن يخلق بين مستمعيه وبينه تجاوباً ، اتحاداً في العواطف .

وعلى المنبر مناضل آخر ، رجل ضخم ذو رقبة محتقنة ، حل محل المستشار البلدي . وقد استولى صوته الجهير على الانتباه منذ الكلمات الأولى . وكان يلقي على سامعيه سلسلة من الصيغ القاطعة دون أن يكون بالإمكان متابعة تداعي الأفكار .

– لقد سقطت السلطة في أيدي مستثمري الشعب ! والتصويت العام تزييف

مشؤوم ، والعامل عبد للاقطاعية الصناعية . . . وسياسة موّني الجنود الرأسماليين كدست تحت أرض أوروبا براميل بارود مهيأة للانفجار ! أيها الشعب ، أتريد أن تثقب جلدك لتؤمّن أرباحاً لمساهمي كروزو ؟

وكانت التصفيقات المشبعة تميز آلياً كلاً من تأكيداته القصيرة ، اللاهثة ، التي كان يلقيها كضربات النبوت . كان معتاداً على الهتافات : في نهاية كل عبارة كان يقطع كلامه ليستمع إلى الهتافات ويظل دقيقة مفتوح الفم كما لو أن خنفسة قد أُدخلت إلى حنجرته .

وانحنى جاك على الفتاة :

– هذه حماقة ... ليس هذا ما يجب أن يقوله لهم ... يجب اقناعهم بأنهم الاكثرية ، بأنهم القوة ! انهم يعرفون ذلك بشكل مبهم ؛ ولكنهم **لا يشعرون به** ! ويلزم أن يتعلموا ذلك بواسطة تجربة مباشرة ، حاسمة . ولأجل هذا – أيضاً – كان من المهم جداً أن تربح البروليتاريا الجولة هذه المرة ! في اليوم الذي سترى فيه ، فعلاً ، أنها تستطيع بوسائلها وحدها أن تضع حاجزاً لا يمكن اجتيازه لسياسات الاعتداءات ، وتدفع الحكومة إلى التراجع . عندئذ تكون قد وعت أنها تستطيع عمل كل شيء .. وذلك النهار !

إلا أن الجمهور بدأ يمل من الصيغ غير المتلاحمة لهذا الخطيب الثاني . وقد احتدمت في زاوية المسرح مناقشة خاصة وتحولت إلى شجار .

وجأر امين السر ليفور :

– الصمت ! تعليمات اللجنة المركزية .. نظام الحزب .. الهدوء أيها المواطنون !

كان يخاف بشكل ظاهر من كل فوضى يمكن أن تسبب تدخل الشرطة ؛ وكان همه الوحيد أن ينتهي الاجتماع دون صخب .

ومجيء خطيب ثالث إلى أمام الحاجز ، وهو الأخير المسجل لهذه الأمسية ، أعاد الصمت وقتياً . إنه ليفي ماس ، أستاذ التاريخ في لاكانال ، وهو معروف بكتاباته الاشتراكية ومنازعاته مع الجامعة . وقد تناول بحثه إعادة رسم

العلاقات الفرنسية الألمانية منذ عام ١٨٧٠ . ووضع عرضاً للمسألة بكثير من التبسط في المعلومات التاريخية : بعد أن بدأ خطابه بخمس وعشرين دقيقة لم يصل إلى حادثة القتل في ساراجيفو إلا بالجهد . وتكلم عن « صربيا الصغيرة الباسلة » بصوت من الحنجرة جعل نظارته ترتجف على أنفه المروّس . ثم اندفع في مقارنة بين جماعات الأحلاف ، بين المعاهدات النمساوية – الألمانية والفرنسية – الروسية .

والقاعة الضجرة أصبحت مضطربة :

– كفى ! إلى الوقائع .

– منهاج عمل !

– ما العمل ؟ كيف نمنع الحرب ؟

فردد ليفور وقد ازداد قلقه تدريجياً : الصمت .

وتمتم جاك في أذن جني :

– منغّص . جميع هؤلاء الناس أتوا إلى هنا ليتلقوا شعاراً بسيطاً ، واضحاً عملياً ، وسيتركونهم يعودون إلى بيوتهم ممتلئي الرؤوس بالتاريخ الدبلوماسي مع الشعور بأن كل هذا معقّد جداً بالنسبة اليهم .. وأن ليس هناك ما يفعلونه سوى انتظار ما يمكن تجنبه !

واندفعت الاحتجاجات :

– أين صرنا ؟ إلى أين يسيرون بنا ؟

– نريد معرفة الحقيقة !

وهتف ليفي ماس ، مجابهاً العاصفة :

– الحقيقة أيها المواطنون ؟ الحقيقة هي أن فرنسا أمة مسالمة ، وانها تبرهن عن ذلك بشكل بديع منذ أسبوعين ، عند اضطراب جميع الدول الامبريالية ! وحكومتنا التي يمكن توجيه النقد اليها بسبب سياستها الداخلية ، لديها مهمة صعبة ! وواجب الحزب الاشتراكي هو أن لا يعقّد مهمتها ! إننا بالتأكيد نرفض تبنّي تظاهرات القوميين المصطنعة التي سجلتها البورجوازية في

مناهجها – ويجب قول ذلك عالياً والهتاف به في وجه العالم - وما من فرنسي يرفض الدفاع عن أرضه ضد غزوة جديدة من الخارج !

فاهتاج جاك ؛ وقال منحنياً من جديد نحو جني :

– اسمعت ؟ لا شيء افضل من ذلك يمكنه إعداد شعبٍ للحرب ! يكفي ان نجعله يظن بقرب وقوع هجوم الماني في الغد حتى نجعله يقبـــل كل ما يراد منه .

فرفعت نحوه نظرها الأزرق :

– تـكلم ! انت .

فتطلع الى الخطيب دون ان يجيب . وشعر بالاستياء يزداد حوله . وأدرك على الخصوص ان في حيرة هذا الجمهور حمّى دفينة ، سمحة ، مؤاتية للعمل الثوري ، ويكون مجرماً إذا لم يستخرج منها فائدة .

وقال فجأة : نعم .

وفجأة رفع يده طالباً الكلام . فتفحصه الرئيس لحظة بانتباه ، ثم لفت عينيه متعمداً .

وكتب جاك اسمه على قصاصة ورق ، ولكن لم يكن هناك شخص يحملهـا الى ليفور . وأنهى ليفي ماس خطابه بين الضوضاء المتزايدة .

– بالتأكيد ، الوضع دقيق ايها المواطنون ! ولكنه غير ميؤوس منه مادامت الحكومة ستنال مساندة الشعب لتسند ، بقوة ، السلام المهدد ! أعيدوا قراءة مقالات جوريسنا الكبير ! ان أولئك الذين يريدون ، من وراء الحدود ، قتالنا بوقاحة ، يجب ان يشعروا ان وراء رجال دولتنا ودبلوماسيينا ، فرنسا الاشتراكية المجمعة على الدفاع المسالم عن الحق !

وسوّى نظارته ، وتبادل نظرة مع الرئيس ، ودون أن يطلب ما بقي له ، اختفى في المقصورة . وكان هناك شيء من التصفيق الصـــادر عن أصدقاء شخصيين قطعته احتجاجات مشوشة وصفير خجول .

وكان ليفور قد وقف ، وقام بحركات كثيرة ليعيد الهدوء . وقد ظنوا أنه

يريد الكلام ، فصمتوا لحظة . واغتنم الفرصة ليصيح :

– ايها المواطنون ، رُفعت الجلسة .

فزمجر جاك في مكانه : كلا !

ولكن الحاضرين كانوا قد أداروا ظهورهم للمسرح واندفعوا نحو أبواب الخروج الثلاثة التي تفتح على الزقاق . وكانت قرقعة المقاعد ذات النوابض ، والصراخ ، والمناقشات تحدث جلبة يستحيل السيطرة عليها .

وطار صواب جاك . لا يجب بأي ثمن أن يترك هؤلاء الرجال ذوو الارادة الحسنة ، الطالبون معلومات واضحة ، القاعة في فوضى كاملة دون ان يعرفوا ما تنتظره الأممية منهم !

فشقّ ممراً حتى حافة حفرة الاوركسترا . ولم يكن بالامكان بلوغ المسرح المفصول عن القاعة بهذا الثقب الداكن ، فأزبد من الغضب :

– اني اطلب الكلام .

واجتاز الحفرة حتى مقدمة المسرح ، وجمع نفسه وقفز الى (اللوج) وبلغ الرواق ، ووجد باباً يقود الى الكواليس . ودفع الناس . واخيراً هجم على المسرح الذي كان مقفراً . وكان يداوم الصياح :

– اني اطلب الكلام .

ولكن صوته كان يضيع في الجلبة ، وكان المسرح امامه يحفر مهواته الملأى بالغبار ، وقد أصبح ثلاثة أرباعه فارغة ، وأسرع نحو منضدة الحديقة وأخذ يضرب عليها بجنون ، بقبضته ، كأنه يضرب على طبل .

– ايها الرفاق . اني اطلب الكلام .

واولئك الذين كانوا لا يزالون في القاعة – حوالي الخمسين رجلاً – التفتوا نحو المسرح . وارتفعت اصوات :

– اسمعوا ! الصمت .. اسمعوا .

واستمر جاك في الضرب على الطاولة كأنه يقرع جرس الإيقاظ . كان شاحباً ، منبوش الشعر . ونظره يركض من نقطة الى اخرى في القاعة ،

وصاح بملء رئتيه :

- الحرب ! الحرب !

وساد فجأة نصف صمت .

- الحرب ! انها فوق رؤوسنا .. في أربع وعشرين ساعة يمكن ان تنقضّ على اوروبا ! أتطلبون الحقيقة ؟ هاهي ! قبل ان ينتهي الشهر من الممكن ان تصبحوا قتلى انتم الموجودون هنا هذا المساء !

وبحركة عنيفة رفع خصلة الشعر التي كانت تحجب عينيه :

- الحرب ! ألا تريدونها ؟ انهم يريدونها ، هم ! وسيفرضونها عليكم ! ستكونون الضحايا ! وستكونون مذنبين ايضاً ، لأن هذه الحرب لا يتعلق منعها إلاّ بكم .. اتنظرون الي ؟ وجميعكم تتساءلون : « ما العمل » ؟ ولأجل هذا اتيتم هذا المساء الى هنا .. اجل ، سأقول لكم ! لأن هناك امراً يجب عمله ! لا يزال هناك إمكان للسلامة . إمكان واحد ! الاتحاد في المقاومة ! الرفض !

وتابع بعد صمت قصير وهو أكثر هدوءاً ، وامتلك نفسه بشكل غريب ، رافعاً صوتاً ، مطرّقاً كلماته ليكون مسموعاً . وتابع بعد صمت قصير :

- يقال لكم : « ان ما يجعل الحرب ممكنة هي الرأسمالية ، ومنافسة النزعات القومية ، وسلطة المال ، وتجار السلاح » . وكل هذا صحيح . ولكن فكّروا ، ما هي الحرب ؟ هل هي نزاع مصالح فقط ؟ بكل أسف ، كلا . الحرب هي رجال ودماء ! الحرب هي شعوب مجنّدة تتقاتل ! جميع الوزراء مسؤولون ، جميع أصحاب المصارف ، جميع اصحاب شركات الاحتكار ، جميع مموني العالم سيصبحون عاجزين عن إثارة الحروب إذا رفضت الشعوب ان تتجند ؛ إذا رفضت الشعوب ان تتقاتل ! فالمدافع والبنادق لا تذهب وحدها ! يجب وجود جنود للقيام بالحرب ! وهؤلاء الجنود الذين تعتمد عليهم الرأسمالية في عملها للربح والموت ، هم نحن ! ما من سلطة شرعية ، ما من قرار تجنيد يستطيع عمل شيء بدوننا ، بدون موافقتنا ، بدون استسلامنا ! اذن فمصيرنا

يتوقف علينا وحدنا ! نحن سادة مصائرنا لأننا الكثرة ، لأننا القوة !

وفجأة ترنح كل شيء . دوار عنيف .. وبدت له مسؤوليته في لمحة برق هل كان على حق في ان يتكلم ؟ هل كان واثقـاً من امتلاكه الحقيقة ؟ ونخره الشك طوال دقيقة أو أصبح دون دفاع ضد خمود كلي لشجاعته .

في تلك اللحظة حدثت حركة في داخل المسرح . فالمتأخرون أقلعوا عـن الخروج واقتربوا من المسرح ببطء أشبه ما يكونون بنحاتة الحديد التي يجتذبهـا المغناطيس . وبلمحة عين زال قلقه وتلاشى دون أن يترك أي أثر . ومن جديد، فان كل ما كان يفكر به ، وما كان يريد قوله لهؤلاء الرجـال الذين تصاعد استجوابهم الصامت نحوه ، بدا له واضحاً ، لا مجال لمناقشته .

وخطا خطوة إلى الامام ، وانحنى فوق الحاجز وصاح :

– لا تصدقوا الصحف ! فالصحف تكذب .

فقال صوت : برافو !

– الصحف هي رصيد النزعة القومية ! ولكي تغطي جميع الحكومات مطامعها ، هي بحاجة إلى صحف كاذبة لتدخل في روع شعوبها إن كلا منهـا ، حين تذبح بعضها البعض ، تضحي ببطولة في سبيل قضية مقدسة ، في سبيل الدفاع المقدس عن الأرض ، وانتصـار الحق ، والعدل ، والحرية ، والمدنية ! كأن هناك حروباً **عادلة** ، كأن من الممكن أن يكون الحكم على ملايين الأبرياء بالاستشهاد ، بالموت ، عادلاً .

– برافو ! برافو !

كانت الأبواب الثلاثة في الداخل ، والمفتوحة على الزقاق ، ملأى بالفضوليين الذين دفعهم من في الخارج ، لاشعورياً ، فانتهوا إلى الدخول واتخـاذ أماكنهم على المقاعد .

وهمست أصوات :

– الصمت . اسمعوا .

– أتحتملون طويلاً أن تلقي قبضة من المجرمين الذين طفت عليهم الحوادث

التي أعدوها ، في ساحة المعركة ، ملايين من الأوروبيين المسالمين ؟ ان ارادات الحرب ليست أبداً من ناحية الشعوب . انها فقط من ناحية الحكومات : وليس للشعوب أعداء سوى اولئك الذين يستثمرونهم ! والشعوب ليست أعداء بعضها البعض . ليس هناك أي شغيل الماني يتمنى أن يترك زوجته وأولاده ومهنته ليحمل بندقية ويطلق النار على شغيلة فرنسيين .

فاجتاحت الحضور تمتمة استحسان . والتفتت جني ، لقد أصبحوا الآن مائتين أو ثلاثماية ، وربما أكثر ، وكلهم متلعو الأعناق ، يصغون .

وانحنى جاك نحو هذه الكتلة المتحركة ، الصامتة ، إلا انها تحدث دوياً خفيفاً في أماكنها كعش للحشرات . ومن جميع هذه الوجوه التي لم يكن يميز منها واحداً ، كان ينبثق نداء يضفي عليه أهمية تبعث على الاضطراب ، غير مستحقة ؛ ولكن في الوقت نفسه ، فإن عنف براهينه وآماله قد زاد عشرة أضعاف ، واتسع له الوقت ليفكر ! « ان جني تصغي » . وتنفس بعمق وسار في اندفاعة جديدة :

– هل سنبقى هنا مكتوفي الأيدي ، ننتظر ببلاهة ان يقدمونا للتضحية ؟ هل نثق بالاحتجاجات السلمية لحكوماتنا ؟ من الذي أسرع في دفع أوروبا إلى هذه الفوضى التي لا مناص منها والتي تتخبط فيها ؟ انكون مجانين بهذا القدر لنؤمل إن رجال الدولة أنفسهم ، وأولئك المستشارين والملوك الذين وضعونا باتفاقاتهم السرية على قيد أصبعين من الكارثة ، يستطيعون النجاح في محادثاتهم الدبلوماسية ، في انقاذ ذلك السلم الذي أفسدوه بوقاحة ؟ كلا ! السلم اليوم لا يمكن أن تنقذه الحكومات ! ان السلم اليوم هو بين أيدي الشعوب ! بين أيدينا ، نحن !

وقاطعه التصفيق من جديد ، فمسح جبهته ، ولهث عشر ثوان كعدّاء على آخر نفس . كان واعياً سيطرته ؛ ويشعر ان كل عبارة من عباراته تتغلغل بشدة في الأدمغة ، وتشبه تلك الصواريخ التي تفجر مخازن البارود ، وترفع لدى كل ضربة ترسانة من الأفكار المتمردة التي لم تكن تنتظر سوى هذه الصدمة

لتنفجر .

وبحركة عادمة الصبر طلب الصمت :

– سوف تقولون : « ما العمل ؟ لا يدعوننا نعمل .. »

– برافو !

كل فردٍ منا ، بمعزل عن غيره ، لا يستطيع شيئاً ولكن إذا كنا مجتمعين ، متحدين بقوة ، فاننا نستطيع عمل كل شيء ! افهموا هذا جيداً : إن حياة البلاد ، ذلك التوازن الذي يستند اليه استقرار الدولة ، يتوقف بكامله على الشغيلة . إن الشعب يتحكم بسلاح قوي جداً ! لا يُغلب ! وهذا السلاح هو الاضراب ! **الاضراب العام** !

فصاح صوت قوي من داخل القاعة :

– لكي يستفيد البروسيون من ذلك وينقضوا علينا ..

فرفع جاك جسمه باحثاً بعينيه عن الذي قاطعه :

– بالعكس ! العامل الالماني سيمشي معنا ! اني اعرف ذلك ! انا عائد من برلين ! وقد رأيت تظاهرات (أنتردن لندن) ! وسمعت الهاتفين للسلم تحت نوافذ القيصر الالماني ! إن العامل الالماني مستعد أكثر منكم للقيام بالاضراب العام ! أما ما لا يزال يمسكه فهو الخوف من روسيا . ممن الخطأ ؟ .. منا ، من قادتنا ، من تحالفنا الأحمق مع القيصرية والذي زاد الخطر الروسي لدى المانيا . ولكن فكروا : من الذي يستطيع أفضل من غيره أن يضمن سلامة الشعب الالماني – يعني ايقاف روسيا عن السير في طريق الحرب ؟ انتم ! نحن الفرنسيين ، بان نرفض القتال ! إذا صممنا ، نحن الفرنسيين ، على الاضراب فاننا نضرب ضربة مزدوجة : نشل القيصرية في إرادتها للحرب ، ونزيل كل حاجز بين اخوة العامل الالماني والعامل الفرنسي ! اخوة في الاضراب العام المتحرك في نفس الوقت ضد حكومتينا .

وانتفضت القاعة وأرادت التصفيق . ولكن جاك لم يترك لها الوقت :

– لأن الاضراب هو العمل الوحيد الذي لا يزال يمكنه انقاذنا جميعاً !

فكروا به ! بمجرد نداء بسيط يرسله زعماؤنا ، في نفس الساعة ، في كل مكان معاً ، فإن حياة البلاد يمكن أن تتوقف ، ان تحاصر ! أمرٌ بالاضراب وتفرغ جميع المصانع ، والمخازن ، والادارة كلها في لحظة ! وعلى الطرقات تمنع فرق المضربين تموين المدن ! الخبز ، اللحم ، الحليب ، تتقاسمها لجنة الاضراب . لا ماء ، ولا غاز ، ولا كهرباء ! لا قطارات ، ولا عربات نقل ، ولا سيارات اجرة ! لا رسائل ولا صحف ! لا تلفون ولا تلغراف ! التوقف العنيف لجميع الآلات الاجتماعية ! في الشوارع جمهور تائه ، فريسة للقلق . لا شغب ولا فتن : الصمت والخوف ! ماذا تستطيع الحكومة ضد ذلك ؟ كيف تجابه هـذه الانتفاضة بشرطتها وبتلك الالوف القليلة من المتطوعين ؟ كيف ترحل البضائع للخزن ؟ كيف توزع مواد الطعام على السكان ؟ انها غير قادرة على تغذية دركها وجيوشها ، يدفعها الذعر من أولئك الذين ساندوا سياستها الوطنية أنفسهم . فأي ملجأ يبقى لها ، إلا ان تستسلم ؟ كم يوماً .. – كلا ، لا أقول : كم يوماً ؛ بل أقول ! كم ساعة – تستطيع مقاومة هذا الحصار ، هذا التوقف الكلي لكل الحياة العامة ؟ وأمام هذا الاظهار لارادة الجماهير ، من هم رجال الدولة الذين يجسرون على النظر في احتمال حدوث حرب ؟ وما هي الحكومة التي تخاطر بتوزيع بنادق ، وطلقات على شعب متمرد ضدها ؟

أصبح التصفيق الحاد يقاطع الآن كل عبارة من عباراته ، فجمع كل طاقته ليسيطر على الجلبة . وكانت جني ترى وجهه يحمر ، وفكه يرتجف ، وعضلات وشرايين عنقه تنتفخ بتأثير الجهد .

– الساعة خطيرة ، ولكن كل شيء لا يزال يتوقف علينا ! والأداة التي نملكها رهيبة بحيث لا اعتقد اننا سنكون بحاجة إلى استعمالها . التهديد بالاضراب وحده – إذا تأكدت الحكومة إن عالم الشغيلة مجمع على اللجوء اليه – سوف يكفي ليغير ، من اليوم إلى الغد ، اتجاه سياسة تقودنا إلى الهاوية ! ان واجبنا يا أصدقائي بسيط ، واضح ! مقصد واحد : السلم ! اتحاد ، بصرف النظر عن خلافاتنا كاحزاب ! اتحاد في المقاومة ! اتحاد في الرفض ! لنجتمع

حول زعماء الاممية . لنطلب منهم العمل على تنظيم الاضراب وإعـــداد هذه الانتفاضة الكبرى للقوى البروليتارية التي يتوقف عليهـا مصير البلاد ، ومصير اوروبا .

وتوقف : فقد شعر فجأة انه فرغ من كل مادة كلامية . وكانت جني تلتهمه بعينيها . فقد رأته يرف باهدابه ، ويتردد ، ويرفع ذراعه ويحرك يده . وابتسامة منهوكة تقلص شفتيه . ودار على نفسه كالثمل ، واختفى بين ركيزتين .

وجأر الجمهور :

– برافو ! انه على حق .. لتسقط الحرب ! الاضراب ! يعيش السلام .

– واستمرت الهتافات عدة دقائق . وظل المستمعون هناك واقفين يصفقون ويصرخون لإعادة الخطيب .

واخيراً ، حين لم يظهر الخطيب ، تدافعوا صاخبين نحو ابواب الخروج .

وكان الخطيب منهاراً في نور الكواليس الضئيل ، جالساً على صندوق وراء كدسة من المواد القديمة المستعملة لزخرفة المسرح ، مغمساً بالعرق ، محموماً ، محطما ، وظل هناك منبوش الشعر ، ومرفقاه عـلى ركبتيه ، وقبضتاه عـلى عينيه ، ليس له رغبة اخرى في هذا الغرق سوى أن يظل وحده أطول وقت ممكن ، مخبأ عن الجميع .

وأخيراً وجدته جني هناك ، يقودها ستيفاني ، بعـد عدة دقائق من البحث .

ورفع رأسه ، وعادت اليه بشاشته فجأة ، فابتسم للفتـاة الواقفة امامه ، وتطلعت في وجهه ، محملقة دون أي كلمة .

وهمهم ستيفاني وراءهما :

– يجب أن نخرج الآن من هنا .

فنهض جاك . كانت القاعة فارغة غارقة في الظلام ، وقـد أقفلت الأبواب من الخارج . ولكن في زاوية من المسرح مصباح كهربائي يشتعل اشتعالاً خفيفاً كسريج ، دلـّهم نحو الرواق : كان يوصل الى باب للخدمـة وراء المسرح .

واجتازوا قبواً للفحم اوصلهم الى باحة صغيرة ملأى بالألواح والقوائم الخشبية . وكان يفتح على زقاق بدا مقفراً .

ولكنهم ما كادوا يسيرون فيه حتى انفصل رجلان من الظلام. وقال أحدهم ساحباً من جيبه كرتونة بحركة مشموذ ووضعها تحت أنف ستيفاني .

– بوليس . اتريدون أن تروني اوراقكم اذا اردتم ؟

فمد ستيفاني الى المفتش بطاقته الصحفية .

– صحفي .

وألقى الشرطي نظره لاهياً ، على البطاقة . لقد كان الخطيب هو الذي يهمه . ومن حسن الحظ ، فان جاك أثناء تجواله في النهار مع جني ، مر على مورلان واستعاد حافظة اوراقه . إلا أنه كان يحتفظ ، بدافع الغفلة ، في جيب بنطلونه باوراق الطالب الجنيفي التي استعملها في اجتياز الحدود الالمانية . وفكر : « لو فتشوني .. »

ولكن المفتش لم تدفعه حميته الى هنا . فاكتفى بفحص جواز سفر جاك على ضوء قنديل الشارع ، وأن يتأكد ، بنظرة محترفة ، مشابهة صورة الهوية . ثم كتب بعض الملاحظات على دفتره الصغير مبللا قلمه الرصاصي عدة مرات .

– اين كنت تقيم ؟

– في جنيف .

– اين تسكن في باريس ؟

فتردد جاك لحظة . لقد علم عند مورلان ان غرفة شارع دي جور حيث كان يسكن قبل سفره ، والتي كانت توفر له كل اطمئنان ، لم تكن حرة . ولم يبحث بعد عن مأوى جديد . وكان يفكر أن يذهب هذا المساء وينام في شارع البرناردين ، في زاوية رصيف التورنيل . وكان هذا هو العنوان الذي اعطاه ، والذي سجله الشرطي .

ثم التفت الرجل نحو جني التي كانت واقفة بالقرب من جاك . لم يكن معها سوى بطاقة زيارة ، وبالصدفة ، غلاف من دانيال كان قد بقي في محفظة يدها .

ولم يثر الشرطي أية صعوبة ، ولم يسجل حتى اسم الفتاة على دفتره .

وقال بأدب : شكراً .

ولمس حافة قبعته وابتعد يتبعه رفيقه .

وقال ستيفاني مؤكداً ، ساخراً :

ـ المجتمع يحترس .

وكان جاك يبتسم الآن .

ـ ها انني قد اكتُشِفت ..

وكانت جني قد امسكت ذراعه واختطفته . وكانت قسماتها متجهمة وسألت بصوت خافت :

ـ ماذا سيفعلون بكم ؟

ـ ولكن لا شيء .

واخذ ستيفاني يضحك :

ـ ماذا تريدين أن يفعلوا بنا ؟.. اننا ضمن النظام .

واعترف جاك :

ـ الشيء الوحيد الذي يزعجني هو انني اعطيت عنواني في فندق ليبير .

ـ غداً تصفي حسابك لتذهب وتسكن في مكان آخر .

كان الليل حاراً . والشارع الضيق تعبق منه عفونة منتنة . والتصقت جني بجاك . كان التأثر يبعث فيها الاضطراب. وكانت تتعثر على البلاط غير المتساوي ويلتوي كعبها ، ولو لم يكن يسندها بذراعه لكانت سقطت . وتوقفت لحظة وأسندت كتفها الى جدار سقيفة .

كانت قدمها تؤلمها . وتمتمت :

ـ اوه ! يا جاك .. اشعر بكثير من التعب .

ـ استندي علي .

واصبحت عزيزة عليه أكثر من السابق بسبب عيائها .

كان الزقاق يوصل الى شارع فيه جماعات صاخبة بدأت تتم تفرقها . وقال

ستيفاني بشيء من السلطة .

– إجلسا على هذا المقعد . سأسير امامكما لئلا يفوتني آخر قطار كهربائي . هناك محطة سيارات أجرة امام دار البلدية وسأرسل اليكما واحدة .

وحين جاءت السيارة بعد ثلاث دقائق لتقف الى جانب الرصيف ، خجلت جني من ضعفها .

– هذه رعونة : كان بامكاني السير حتى القطار الكهربائي .

كانت تكره أن تكون قيداً في حياة جاك ، هي التي كانت في كل وقت تعتبر ان من الشرف عدم توجيه الانتباه اليها .

ولكنها ما كادت تصبح في السيارة حتى تخلصت من قبعتها ومن خمارها لتلتصق به بصورة افضل . كانت تشعر على طول خدها بانتفاض صدر الرجل، الرنان الحار . وبدون أن تحرك رأسها ، رفعت يدها وبحثت عن وجه جاك متلمسة . فابتسم ، وفطنت الى ذلك عندما لمست الفم . وعندئذٍ سحبت يدها كما لو انها ارادت فقط التأكد من انه موجود هنا حقيقة . وتلبدت من جديد بين ذراعيه .

وخففت السيارة سيرها . « الآن ؟ » قالت لنفسها بشعور اسف . ولكنها اخطأت ؛ فلم يكونا قد وصلا ؛ وعرفت باب اورليان ، ومكتب المكس . وتمتمت :

– اين ستقضي ليلتك ؟

– عند ليبير . لماذا ؟

وأوشكت أن تقول شيئاً ، ولكنها صمتت . فانحنى نحوها ، فاطبقت عينيها . وتأخرت شفتا جاك طويلاً على جفونها المنخفضة . وكانت تدوي في اذنيها اقوال غير واضحة . « يا صغيرتي .. يا عزيزتي .. عزيزتي .. » وشعرت بالفم الفاتر ينزلق على طول خدها ، ويلامس ارنبة الانف ، ويبلغ الشفتين اللتين تقلصتا بدافع الغريزة . ولم يجرؤ على الالحاح ، فرفع رأسه ، وزاد من حضنة ذراعيه ، وضمها اليه بشغف . وهذه المرة قدمت فمها من تلقاء نفسها ولكنه لم

يفطن لذلك : كان قد اعتدل ، وتخلص ، وفتح الباب ، فادركت أن السيارة توقفت . منذ كم دقيقة ؟ ورأت واجهة وباب بيتها .

ونزل اولاً وساعدها . وبينما كـان يدفع للسائق ، مشت كمن يسير في نومه الخطوات الثلاث التي تفصلها عن الجرس . واجتاز عقلها ميل مجنون . ولكن من الممكن أن تكون امها عادت .. ولدى التفكير بمدام دي فونتانان شعرت بهزة عنيفة ، وعاد اليها كل قلقها . وبيد كانت ترتجف ، استندت الى الزر .

وحين لحق بها جاك كان الباب قد فتح وأضيء النور في المنزل . وقال بسرعة :

– غداً ؟

فخفضت رأسها ايجاباً ، لم تكن تستطيع لفظ كلمة . فاخذ يدها وضغطها بين يديه . وقال بصوت مرتجف :

– ليس في الصباح . في الساعة الثانية ، اتريدين ؟ سآتي .

فاشارت مرة ثانية موافقة . ثم سحبت يدها منه ، ودفعت المصراع .

ورآها تجتاز المنطقة المضاءة بخطوة متشددة وتختفي في الظلام دون أن تلتفت . وعندئذ ترك الباب ينغلق .

٥٩

عند لبيير لم يكد جاك ينام .

فبعد ان تقلب وعاد الى التقلب على سريره الحديدي الضيق ، وبعد أن تساءل عشرين مرة اذا كان شحوب النافذة لا يعلن عن اولى بشائر الفجر ، غرق طوال ساعتين في نوم متخشب خرج منه متشنجاً شكسا .

واخيراً طلع النهار في الخارج .

وارتدى ملابسه ، ورتب في حقيبته الاشياء القليلة التي يملكها ، وصنع رزمة من الاوراق ؛ ثم سحب الكرسي حتى النافذة ، وظل وقتا طويلا واضعا مرفقيه على المتكأ ، دون أن يستطيع التفكير بشيء معين . كانت صورة جني

تمر وتعاود المرور امام عينيه . كان يجب أن يجدها هنا ، بالقرب منه ،صامتة ، جامدة ، ويشعر بكتفيهما وخدّيهما يتلامسان كما حدث البارحة في السيارة .. وما ان صار بعيداً عنها حتى بدا له ان لديه اموراً كثيرة يقولها لها .. كان ينظر إلى الشارع والرصيف يتنعش شيئاً فشيئاً في الحيــاة الصباحية لعمال التنظيفات وباعة الحليب . وعلب النفايات لا تزال مصفوفة على حافة السواقي . وفي البيت الموجود على الزاوية ، مقابل الفندق ، كانت النوافذ مقفلة ما عدا (الانترسول) الذي يشغله تاجر خزف . وقد كانت تتكدس وراء الزجاج اشياء صغيرة لا حصر لهــا مخبأة في القش : أدوات مفردة ، آنية فخارية منقوشة . علب للملبّس ، تماثيل صغيرة خليعة ، تماثيل نصفية لرجال عظماء . وتحت ، على مصاريع ارجوانية لجزار اسرائيلي تنتشر بحروف عبرية آرمــة مذهبة استلفتت نظره طويلاً .

وما ان بلغت الساعة السابعة واعتقد ان باستطاعته دفع حسابه عن الليلة حتى اسرع واشترى الصحف ، وجلس يقرؤها على مقعدٍ على الرصيف .

كان الهواء رطباً تقريباً . وفي البعيد أبخرة مضاءة تطفو حول نوتردام . وكان جاك يقرأ ويعيد القراءة ، بشراهة متقززة نهمة ، تلك البرقيات وتلك التعليقات التي تتكرر إلى ما لا نهاية له في مختلف الصحف كما في لعب المرايا .

الصحافة كلها مجمعة هذه المرة على قرع جرس الخطر . ومقال كليمنصو في صحيفة « الرجل الحر » كان بعنوان: « على حافة الهاوية » . واعترفت جريدة الصباح « الماتان » بعنوان كبيرة : « **الساعة حرجة** » .

والقسم الاكبر من الصحف الجمهورية بالاتفاق مع اليمين ، كانت توجه اللوم إلى الحزب الاشتراكي الفرنسي لانه رضي « في الظروف الحالية » ان ينظم في باريس مؤتمراً دولياً للسلام .

ولم ينو جاك ان يترك ذلك المقعد ويبدأ هذا النهار الجديد ، الجمعة في ٣١ تموز.. ورغم كل شيء، فقد أيقظته هذه القراءة ببطء من خدره، وساعدته على ان يعود الى الاتصال بالعالم . وكافح لحظة ضد ميله الى الركض منذ الصباح الى

شارع الاوبسرفاتوار . ولكنه ادرك ان هذا الميل جاءه من جبنه في الحياة اكثر من حنانه . فشعر بالخجل . الحرب لم تصبح حتمية ، والجولة لم تخسر بعد ؛ فقد بقيت امور يمكن عملها .. في جميع أحياء باريس رجال نهضوا في هذه الساعة ليناضلوا . وبعد ، الم ينبىء جني بأنه لن يعود إلى عندها إلا في الساعة الثانية ؟

وكان الوقت مبكراً للذهاب الى صحيفة « الانسانية » ؛ ولكن لا للذهاب الى « البيرق » . ولم يكن يعرف اين يودع حقيبته؟ سوف يكل امرها إلى مورلان .

وفكرة زيارة الطبّاع العجوز جعلته ينتصب واقفاً . وسار مشياً على قدميه حتى الباستيل ، على الارصفة . سوف تنتهي النزهة باعادة هدوئه اليه .

كان باب صحيفة « البيرق » مقفلاً . فقال لنفسه : « سأعود » .

ولإضاعة الوقت عزم على السير الى عند فيدال ، وهو صاحب مكتبة في ضاحية سان انطوان تُستعمل الغرفة الخلفية منها مكاناً لاجتماع تلك الجماعة من المفكرين الفوضويين الذين ينشرون صحيفة « الاندفاعة الحمراء » . وكان جاك قد نشر فيها نقداً لكتب المانية وروسية .

كان فيدال وحيداً . جالساً بالقميص إلى طاولته بقرب النافذة يربط بعض النشرات بالخيوط . وسأل جاك :

– ما من احد بعد ؟

– كما ترى .

وأدهشته نبرة فيدال الغاضبة .

– لماذا ؟ قبل الاوان ؟

– البارحة ايضاً لم ار كثيراً من الناس . لا شك بأنهم لا يحرصون على أن يدلـّوا على انفسهم .. أقرأت هذا ؟

قال ذلك مشيراً إلى كتاب يوجد منه عدة نسخ على المنضدة .

– نعم .
لقد كان كتاب « روح التمرد » لكروبوتكين .
فقال فيدال : عظيم !
وسأل جاك :
– هل هناك تفتيش ؟
– يبدو .. هنا ، كلا . على الاقل لم يحدث ذلك بعد. ولكن الاحتياطات اتخذت ، ومن الممكن ان يأتوا .. اجلس .
– لا أريد ازعاجك . سأعود .
في الخارج ، بينما كان يستعد لاجتياز الطريق ، اقترب منه شرطي بأدب :
– هل أوراقك معك ؟
وعلى بعد عشرين متراً كان يقف ثلاثة رجال على الرصيف يمكن أن يكونوا من الشرطة بالملابس المدنية ، حسب مظهرهم . كانوا يتطلعون . وتصفح الشرطي جواز السفر دون أن يقول شيئاً وأعاده مع التحية .
وأولع جاك سيكارة وسار ، ولكنه كان متعكر المزاج . وقال لنفسه : « مرتان ، في اثنتي عشرة ساعة . بتنا نعتقد اننا في حالة حصار » . وسار بضع خطوات في شارع ليدرو -- رولان ، الوقت الذي تحقق فيه اذا كان هناك من يتبعه . « لم يشرفوني كثيراً .. »
وخطرت له عندئذ فكرة المرور على « البار الحديث » لأنه كان قريباً ، وهو مقهى في شارع ترافيرسيير ، كان مركزاً لفرع اشتراكي حيٍ بنوع خاص ، وكان بونفيس ، امين الصندوق ، صديق طفولةٍ لبيرنيه .
وقال صاحب المقهى :
– بونفيس ؟ لم يُرِنا طرف أنفه منذ يومين . ومع ذلك فأنا لم أر احداً بعد في هذا الصباح .
في تلك اللحظة دخل الى البار رجل في الثلاثين من عمره ، يحمل على ظهره منشاراً معلقاً بكتفه ، ودراجته بيده .

ــ صباح الخير يا ارنست .. هل بونفيس هنا ؟
ــ كلا .
ــ والرفاق ؟
ــ لا يوجد احد .
ــ آه ! اليس هناك اخبار ؟
ــ كلا .
ــ الا يزالون بانتظار تعليمات اللجنة المركزية ؟
ــ نعم .

وكان النجار يجيل حوله نظراً مستفهماً وهو صامت ، ولكي يفصل عقب السيكارة المثبت على شفته حرك فمه كالسمكة . وقال اخيراً :

ــ هذا مزعج . يجب ان نعلم مهما كان الأمر . وهكذا ، فأنا قد دعيت إلى التجند في ٧ ــ ٤ ، اليوم الأول . وإذا حدث هذا فاني لا أعلم ماذا يجب أن افعل .. ما رأيك انت يارنست ؟ هل يجب ان اذهب ؟

فصاح جاك ! كلا .

وقال ارنست عابساً :

ــ لا أستطيع أن أقول لك . فهذا شغلك يا بني .

وقال جاك :

- القبول بالذهاب يعني تواطؤ مع الذين ارادوا الحرب .
- انه شغلي بالتأكيد .

لقد استصوب الرجل ووجه الكلام إلى صاحب المقهى ، كأنه لم يسمع كلام جاك . كانت النبرة طليقة مع ان حيرته كانت ظاهرة . وألقى نحو جاك نظرة استياء . وبدا انه يفكر : « لا أطلب رأي أحد . انني اطلب أمر اللجنة » .

وانتصب ، وأدار دراجته وقـال : « سلاماً » . وذهب بدون سرعة وهو يدير خصره .

ودمدم صاحب المقهى :

– انهم يزعجونني بإلقاء نفس السؤال علي . ماذا أستطيع ان افعل لهم ؟ يقال انهم في اللجنة لم يتوصلوا إلى اتفاق لإصدار الأمر . في حزب يجب أن يكون هناك امر . أليس صحيحاً ؟

وقبل أن يعود جاك إلى صحيفة « البيرق » تاه ، مفكراً بضع لحظات ، خلال هذا الحي الذي كانت حركته تزداد الآن بين ربع ساعة وآخر . ووقوف صف من العربات الصغيرة على حافة الساقية ملأى بالخضار والفاكهة ، وصراخ الباعة المتجولين ، وتحرك العمال وربات البيوت الذين كانوا يتدافعون على الرصيف الوحيد الظليل ليتجنبوا الشمس ، كل هذا صنع من هذه الشوارع الضيقة سوقاً في الهواء الطلق .

ولاحظ أن واجهات محلات القلانس والجوارب كانت تعرض فقط اصنافاً للرجال غير منتظرة لهذا الفصل : صدرات مطرزة ، حزامات من الفانيلا ، قمصان قطنية خشنة ، جوارب صوفية . وكانت دكاكين الاحذية ترفع على عصابات من كرتون او على نسيج قطني آرمات مرتجلة تستلفت النظر . والاكثر تواضعاً بينها كانت تعلن : « احذية للصيد » أو « أحذية للسير » وعلق بعض الجسورين اعلاناً : « احذية ضخمة » ، وأيضاً ! « احذية عسكرية عالية الساق » . وكان عدد من الرجال يقفون ويبدون الاهتمام دون أن يشتروا ، والنساء ، وقد علـّقن شباك المؤونة في طرف الذراع ، يتشممن ، ويتحسسن الملابس الصوفية ، ويرزن الاحذية العالية المسمّرة . لم يجر الشراء بعد ولكن انتباه الجمهور كان يثبت ان هذه البضاعة المعروضة تلبي حاجة عامة .

ان ندرة العملة المتداولة بدأت تقلق التجارة بشكل ملحوظ ، وهناك منادون متنكرون كصيارفة كانوا يتجولون وعلى بطونهم علبة . وكانوا يتعاطون الاعمال المالية ويعطون خمسة وتسعين فرنكاً من القطع النقدية مقابل ورقة مالية بمئة فرنك . وبدا البوليس مغمض العينين .

وكان مصرف فرنسا قد اخرج البارحة كمية من الأوراق النقدية بقيمة خمسة

فرنكات وعشرين فرنكاً ، كانت تبدو كشيء نادر .

ولاحظ بعضهم بهيئة حذرة ، حاقدة ، ولكنها معجبة بشكل غامض :

- اذن فقد كان هذا مجهزاً سلفاً لديهم .

انتهى جاك بالجنوح الى طاولة مقهى في ساحة الباستيل . لم يذق الطعام منذ البارحة . وكان عطِشاً وجائعاً .

وكانت موجة سكان الضواحي تنتشر بدفعات كبيرة تتدفق من محطة ليون ، ومن القطارات الكهربائية ، والمترو . كانوا يقفون لحظة في الساحة الشامسة ، والصحف في أيديهم ، والسحنة مهمومة وقلقة ، ملقين نظرات حولهم كأنهم يتأكدون ، قبل وصولهم الى عملهم ، من ان تهديد الحرب لم يغير لهم باريس اثناء الليل .

وفي المقهى كان رواح ومجيء لا ينقطعان لاناس ذوي اعمال ، قلقين ، يتكلمون بصوت مرتفع .

وكان احدهم يروي انه أرسل امرأته الى دائرة المختار (العمدة) في طلب بعض ايضاحات حول سجله ، وكان يبدو فخوراً لاستطاعته أن يعلن أن دوائر استعلامات المكاتب العسكرية قد زيدت ثلاثة اضعاف لتحاشي الازدحام .

وأشار سائق سيارة اجرة وهو يضحك إلى مجلة مصورة كانت تعرض على نفس الصفحة عودة القيصر الالماني الى برلين وعودة بوانكاريه الى باريس ، مقابل بعضهما البعض : صورتان متطابقتان شبيهتان يُرى فيهما رئيسا الدولتين على رفرف سيارتهما يحييان بنفس الحركة العسكرية على هتافات شعبيهما الواثقة .

ودخل زوجان في منتصف العمر واقتربا من طاولة البائع وأخذت الزوجة تتفحص المستهلكين بشكل خائف ، باحثة عن نظرة أخوية . وتكلما على الاثر ، فقال الرجل :

— نحن من فونتنبلو ، انهم يستعدون هناك .

وصمت . اما المرأة ، وهي اكثر ثرثرة ، فقد أوضحت :

— البارحة مساءً . ضابط من فرقة الفرسان السابعة ، يسكن بجوارنا ، جاؤوا يقولون له ان يهيء زاده بسرعة . ثم استيقظنا في منتصف الليل على وقع اقدام الخيل . لقد تلقت فرقة الفرسان الامر بالمسير .

وسألت امينة الصندوق :

— الى اين ؟

— لا يعلم احد . لقد وقفنا على الشرفة . والمدينة كلها كانت في النوافذ ، لم يُسمع اية صرخة ، ولا كلمة . لقد ساروا كاللصوص .. دون موسيقى ، بلباس الميدان .. وبعد ذلك كان دور قطارات الجيش .. العربات مع عتاد الجنود .. لم يكن مرورها ينتهي : وقد دام ذلك حتى الصباح .

وتابع الرجل :

— وفي مكتب المختار (العمدة)علقوا امراً بطلب تسليم الخيول والبغال والعربات .. حتى العلف .

فقالت امينة الصندوق مؤكدة ، بهيئة مهتمة راضية تقريباً :

— كل هذا ينذر بالسوء .

وأكد احدهم :

— وقد استدعي الاحتياطي من الاهالي .

— الشيوخ ؟ اتعتقد !

فقال الخادم وقد توقف عن الخدمة :

— بالتأكيد . يبدو أنـــه يلزمهم مسبقاً أناس لحراسة الجسور ، ومفارق الطرق ، وأخيراً كل ما يشكل خطراً .. أنا أعرف ذلك . فأخي ، وهو في الثالثة والأربعين ، ويسكن بالقرب من شالون ، طُلب إلى المحكمة .ويبدو انهم وضعوا له قبعة عسكرية قديمة على جمجمته ، واجربة الخرطوش على سترتـه ، وبندقية في يده . وتعال أيها المقدام لأضعك حارساً على الجسر الذي يحمل قناة

الماء ! انتم تعلمون أن هذا لا مزاح فيه ! فللاقتراب من الجسور يلزم بطاقة . وبدون ذلك فهناك أمر باطلاق النار . يبدو انه يوجد جواسيس يطوفون في الجوار .

– انا ، سأذهب في اليوم الثاني .

هكذا صرح ، بدون ان يُسأل ، عامل دهان بلباس أبيض . فقد تكلم دون أن ينظر إلى أحد ، وعيناه منحنيتان على القدح الصغير الذي كان يديره بين أصابعه .

وقال صوت : وأنا أيضاً :

وهتف عامل رصاص ، وهو فتى ضخم :

– وأنا ، في اليوم الثالث ! ولكن إلى أنغوليم ! إذن ، كما تعتقدون، قبل ان يصل البروسيون إلى شارانت .

ورفع بهزةٍ من كتفٍ متغطرسٍ كيس الأدوات الذي كان يهتز على صلبه ، وبلغ الباب ضاحكاً :

- ومع ذلك فلا يهمني .. وسنرى . أما أن أفعل هـــذا وأما ان اضرب رأسي بالحائط .

وختمت امينة الصندوقة بحكمة :

– يلزم القيام بما يلزم .

وضم جاك قبضتيه . وكان يتصفح الوجوه بذهول وهو صامت ، متشنج ؛ يبحث فيها عن ردة فعل عنيفة ، عن أثر تمردٍ ممكن ، على غير طائل . كانت جميع هذه الكائنات تبدو كأن الحوادث أخذتها على حين غفلة ، وانها تشعر على الخصوص بفقد توازنها ، وأصبحت مخبولة ؛ وربمـــا مذعورة بدافع هذرها ، ولكنها خاضعة ، أو قريبة من أن تكون كذلك .

ونهض وأخذ حقيبته وهرب . كان أكثر ما يكون رغبة وحاجة للقاء مورلان .

كان الطباع العجوز يروح ويجيء، ويداه في جيبي بلوزته السوداء، في غرف (الانترسول) الثلاث التي كانت أبوابها مفتوحة . وكان وحيداً . وقد صاح دون أن يقطع نزهته : « ادخل ! » ولم يلتفت إلا حين أعاد الزائر اغلاق الباب :

– اهذا أنت يا غلام ؟

فقال جاك وهو يضع حقيبته :

– صباح الخير ، اتستطيع أن تحتفظ لي بهذه ؟ بعض الملابس الداخلية ، غير موسومة ، ولا ورقة ولا كلمة .

فأتى مورلان باشارة قبول مقتضبة . وظل نظره حانقاً وقاسياً . وسأل بشراسة :

– ما بقاؤك هنا ؟

فتأمله جاك دهشاً :

– ماذا تنتظر للهرب ؟ الم تشعروا اذن ان الأمر قد انتهى هذه المرة أيها البلهاء ؟

– أنت تقول هذا ؟ أنت ، مورلان ؟

فقال بصوته غير الرنان :

– نعم ، انا .

ونفض فتات الخبز الباقي على لحيته ، وأعاد يديه إلى جيوبه ، وعاد إلى رواحه ومجيئه .

ولم يكن جاك قد رآه بهذه السحنة الشاحبة ، وهذه العين المطفأة . كان يجب الانتظار لتمر الأزمة . وبدون ان يُدعى ، أخذ كرسياً وجلس .

ودار مورلان مرتين أو ثلاث كحيوان في قفص . ثم وقف أمام جاك وصاح :

– على ماذا تعتمد ، أنت ، اليوم ؟ على « الطبقات العاملة » الشهيرة ؟ على الاضراب العام ؟

فقال جاك بدون صلابة : نعم .

فهز الاضطراب كتفي العجوز المتألم :

– الاضراب العام ؟ من هو الذي لا يزال يتكلم اليوم عنه ؟ من الذي لا يزال يجرؤ على التفكير به ؟

– أنا !

– انت ؟ الا ترى اذن ، حتى في ذلك القطيع المسكين الذي يراد إنقاذه رغماً عنه ، انه يوجد أكثرية مذهلة من ذوي الجسارة ومحبي الجدل ، والواثبين المستعدين دائماً لقبول التحدي ؟ والذين سيكونون أول الواثبين إلى سلاحهم منذ ان يُدخلوا في روعهم ان المانيا قد اجتاز علامة الحدود ؟ .. خذ كل فرد منهم على حدة : انه من ناحية عامة شخص صالح يقول أنه لا يريد شراً بأحد، ويؤمن بذلك . ولكن يوجد فيه أيضاً بقية غرائز ضارية ، مخربة : غرائز هو ليس فخوراً بها ، ويخبئها ، ولكنه يحكمها رغم كل شيء ، ولديه دائمـــاً رغبة في إرضائها حين تسنح له الفرصة .. والإنسان هو الإنسان ، ولا يمكن عمل شيء ! اذن ، إذا لم يكن بالامكان الاعتماد على الأفراد ، فعلى من نعتمد ؟ على الزعماء ؟ أيهم ؟ على زعماء البروليتاريا الاوروبية ؟ على زعمائنا ؟ على نخبتنا الجذابة ، على النواب الاشتراكيين ؟ الا ترى اذن مـــا يفعلون ؟ انهم يصوتون ويعيدون التصويت مانحين ثقتهم لبوانكاريه ، ولولا القليل لوقّعوا مسبقاً على اعلان الحرب .

ودار على عقبيه وطاف الغرفة مرة اخرى ، وتمتم جاك :

– ولكن كلا . هنا ، يوجد أتباع جوريس .. وهناك أتبـــاع فاندرفيلد وهاز ..

فقال مورلان وهو يعود رأساً اليه :

– آه ، أتعتمد على الزعماء الكبار؟ مع انك رأيتهم في بروكسل عن قرب ! اتعتقد ان هؤلاء الأشخاص لو كانوا رجالاً ، رجالاً عازمين حقيقةً على الدفـاع عن السلم بأعمـال ثورية ، اما كانوا توصلوا إلى التفاهم على اصدار أمر واحـد

للاشتراكية الاوروبية ؟ كلا ! لقد استثاروا الهتاف لأنفسهم بالقاء الحرم على الحكومة ! وبعد ذلك ؟ بعد ذلك ركضوا إلى مكتب البريد ليرسلوا برقيات متوسلة إلى القيصرين الالماني والروسي، وبوانكاريه ، ورئيس الولايات المتحدة – وإلى البابا ! نعم ، إلى البابا ليهدد فرنسوا جوزيف بالجحيم .. وصاحبك جوريس ، ماذا فعل ؟ انه يذهب كل صباح ، كفاقد الذكاء والأهلية ، ليسحب فيفياني من كمه مناشداً « عزيزي الوزير » ليجأربصوته لإخافة روسيا ! كلا ! الطبقة العاملة ، لقد خدعها زعماؤها ! فبدلاً من السير بعزم على رأس حركة عصيان ضد تهديد الحرب ، تركوا حرية العمل كلها لمتطرفي الوطنيين ، وتنكروا للفرصة الثورية ، وسلموا البروليتاريا إلى الرأسمالية المنتصرة .

وخطا خطوتين ليبتعد ، ولكنه دار بسرعة :

– ليس هناك من يحيرني سوى صاحبك جوريس، أنه يتظرف في الأروقة ! وفي دخيلة نفسه يعرف أكثر مني ان الألعاب قد انتهت ، وان كل شيء ضاع ، وان روسيا والمانيا ستدخلان غداً إلى حلبة الرقص . وان بوانكاريه سيقبل الحرب بكل برود ! أولاً ، لأنه يريد التمسك بالتعهدات المجرمة التي اتخذها في بطرسبورج ، وبعد ذلك ...

وقاطع نفسه ليذهب حتى الباب ، ويفتحه بهدوء ، ويُدخل هرة رمادية اللون مع جرائها الثلاثة .

– تعالي .. وبعد ذلك لأن هذا يغريه بأن يكون الرجل الذي يحاول إعادة الالزاس واللورين إلى فرنسا !

وكان قد اقترب من الرف المثقل بالكتب والنشرات ، والذي يشغل المكان الواقع بين النوافذ ، وأخذ منه كتاباً ضرب عليه عدة مرات بكفه ، كما يلاطف عنق الحصان .

وقال بمزيد من اللطف حين أعاد الكتاب إلى مكانه :

– انت ترى أيها الغلام انني لا أريد ان أدّعي الذكاء ، ولكنني لم اخطىء أبداً ، بعد مؤتمرهم في بال ، حين كتبت هذا الكتيب لأثبت لهم ان أمميتهم

كانت تستند إلى الإبهام . وقد شتمني جوريس . وشتمني جميع الناس . واليوم ، هاهي الوقائع هنا ! لقد كان من الجنون ارادة « مصالحة » الأممية الاشتراكية ، اشتراكيتنا الصحيحة ، مع القوى الوطنية التي لا تزال مستولية على السلطة في كل مكان .. ارادة القتال – والأمل بالتغلب – دون الخروج من الأطر الشرعية وذلك بالاكتفاء « بالقيام بضغط » على الحكومات ، وان يقتصر الهجوم على خطابات برلمانية جميلة . ان هذا أسوأ شيء . ان تسعة أعشار زعمائنا الثوريين المشهورين هم ، في دخيلة نفوسهم ، اتريد ان أقول لك ؟ .. لن يستطيعوا ابداً التصميم على العمل خارج أطر الدولة ! وإذن ، فأنت تفهم المنطق ؟ هذه الدولة – التي لم يعرفوا ، ولم يريدوا اسقاطها في الوقت المناسب لإقامة الجمهورية الاشتراكية مكانها – ليس عليهم الآن سوى الدفاع عنها برؤوس حرابهم في اليوم الذي يظهر فيه أول فارس الماني على الحدود ! وهم يستعدون لذلك بطريقة لطيفة ! – وقال بغضب ، دائراً مرة اخرى على نفسه ، وسائراً بخطى سريعة حتى نهاية الغرفة : – القول بلزوم رؤية ذلك يعني تركٌ عامٌ للحزب ، أقول لك ذلك ! ترك الحزب على طريقة غوستاف هرفيه ! ترك جميع الزعماء من الأول إلى الاخير ! هل قرأت الصحف ؟ الوطن في خطر ! الجميع واقفون ، شاهروا السيوف ! زم ! بم ، بم ، انه قرع طبول التام تام لتهيئة الحرب الكبرى ! من الآن حتى ثمانية أيام لن يوجد في فرنسا ، وربما في أوروبا ، دزينة من الاشتراكيين المخلصين : لن يوجد في كل مكان سوى **اشتراكيين متعصبين في وطنيتهم** .

وعاد بسرعة نحو جاك ووضع يده العصبية على كتفه :

– لأجل ذلك أقول لك كل هذا أيها الغلام . بامكانك تصديق مورلان : اذهب ! لا تنتظر ! عد إلى سويسرا . فهناك ربما لا يزال يوجد عمل لفتيان مثلك . أما هنا فقد (راحت علينا) .

وخرج جاك من عند مورلان في حالة اضطراب نفسي لم يستطع السيطرة عليه . اين يبحث عما يخفف عنه ؟ ..

وأسرع إلى صحيفة « الانسانية » ..

ولكن ستيفاني وغالو كانا في اجتماع مع المعلم . وكاديو الذي اصطدم به بين بابين اتسع وقته ليصيح به ، وهو راكض ، ان جوريس عائد من استقبال عضوين في الحكومة له ، هما مالفي وآبيل فري ، وقد عاد مؤكداً أنه يجب الا يكون هناك يأس .

وما كاد جاك يتركه حتى وقع على باجيس ، مساعد غالو الشاب ؛ وكان متشائماً جداً . فالاستعداد الحربي بدا انه يجري بسرعة في روسيا : فقد تأكد الظن من جميع النواحي ان القيصر قد وقّع البارحة سراً الأمر القطعي بالتعبئة العامـة .

وفي « مقهى الهلال » الذي لم يدخله جاك إلا للحظة ، لم يشاهـد شخصاً يعرفه سوى الأم أوري ، التي كانت في زاوية القاعة تبدو انها تترأس مؤتمراً نسائياً صغيراً ، انها جاثمة على مقعد مغطى بالمخمل ، مرتفع جداً بالنسبة لرجليها القصيرتين ، بدون قبعة ، ووجهها ، وجه عجوز متعصبة ، مكلل بفتائل رمادية . وكانت تتحرك وتثرثر بين جماعة من المناضلات ، وقد اضطرت إلى جمعهن هنا لتعليمهن . وتظاهر جاك بعدم رؤيتها واختفى .

في شارع سانتيه، في مقهى « التقدم » كان بعض الناس جالسين إلى طاولات في مكان التدخين في (الانترسول) ، يعلقون على أقاويل النهار : راب ، جوملان ، برنيه ، وقادم جديد من نانسي ، امين سر اتحاد مورت – اي – موزيل ، وقد وصل صباحاً إلى باريس ويحمل أخباراً من الشرق .

وقد رافقه اشتراكي الماني في سفره وأكد له ان مجلساً للحرب قد عقد في برلين مساء البارحة ، تقرر فيه دعوة المجلس الاتحادي . وفي المانيا يتوقعون ان تصدر اليوم « قرارات خطيرة » . والجسور على الموزيل قد احتلها الجيش الالماني عسكرياً . وأصبح الناس تحت رحمة أي حادث . والبارحة ، في ضواحي لونفيل اجتاز فرسان المان الحدود ، بقصد التحرش ، وركضوا بضع مئات من الأمتار على الأراضي الفرنسية .

وقال جاك ، مفكراً فجأة بدانيال وجني :

– في لونفيل ؟

لم يكن يسمع إلا بذهول . وروى النانسي انه منذ عدة ليال ، وعلى جميع الخطوط الحديدية في الشرق ، كانت تسير صفوف لا تنتهي من عربات القطارات الفارغة التي كانت تتجمع في المحطات الكبرى لتأتي اخيراً وتتكدس في الضواحي الباريسية من قبيل الاحتياط .

وصمت جاك ، منقبض القلب . فقد كان يرى ، كمشهد واقعي ، اوروبا تنزلق على المنحدر المشؤوم . أية اعجوبة لا تزال تستطيع إحداث الانقلاب المنقذ ، انتفاضة الرأي العام ، تلك المقاومة العنيفة الكثيفة التي تقوم بها الشعوب ؟

وفجأة شعر برغبة في الاقتراب من اخيه. لم يكن قد رآه طوال الاسبوع. انها ساعة الغداء ، الساعة التي يجد انطوان فيها في بيته . وقال لنفسه : « وثم ستساعدني هذه الزيارة على انتظار لحظة الذهاب إلى عند جني » .

٦٠

سأل ليون :

– أيعرف السيد جاك ان الحرب ستندلع ؟

هل كان يسخر ؟ كانت اللهجة استفهامية بشكل غبي ، كنظرة العين الكروية الشكل ! ولكن كان يوجد انحراف في الشفة الضخمة . وأضاف دون أن ينتظر جواباً :

– انا ، اذهب في اليوم الرابع . ولكني كنت دائماً تابعاً لضابط .

وسُمعت قرقعة حديد المصعد على سطح الدرج ، فقال ليون :

– ها هو السيد .

وراح يفتح الباب .

كان انطوان يدفع بالكتف رجلاً صغيراً يضع نظّارة ، ذا شعر رمادي ،

ويرتدي سترة من الالباغا . وعرف جاك امين سر والده القديم .

وحين شاهده السيد شاسل رفع جسمه . ما ان يلتقي بوجه من معارفه حتى يلقي يده على فمه كمن يخنق صرخة دهشة :

– آه ! أهذا أنت ؟

وشد انطوان على يـــد اخيه بهيئة ذاهلة ، دون أن يبدي دهشة من وجوده هنا .

– لقد مشى السيد شاسل المئة خطوة على الرصيف وهو ينتظرني .. وقـد توفقت بأن جعلته يصعد ليتناول غداءه معنا .

فتمتم السيد شاسل بتواضع :

– مرة واحدة ليست عادة .

والتفت انطوان نحو الخادم :

– بامكانك وضع الطعام .

ودخل الثلاثة الى غرفة المعاينة حيث كان ستودلر وجوسلان وروا مجتمعين. وكانت جرائد منشورة تزحم المكتب . وقال انطوان موضحاً :

– لقد تأخرت لأنني مررت بعد المستشفى على الكه دورسي .

وساد صمت . وكان الجميع ينظرون اليه متجهمين . وقال ستودلر اخيراً :

– وبعد ؟

– الحالة سيئة .. سيئة جداً جداً .

قال انطوان ذلك بايجـــاز . وهز رأسه ، وأرخى شفتيه بشكل مثبط للعزيمة . ثم رفع صوته قائلاً : هيا الى المائدة .

وأكل البيض النمبرشت بطريقة قلقة دون أن يقطع احد الصمت . وقـال انطوان فجأة دون أن يرفع عينيه عن صحنه :

– وفقاً لما قال روميل ، فان لدينا اسباباً قوية تجعلنا نأمل أن تسير انكلترا معنا . وعلى كل حال ، ليس ضدنا .

فسأل ستودلر :

– اذن لماذا لا تسرع بقول ذلك ؟ فهذا لا يزال يمكن أن ينقذ كل شيء !

فلم يستطع جاك امتلاك نفسه :

– لماذا ؟ ولكن لأنه ليس متأكداً ابداً من أن انكلترا راغبة في انقاذ كل شيء .. ان انكلترا دون شك هي الأمة الوحيدة حقيقة ذات الحظ في أن تربح في يانصيب حرب عامة .

فقال انطوان بعصبية :

– انت على خطأ . يبدو لدى ذوي الشأن انه لا يوجد شخص في لندن يريد الحرب .

كان السيد شاسل ، المغروز على حافة مقعده ، يصغي ، الى يمين انطوان . واينما جلس فقد كان يبدو انه على كرسي صغير . وكان يدير رأسه يميناً وشمالاً ويحملق بانتباه قلق بمن يتكلم ؛ وكان ينسى ان يأكل . وكانت البلبلة التي تحدث في العالم تتجاوز مفهومه ومقاومته العصبية . وقد انقض على المسكين منذ أول البارحة خوف مَرَضي غذته قراءة الصحف والاحاديث. وقد أتى هذا الصباح على امل أن يجد الاطمئنان .

واتخذ انطوان نبرة تعليمية لم تكن ذات صدى :

– الوزارة البريطانية في الوقت الحاضر مؤلفة من رجال مسالمين بشكل صادق . ويبدو انها افضل جماعة حكومية اوروبية . فغراي رجل فطن يتولى وزارة الخارجية منذ ثماني سنوات . واسكويث وتشرشل رجلان مفكران نزيهان . وهالدان نشيط بشكل ملحوظ ويعرف اوروبا جيداً. أما لويد جورج فان نزعته السلمية مشهورة ؛ فقد كان يبدو دائماً معادياً للتسلح .

وأكد السيد شاسل ، كما لو أن رأيه مقرر منذ تاريخ طويل :

– كلهم من النخبة .

وجاك المستعد للدفاع كان ينظر الى اخيه ويستمر في الأكل صامتاً واختتم انطوان :

– ان انكلترا ، بقيادة رجال كهؤلاء ، لن يكون لها أقل رغبة بالمغامرة .

– اذن لماذا يبذل غراي جهده منذ عشرة أيام لاصلاح الأمور بشكل سيء، وبواسطة حيل دبلوماسية، بينما الوسيلة الوحيدة المأمونة لتراجع الامبراطوريات الوسطى هي في انذارها ان انكلترا ستكون ضدها في حالة الحرب ؟

– اجل، بالضبط : يبدو ان هذا ما فعله غراي البارحة، في حديث مع السفير الالماني .

– وماذا نتج عن ذلك ؟

– لا شيء . لا شيء بعد . إلا انهم في الكه دورسي يخشون أن يأتي هذا التصريح متأخراً، ليكون له بعض المفعول .

فدمدم ستودلر :

– هذا طبيعي . لماذا الانتظار طويلا ؟

فقال جاك :

– كن متأكداً أن الأمر ليس صدفة . فبين جميع الساسة الدهاة الذين يتقاسمون السلطة في اوروبا يبدو غراي انه هو الأكثر ..

فقاطعه انطوان بحدة :

– ليس هذا ابداً ما يقوله روميل . ان روميل ظل يشغل وظيفة ملحق في لندن طوال ثلاث سنوات، وكان في أغلب الأحيان على علاقة مع غراي، اذن فهو يتكلم عن معرفة بالقضية، ويتكلم عنه بفهم .

فتمتم السيد شاسل بصوت منخفض كأنه يوجه الكلام إلى نفسه :

– هذا هو المطلوب .

وصمت انطوان . لم يكن لديه أية رغبة بالمناقشة، ولا بأن يروي ما علمه في الكه دورسي . كان تعباً جداً فقد قضى السهرة وهو يرتب مع ستودلر ملفات الملاحظات الطبية، كان في كل مناسبة يحرص على تنظيم محفوظاته . ثم كان يصعد، بعد ذهاب الخليفة، إلى مكتبه فيحرق رسائل، وينتقي الأوراق الخاصة ويرتبها . وقد نام ساعتين عند الفجر، ومنذ ان استيقظ وضعته قراءة الصحف في حالة قلق محموم، زادتها في فترة الصباح الحادثات، التشاؤم،

واضطراب الجميع . وكانت عيادته هذا الصباح مزدحمة بشكل خاص . وخرج من المستشفى منهوكاً ؛ وفي النهاية،هذا الحديث الذي يخمد العزم مع روميل .. لقد اصيبت القوة المعنوية هذه المرة اصابة خطيرة . والعاصفة رنحت القواعد التي بنى عليها حياته : العلم،العقل . لقد اكتشف فجأة عجز الروح ، وعدم فائدة الفضائل التي كانت حياته المثابرة تستند اليها دائماً أمام كثير من الغرائز التي افلتت من عقالها : القياس ، حسن الطوية ، الحكمة ، التجربة ، إرادة العدالة .. لكم أحبّ ان يكون وحيداً ، فيستطيع التفكير ، ويكافح ضد الانحطاط ، ويمتلك نفسه ، ويستعد بعزم لما هو محتوم ، ولكن الجميع التفتوا نحوه وبدوا انهم ينتظرون كلامه ، فعبس ، وجمع نشاطه ، وتابع :

– ان غراي هذا ، كما يبدو ، هو نموذج الانكليزي صاحب الضمير ، وهو على شيء من الحذر ، على شيء من الورع ، ليس كثير السخاء ولكنه على قدر كبير من الاخلاص في التفكير وفي العمل ... – ثم قال موجهاً الكلام إلى اخيه :

– بعكس ما تظن .

فقال جاك :

– اني احكم عليه وفقاً لسياسته .

– ان روميل يوضح هذه السياسة بشكل يثير الاعجاب ! ولكن الأمر معقد . ولا أتذكر دون شك كل ما قاله لي . – وتأوه ، وأمرّ يده على جبهته :

- أولاً ، ان غراي ليس مطلق التصرف ليعلن تحالفاً متيناً مع فرنسا . ففي مجلس الوزراء يوجد اناس يتجهون نحو المانيا كهالدان ! أما الشعب الانكليزي، فحتى هذه الأيام الأخيرة كان أكثر اهتماماً بالصعوبات الارلندية منه بنتائج الاغتيال في ساراجيفو ؛ وسوف يرفض رفضاً باتاً فكرة المجيء إلى القارة للقتال دفاعاً عن الصرب .. اذن ، حتى لو كان لدى غراي ميل لادخال انكلترا قبل الآن ، وبوضوح ، في النزاع ، فانه كان يخشى الا يتبعه زملاؤه ، ولا برلمانه ، ولا بلاده .

وسكب لنفسه قدحاً من النبيذ ، وهذا لا يحدث الا في النادر في وجبة

الظهر . وشربه وتابع :

– ليس هذا كل شيء. فالمسألة كما هو الأمر دائماً،ذات نظام سيكولوجي . ويبدو ان غراي ، منذ اليوم الأول،كان واعياً تمام الوعي ان انكلترا تتصرف بالسلم وبالحرب . ولكن مع القول ان السلاح الذي بين يديها ذو حدين.تصوروا لو ان الحكومة الانكليزية اعطت فرنسا وروسيا ، منذ ثمانية ايام ، تأكيداً بالمساندة العسكرية .

فقاطعه ستودلر :

– لكنا رأينا حالاً برلين تغير نبرتها . ولكانت المانيا تحارب متقهقرة ، وترغم النمسا على إخفاء مخالبها ، ولكان كل شيء قد انتهى حبياً بواسطة مساومات المستشاريات .

هذا ممكن . ولكنه ليس أكيداً . وكان لغراي ، كما يبدو ، اسباب وجيهة ليخشى العكس : لو علمت روسيا عن يقين ان باستطاعتها الاعتماد ، ليس فقط على جيش ومال فرنسا ، بل على الاسطول والمال الانكليزيين ، لكان الميل إلى المخاطرة بالجولة ، مع رصيد كهذا ، اصبح دون شك لا يمكن مقاومته. –وتابع انطوان متطلعاً إلى ناحية جاك : – وإذا نظرنا إلى موقف غراي من خلال هذا اليوم لأخذ مظهراً مختلفاً جداً . عندئذ يفهم ان رغبته الاصيلة في انقاذ السلام هي التي جعلته يختار لعبة القبان . وقد قال لفرنسا : « احذري ، تدخلي لدى روسيا ، إذ يخشى ان تجرك إلى نزاع يجب الا تعتمدي علينا فيه ويجب ان تعرفي ذلك » . وفي الوقت نفسه يقول لالمانيا : « انتبهي ! اننا لا نوافق على تصلبك . لاتنسي أن اسطولنا قد حشد في بحر الشمال ؛ واننا لم نعد أحداً بالبقاء على الحياد » .

فهز ستودلر كتفيه :

– مهما كان صاحبك غراي متشككاً فلن يكون سوى ساذج كبير . لأن روسيا يجب ان تعرف حتماً ، بواسطة مصلحة استخباراتها ، بتهديدات لندن لبرلين ، الأمر الذي يدفعها ، طبيعياً ، إلى ان تأمل بالمساندة الانكليزية .

وأثناء ذلك تكون دائرة مكافحة الجاسوسية الالمانية قد حملت إلى برلين النوايا غير المشجعة التي .. تحملها انكلترا لفرنسا وروسيا .. وعندئذ لا يبقى لدى المانيا أي سبب يحملها تحمل التهديد الانكليزي على محمل الجد .. ولعبة التبان في نهاية الحساب هي فقط من حظ الحرب التي ستستفيد منها دون شك !

هذا تقريباً ما استنتجه روميل . ولكن انطوان لم يقله . كان يميز تمييزاً دقيقاً بين الاخبار ذات النظام العام التي كان يفكر ان باستطاعته نقلها إلى مساعديه ، بدون غفلة ، وبين ما يبدوله نظرات شخصية ومسارات في الحديث الحر الدبلوماسي . ووجود جاك جعله يميل إلى الاحتراس اكثر من المعتاد . وعلى هذا ، لم يكن ينوي القول انهم في المراجع العليا كانوا يهتمون بمعرفة ما إذا كانت اللحظة قد حانت ليوجهوا نداء مباشراً ومستعجلاً طالبين مساندة انكلترا ، مثلاً بشكل رسالة شخصية من رئيس الجمهورية إلى الملك جورج . وحرص أيضاً على الا يشير إلى الحادث المعين الذي صمم عليه غراي ، حسب قول روميل ، بان يلقي السيف البريطاني في الميزان ، اثناء حديثه البارحة مع السفير الالماني . ويبدو ان الالمان قد اقترفوا أول البارحة ، في التاسع والعشرين منه ، حماقة ثقيلة، إذ قالوا في لندن باختصار : « عِدُونا بالحياد الانكليزي ونحن نتعهد ، بعد انتصارنا ، باحترام سلامة الأراضي الفرنسية ! ولن نصادر منها سوى المستعمرات » . وهذا الخطاب الوقح – الذي زادت خطورته بسبب رفض التعهد بعدم خرق الحياد البلجيكي ، إذا حدث نزاع – قد اثار ، حسب قول روميل ، اشمئزاز وزارة الخارجية البريطانية ، وأحدث انقلاباً لصالح فرنسا في أذهان جميع أعضاء الوزارة ، وجعل الحكومة الانكليزية تسرع بشكل واضح لاتخاذ الناحية الفرنسية الروسية .

كان جاك يصغي لعرض انطوان دون أن يعارضه ، ولكنه لم يستسلم ، وقال : – في كل هذا يبدو لي ان روميل قد نسي كثيراً المعطيات الرئيسية للمسألة .

– يعني ؟

— يعني ان بريطانيا العظمى كانت منذ عشر سنوات لا تزال هي سيدة البحار دون منازع ، وانها إذا لم تجد وسيلة لتوقف نمو الاسطول الالماني المتسارع مهما كان الثمن ، فانها لن تصبح بعد قليل سوى قوة بحرية في الصف الثاني . هذه حقائق معروفة من الجميع ، ولكنها توضح كثيراً من الأمور ، في رأيي ، أكثر من حالات ضمير غراي وحيراته السيكولوجية .

فزاد ستودلر :

— نعم . وأي دور تلعبه قضية خط حديد بغداد في السياسة الانكليزية ؟ ان وضع يد المانيا على خط يربط القسطنطينية بالخليج الفارسي ، يعني أنه يقود رأساً إلى الهند ، ويهدد قناة السويس بمنافسة حيوية .

فقال روا بتوانٍ :

— كل هذا يرمي إلى إثبات ماذا ؟

— ماذا ؟

هكذا ردد شاسل كالصدى .

وأجاب جاك :

— إن لدى انكلترا أسباباً ملحّة لتمنّي حرب تُخضع فيها القوة الالمانية وفي نظري ، فإن هذا يلقي نوراً على المسألة كلها .

ولاحظ شاسل برقة :

— في الماضي اختبرت انكلترا نفسها مع نابليون الأول .

ثم أضاف بابتسامة صغيرة مرحة :

— وصحيح ان نابليون الأول كان في الحرب ذا مكائد ولا مثيل له في المانيا !

وساد صمت قصير . ومر في النظرات ألق ساخر انطفأ بسرعة . وسأل جوسلان جاك :

— ورغم هذا الا تعتقد ان بالامكان تصديق نزعة السلام الحالية عند القادة البريطانيين ؟

– كلا . حين صرح القيصر الألماني : « إن مستقبلنا على الماء » كان يلقي القفاز في وجه انكلترا . وأعتقد ان انكلترا على وشك التقاطه في هذه الفترة . انها تستفيد من الأمل الذي لا يزال يساورها في سحق الامة الوحيدة في اوروبا التي تقلقها . وأعتقد ان غراي ، ولديه معلومات كثيرة عن مقاصد روسيا ، بمضاعفته عروضه للوساطة ، لم يكن لديه أي وهم بفعاليتها ، وأعتقد أنه لم ينقطع عن المغالطة ، باختياره . وأعتقد أن الحكومة الانكليزية ، في الواقع ، تعتبر حظاً كل ما يمكن أن يجعل هذه الحرب التي هي بحاجة اليها حتمية . – انها بحاجة اليها ولكنها لم تجرؤ أبداً ، على أن تتخذ هي نفسها المبادرة .

ونظر إلى اخيه . كان انطوان يقشر ثمرة وبدا أنه غير مهتم بالمناقشة .

ولاحظ ستودلر ملتفتاً نحو مانويل روا :

– قبلاً ، عام ١٩١١ ، فعلت انكلترا كل شيء لتسمم ، غدراً ، العلاقات الفرنسية – الالمانية بشأن المغرب . ولولا كايو ..

واستقرت عينا جاك على روا . كان جالساً إلى طرف الطاولة الكبيرة . ولدى ذكر أسم كايو رفع رأسه فجأة ، وبدا لمعان أسنانه الصغيرة .

في تلك اللحظة ، فان جوسلان الذي بدا حالماً منذ برهة ، تناول الكلام ، مقلعاً عن متابعة تقشير اللوز الطازج الذي كان في صحنه – والذي كان يقوم بتقشيره بطرف شوكته وسكينه ، ساهياً – وأجال نظره المداعب حول الطاولة :

– أتعلمون كيف أتخيل مؤرخي المستقبل يرون التاريخ الذي نعيشه ؟سوف يقولون : « في حزيران ١٩١٤ ، وفي أحد أيام الصيف ، اندلع حريق في وسط اوروبا فجأة . كان الموقـــد في النمسا . وكومة الحطب أعدّت في فيينا باعتناء .. »

فقاطعه ستودلر :

– .. ولكن الشرارة انطلقت من الصرب ! تدفعها ريح عنيفة خؤونة من الشمال الشرقي جاءت رأساً من بطرسبورج .

وأكمل جوسلان :

– وأخذ الروس ينفخون النار حالاً !

– برضى فرنسا غير المفهوم . وألقوا ، بالاتفاق ، على كومة الحطب كمية من حزمات الحطب الصغيرة التي كانوا محتفظين بها في الكيس منذ وقت طويل .

وسأل جوسلان :

– والمانيا ؟

ولما لم يجبه احد ، تابع :

– المانيا اثناء ذلك كانت تنظر ببرود الى اللهب يتصاعد، والشرر يتطاير.. فهل كان ذلك بدافع المداهنة ؟

فصاح ستودلر : ولكن نعم !

فقاطعه جاك :

– كلا .. ربما كان ذلك بدافع البلاهة . بدافع البلاهة ، وبدافع الكبرياء ! لأنها تفتخر بجنون ان باستطاعتها حصر النار ساعة تشاء ، وان تترك شيئاً للنار وتنقذ الباقي .

فقال روا :

– .. وان تخرج منها الكستناء .

وهمس السيد شاسل بكآبة :

– هذه الأمور يجب ألا تكون .

وقال جوسلان : تبقى انكلترا ..

فهتف جاك :

– انكلترا ، في رأيي أمرها بسيط : انها تحتفظ منذ البدء باحتياطي هام من الماء يكفي لإطفاء الحريق ، وفي الظرف الخطير كانت ترى النار تأخذ وتنتشر . ولكنها اكتفت بالصياح : « النجدة ! » وتجنبت باعتناء ان تفتح سدودها !.. الأمر الذي يبعث على الخوف ، رغم الهيئات المسالمة التي تتظاهر بها ، ان تحكم عليها الاجيال القادمة كشريكة مرائية لمضرمي الحريق .

ولم يبد انطوان انه يصغي ، وأنفه في صحنه .

ولفت الخليفة نحو جاك عينه الكبيرة الدامعة :

هناك نقطة لا استطيع الاتفاق معك عليها . هي موقف المانيا !

وكأنه غير مسيطر على اضطراب خفي ، فقد اتخذ صوته فجأة رنيناً محموماً :

– اني مؤمن بإرادة الحرب لدى المانيا .

فقال روا :

– بالتأكيد . لقد تبنت المانيا حلم شارلكان ، وحلم نابليون ، وحروب الدوقيات ، وسادوفا ، وعام ٧٠ ، وكثيراً من المراحل نحو اكتساح اوروبا وبين كل مرحلة وأخرى ازدياد بالغ في قوتها العسكرية لتبلغ بأقصى سرعة هدفها في الجامعة الجرمانية .

وستودلر الذي انتظر ، منخفض الرأس ، نهاية هذه القطعة المسرحية ، انحنى نحو جاك من جديد :

– نعم ، انا اعتقد بتعمد المانيا الوقح : فهي التي تشد الخيوط منذ البدء ، من وراء الكواليس ، وتحرك النمسا !

وأراد جاك أن يتكلم ، ولكن ستودلر لم يترك له الوقت . فقد بدا الخليفة فريسة هياج غير عادي ، وصاح :

– هذا أمر ظاهر ! هل النمسا ، النمسا المنحطة ، تتيح لنفسها لو كانت وحدها ، ان تتخذ هذه اللهجة ، لهجة الانذار النهائي ؟ وترفض لجميع الدول مجتمعة أقل مهلة تعطى للجواب الصربي ؟ وتطرح جانباً ، دون أن تفسح المجال للتشاور ، ذلك الجواب الذي كان كثير الميل الى المصالحة ؟ كلا . واذا افترضنا ان المانيا لا تضمر الحرب فكيف نفسر عداوتها المنظمة لجميع الاقتراحات – سواء أكانت صادقة أم لا ، والمقبولة دبلوماسياً في جميع الأحوال – والتي قدمتها انكلترا ؟ ورفضها عرض النزاع امام محكمة العدل الدولية في لاهاي كما اقترح القيصر الروسي ؟

فجازف جاك :

– كل هذا يمكن تبريره على نحوٍ ما . فالمانيا لم تكن تجهل شيئاً عن مقاصد الجامعة السلافية الروسية الحربية . وكانت دائماً تستند الى أن تدخُّل الدول في النزاع النمساوي الصربي يحمل من الأخطار أكثر من امتناع هذه الدول عن التدخل .

فعارض انطوان اخاه بحدة :

– في الكه دورسي لم يثقوا ابداً باحتجاجات المانيا السلمية . فقد اكتسبوا اليقين المعنوي منذ وقت طويل ..

فقال جاك : اليقين المعنوي ؟

– .. بان الامبراطوريات الوسطى عزمت مسبقاً على إبعاد كل ما من شأنه أن يمنع وحتى أن يؤخر النزاع .

ولكي ينتهي من سياسة الصالونات هذه التي تثير سخطه ، وضع منشفته على الطاولة ونهض . وجاراه الجميع .

وقال جاك لستودلر حين تركا غرفة الطعام متمهلين :

– لقد قامت المانيا ، ولا ننسى ذلك ، بعدة محاولات للمصالحة لم تعرها الحكومة الروسية ولا الحكومة الفرنسية اي اهتمام .

– مداجاة ! كان يلزمها ، رغم كل شيء ، أن تراعي قليلاً جانب الرأي العام الاوروبي .

ولاحظ جوسلان بانصاف :

– ولكن النظرية الالمانية – ضرورة القيام بحملة تأديبية ضد الصرب وحصر دقيق للنزاع – لا تتضمن ابداً ارادة حرب اوروبية .. وأقل من ذلك أيضاً ، ارادة حربٍ ضدنا .

فأضاف جاك :

– دون أن ندخل في الحساب انه اذا كانت لدى المانيا حقيقةً هذه الارادة الحربية ، وتلك الرغبة في سحق فرنسا ، فلماذا تنتظر وقتاً طويلاً ؟ لماذا أضاعت

منذ خمس عشرة سنة هذا العدد الكبير من الفرص التي كانت مناسبة أكثر من فرصة اليوم ؟ لماذا لم تستفد من أزمة فاشودا بين الفرنسيين والانكليز عام ١٨٩٨ ؟ ومن الحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٥ ؟ ومن أزمة البوسنه عام ١٩٠٧ ؟ والازمة المغربية عام ١٩١١ ؟

فدمدم الخليفة مردداً مصدوماً :

– كل هذا لا يهمني ، لا يهمني .

ووضع قبضتيه في جيبيه .

وكان السيد شاسل المغروس أمام الباب يقضم قطعة خبز كبيرة ، وقد تنحّى ليدع الآخرين يمرون امامه بالتتابع . وسد انطوان الطريق . فأراه السيد شاسل خبزه وطرف بعينه .

– كان المرحوم والدي ايضاً من انصار ذلك . فقد كانت تلزمه بعد الطعام قطعته الصغيرة من الخبز . وانا نفس الشيء يا سيد انطوان . انها لذتي .

كان يظهر شيء من الفخر في ابتسامته التي تغفر له كثيراً من التساهل حيال ضعفه ، لأنه ذو ذوق سائد قليلاً . كان السيد شاسل طبيعياً جداً ليبدو متواضعاً .

وبما أن جاك وجوسلان اجتازا عتبة غرفة المعاينة حيث قدمت القهوة ، فان ستودلر دخل بينهما وأمسك بمرفقيهما ، وانحنى وتابع كلامه بنبرة قلقة ، بشكل مسارّة .

– لا يهمني لأن بالإمكان تنحّل الأعذار الى ما لا نهاية له وايجاد اسباب لكل شيء ! لا يهمني لأننا كلنا بحاجة الى الظن ان المانيا مذنبة ، والى الظن بأننا حمقى ! فأنا حين أفتح اليوم صحيفة أبحث قبل كل شيء – دون ان اخفي ذلك – عن البراهين على الخداع الالماني !

فسأل جوسلان الذي توقف عند مدخل الغرفة :

– ولكن لماذا ؟

فخفض الخليفة عينيه :

– لنستطيع أن نستسيغ ما يحدث لنا ! لأننا إذا أخذنا نرتاب بجالة الذنب الالمانية فاننا سنجد كثيراً من العذاب في القيام بما يسميه الجميع « واجبنا ! »

فلم يستطع جاك امساك ضحكة مرة وقال :

– الواجب « الوطني » !

فقال ستودلر : نعم .

– اما تزال تأخذ بعين الاعتبار هذا الواجب المزعوم حين ترى ما يعدونه لنا باسمه ؟

فهز الخليفة كتفيه كأنه ينتفض بين حلقات شبكة وتابع بنبرة غاضبة ومتوسلة .

– آه ! لا تزد من همي .. كلنا نعلم ان فرنسا اذا اعلنت ، لسوء الحظ ، التعبئة غداً ، فاننا لن نتملص رغم كل ما يمكن ان نفكر به .

ففتح جاك فمه ليصيح ! « إنا ، بلى ! » حين شاهد اخاه واقفاً في منتصف الغرفة وقد التفت وأخذ يتأمله محلقاً . فشلّت حركته رغماً عنه ، وخضع للتوسل الغريب الذي قرأه في نظرته : وصمت . ومنذ مجيء انطوان ادهشه الاضطراب الذي ادرك وجوده عند اخيه ؛ وتأثر من ذلك في صميمه – كتلك الليلة ، بجانب سرير والدهما المحتضر ، حيث رأى اخاه ، الذي كان يظنه لا يُقهر ، قد انفجر فجأة بالبكاء .

وادار انطوان ظهره وقال :

– قدّم لنا القهوة يا مانويل ، اتريد يا صغيري ؟

واستمر الخليفة بالكلام بنبرة تزداد حمّى :

– وبعد ، اقول لنفسي : « من يدري ؟ ان حرباً اوروبية كبرى سوف تقدم دون شك أمد مجيء الاشتراكية اكثر مما تستطيع ان تعمله عشرون سنة من الدعاية في وقت السلم » .

فقال جوسلان :

– هذا ، بالحقيقة لا أرى كيف يحدث . اني اعلم جيداً ان بعضاً من آباء

مذهبكم يعلمون هذه النظرية بأن الحرب لازمة لتحريك الثورة . ولكني كنت افكر دائماً بأن هذه هي « نظرة عقلية » كما يقول الأب فيليب بلطف . يجب ألا يكون لدى المرء اية فكرة عما ستكونه امة حديثة تحت السلاح ، وشعب مجند ! وانه لوهم غريب أن نأمل بعصيان ، لم يستطع حتى الآن ان ينجح في اطلاق سراح نظامنا الديموقراطي ، يصبح ممكناً فجأة في اليوم الذي يصير فيه جميع الثوريين سجناء أطر الجيش تحت رحمة ديكتاتورية عسكرية لها على الافراد حق الحياة والموت .

لم يكن ستودلر يصغي . كان ينظر إلى جاك محملقاً . وتابع بصوت متجهم:

ـ الحرب ، ثم ماذا ؟ انها ثلاثة او أربعة اشهر تقريباً.. ولكن اذا وجدت البروليتارية الاوروبية نفسها ، على اثر هذه المحن ، اكثر قوة ، وأكثر نشاطاً، وأكثر اتحاداً ؟ واذا انتهت الامبريالية وسباق التسلح حتمية بعد ذلك ؟ وإذا اسست الشعوب اخيراً سلاماً متيناً ، السلام في الاممية ؟

فهز جاك رأسه باصرار !

ـ كلا ! كل هذا المستقبل المريب لا اريده اذا كان بثمن الحرب ! كل شيء ولا التخلي عن العقل والعدالة امام القوة الشرسة والدم ؛ كل شيء ولا هذا الرعب وتلك الاستحالة ! كل شيء ، كل شيء — ولا الحرب .

فقال روا الذي كان يسمع :

— كل شيء ؟ حتى احتلال الاراضي بالغزوة الالمانية ؟ لنكون براحة بال اذن فلنقترح حالا على الالمان الاستيلاء على الموز La Meuse ، والاردين ، والشمال ،وبا ـ دي ـ ركاليه اولماذا لا ؟ مع منفذ مريح على البحر!

فهز جاك كتفيه هزة خفيفة :

ـ ان هذا سوف يقلق دون شك بعض الصناعيين في الشمال . ولكن اتعتقد بصراحة ان هذا سوف يغير شيئاً اساسياً بالنسبة الى القسم الأكبر من العمال والمعدنين في بؤس حياتهم ؟ وإذا استشيروا ، الا يفضل معظمهم هذا على الموت المجيد في ساحة المعركة ؟ ـ وظل وجهه شجاعاً ورصيناً : ـ اعلم جيداً انكم

تعتبرون الحرب والسلام كذبذبة طبيعية لحياة الشعوب .. وهذا بشع ! هذه الذبذبة غير الانسانية يجب ايقافها مرة والى الابد ! يجب أن تستطيع الانسانية المنعتقة من هذا الايقاع الدموي ان توجه فعاليتها نحو خلق مجتمع افضل ! ان الحرب لا تحل اية مشكلة من مشاكل الانسان الحيوية ! ولا أية مشكلة ! انها لا تفعل شيئاً سوى زيادة الوضع البائس للشغيل ! لحم للمدفع اثناء الحرب وعبد مستعبد بقساوة بعدها ؛ هذا هو نصيبه ! ـ وأضاف بصوت ضعيف : ـ هذا بسيط : لا أرى شيئاً ـ **لا شيء** بالضبط ! ـ يمكن أن يكون اسوأ لشعب من آلام الحرب .

فقال روا ببرود :

ـ بسيط جداً ، حتى انه متجاوز الحد في البساطة اذا سمحت ! كما لو أن الشعب ليس له ما يربحه في حرب منتصرة .

ـ لا شيء ابداً .

فارتفع صوت انطوان واضحاً قاطعاً :

ـ أمر لا يمكن اثباته .

فارتجف جاك ولفت رأسه . كان انطوان حتى هذه اللحظة جالساً إلى مكتبه ، منخفض العينين ، وقد بدا منهمكاً في فض رسائله . وفي الحقيقة لم تفته كلمة مما قيل على بضعة امتار منه . وتابع دون ان يترك مكانه ، ودون أن ينظر إلى أخيه :

ـ لا يمكن اثباته ! تاريخياً لا يمكن اثباته ! التاريخ كله .. ابتداء من جان دارك ..

فقاطعه جوسلان بطريقة مضحكة :

ـ هيه ! من يدري؟ لولا لابوسيل La Pucelle لانسكبت انكلترا وفرنسا في أمة واحدة .. لعار شارل السابع ، وأنا مقتنع بذلك ، ولكن ربما كان هذا للمصلحة الكبرى للامتين اللتين كانتا تجنبتا آلاماً كثيرة .

فهز انطوان كتفيه :

ـ كن جدّياً يا جوسلان .. أتنكر مثلاً ان المانيا لم تربح شيئاً في سادوفا ولا في سيدان ؟

فأجاب جاك :

ـ المانيا ! الامة الالمانية ! كيان .. ولكن الشعب؟ ولكن الألماني،رجل الشعب الالماني ، ماذا ربح ؟

فاعتدل روا :

ـ وإذا كان في عيد الفصح عام ١٩١٥ ـ او قبل ذلك ايضاً ـ عادت فرنسا المنتصرة واستولت على الالزاس واللورين ومدت اراضيها حتى حدود الرين الطبيعية ، واضافت ثروة السار المعدنيـة ، وزادت امبراطوريتها الاستعمارية بالممتلكات الالمانية في افريقيا ؛ وإذا أصبحت بقوة سلاحها اكبر دولة في القارة ، فهل بالامكان الزعم ان الشعب الفرنسي لم يربح شيئاً مقابل تضحية جنوده ؟

واخذ يضحك بسذاجة؛ وحين اعتبر أن قضيته سممت سحب علبة سكايره، وأخذ كرسياً وأداره ، وجثم فوقه منفرج الساقين .

وتمتم جوسلان مفكراً وهو قريب من جاك :

ـ ليس كل ذلك بهذه البساطة .. ليس بهذه البساطة .

فقال جاك موجهاً الكلام اليه وخافضاً صوته :

ـ آه ! لا أستطيع القبول بالعنف ، ولو كان ضد العنف ! لا اريد ان اترك في تفكيري اي صدع يمكن لميول الضعف ان تمر منه ! اني أرفض كل حرب سواء أعُمّدت باسم « عادلة » أو « غير عادلة » ! كل حرب من أين أتت ولأي سبب كان !

وخنقه التأثر فسكت . وكان يفكر : « حتى الحرب الأهلية ! » متذكراً مجادلاته المحمومة مع ثوريين مصممين على كل شيء ، امثال ميتورغ . (وكان يقول لهم : « ليس لفورة من الحقد والمجازر اريد ان اكون مديناً بانتصار هذا المثل الأعلى في الاخوة والذي نذرت له حياتي ») .

٦١

ردد جوسلان وهو يجيل حوله نظراً ثقيلاً :

– ليس بهذه البساطة ..

وتوقف ، وتابع بنبرة أخرى كأنه يلاحق افكاراً هاربة .

ـ نحن الاطباء ، لدينا على الأقل هذا الحظ بأن لا يجندونا حتى نلعب دوراً دموياً ..وانهم سوف يجندوننا لا للقتل ، بل للشقاء .

– نعم ، نعم .

هكذا قال ستودلر بحدة وعينه الدامعة التفتت نحو جوسلان بنوع من الشكر .

وقال روا وهو يتصفحهم الواحد بعد الآخر بفضول مهاجم :

– ولو لم تكونوا أطباء ؟

(كان الجميع يعرفون انه لم يقدم شهاداته للسلطات العسكرية ، وانه اثناء خدمته ، بعد تدرج قصير بين مجموع مستخدمي التمريض ، حصل على إعادته إلى مركزه في الجيش ؛ وانه في الوقت الحاضر مسجل كضابط برتبة ملازم في الاحتياطي في فيلق الفرسان) .

وصاح انطوان :

ـ اذن يا صغيري مانويل ، الا تريد حقيقة ان تعطينا القهوة ؟

كان يبدو انه يبحث عن اية ذريعة ليوقف النزاع، ويبعثر جمهور المتناقشين. وقال الشاب :

ـ هذه هي . هذه هي يا معلم .

ووقف بطريقة رياضية ، وهو يمر ساقه فوق مسند الكرسي . ونادى انطوان :

ـ اسحق !

فاقترب ستودلر . وناوله انطوان غلافاً .

ـ خذ معهد فيلادلفيا عزمان يجيب ـ وأضاف بداعي العادة : ـ للحفظ .

فتطلع اليه ستودلر بدهشة دون أن يأخذ الرسالة ، فكشر انطوان عن ابتسامة مقتضبة ، والقى الغلاف في سلة الأوراق .

وكان جوسلان وجاك قد ظلا وحدهما واقفين في زاوية الغرفة الفسيحة .

وقال جاك دون ان ينظر باتجاه أخيه ، ولكن بصوت أكثر ثباتاً كأنه لم يوجّه إلا الى جاره:

ـ طبيب ام غير طبيب ، كل متجند يلبي النداء يكون قد شايع السياسة القومية وبعمله هذا يرضى بالحرب . والمسألة في نظري تبقى هي نفسها بالنسبة للجميع : لقبول دور في هذه المجزرة ، هل يكفي ان تبلغك الحكومة الأمر بذلك ؟ – وتابع منحنياً نحو جوسلان : – حتى لو لم أكن ... ما أنا ... حتى لو كنت مواطناً خاضعاً ، راضياً عن مؤسسات بلادي ، فإني لن اقبل ان يجبرني سبب لدى الحكومة على مخالفة ما هو واجب روحي بالنسبة إلي . فالدولة التي تدعي الحق بارغام ضمير من تتولى ادارتهم ، ليس لها ان تعتمد على مساعدتهم . ومجتمع لا يهتم قبل كل شيء بقيمة الافراد المعنوية لا يستحق سوى الاحتقار والتمرد .

فهز جوسلان رأسه ، وقال بدلاً من الجواب :

ـ لقد كنت من أنصار دريفوس بشكل عنيف .

وانطوان الذي كان يبدو مشغولاً على مكتبه التفت دفعة واحدة وقال بصوت قاطع :

ـ لقد طُرحت المسألة بشكل سيء .

وكان وهو يتكلم قد نهض ، متطلعاً نحو أخيه ، وتقدم وحده إلى منتصف الغرفة .

– حكومة ديموقراطية كحكومتنا – وحتى حين تنكر اقلية معارضة عليها سياستها ـ ليست في مركز السلطة الا لأنها تمثل شرعياً ارادة أكبر عدد .

اذن فالمجند يطيع هذه الارادة الجماعية للوطن حين يلبي النداء – مهما يمكن ان يكون رأيه الشخصي حول سياسة الحكومة الموجودة في مركز السلطة .

فقال ستودلر :

– انت تستند الى ارادة اكبر عدد . ولكن الاكثرية ، حتى لااقول كلّية المواطنين تتمنى في الساعة الحالية ان لايكون هناك حرب.

وتناول جاك الكلام ، وسأل ، متجنباً توجيه الكلام الى اخيه ، ومتطلعاً إلى جوسلان بحملقة خرقاء :

– باسم ماذا ، باسم ماذا هذه الاكثرية تصبح حريصة على تضحية مبادىء عاقلة ، شرعية ، وتقدم خضوع المواطن على يقينه الأكثر قدسية ؟

فهتف روا وقد انتصب فجأة ، كأنه تلقى صفعة :

– باسم ماذا ؟

وردد صوت السيد شاسل كالصدى . بماذا ؟

فقال جاك بثبات :

– باسم الميثاق الاجتماعي .

وتفرس روا بجاك ، ثم بستودلر كأنه جعلهما يصرحان بعجزهما عن الاعتراض ثم هز كتفيه ، ودار على عقبيه ،وبلغ الكنبة البعيدة بسرعة ، في فرجة احدى النوافذ ، وسقط عليها مديراً ظهره .

وكان انطوان منخفض العينين يحرك ملعقته في فنجانه بعصبية وقد بدا انه جمع افكاره .

وساد صمت قطعه جوسلان بلطف :

– اني افهمك جيداً يا معلم، واعتقد بعد التدقيق اني افكر مثلك . فالمجتمع الحالي ، سواء اكان له نقائصه ام لا ، فهو واقع بالنسبة الينا ، بالنسبة الى جيلنا جيل المراهقين. انه سطح جاهر ، متين نسبياً بَنَته الاجيال السابقة وتركته لنا – السطح الذي وجدنا توازننا عليه بدورنا .اني اعي ذلك ، انا ايضاً ، وبكثير من القوة .

فقال انطوان : تماماً .

واستمر في إدارة ملعقته دون أن يرفع رأسه :

- نحن ، كأفراد ، كائنات ضعيفة منعزلة ، معوزة . وقوّتنا - أكبر قسم من قوّتنا ، وعلى كل حال ، إمكان ممارسة هذه القوة بطريقة مثمرة - نحن مدينون بها للتجمع الاجتماعي الذي يجمعنا ، وينسق فعالياتنا . وبالنسبة الينا ، فان هذا التجمع ليس اسطورة ، في حالة العالم الحاضر : انه موجود ، معيّن ، محدود في الفراغ . ويحمل اسماً : فرنسا .

كان يتكلم متمهلاً بصوت كئيب ولكنه صلب ، كأنه أعدّ ما قاله هنا منذ وقت طويل ، واغتنم الفرصة ليقوله .

- كلنا أعضاء في وحدة وطنية . وبهذا فكلنا خاضعون لها عملياً . وبيننا وبين هذه الوحدة - التي تتيح لنا أن نكون ما نحن ، وأن نعيش في سلامة تامة ، وان ننظم في أطرها حياتنا كرجال متمدنين - يوجد منذ آلاف السنين رباط مقبول ، ميثاق : ميثاق يلزمنا كلنا ! انها ليست مسألة اختيار ؛ انها مسألة واقع ... مهما طال أمد عيش الناس في مجتمع ، فاني أعتقد أن الأفراد لن يستطيعوا الزعم ، على مزاجهم ، انهم متحررون من التزاماتهم حيال هذا المجتمع الذي يحميهم ، والذي يستفيدون منه .

فقاطع ستودلر :

- ليس الجميع .

فشمله انطوان بنظرة قصيرة .

- الجميع ! ربما بشكل غير متساو ؛ ولكن الجميع ! انت ، مثلي ! والبروليتاري كالبورجوازي ؛ وخادم القاعة كرئيس الخدم ! بما أننا جميعاً وُلدنا أعضاءً في الوحدة ، فقد احتللنا فيها مراكز يستخرج منها كل فرد منا منفعة يومياً . منفعة يقابلها مراعاة عقد اجتماعي . وأحد أوائل شروط هذا العقد ، هو أن نحترم قوانين الوحدة وأن نمتثل لها أثناء تفكيرنا الحر كأفراد ، حتى لو لم تبد هذه القوانين انها عادلة دائماً . ونبذ هذه الالتزامات يعني فتح

ثلمة في مرتكز هذه المؤسسات التي تجعل وحدة" وطنية كفرنسا جسماً متوازياً حياً . ان هذا يعني زعزعة البناء الاجتماعي .

فقال جاك بصوت منخفض : نعم !

وتابع انطوان بتبديل غاضب في الصوت :

– وأكثر من ذلك . انه يعني العمل دون بصيرة : يعني العمل ضد مصالح الفرد الحقيقية . لأن الاختلال الذي سينتج من ذلك التمرد الفوضوي يكون له على الفرد نتائج أكثر شؤماً من خضوعه لقوانين هي أيضاً معيبة .

فقال ستودلر بحدة : معرفة !

فألقى انطوان نظرة جديدة نحو الخليفة وهذه المرة خطا نصف خطوة نحوه : اليس علينا دائما انقطاع أن نخضع كمواطنين إلى قوانين لا نستصوبها كأفراد ؟ إن الوحدة تسمح لنا أن ندخل في صراع معها : فحرية التفكير والكتابة لا تزال موجودة في فرنسا ! ولدينا سلاح شرعي للقتال : ورقة الاقتراع .

فأجاب ستودلر بسرعة :

– لنتكلم عنها ! ان تصويتك العام خدعة جميلة في فرنسا ! لا يوجد اثنا عشر مليوناً من الناخبين بين أربعين مليون فرنسي. ويكفي ستة ملايين وصوت واحد ، أي نصف الذين يملكون حق الاقتراع ؛ لتكوين ما نجرؤ على تسميته بالاكثرية . نحن اذن أربعة وثلاثون مليوناً من البلهاء ، خاضعون لإرادة ستة ملايين فرد – من الذين يقترعون ، في غالبيتهم ؛ على العمياء ، وأنت تعرف كيف ، تحت ضغط ثرثرة باعة الخمور ! كلا ! كلا ! ليس للفرنسي أية سلطة سياسية حقيقية . هل لديه الوسيلة لتبديل دستور النظام ؟ وان يستهجن ، أو حتى أن يناقش القوانين الجديدة التي تفرض عليه ؟ انهم لم يستشيروه حتى بموضوع الاحلاف التي تعقد باسمه والتي يمكن أن تجره إلى نزاعات سيترك فيها جلده ! هذا ما يسمونه في فرنسا السيادة القومية المطلقة !

فأصلح انطوان هذا الكلام بوقار :

– عفواً . فأنا لا أشعر بافتقاري إلى ما أردت قوله . بالتأكيد ، أنا شخصياً لم اشاوَر حول كل حادث في الحياة الاجتماعية . ولكن لو اختارت الجماعة سياسة لا تروقني ، فاني حر في أن اعطي صوتي لأولئك الذين يحاربون هذه السياسة في البرلمان .. وفي غضون ذلك ، مهما طال الوقت على عدم نجاح صوتي في أن يطرد من السلطة أولئك الذين يمثلون فيها حتى ذلك الوقت إرادة أكبر عدد ، وأن يضع مكانهم اناساً سوف يبدلون سياسة الدولة وفقاً لمبتغاي ، فان واجبي بسيط ، ولا جدال فيه . فأنا ملتزم بواسطة العقد الاجتماعي . علي أن أخضع ، علي أن اطيع .

فهمس السيد شاسل في فترة الصمت متمثلاً :

– قانون قاسٍ ولكنه قانون ! [١] .

وكان الخليفة يروح ويجيء طولاً وعرضاً ، فقال متذمراً :

– يبقى أن نعرف ، في الحالة الحاضرة ، إذا كانت الفوضى الثورية التي سوف يحدثها عدم خضوع الجندين لن تكون شراً أقل خطورة بكثير من ..

فأكمل جاك :

– من أقصر الحروب !

في طرف الغرفة ، اتى روا بحركة ، وقد سمعت قرقعة نوابض مقعده ، ولكنه لم يقل شيئاً . وقال جوسلان بلطف :

– أما فيما يتعلق بي أيها المعلم ، فاني أفكر مثلك : سأطيع .. أقول ذلك وأنا ادرك ان هذا الخضوع بنظر الآخرين هو واجب .. غير مقبول .. غير انساني . في فترة غير عادية ، عشية كارثة عظيمة كهذه التي تهددنا .

فقال انطوان :

– بالعكس ، كلما أزداد شعور الفرد بخطورة الحادث يبدو له واجبه ضرورة قصوى .

---

١ – باللاتينية في الأصل .

وصمت . وأعاد قهوته إلى الطبق دون أن يشربها . وكان وجهه منقبضاً ، وصوته يرتجف .

– منذ عشرة أيام وأنا أسائل نفسي حول ذلك .

هكذا اعترف فجأة بنبرة ضاغطـــة رفعت نحوه عيني جاك بشكل لا ارادي . وأسند ابهامه وسبابته على تجويف جفونه لبضع ثوان قبل أن يرفع رأسه ويرسل باتجاه جاك نظرة غريبة حية. ثم قال وازناً كلماته : – إذا أُقرت التعبئة العامة هذا المساء من قبل حكومة قد انتخبتها الأكثرية – حتى لو كانت ضد صوتي – فلا لأنني أعتقد بهذا أو ذاك عن الحرب ، ولا لأنني أشكل جزءاً من أقلية معارضة ، سوف يكون لي الحق أن أفسخ الميثاق متعمداً واتملص من التزامات هي نفس التزامات الجميع بالضبط !

كان جاك يصغي دون أن يتدخل في هذه الأقوال التي قيلت من اجـــله . وشعر أنه أقل تمرداً فيما يتعلق بقضية انطوان ، وأنه ، رغماً عنه ، لم يكن متأثراً من اللهجة الانسانية ، الحميمة ، التي كانت ترتعش تحت هــذه التأكيدات العقيدية . ومع ذلك ، فمهما كان موقف أخيه معارضاً لموقفه ، فأنه لم يستطع الامتناع عن التفكير أن انطوان في هذه المناسبة ظل منطقياً مخلصاً لنفسه تمام الاخلاص .

وفجأة ، كما لو أن أحداً عاكسه بعنف ، صالب انطوان ذراعيه وصاح :

– واسم الله. بالحقيقة سيكون من المريح الا تستطيع أن تكون مواطناً إلا في حالة الحرب .. فقط .

وكان الصمت الذي تلا ذلك ثقيلاً بشكل خاص .

وجوسلان ، الذي كانت حساسيته تسجل كل التنوعات ، ظن من المناسب أن يلهو . فصرح كخاتمة ، وبنبرة حبية ، كما لو أن المناقشة قد أقفلت وأصبح الجميع متفقين :

– في الأساس ، المعلم على حق . فالحياة الاجتماعية نوع من اللعب . ويجب الاختيار : اما القبول بقواعد اللعب واما الانسحاب من الجولة ..

فقال جاك بالقرب منه وبصوت منخفض :

ـ أما انا فقد اخترت .

فلفت جوسلان رأسه قليلاً وتأمله لحظه بانتباه وبتأثر لاإرادي . وقد بدا أنه يشاهد فيما وراء هذا الوجود الواقعي مصيراً مؤثراً .

وبرز وجه ليون الأجرد في فتحة الباب :

ـ انهم يطلبون السيد على الهاتف .

فالتفت انطوان ونظر إلى الخادم رافاً أهدابه كما لو أن هناك من أيقظه وهو يرتجف . وفكر أخيراً : « هي أيضاً ! » .

ـ حسناً . انا آتٍ .

وانتظر بضع ثوان منخفض العينين ، مغتم الجبهة ،وترك الغرفة دون سرعة . وكان يفكر حين وصل إلى مكتبه الصغير : « ماذا ستقول لي ؟ .. » : **انت لا تحبني ابداً ! انت لا تحبني ابداً كما في السابق !** ستأتي حتماً الساعة التي يقلن كلهن فيها ذلك أما أننا « لا نحب » فسيصبن بالدهشة حين يعلمن .. بأن ليس هن ، بل نحن ! أنه الرجل الذي صرناه أمامهن .. ليس « انت لا تحبني » ما يجب أن يقلن ، بل « أنت لا تحب الرجل الذي صرته منذ أن أصبحنا معاً .. »

وكان قد وصل إلى أمام جهاز الهاتف ، ورفع السماعة بدون تفكير :

ـ اهذا أنت يا توني ؟

وانتابته رجفة ، نوع من التمرد . وظل هناك أمام هذا الصوت المعروف ؛ المعروف كثيراً ، المغني ، الخشن ، العذب ـ ولم يستطع التصميم على الاجابة . غضب بارد .. منذ يومين شعر بانه تخلص منها ، من أذى سحرها . لم يتخلص فقط ، بل نظف .. نعم . لقد بدا له انه اغتسل من نوع من القذارة .. وفكر بسيمون . كلا ، لقد انتهى الأمر ، انتهى : لقد انقطعت الحبال فلماذا يعيد عقدها ؟

وأراح السماعة بهدوء على منتصف الطاولة وتراجع خطوة . وسمع في الجهاز

نوعاً من التشنج .. من ضجة لاهثة ، شاهقة تشبه الحشرجـــة .. كان الأمر فظيعاً .. لا يهم ! يجب ألا يعيد الاتصال بأي ثمن .

ولكن بدلاً من العودة إلى مكتبه ، ذهب يقفل باب الرواق بالمفتاح ، وعاد نحو اريكته ؛ وأولع سيكارة ، وبعد نظرة أخيرة إلى الطاولة ، حيث كانت الساعة صامتة ومضطجعة ، مشوهة ، لامعة ، شبيهة بحشرة زاحفة ميتة ، تمدد بتثاقل بين الوسائد .

أمام مدخنة غرفة العمل ، كان السيد شاسل وحده مع ستودلر ، سعيداً لاستطاعته الكلام بدوره ،ولوجود من يصغي اليه ، فكان يحاول بهذره الرديء التنبؤي أن يعطي مستمعه بعض الايضاحات عن تجارته .

ــ الأشياء الجديدة ، والأهواء ، والمبتكرات الصغيرة .. دائماً أشياءجديدة هذا هو شعارنا .. مـــاذا ؟ .. سوف أرسل اليك مجلة « جمعية الباحثين » .. سترى . لقد اتخذنا ترتيبات جانبية .. هذا ما يلزم مع هذه الحرب .. سيتغير الاتجاه .. الدفاع الوطني .. كلٌ في كرته .. ماذا ؟ (كان يستفهم دون انقطاع وبطريقة قلقة ، كأنه لم يسمع جيداً سؤالاً ضرورياً) . – وتابع على الأثر : ــ يأتينا المبتكرون بأشياء مؤثرة . لم يكن بودي ان افشي ذلك .. ولكن هذا مثلاً ، استطيع القول : مصفاة لماء المستنقعات والأمطار يسهل حملها .. ثمينـة في الريف .. كل الابخرة الرديئة التي تقتل الجهاز العضوي لجندي – وضحك ضحكة صغيرة راضية : – والأكثر تأثيراً أيضاً : جهاز آلي لتصويب المدفـع مجهز بمحرك للانطلاق .. لاجل الجنود المشاة ذوي النظر الضعيف . أو حتى رجال المدفعية ..

أما روا الذي كان منذ لحظة يسمع من مكانه هذه الأقوال غير المتلاحمـــة فقد نهض :

ــ آلياً ؟ كيف ؟

فقال شاسل متباهياً :

– بالضبط . وهنا الروعة .

– ولكن أيضاً ؟ كيف يعمل هذا ؟

فأتى شاسل بحركة قاطعة :

– من تلقاء نفسه .

وكان جاك وجوسلان لا يزالان واقفين في نفس المكان، في زاوية المكتبة يتحدثان بصوت منخفض . وكان جاك يقول وقد قطعت جبهته ثنية غضب :

– الأكثر إثارة للغضب هو التفكير بان يوماً سيأتي حتماً، وربما في وقت قريب جداً ، لا يمكن أن يكون فيه لحكايات الخدمة العسكرية هذه ، وأمم تحت الاعلام ، صفة عقيدة ذات واجب مقدس لا جدال فيه ! يوم يبدو فيه بعيداً عن العقل أن سلطة اجتماعية استطاعت أن تدعي الحق بقتل انسان رمياً بالرصاص لأنه رفض أن يحمل السلاح .. تماماً كما يبدو لنا مما لا يتصوره عقل ان الوفاً من الرجال في اوروبا حوكموا وتعرضوا للعذاب بسبب معتقداتهم الدينية ..

فهتف روا : اسمع .

والتقط عن المكتب صحيفة اليوم وأجال نظره فيها بهيئة متجردة وقرأ بشكل هزلي ، وبصوت مرتفع واضح :

– « عائلة صغيرة مع ولد ترغب في استئجار بيت صغير هادىء ، لمدة ثلاثة أشهر ، مع حديقة بقرب نهر فيه سمك ، وتفضل النورماندي وبورغونيا . اكتبوا إلى : ٣٤١٨ ، مكتب الجريدة ! »

ورنت ضحكته بوضوح . بالحقيقة ، فقد كان هو الوحيد اليوم ، الذي لا يزال يعرف ان يضحك . وتمتم جاك :

– مسرور كتلميذ مدرسة على وشك أن ينال عطلته .

فأصلح جوسلان :

– مسرور كبطل حقيقي . حين لا يكون سرور لا تكون بطولة ؛ لا يكون سوى شجاعة .

وكان السيد شاسل قد سحب ساعته . وكما كان يفعل دائماً قبل أن يستشير الساعة ، أخذ يصغي إلى « البهيمة الصغيرة » لحظة ، بنظرة ثابتة لطبيب يستمع إلى قلب مريض . ثم أعلن وهو يرفع حاجبيه فوق نظارتيه :

— الساعة الواحدة والدقيقة السابعة والثلاثون .

فارتجف جاك . وقال وهو يشد على يد جوسلان :

لقد تأخرت . سأذهب دون أن انتظر اخي .

وكان انطوان متمدداً على اريكته . فعرف في الدهليز صوت جاك الذي كان ليون يوصله نحو الدرج . ففتح الباب بسرعة :

— جاك اسمع .

وجاء جاك نحوه مندهشاً :

أذاهب أنت ؟

— نعم . .

فقال انطوان بصوت مضطرب ، وهو يلمس ذراعه :

— أدخل دقيقة .

كان جاك قد أتى شارع الجامعة راغباً في اجراء حديث مع أخيه لوحدهما . كان بوده ان يخبره بماذا استعمل ثروته ، لأنه لم يكن يرضى أن يبدو متستراً من انطوان . وقال لنفسه أيضاً : « ربما أكلمه عن جني .. » ومع أن الوقت يضغط عليه فقد رضي عن طيبة خاطر بهذه المقابلة ودخل إلى المكتب الصغير :

وأغلق انطوان الباب وقال دون أن يجلس :

— اسمع . لنتكلم جدياً يا صغيري . ماذا تنوي أن تفعل ، أنت ؟

فتظاهر جاك بالدهشة ولم يجب .

— كنت مسرّحاً من الجندية . ولكن في حالة التعبئة فسيعاد النظر بجميع المسرحين ، وسيرسل الجميع إلى خط النار . فماذا تنوي أن تفعل ؟

فلم يستطع جاك التملص وقال :

ـ لاأعرف شيئاً بعد. انا في الوقت الحاضر بمنجى من مخالبهم بصورة قانونية : لا يستطيعون شيئاً ضدي ـ وأضاف بنشوفة أمام نظر أخيه الملحاح : ـ إن ما استطيع قوله لك هو انني أقطع يدي الاثنتين أفضل من أن أدعهم يجندونني .

فلفت انطوان عينيه لحظة :

ـ انه الموقف الاكثر ..

ـ .. الأكثر جبناً ؟

فقال انطوان بمحبة :

ـ كلا . لم أفكر بهذا . ولكن ربما كان الموقف الأكثر انانية . وبما ان جاك لم يتحرك فقد تابع : ـ الا تظن ؟ .. في لحظة كهذه ، إن رفض الخدمة العسكرية يعني تقديم المصلحة الشخصية على المصلحة العامة ؟

فأجاب جاك بسرعة :

ـ على المصلحة **الوطنية** . فالمصلحة العامة ، مصلحة جماهير الشعب ، هي في السلم كما هو ظاهر ، وليس في الحرب .

فأتى انطوان بحركة مراوغة ، كأنه يريد أن يبعد عن الحديث كل جدال نظري . ولكن جاك قال ملحاً :

ـ انا الذي أخدم المصلحة العامة ـ برفضي ! وأشعر جيداً ، أشعر بطريقة أكيدة ، ان ما يرفض فيّ اليوم هو الأفضل .

فكبح انطوان حركة ملل .

ـ فكر .. أية نتيجة عملية يمكنك أن تأمل من هذا الرفض ؟ ولا واحدة ! حين تتجند البلاد كلها ، حين ترضى الأكثرية الساحقة ـ كما سيكون الأمر ـ بواجب الدفاع الوطني فهل هناك أكثر بطلاناً وعرضةً للاخفاق من عمل عصياني منفرد ؟

لقد ظلت النبرة متزنة ومحبة تأثر منها جاك . فنظر الى اخيه بكثير من الهدوء ورسم ايضاً ابتسامة حبية :

– لماذا العودة الى ذلك يا كبيري . انت تعرف تفكيري جيداً، لن ارضى ابداً باستطاعة حكومة ان تجبرني على المساهمة في مجازفة اعتبرها جريمة، خيانة للحقيقة ، والعدالة، والتعاضد البشري ... في رأيي ، ليست البطولة في جانب روا : ليست البطولة في حمل بندقية والركض الى الحدود ! ان غسل الاقذار والسير الى المشنقة افضل من الاشتراك بهذا الذنب ... تضحيةوهمية ؟ من يدري ان انقياد الجماهير هو الذي جعل ويجعل الحروب ممكنة ... تضحية منفردة ؟ لا يهم .. اذا كان الذين يملكون الجرأة على قول« لا » هم القلة ، فماذا باستطاعتي ان افعل ؟ ببساطة ، ربما كان ذلك ... – وتردد – لأن نوعاً من قوة الروح لا تركض في الشوارع ...

كان انطوان يستمع واقفاً ، جامداً بشكل غريب . وقد بعث الاهتزاز في خط حاجبيه حركة لا تكاد تُرى . كان يتفرس بأخيه ويتنفس بنفخات صغيرة كالنائم . وقال اخيراً بلطف :

– لا أنكر انه يلزم قوة اخلاقية مألوفة قليلاً ليتمرد المرء ، وحيداً أو شبه وحيد ، على قرار التجنيد . ولكنها قوة ضائعة .. قوة ستتحطم بغباوة على جدار ! والرجل المقتنع الذي يرفض الحرب ، ويُقتل رمياً بالرصاص بسبب اعتقاده ، فاني امنحه كل عطفي ، كل شفقتي .. ولكني احسبه حالماً لا نفع منه .. وأعتبره على خطأ .

فاكتفى جاك بفصل ذراعيه قليلاً كما فعل قبلاً حين قال : « ماذا باستطاعتي ان أفعل ؟ » .

وتأمله انطوان لحظة وهو صامت . ولم ييأس ، فقال :

– الوقائع هنا وتستعجلنا . وغداً،فان خطورة الحوادث – الحوادث التي لا تتوقف على احد – يمكن ان تجبر الدولة على التصرف بنا . أتعتقد حقيقة انها الساعة الملائمة لنا لنفحص اذا كانت المضايقات التي تفرضها علينا بلادنا تتلاءم مع آرائنا الشخصية ؟ كلا ! المسؤولون يقررون ، والمسؤولون يقودون..

في مصلحتي ، حين آمر بضرورة اجراء معالجة أعتقد أنها ملائمة ، فاني لا أقبل المناقشة بها ...

ورفع يده نحو جبهته ، ووضع أصابعه على جفونه برهة ، قبل أن يكمل بجهد :

– فكـّر يا صغيري ... الأمر لا يتعلق باستصواب الحرب – أتظن أنني أستصوبها ؟ – انه يتعلق بتحملها . وبتمرد إذا كان مزاجنا هكذا ؛ ولكنه تمرد داخلي يعرف الشعور بالواجب كيف يكبحه . والمساومة على مؤازرتنا في لحظة الخطر تعني خيانة الوحدة ... نعم ، هنـــا تكون الخيانة الحقيقية ، الجريمة ضد الآخرين ، فقدان التعاضد ... اني لا أقصد أن نُمنع من حق مناقشة القرارات التي تتخذها الحكومة . ولكن فيما بعد . بعد أن نطيـع .

ورسم جاك ابتسامة جديدة :

– وأنا ، كما ترى ، أقصد أن الفرد هو حر في أن لا يبـــالي كلياً بالمزاعم الوطنية التي تعلن الدول الحرب باسمها ، اني انكر على الدولة الحق في اغتصاب ضمائر الناس لأي سبب كان ... اني أشمئز من استعمال هذه الكلمات الكبيرة دائماً . ومع ذلك فهذا جيد : انه ضميري الذي يتكلم في داخلي بصوت أكثر ارتفاعاً من جميع البينات الانتهازية كبيناتك ، وهو أيضاً الذي يتكلم بصوت اكثر ارتفاعاً من قوانينكم .. والطريقة الوحيدة لمنع العنف من أن ينظم مصير العالم هي الامتناع عن كل عنف ! اني اعتبر أن رفض القتـــل هو علامة سموٍ اخلاقي ، جديرة بالاحترام . واذا كانت قوانينكم وقضاتكم لا يحترمونها فليذهبوا الى الشيطان : سيكون عليهم حساب يؤدونه في وقت قريب أم بعيد .

فقال انطوان منزعجاً وقد رأى الحديث ينحرف من جديـد نحو أفكار عامة . وقال مصالباً ذراعيه :

– ليكن ، ليكن . ولكن عملياً ، ماذا ؟

وتقدم نحو اخيه ، وباحدى تلك الحركات العفوية التي كانت نادرة بينهما ، امسك كتفيه بكلتا يديه بحنان :

– أجبني يا صفيري .. التجنيد غداً : ماذا ستفعل ؟

فتخلص جاك بدون ملل ، ولكن بعزم :

– سأستمر في الكفاح ضد الحرب ! حتى النهاية ! بجميع الوسائل، جميعها ! بما في ذلك التخريب الثوري إذا لزم الأمر .

وخفض صوته رغماً عنه . وتوقف متضايقاً ، وتابع بعد صمت قصير :

– أقول هذا .. لا أدري .. ولكن هناك أمر أكيد يا انطوان ، أكيد جداً: أنا ، جندي ؟ أبداً ..

وبذل جهده ليبتسم مرة أخيرة ، واتى باشارة وداع مقتضبة وبلغ الباب دون أن يحاول أخوه إبقاءه .

٦٢

جاك وجد جني في بيتها ، وحيدة مرتدية ملابسها ، مستعدة للخروج ، وقسماتها تعبة ، في حالة من الحمى القصوى . لم تتلق أي خبر من والدتها ؛ ولا أية رسالة من دانيال . وقد تاهت في الظنون . وأخبار الصحف أرعبتها. وفضلاً عن ذلك فقد تأخر جاك : واستولت عليها ذكرى شرطة مونتروج وخيل اليها إن شيئاً قد حدث له . وقد القت نفسها بين ذراعيه دون أن تستطيع لفظ كلمة . وقال :

– حاولت الاستعلام عن وضعية الأجانب الموجودين في النمسا .. الخداع لا يفيد : فهناك حالة طوارىء . ولا شك أن الرعايا الألمان لا يزال باستطاعتهم العودة إلى بلدهم ؛ وربما الايطاليون أيضاً ، مع ان العلاقات بين ايطاليا والنمسا متوترة جداً . ولكن الفرنسيين والانكليز والروس .. إذا كانت والدتك لم تترك فيينا منذ عدة أيام – وتكون قد وصلت إلى هنا – يكون قد فات الأوان . ومن المحتمل انها ستصبح ممنوعة من السفر .

– ممنوعة ؟ كيف ؟ موضوعة في السجن ؟

– ولكن كلا ! ببساطة ، سيرفضون السماح لها بركوب القطار .. ربما

طوال أسبوع أو اسبوعين : الوقت الذي تقرر فيه الحوادث ؛ الوقت الذي تتخذ فيه ترتيبات دولية .

ولم تجب جني. كان وجود جاك يكفي لانقاذها من عذاب مخيلتها. فالتصقت به مستسلمة دون تحفظ لتلك القبلة العميقة التي كانت تنتظر عودتها منذ البارحة. وحين تخلصت أخيراً فلكي تتمتم :

– لا أريد البقاء وحدي يا جاك .. خذني .. لا أريد أن اتركك .

وسارا على الأقدام باتجاه لوكسمبورج . وقال :

– سنركب قطاراً كهربائياً على مفترق مديسيس .

ورغم الوقت ، فإن الحديقة الكبرى كانت في هذا النهار فارغة تقريباً . وكانت نسمة متقطعة تبعث الحفيف في رؤوس الأشجار . ورائحة قرنفل الهند الثقيلة تتصاعد من الأقسام المخصصة للزهور. وهناك زوجان منعزلان على مقعد على حاشية الحديقة ، لم يكن وجهاهما يظهران لأن الرجل والمرأة كانا منحنيين الواحد نحو الآخر ، ويبدو انهما يملآن الفضاء بهزة غرامية .

ومن الناحية الاخرى من الحاجز وجدا المدينة من جديد ، المدينة المحمومة المنحنية تحت التهديد والتي تبدو ضوضاؤها كصدى للأخبار الرهيبة التي كان يجري تبادلها من طرف اوروبا إلى الطرف الآخر ، في هذه الفترة الجميلة من بعد ظهر يوم صائف . وفي مدى يومين فأن باريس العطلات قد احتشدت فجأة بالسكان من جديد . وهناك باعة صحف كانوا يجتازون مفترق الطرق منادين على طبعات خاصة . وبينما كان جاك وجني ينتظران القطار الكهربائي فإن عربة (اوتوبيس) محطة يجرّها حصانان ، مرت أمامهما . وكان يتكدس في داخلها أهل وأولاد وخادمات ؛ وعلى السطح بين الامتعة المكومة كانت تميز عربة طفل وشباك لصيد الإربيان (القريدس) ، ومظلة .

وتمتم جاك :

– عنيدون يقتحمون القدر .

شارع سوفلو ، جادة سان ميشال، شارع مديسيس . كانت حركة السير غير

منقطعة . الا انها لم تكن باريس أيام العمل والمثابرة ، ولا باريس العابثة نهار الأحد في الشمس . لقد كانت منملة مضطربة . وكان جميع أولئك المارة يسيرون بسرعة كأنهم متعجلون ؛ ولكن هيئتهم الذاهلة ، وترددهم في الانحراف إلى الشمال وإلى اليمين ، كانا يدلان على أن معظمهم لم يكونوا ذاهبين إلى مكان : غير قادرين على البقاء وحدهم تجاه أنفسهم – وتجاه العالم – فتركوا مساكنهم وأشغالهم دون هدف آخر سوى الهرب ، ليستطيعوا للحظة أن يكلوا أثقال نفوسهم إلى تلك الموجة من القلق الاخوي التي ينقلها الشارع .

ظلت جني كل فترة ما بعد الظهر صامتة ، قريبة كالظل ، تتبع جاك من الحي اللاتيني إلى الباتينيول ، ومن لاغلاسيير إلى الباستيل ، ومن رصيف برسي إلى شاتو – دو . في كل مكان ، كانت تعد نفس الأخبار ، نفس التعليقات ، نفس الوجوم ؛ وفي كل مكان نفس الأكتاف المنحنية ، ونفس الخضوع .

وفي كل مرة حين يصبحان وحيدين ، تأخذ جني بالكلام عن نفسها أو عن الطقس بشكل طبيعي جداً : « لقد اخطأت بارتداء الخمار . لنقطع الطريق ولنر دكان الزهور تلك .. لقد هبطت الحرارة العظيمة ؛ أتشعر ؟ بدأنا نتنفس » . وهذه العبارات الساذجة التي كانت تضع على صعيد واحد عرض بضاعة بائع زهور ، والمشاكل الأوروبية ، ودرجة الحرارة ، كانت تزعج جاك قليلاً . وكان آنذاك يلقي على الفتاة نظرة لامبالية وثقيلة حيث كانت نارها الداكنة المنعزلة تخيفها . وأحياناً أيضاً كان يلفت رأسه . وقد رق قلبه وتساءل : « هل لي الحق أن اشبكها بكل هذا ؟ » .

في أروقة المركز العام للشغل فاجأ نظرة فضولية رصينة القاها أحد الرفاق صدفة على جني . وفجأة ، بدت له كما كانت هنـــاك ، على سطح ذلك الدرج المليء بالغبار ، بين أولئك العمال ، بثوبها الجيد ، وخمارها (الكريب) ، وعلى وقار وجهها شيء لا يمكن تحديده ولا يعرفه : الاثر ، الطابع لوسط اجتماعي . فشعر من ذلك بالقلق وقادها إلى الخارج .

ودقت الساعة السابعة . ووصلا من الشوارع الى حي البورصة .

وكانت جني تعبة . فقوة الحياة تلك التي كانت تنبثق من جاك – والتي استولت عليها – قد استنفدت قواها ايضاً . وتذكرت انها شعرت بقربه في السابق، في ميزون لافيت ، بهذا الاحساس بالتعب والاعياء، بسبب ذلك التوتر المستمر الذي بدا انه يتطلبه من الغير ويفرضه تقريباً بصوته ، بنظره المستأثر ، بوثبات تفكيره العنيفة .

وحين اقتربا من صحيفة « الانسانية » التقى بهما كاديو راكضاً ، وصاح :

– قضي الامر هذه المرة . المانيا تجند ! وروسيا بلغت نهاياتها !

فرفع جاك جسمه ، ولكن كاديو اصبح بعيداً .

– يجب ان اعلم . انتظريني هنا . (وتردد في ادخال الفتاة معه الى مكاتب الصحيفة).

فاجتازت الطريق ، وظلت على الرصيف تمشي المئة خطوة . وهناك اناس كنحل القفير لم ينقطعوا عن الدخول والخروج من باب البناية الذي اختفى فيه جاك .

وعاد بعد نصف ساعة . وكان وجهه مضطرباً .

- هذا شيء رسمي. لقد جاء الخبر من المانيا . وقد رأيت غروسيه ،وسامبا وفايان ورينوديل . كلهم فوق ينتظرون التفاصيل . وكاديو ومارك ليفوار يروحان ويجيئان بين الكه دورسي والصحيفة . وامام تسارع الاستعدادات الحربية الروسية ، فان المانيا اعلنت التعبئة ... هل هي تعبئة حقيقية ؟ جوريس يؤكد ان لا . هذا ما يسمونه بالالمانية (كريغسجيفاروستاند[1]) حالة متوقعة في دستورهم كما يبدو . وجوريس والمعجم بيده ترجمها ترجمة حرفية : « حالة خطر الحرب ... حالة تهديد بالحرب » ان المعلم مدهش : فهو يرفض اليأس ! ولا يزال تحت شعور الثقة الذي حمله من بروكسل ، من محادثاته مع هاز

---

[1] Kriegsgefahrzustand : حالة خطر حرب .

والاشتراكيين الألمان . وهو يردد : « مادام هؤلاء معنا فلم نخسر شيئاً ! »

وأمسك بمرفق جني ، وسار بها بخطى سريعة ، الى غير وجهة . ودارا عدة مرات حول مجموعة من البيوت . وسألت جني :

– ماذا ستفعل فرنسا ؟

– يبدو ان مجلس الحرب قد اجتمع فوراً في الساعة الرابعة . وهناك بلاغ رسمي يعترف ان المجلس نظر في **الاحتياطات اللازمة لحماية حدودنا** . ووكالة هافاس تعلن هذا المساء إن جيوشنا قد اتخذت أماكنها الأمامية ! ولكن يقال من ناحية اخرى ، إن هيئة أركان الحرب ، لتتجنب تقديم ذريعة قتال للعدو ، تفكر بترك منطقة غير محتلة على طول الحدود ، تتألف من بضعة كيلومترات وفي هذه اللحظة فان سفير المانيا يجري محادثات مع فيفياني .. وغالو الذي يعرف القضايا الألمانية جيداً هو متشائم جداً . ويقول أنه لا يجب نسج الأوهام حول الصيغة . وإن « حالة خطر الحرب » هي طريقة خفية للتعبئة قبل صدور القرار الرسمي بذلك .. وعلى كل حال فالمانيا في الساعة الحالية تحت الحكم العرفي : الأمر الذي يعني ان الصحافة مكمومة الفم ، وإن كل مظاهرة ضد الحرب أصبحت مستحيلة هناك الآن .. وهذا في نظري هو الأكثر خطورة : لا يمكن ان يأتي الخلاص إلا من انتفاضة شعبية . ومقابل ذلك فإن ستيفاني يصر على تفاؤله كجوريس ، ويقولان ان القيصر الالماني ، باختياره هذا التدبير الأولي بدلاً من اصدار قرار التعبئة ، قد برهن على أنه لا يزال يحاول انقاذ السلام. وبعد ، فهذا محتمل. والمانيا تترك بذلك لحكومة بطرسبورج الامكانية الاخيرة للقيام بحركة مصالحة ، وربما بالغاء أمر التعبئة الروسية . ويبدو منذ البارحة ان هناك تبادل برقيات شخصية لم تنقطع بين القيصر الالماني والقيصر الروسي .. وفي اللحظة التي تركت فيها ستيفاني ، دعي جوريس من بروكس على الهاتف ، وبدا الجميع انهم يأملون باستلام رسالة هامة .. ولم أبق ، بل أردت أن أرى ما حلّ بك .

فقالت جني بقوة :

ـ لا تهتم بي ، عد بسرعة إلى فوق . انا بانتظارك .
ـ هنا ؟ واقفة في الشارع ؟ كلا . تعالي على الأقل وأجلسي في مقهى « التقدم » .

وسارا بسرعة نحو شارع سانتيه .

وقال صوت غير رنان : صباح الخير .

فالتفتت جني وشاهدت وراءها عجوزاً كل آلام المسيح على وجهه ، مشعث الشعر ، يرتدي بلوزة الطبّاع السوداء . انه مورلان .

وقال جاك حالاً :

ـ المانيا تعلن التعبئة .

ـ أعلم ذلك . الأمر شائع ـ وسعل ـ لا يمكن عمل شيء . ليس هناك ما يمكن عمله ! ولن يكون هناك ما يمكن عمله ، من الآن حتى وقت طويل ! كل شيء يجب أن يُهدم . كل مدنيتنا يجب ان تختفي ليستطاع بناء شيء نظيف !

وساد صمت . وسأل مورلان :

ـ هل انتما ذاهبان إلى مقهى التقدم ؟ وأنا أيضاً .

وساروا بضع خطوات دون تبادل أية كلمة . وقال الطباع العجوز :

ـ هل فكرت بما قلته لك هذا الصباح ؟ ألا ترحل ؟

ـ بعد .

ـ أنت وشأنك ـ وتردد : ـ أنا آت من « الاتحاد » .

وألقى على الفتاة نظرة متفحصة ، وأثبت على جاك نظراً ملحاً :

ـ لدي كلمتان أقولهما لك .

فقال جاك : تكلم .

ووضع يده على ساعد جني وقال موضحاً :

ـ تكلم بحرية ، كما بين أصدقاء .

فقال مورلان : حسناً .

وأسند اصبعين مكنبّين على كتف جاك ، وقال خافضاً صوته :

– معلومات جديدة : لقد وقع وزير الحربيـــة اليوم أمراً بتوقيف جميع المشبوهين المسجلين في الدفتر ب .

فقال جاك : آه !

وهز العجوز رأسه مؤكداً وصفر بين أسنانه :

– انذار لمن يهمه الأمر .

ولاحظ ان جني أصبحت كثيرة الشحوب وصارت تتفحصه برعب . فابتسم لها :

- هدوءاً يا بنيتي الجميلة .. هذا لا يعني انهم سيسمروننا جميعاً إلى الحائط هذا المساء .. ولكن الأمر يصدر في كل مناسبة ، ويوم يروق لهم أن يضعونا في الظلام لينظموا حربهم الكبرى بكل طمأنينة ،فما عليهم إلا تنفيذ الأمر بواسطة فرقهم الخاصة .. « الصيصان [1] » يشتغلون الآن في الضاحيـــة . ويبدو أنهم فتشوا « العلم الأحمر » وفي « الكفاح ».وكاد يُقبض على ابزاكوفيتش هذا الصباح في فخ ، في بوتو. أما فوزيه Fuzet فقد قبض عليه.لقد اتهم بانه كاتب « الأيدي الدامية » كما تعلم وهو بيان ضد هيئة أركان الجيش .. أنهم يبذلون جهدهم ، ويجب انتظار ذلك يا صغيريّ .

ودخلوا إلى المقهى . وأجلس جاك الفتاة في القاعة السفلى حيث لا يوجد أحد تقريباً ، واقترح على الطباع :

ـ خذ شيئاً معنا .

فرفع مورلان يده نحو السقف :

– كلا . سأصعد لحظة لأتنشق الهواء .. أنهم يتفوهون بالحماقات ، فوق ، منذ الصباح .. تمتعا .ـ وشد على يد جـاك وتمتم مرة اخيرة : – صدقني ياغلام وارحل .

وقبل أن يبتعد شمل الاثنين بابتسامة صداقة غير منتظرة . وسمعا خطواته

---

١ – يقصد رجال الشرطة .

الرنانة تهز الدرج الصغير الحلزوني .

وسألت جني بقلق :

– أين ستنام هذا المساء ؟ ليس في ذلك الفندق الذي أخذوا عنوانه البارحة .

فقال باهمال :

ـ اوه ! لست متأكداً بانهم اكسبوني شرفاً بوضع اسمي على اللوائح السوداء ـ وأضاف وقد رأى نظرتها القلقة : ومع ذلك فكوني مطمئنة ، ليس في نيتي ان أعاود الظهور عند ليبير . وقد وضعت حقيبتي هـذا الصباح عند مورلان . أما التي تعرضّ للخطر ، والتي يمكن أن تكون معي ، فهي في تلك الرزمة التي تركتها عندك .

فقالت وهي تنظر اليه :

– نعم . في البيت ، لا تخشى شيئاً .

وكان قد ظل واقفاً ، وطلب الشاي ولكنه لم يصبر إلى أن يؤتى بـــه إلى جني .

– أأنت بخير ؟ انا عائد إلى صحيفة « الانسانية » . لا تتحركي من هنا .

فقالت بصوت متضايق :

– هل تعود ؟

فقد استولى عليها الخوف فجأة . وخفضت عينيهـــا لكي لا يرى بؤسها . وشعرت بيد جاك على يدها . لقد جعلها هــذا اللوم الصامت تحمر خجلاً . وقالت :

– اني امزح .. اذهب ؟ لا تهتم بي .

وظلت وحدها ، وشربت بضع جرعات من الشاي الذي جيء لهـــا به . شراب مر يُشتمُّ منه طعم البابونج ؛ ثم ابعدت فنجانها وأتكأت بمرفقيها على الرخام البارد .

من فرجة الباب المفتوح على مصراعيه كان يدخل مع ضجيج الشارع نور

نهار يبهر العيون ويحـــدث التماعاً في المرايا والرفوف الزجاجية ، والقضبان النحاسية ، وخشب طاولة البائع . وبين كل هذه الانعكاسات ، كان عامل المقهى وراء الطاولة ، وفي خرير صنبور ، يغسل الزجاجات . وهناك صحف ملقاة على المناضد . وكانت جني تنظر حولها ، دون أن تفكر بشيء . ومر الوقت . وفي دماغها المنهوك مزعجات صبيانية ، أو افكار قاتمـــة ومخاوف مفاجئة كانت تطوف كالأشباح . فسعت لتركيز انتباهها على هر رمادي ينام متكوماً بقربها على المقعد الصغير ، أكان هذا الهر نائماً ؟ كانت عيناه مطبقتين ، ولكن الاذنين متحركتان . كان له على الخصوص هيئة متشنجة بسبب إرادة النوم . هل كان، هو، أيضاً يقاسي هذا الذعر الغامض الذي يحوم ؟ كان لطرف أقدامه المنحنية ذلك الاستسلام الناعم الذي يبدو مصطنعاً ، أكان ينام ؟ أم انه يتظاهربالنوم؟ ليخدع من ؟ ربمـــا يخدع نفسه ؟ وبدأ المساء بالهبوط . وبين وقت وآخر كان رجال وعمال يدخلون ويتبادلون مع صاحب المقهى نظرة متواطئة ، ويجتازون القاعة ويصعدون إلى الطبقة العليا (الانترسول) ؛ وحين يفتحون باب الطابق كانت تمتزج دفعة من الجلب وضجيج المناقشات بالضوضاء في الخارج .

- ها أنذا .

فارتجفت . ولم تره وهو يدخل .

وجلس بقربها . كان العرق يتلألأ على جبهته . وبحركة عنيفة من رأسه ألقى ذؤابته إلى الوراء وجفف وجهه . وقال بصوت منخفض :

- خبر جيد ، جيد جداً في كل هذه البلبلة . كانت رنة الهاتف رسالة من الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان آتية بطريق بروكسل . انهم لم يتخلوا عـن الكفاح؛بالعكس : جوريس على حق ؛ فهؤلاء الناس اخوان ، وهم لم يتقهقروا ! انهم هناك تنتابهم نفس المخاوف مثلنا . وهم يحرصون أكثر من أي شيء على المحافظة على الاتصال وذلك ليصبح العمل بالتعاون ممكناً . ولكن الاتصالات بيننا وبينهم ستصبح صعبة جداً بوجود حالة الأحكام العرفية . ولهذا سيرسلون الينا بطريق بلجيكا مفوضاً ، هو هرمان مولر ، ويجب أن يصل إلى هنا غداً ،

مجهزاً دون شك بصلاحيات واسعة . والمعتقد انه جاء يتفاهم مع الاشتراكيين الفرنسيين في سبيل عمل ٍ آني واسع النطاق ضد قوى الحرب . اتفهمين ؟ جميع الآمال في صحيفة « الانسانية » تتركز على هذه المهمة غير المأمولة ، على هذا اللقاء الرفيع غداً بين جوريس ومولر . لقاء البروليتاريين ! ومما لا شك فيه أن قرارات حاسمة سوف تتخذ بينهما ؛ ويرى ستيفاني إن الأمر لن يكون أقل من تنظيم انتفاضة كبيرة للطبقة العاملة في كلا البلدين . ولا يزال الوقت متسعاً ! ولم يفت الأوان . لا يزال النجاح ممكناً بواسطة الاضراب العام .

كان يتكلم بسرعة ، بنبرة مهتزة كانت حُماها معدية :

– لقد عزم المعلم على أن ينشر غداً مقالاً رهيباً .. على غرار « انا أتهم » لزولا !

ورأى ، في استفهام النظرة المبهم ، إن هذه المقارنة – التي لم تكن منه بل من باجيس أمين سر غالو – لم توقظ أية معلومات معينة في ذهن جني . وشعر بشكل عنيف ، وفي مدى بضع ثوان ، بكل ما لا يزال يفصلها عنه . وقالت بسذاجة :

– هل تكلمت مع جوريس ؟

ـ كلا ، ليس اليوم . ولكنني كنت على الدرج مع باجيس حين ترك جوريس الصحيفة . كان ، كما هو الأمر دائماً ، محاطاً بجماعة من الأصدقاء . وقد سمعته يقول لهم : « سوف اضع كل هذا في مقالي لنهار غد ، سترون ! سوف اشهر بجميع المسؤولين . أريد هذه المرة أن اقول كل ما اعرف ! » ولعمري فقد كان هذا الرجل العجيب يضحك ! نعم . كان يضحك . وله ضحكة خاصة به ، ضحكة جبار ، ضحكة جهيرة .. وبعد ذلك قال : « ولكن لنذهب أولاً ونتناول عشاءنا في أقرب مكان . ها ؟ عند البير .. »

فصمتت ونظرها منتبه . وتابع قائلاً :

– ايشوقك ان تريه عن قرب ؟ تعالي نأكل شيئاً في « الهلال » وسأريك اياه .. انا جائع . لنا الحق بتناول العشاء ، نحن أيضاً .

٦٣

كانت الساعـــة اكثر من التاسعة والنصف . وكان معظم الرواد قد تركوا المطعم . وجاك وجني جالسان إلى الناحية اليمنى حيث يوجد قليل من الناس.

كان جوريس واصدقاؤه يشكلون إلى شمال المدخل ، على موازاة شارع مونمارتر ، طاولة كبيرة ألفت من عدة طاولات وُضعت طرفاً إلى طرف .

وقال جاك :

ــ أترينه ؟ على المقعد هناك ، في الوسط ، مديراً ظهره إلى النافذة.انظري فقد دار ليتحدث إلى البير ، مدير المحل .

ــ لا يبدو أنه قلق .

تمتمت جني بذلك بنبرة دهشة سرّت جـاك ، فأمسك بمرفقها وضغط عليه بلطف .

ــ والآخرون ، اتعرفينهم ؟

ــ نعم . ذلك الذي إلى يمين جوريس هو فيليب لندريو ، وإلى شمـاله ،ذلك الضخم ، انه رينوديل . وقبالة رينوديل، فهو دوبراي ، وإلى جانب دوبراي، انه جان لونغيه .

ــ والمرأة ؟

ــ اظن انها مدام بواسون ، زوجة الرجـــل الموجود قبالة لندريو . وإلى جانبها اميديه ديبو ، وذلك الذي اتى ، ذلك الواقف بقرب الطاولة ، هو صديق لميغيل ألميريدا ، مساعد في « القلنسوة الحمراء » .. وقد نسيت ..

وقاطعته قرقعة مقتضبة ، وطلقة مسدس أعقبها على الأثر طلقة ثانيـــة ، وتحطيم زجاج ، وعلى الجدار في الداخل مرآة تطايرت شظايا .

برهة ذهول ، ثم ضوضاء شديدة . وقفت القاعة كلها والتفتت نحو المرآة المحطمة : « لقد اطلقت النارعلىالمرآة ! » ــ « من ؟ » ــ « من أين ! » « مـن

الشارع ! » وركض غلامان نحو الباب واندفعا إلى الخارج ، إلى حيث يتصاعد الصراخ .

ووقف جاك بدافع الغريزة ، وذراعه ممدود ليقي جني . وكان يبحث عن جوريس بعينيه . وشاهده لحظة : كان أصدقاء المعلم قد نهضوا حوله ؛ وهو وحده ظل جالساً في مكانه ، هادئاً جداً . ورآه جاك ينحني ببطء ليبحث عن شيء في الأرض . ثم لم يعد يراه .

في تلك اللحظة مرت مدام ألبير ، مديرة المحل ، أمام طاولة جاك وهي تركض . وكانت تصرخ :

– لقد اطلقوا النار على السيد جوريس .

فهمس جاك شاداً بيده على كتف جني ، وأجبرها على الجلوس :

– إبقي هنا .

وأسرع نحو طاولة المعلم حيث تتصاعد أصوات لاهثة : « طبيب بسرعة ! » – « الشرطة » . كانت حلقة من الناس واقفة متحركة تحيط باصدقاء جوريس وتمنع الاقتراب . فأشغل مرفقيه ودار حول الطاولة . وتوصل إلى بلوغ زاوية القاعة .

كان هناك جسد ممدد على المقعد المغطى بالمخمل ، يخبئ نصفه ظهر رينوديل الذي كان منحنياً . ونهض رينوديل ليلقي على الطاولة منشفة حمراء من الدم . وعندئذ شاهد جاك وجه جوريس ، والجبهة ، واللحية ، والفم المشقوق . يجب أن يكون مغمى عليه . كان شاحباً مطبق العينين .

وهناك رجل ، أحد الذين كانوا يتناولون العشاء – وهو طبيب دون شك – شق الحلقة . وبشيء من السلطة ، انتزع ربطة العنق ، وفتح الطوق ، وأخذ اليد المتدلية ، وجس النبض .

وسيطرت عدة أصوات على الجلبة : « الصمت ! اسكتوا ! » وكانت أنظار الجميع متجهة نحو ذلك الرجل المجهول الممسك بمعصم جوريس . لم يقل شيئاً . كان منحنياً إلى نصفين ، ولكنه كان يرفع نحو الافريز وجه عراف تطرف

جفونه. وبدون أن يغير الوضعية ، وبدون ان ينظر إلى أحد ، هز رأسه ببطء.

واجتاحت المقهى من الشارع أمواج من الفضوليين. ورن صوت السيد البير :

ـ اقفلوا الباب ! اقفلوا النوافذ ! وضعوا المزاليج !

واجبر الضغط جاك على التقهقر حتى وسط القاعة . ورفع بعض الأصدقاء الجسد وحملوه باعتناء ليضجعوه على طاولتين قُربتا من بعضهما البعض بعجلة . وحاول جاك أن يرى . ولكن الحشد حول الجريح أصبح اكثر كثافة . ولم يميز سوى زاوية من الرخام الأبيض ، ونعلين منتصبين مكسوين بالغبار ، ضخمين .

ـ دعوا الطبيب يمر .

لقد نجح اندريه رينول بالإتيان بالطبيب . ودخل الرجلان في الحشد حيث عادت الكتلة المطاطة وأقفلت وراءهما . وكانوا يتهامسون : « الدكتور : الدكتور ! .. »

ومضت دقيقة طويلة . واستتب صمت مطلق . ثم بدت رعشة تركض على جميع تلك الرقاب المنحنية . ورأى جاك اولئك الذين احتفظوا بقبعاتهم قد نزعوها . ومرت كلمتان من فم إلى فم ، رددتا بصوت خفي :

ـ لقد مات ! لقد مات !

وامتلأت عينا جاك بالدموع ، والتفت يبحث عن جني بنظره . كانت واقفة ، مستعدة للوثوب ، لا تنتظر سوى إشارة . ومشت بين الجمهور حتى وصلت اليه وتعلقت بذراعه دون أية كلمة .

وجاءت فرقة من شرطة المدينة تغزو المطعم وعملت على اخلاء القاعة . ووجد جاك وجني نفسيهما ، وكل منهما مشدود إلى صاحبه ، عالقين في هذه الدوامة ، مستاقين ، مدفوعين ، مجرورين نحو الباب .

وفي اللحظة التي كادا فيها يجتازانه ، فإن رجلاً كان يفاوض رجال الشرطة وقد نجح بالدخول إلى المقهى . فعرف جاك فيه أحد الاشتراكيين، أحد أصدقاء جوريس ، هنري فابر . وكان شاحب الوجه يقول متلجلجاً :

– أين هو ؟ هل نقل إلى عيادة ؟

فلم يجرؤ أحد على الجواب . وأشارت يد خجولة نحو داخل القاعة . وعندئذ التفت فابر : في منتصف فسحة فارغـــة ، كان النور الساطع ينير رزمة من الملابس السوداء ممدودة على الرخام ، كجثة في معرض الجثث .

وفي الخارج ارتجل نظام لتفريق الحشود التي تكدست أمام المبنى وسدت مفترق الطرق .

وجاك رأى جوملان وراب يتناقشان مع الشرطة . فاقتاد جني المتعلقة به ونجح في الوصول اليهما ، وكانا قد جاءا من الجريدة ولم يشاهدا شيئاً ، ومع ذلك فقد علم منهما كيف أطلق الرجل النار من الشارع عن قرب ، مـــن النافذة المفتوحة ، وكيف اوقفه بعض المارة بعد ملاحقة قصيرة .

– من هو ؟ اين هو ؟

– في مفوضية الشرطة في شارع دي ميل .

فقال جاك مقتاداً جني : تعالي .

واحتشد جمع أمام مركز الشرطة ، وعبثاً ابرز جاك بطاقته الصحفية : لا يسمحون بالدخول لأي كان .

وكادا يبتعدان حين خرج كاديو من مفوضية الشرطة يركض دون قبعة . فتلقفه جاك وهو مار . والتفت كاديو ، وقبل أن يعرف جاك (مع انـــه كان يتحدث معه منذ قليل أمام صحيفة « الانسانية ») تأمله لحظة بعين ذاهـــلة ، واخيراً تمتم :

– اهذا أنت يا تيبو ؟ هذا أول دم أهرق .. أول ضحية .. لمن الدور ؟

فسأل جاك : والقاتل !

– مجهول يدعى فيلان véllain وقد رأيته . شاب في الخامسة والعشرين من سنه تقريباً .

– ولكن ، لماذا جوريس ! لماذا !

– وطني متطرف دون شك ، مجنون .

وخلص مرفقه الذي كان جاك يمسك به وسار راكضاً :
وقال جاك : لنعد إلى هناك .
وحاولت جني السير بنفس خطوة جاك وهي متعلقة بذراعه ، صامتة ، متشددة . وانحنى قائلاً :
- انت تعبة .. لو أجلستك براحة في مكانٍ ما ؟ وسأعود لآخذك .
كانت مريضة من التأثر والعياء ؛ ولكن فكرة افتراقها في لحظة كهذه ... وبدون أن تجيب زادت من التصاقها به . ولم يلحّ ؛ هذا الفتور الحي إلى جانبه كان يساعده على النضال ضد يأسه ؛ أما هو فلم يكن يهتم بأن يكون لوحده .
وكان الليل ثقيلاً . وفسد الاسفلت . وكانت الطرق حول شارع مونمارتر سوداء بالمشاة . وانقطعت حركة السير . وعناقيد بشرية متعلقة في النوافذ . ومارّة لا يعرفون بعضهم البعض كانوا يقولون : « لقد قتل جوريس » !
ونجح حزام من الشرطة في أن يخلي المكان تقريباً أمام مقهى « الهلال » وحاول أن يبعد الأمواج الآتية من الجادات ، حيث انتشر الخبر بسرعة تيار كهربائي .
وحين وصل جاك وجني إلى مفترق الطرق ، فإن فصيلة من الحرس الجمهوري على الخيل جاءت من شارع سان مارك . وأخلت اولاً شارع النصر حتى البورصة ، ثم جاءت تنتشر في منتصف الساحة وسارت بضع دقائق سيراً خفيفاً لإرجاع الفضوليين إلى الوراء حتى البيوت . واستطاع جاك وجني ، على حساب الفوضى ، أن يصلا إلى الصف الأول - فهناك أناس محترسون هربوا من الشوارع الجانبية - . وكانت عيونهما مثبتة على واجهة المقهى الداكن الذي اسقطت مزاليجه الحديدية . وكانت الغرفة المنارة بكثرة تشاهد بين لحظة وأخرى من شق الباب الذي يحرسه الشرطة ، والذي لا يفتح ابداً إلا لذهاب وإياب الشرطة .
واجتازت الحاجز سيارة أجرة ، وعدة سيارات مقفلة عليها إشارات خاصة ، تتبع بعضها بعضاً . والذين نزلوا منها حياهم الضابط المتولي حفظ

النظام ، ودخلوا بسرعة إلى الملهى الذي أقفل بابه على الأثر . وكان رجال عارفون يتمتمون بأسماء : « مدير الشرطة ... الدكتور بول ... مدير شرطة السين ... نائب الجمهورية ... »

وأخيراً ، ومن شارع النصر ، فان عربة اسعاف كان جرسها يرن دون توقف ، تقدمت وفقاً لعدو جوادها الصغير . وساد شيء من الصمت ، ووضع رجال الشرطة العربة أمام مدخل « الهلال » ووثب أربعة ممرضين إلى الطريق ودخلوا إلى المطعم تاركين باب العربة الخلفي مفتوحاً .

ومرت عشر دقائق .

وكان الجمهور المهتاج يقرع الأرض بأرجله وهو في مكانه : « ماذا يفعلون في الداخل » ؟ « يجب اجراء التحقيقات » .

وفجأة ، شعر جاك بأصابع تتقلص على كمه . وفتح باب مقهى « الهلال » على مصراعيه . وصمت الجميع . وخرج السيد ألبير الى الرصيف . وبدا داخل المقهى مضاءً ككنيسة ، وهو يعج برجال الشرطة ذوي الملابس السوداء . ورآهم يتنحون ويشكلون صفاً ليفسحوا ممراً للمحفة . كانت مغطاة بغطاء مائدة. وكان يحملها أربعة رجال عراة الرؤوس . وعرف جاك الأشباح المألوفة : رينوديل ، لونغيه ، كومبير – موريل ، تيوبرتان .

وفي الساحة كشفت حالاً جميع الجباه . وانبجس صوت خجول من نافذة بناية : « الموت للقاتل ! » متصاعداً في الليل .

وببطء ، وبصمت يتيح تميز وقع أقدام الحاملين ، اجتاز النعش الأبيض العتبة ، وقطع الرصيف ، وتأرجح بضع ثوان ، واختفى دفعةً واحدة داخل العربة ، وصعد اليها رجلان على الأثر . وتسلق شرطي بجانب الحوذي . ثم سمعت جلبة الباب . وعندئذ ، وحين سار الجواد ، وسارت العربة المحاطة بفرقة من الشرطة راكبي الدراجات نحو البورصة وهي ترن جرسها ، فإن ضوضاء فجائية ، خافتة ومائجة ، غطت على رنين الجرس الضعيف ، مرتفعة دفعة واحدة من كل مكان ، عاتقةً اخيراً مئات من الصدور المكبوتة :

– يعيش جوريس ! يعيش جوريس ! يعيش جوريس !

وقال جاك :

– لنحاول الآن السير حتى صحيفة « الانسانية » .

ولكن الجمهور حولهما بدا انه ذو جـذور في الأرض . فقد ظلت العيون ملتفتة باصرار نحو غموض تلك الواجهة المظلمة التي تحرسها الشرطة .

وتمتم جاك : جوريس مات !

وردد بعد صمت :

– جوريس ، ميت ... لن اتوصل إلى تصديق ذلك ... وعلى الخصوص ، فلن أتوصل إلى تخيل النتائج ، إلى معرفة مقدارها ...

وانحلـّت الصفوف المتراصة شيئاً فشيئاً ، وأصبح الانتقال ممكناً .

– تعالي .

كيف يبلغان شارع الهلال ؟ لا فائدة من التفكير بشق الحاجز الذي كان يحرس مفترق الطرق ؛ وكذلك بلوغ الجادات الكبرى من شارع مونمارتر .

وقال جاك :

– لندر وراء الحاجز . شارع فايدو وممر فيفيان .

وخرجا بالجهد من الممر ، ومرّا بين حشود جادة مونمارتر حين قلبتهما دفعة لا تقاوم من الجمهور ، وجرّتهما .

وسقطا في وسط مظاهرة : صف من الوطنيين الفتيان يهزون الأعلام ويجأرون بنشيد المارسيلياز ، ويهبطون جـادة بواسونيير في خط مائل كان يشغل عرض الشارع كله ، ويردّون كل شيء امامهم .

– لتسقط المانيا ! الموت للقيصر الالماني ... الى برلين .

ورُفعت جني ، وأحست أنها فقدت توازنها ، وشعرت بأنهـا ستُنتزع من جاك ، وأنها ستداس ، فأطلقت صرخة ذعر . ولكنه لف ذراعه حول قامتها ، وضمها اليه بشدة ، وتوصل إلى حملها ، ودفعها حتى فرجـة باب كبير مقفل . وأعماها الغبار الذي أثارته أقدام قطيع أصمّته حـدة الصراخ والأناشيد ،

وأرعبتها تلك الوجوه العارية التي تلامس وجهها بنظرات مجانين . وشاهدت قبضة نحاسية في متناول يدها تقريباً ، فجمعت ما بقي لديها من نشاط ، وبذلت جهداً عنيفاً ، ومدت ذراعها وتعلّقت بتلك القبضة التي بدت لها انها الخلاص . ومرّ وقت شعرت فيه بالخور . وأطبقت عينيها ، ولكن أصابعها المتقلصة على القضيب النحاسي لم تتركه . وسمعت تجاه اذنها صوت جاك اللاهث الذي كان يردد : « تعلقي ... لا تخافي ... أنا ممسك بك » ...

ومضت بضع دقائق ، فبدا لها أن الضوضاء ابتعدت ، وفتحت عينيها ، ورأت جاك يبتسم لها . والموجة البشرية لا تزال تسيل على محاذاتها ، ولكن بسرعة أقل ، وبموجات متباعدة ، دون صراخ : فضوليون أكثر منهم متظاهرون، وكانت لا تزال ترتجف بكل أعضائها ولا تستطيع استعادة نفسها .

وتمتم جاك :

– تشجعي . ها أنت ترين أن الأمر انتهى .

ووضعت يدها على جبهتها ، وأصلحت قبعتها ، وأدركت أن خمارها ممزق ففكرت وهي طائشة : « ماذا أقول لأمي ؟ »

وقال جاك :

– لنحاول الخروج من هنا . أتشعرين بقدرتك على التقدم ؟

كان من الأفضل اتباع التيار والتملص بواسطة طريق جانبي . وأقلع عن الذهاب إلى صحيفة « الانسانية » ، ليس بدون غضب ، قصير الأمد ، لا إرادي ؛ ان عليه عبئاً هذا المساء ؛ كائن هش ، ثمين جداً ، قد أوكل امره اليه . لقد ادرك أن جني أصبحت على حدود مقاومتها العصبية ، ولم يكن له هم سوى اعادتها الى شارع الاوبسرفاتوار ، وتركته يسندها ويسير بها . لم تكن تقاوم ؛ ولم تكن تردد : « لا تهتم بي » ... بل بالعكس ، كانت تستند بكل ثقلها على ذراع جاك باستسلام يشي بدرجة عيائها رغماً عنها .

وبخطى صغيرة بلغا ساحة البورصة دون أن يلتقيا بسيارة أجرة . كانت

الأرصفة والطرقات قد اجتاحتها المشاة . وباريس كلها كانت تبدو في الخارج ، وفي قاعات السينما عُرض خبر الجريمة على الشاشة وسط التمثيل ، وفي كل مكان رفعت الجلسات وسط القلق . والناس الذين يمرون بها كانوا يتكلمون بصوت مرتفع ، وبالأمور نفسها . وقد التقط جاك نتفاً من الأحاديث : « محطة الشمال ومحطة الشرق يحتلها الجيش منذ هذا المساء » . - « ماذا ينتظرون ؟ لماذا لم تعلن التعبئة بعد » .. - « في الدرجة التي وصلنا اليها يلزمنا معجزة لكي » .. - « أنا أبرقت إلى شارلوت لتعود غداً مع الأولاد » . . . - « قلت لها : يا سيدتي ، لو كان لك ولد في الثانية والعشرين من سنه ربما لا تكلمينه هكذا » !

وكان المنادون على الصحف يتغلغلون بين الجماهير :

- **مقتل جوريس .**

ولم يكن يوجد أية عربة في ساحة البورصة .

وأجلس جاك جني على أعلى جدار الحاجز . وظل بقربها ، واقفاً ، منخفض الرأس . وتمتم من جديد :

- جوريس ، ميت .

وكان يفكر : « من سيستقبل المندوب الألماني غداً ؟ من سيدافع الآن عنا ؟ جوريس هو الوحيد الذي لم يكن يتطرق اليه اليأس ... الوحيد الذي لم تتوصل الحكومة إلى إسكاته ... ربما هو الوحيد الذي كان لا يزال باستطاعته أن يمنع التعبئة .

وكان أشخاص مستعجلون يدخلون الى مكتب البريد الذي كانت نوافذه المتألقة تنير الرصيف . لقد جاء قبلاً إلى هنا ليرسل البرقية إلى دانيال مساء انتحار فونتانان ، المساء الذي رأى فيه جني من جديد .. لم يمض خمسة عشر يوماً .

كانت الطبعات الخاصة على واجهة كشك الصحف ترفع عناوين مهددة : « كل اوروبا تحت السلاح ... الوضع يزداد خطورة من ساعة إلى أخرى ...

الوزراء يتذاكرون في الاليزيه لاتخاذ القرارات التي تقتضيها تدابير المانيا المحرضة .. »

ومر امامهما رجل ثمل وهو يترنح ، وقذف بصوت مخمور : « لتسقط الحرب ! » ولاحظ جاك انها المرة الأولى التي يسمع فيها هذه الصرخة ، هذا المساء ، وكان من السخافة استخراج نتيجة منها . ومع ذلك فالواقع كان مدهشاً : ما من صوت أمام بقايا جوريس ؛ ولا في الشوارع ، أمام الوطنيين المتطرفين الذين كانوا يهتفون « إلى برلين ! » اطلق صرخة التمرد التي لا تزال ترن منذ أول البارحة في جميع مظاهرات الشوارع .

ومرت من الناحية الاخرى من الساحة سيارة اجرة فارغة ، وناداها الناس ، وركض جاك ووثب على الرفرف وأتى بها إلى أمام جني .

وألقيا نفسيهما في داخلها الواحد بجانب الآخر دون أية كلمة . لقد كانا في حالة القلق والضيق نفسها ، مصدومين كأنهما نجيا من حادث ، ولكن هذه العربة عزلتهما اخيراً عن العالم العدائي . وأخذ جاك جني بين ذراعيه ؛ وضمها بقوة : ورغماً عن عيائها فقد شعر بنوع من النشاط المناقض ، بتذوق للحياة اكثر عنفاً من أي وقت . وهمست جني في اذنه :

– اين ستقضي ليلتك يا جاك ؟

وبسرعة ، كأنها تردد عبارة أعدتها :

– تعال إلى البيت . هناك لن تخشى شيئاً . سترتاح على اريكة دانيال .

فلم يجب حالاً كان يدعك يد الفتاة بين اصابعه ، يد لم تكن كالمعتاد فقط ، بدون مقاومة ، وهادئة ، ولكنها ساخنة عصبية ، حية ترد على المداعبات .

وقال ببساطة :

– أريد بطيبة خاطر .

في أسفل الدرج فقط ، وبعد بضع لحظات – ساعة كان يمشي وراء جني ، أدرك انه يخفي خطوته بشكل آلي ليجتاز الغرفة الزجاجية من المسكن –

وعى الموقف ، وقدر مبلغ الثقة والحب اللذين تقدمها جني له . كانت وحدها في باريس ، وعرضت عليه ، بدون معرفة مدام دي فوتنانان ، وبدون معرفة دانيال ، ان يقضي الليل عندها .. كان يفكر بان القلق الذي يشعر به يجب ان تكون جني تشعر به حتى درجة القلق الشديد ، وكان مخطئاً . فقد كانت تتصرف بعد تفكير وفقاً لما تراه حسناً . ولم تكن تهتم بشيء آخر . منذ لقاء الشرطة كانت ترتجف بسبب جاك . وقد ساورها الأمل في أن يرضى باللجوء الى شارع الاوبسرفاتوار . وهذا المشروع – الذي لم يكن يبدو لها مناسباً منذ ثمانية ايام – غرس جذوره في ذهنها بحيث عميت عن رؤية الخطر . كانت فقط شاكرة لجاك قبوله بهذه السرعة .

وما ان وصلت إلى الشقة حتى خلعت قبعتها بعزم ، وسترتها ، وانهمكت في الشغل ، لم تكن تبدو شاعرةً بتعبها ، كانت تريد ان تصنع الشاي ، وترتب غرفة اخيها ، وتضع شراشف لتحول الاريكة إلى سرير .

واعترض جاك . واضطر اخيراً إلى تجميدها بالقوة ، بان أمسك معصميها . وقال ضاحكاً :

– انت تسرينني إذا تركت كل هذا . الساعة الآن هي الثانية صباحاً . في الساعة السادسة اكون قد ذهبت . أريد ان أتمدد هنا ، بملابسي . ومن المحتمل قليلاً ان استطيع النوم .

فتوسلت :

– دعني آتيك بغطاء على الأقل ..

وساعدها على ترتيب الوسائد . ووصل لمبة السرير بالتيار الكهربائي .

– والآن يجب ان تفكري بنفسك ، وتنسي انني هنا ،وتنامين ؛ تنامين .. اتعدينني بذلك ؟

فحنت رأسها بحنو ، فقال :

– غداً صباحاً ارحل دون ان احدث ضجة حتى لا اوقظك ، أريد ان تنهضي متأخرة ، وترتاحي .. من يدري بماذا يحتفظ لنا الغد ؟ سأعود بعد

الغداء لأنقل اليك الأخبار .

وأتت باشارة خضوع جديدة . فقال :

ـ اسعدت مساءً .

كان واقفاً في تلك الغرفة التي له فيها ذكريات واضحة. واخذها بين ذراعيها بطهارة ، وتلامس صدراهما . وحين زاد من جذبه لها فقدت توازنهـــا قليلا ؛ واصطدمت ركبتاهما ، وانتابهما نفس الاضطراب . ولكنه هو وحده كان واعياً ذلك . وتمتمت :

ـ ضمني . ضمني جيداً ..

وكانت قد ألقت ذراعيها حول عنق جاك وعانقته بشغف مباغت ، بنوع من السكر . كانت في جرأتها البريئة تبدو اقـل حكمة منه . فقد كانت هي التي جعلته يتراجع خطوة حتى السرير . وسقطـا عليه دون أن يحلاّ عناقهما . وكانت تردد :

ـ ضمني بقوة .. بقوة أكثر .. ايضاً بقوة اكثر ..

ولكي لا يرى تأثرها ، مدت ذراعها نحو الطاولة واطفأت المصباح .

وحاول السيطرة على نفسه . كان يعرف الآن ان جني لن تذهب الى غرفتها، وانهما لن ينفصلا هذه الليلة .. وقـــال لنفسه بسرعة البرق : « نحن ايضاً ... كالآخرين .. » وامتزج برغبته ظل من الحزن الغاضب ، نوع من اليـــأس والخوف ، وكان لاهثاً ، مصاباً بدوار لم يسيطر عليه . فضمها صامتاً في الظلام المشترك في الذنب .

وفاجأته رعشة مباغتة قطعت نفسه وجمدته . . ثم استرخى جسده؛ وعاوده تنفسه ، وعاد الى السيطرة على نفسه بشعور بالخلاص، مع شيء من الخجل ايضاً، وبانطباع حاد من الكآبة والوحدة .

وجني ، اللاواعية ، الذائبة حناناً ، ظلت متلبدة بين ذراعيه . ولم تكن تفكر إلا بالجهد ، كانت تتمنى فقط أن لا يكون لهـذه اللحظة الرائعة نهاية . واسندت خدها الى قماش السترة ، وكانت تسمع ، كالاعجوبة ، نبضات ذلـك

القلب القريب جداً من قلبها . وجاء من النـافذة المفتوحة نور بلون الحليب ـ هل كان القمر ؟ هل هو الفجر ؟ ـ أغرق الغرفة ببخار غير حقيقي بدت فيه الجدران والمفروشات وجميع الاشياء القاسية غير الشفافة انهـا اصبحت شفافة فجأة . والنوم ، بعد الساعات المأساتية التي عاشاها معـاً ، النوم بين ذراعي بعضهما البعض كان له عذوبة المكافأة .

وكان هو الذي نام اولاً . وقد سمعته ، في قبلة أخيرة ، يتمتم بعض الكلمات غير المميزة ؛ وبتأثر فائق الوصف شعرت به ينام بجانبها ، بينما هي قـاومت عياءها دقيقة لتطيل أمد شعورهـا بسعادتها أكبر وقت ممكن . وحين نامت بدورها ، مضمومة اليه بشدة ، شعرت باحساس لذيذ بانها استسلمت اليه أكثر مما استسلمت الى النوم .

٦٤

لقد استيقظ قلبها. وحين استعاد وعيه ظل عدة دقائق يتأمل بنشوه ، وفي النور الصباحي ، ذلك الوجه النضر الذي لم يفسد التأثر والتعب شبابه الا قليلا. كان الفم المسترخي يبدو انه يستعد للابتسام . وعلى الخد الوردي الناعم الاملس كان يمتد ظل الاهداب الشفاف كلمسة تلوين . فأمسك عن وضع شفتيه عليه ، وانزلق بحيطة حتى حافة الاريكة وتوصل الى النهوض دون أن يجعلها ترتعش .

وحين صار واقفاً شاهد في المرآة ملابسه المدعوكة ،وصبغته الترابية ، وشعره المشعث . وفكرة ظهوره بهذا المظهر امام الفتاة جعلته يبلغ الباب بسرعة . الا انه ، قبل ان يذهب ، اختار بضع ازهار من الجلبـان من الوعاء الموجود على المدخنة ووضعها كعلامة وداع ، في المكان الذي تركه . ثم خرج من الغرفة على رؤوس اصابعه .

كانت الساعة السابعة قد فاتت . والنهار السبت ، اول آب . شهر جديد ؛ شهر صيف ، شهر العطلات . ماذا يحمل ؟ الحرب ؟ الثورة ؟ أم السلام ؟

كانت تباشير النهار جميلة .

وتذكر ان هناك مؤسسة حمّامات في جـــادة مونبارناس ، بالقرب من « كلوزيري دي ليلا » . وقد اشترى الصحف قبل أن يدخل الى هناك .

ان عدة صحف ، منها « الماتان » و « الجورنال » كانت مطبوعة على صفحة واحدة . هل بدأ اقتصاد الحرب ؟ كانت تزخر بالمعلومـــات المفصلة المخصصة للمجندين . « في حالة . . »

وعدد صحيفة « الانسانية » ظهر كالمعتاد ، مؤطراً بخـط عريض اسود . وكان مليئاً بالتفاصيل عن عملية الاغتيال . ودهش جاك حين قـــرأ فيه رسالة مؤثرة من السيد بوانكاريه الى ارملة جوريس : « في الساعة التي اصبح فيهـــا الاتحاد الوطني أكثر ضرورة من أي وقت ، فاني احرص على أن اعبر لك . . » كان جاك يعلم ان مدام جوريس في سفر ، وان اصدقاء جوريس قد امتنعوا عن اتخاذ أية تدابير بشأن المأتم قبل عودتها . اذن فقـــد ارسلت الرسالة فوراً الى الصحف بواسطة بوانكاريه نفسه ، لأي هدف ؟

وهناك تصريح مؤثر وقعه فيفيـــاني باسم مجلس الوزراء حرص فيه على أن يظهر جوريس « في هـــذه الأيام الصعبة كان قد سند بنفوذه عمل الحكومة الوطني » . والفقرة الأخيرة تردد صوت تهديد رصين : « في الظروف الخطيرة التي يجتازها الوطن ، فان الحكومة تعتمد على وطنية الطبقة العاملة ، وجميـع السكان ، للمحافظة على الهدوء وعدم اضافة بلبلة الى التأثيرات العامة التي تلقي العاصمة في خضم الفوضى » . هل كانت الحكومة تخشى الفتنة ؟ لقد روى أحد محرري الصحف ان السيد مالفي ، وزير الداخلية ، حين عـلم في مجلس الوزراء بخبر الاغتيال ترك الاليزيه بسرعة ليصل الى وزارته ويكون على اتصال بمديرية الشرطة .

الا ان جميع الصحف ، باجماع يكشف عن إيعاز ، كانت تلح على ضرورة القيام بالاتحاد. واغتنمت الفرصة لتتبارى في تمجيد المثل الذي اعطاه **الجمهوري الكبير** قبل أن يموت ، الى **حزبه** ، مهيبـــاً بالحكومة أن **تتخذ الاحتياطات اللازمة حيال اكثر الاحتمالات رهبة** . ويبدو من قراءة هـــذه التعليقات ان

الصوت الذي خمد لم يكن قد ارتفع أبداً في سبيل شيء آخر سوى تشجيع سياسة فرنسا القومية .

كانت المناورة فطنة ومخاتلة . فالخصم صريع ، وكان منتهى المهارة ان يجري الاستيلاء على الجثة ، وان يُصنع منها رمز للاخلاص الحكومي ، واستخدامها كسلاح - وبالضبط ،ضد الاشتراكية المقطوعة الرأس - . وتساءل جاك متقززاً : « هل يذهبون إلى درجة اقرار اقامة مأتم وطني له ؟ » .

وصنع كرة من جميع هذه الصحف المنقوعة في بخار الحمام وألقاها بعيداً عنه ، وانغمس في الماء الفاتر غاضباً .

وقال لنفسه : « يجب مواجهة الأمور » .

وكان جيش « غلاة الوطنية » يزداد بسرعة إلى درجة ان الصراع أصبح الآن غير ممكن . وكان هناك صحفيون ، واساتذة ، وكتاب ، وعلماء ، ومفكرون ، يتبارون كلهم في التخلي عن استقلالهم في النقد ليبشروا بالحروب الصليبية الجديدة ، ويثيروا حقد العدو الوراثي ، ويطروا الطاعة العمياء ، ويهيئوا التضحية المطلقة . وحتى في صحف اليسار ،فإن نخبة الزعماء الشعبيين - الذين كانوا البارحة يحتجون من علياء سلطتهم بأن هذا النزاع الوحشي لدول أوروبا لن يكون سوى توسيع ، على الصعيد الأممي ، لنضال الطبقات ،ونتيجة اخيرة لغرائز الربح والمنافسة والتملك - كان يبدون اليوم مستعدين كلهم لوضع نفوذهم في خدمة الحكومة ، ودفع الخجل بعضهم إلى ان يتمتموا بضع كلمات آسفة : « مع الأسف ، كان حلمنا جميلاً .. » ولكن الجميع قد استسلموا ، والجميع رأوا ان الدفاع الوطني مشروع ، وشجعوا زبائنهم العمال على المساهمة ، دون تبكيت ضمير ، في عمل الموت . وخورهم الجماعي ترك المجال حراً أمام انتشار الاكاذيب الوطنية . وكان يخشى أن تشل نهائياً ، في قلب جماهير الشعب غير المطمئن ، تلك الميول إلى التمرد ، والتي كانت بالنسبة إلى جاك ، حتى ذلك الوقت ، هي الأمل الوحيد لانقاذ السلام .

كان يفكر بشعور مؤلم بعجزه : « آه ! لقد أُعدت الضربة باتقان .. وليست

الحرب ممكنة إلا مع شعب اثير تعصبه . تجنيد الضمائر قبل كل شيء ، أما تجنيد الرجال بعد ذلك فلن يكون سوى لعبة ! ».وعادت إلى ذهنه ذكرى الاجتماع. فهل كان جوريس ؟ أو فاندرفيلد ؟ أو أي قائد آخر مسموع الكلمة من شعب حريص على الثقة ؟ .. من هو الذي قارن ذات مساء ، على المنبر، حركة الثوري الفردية بذلك الحمل من الانقاض الذي يلقيه الناس ، من الأب إلى الابن ، على شاطىء البحر . وكان قد صاح : « الصفائح تصطدم بالشاطىء والأمواج تبعثر كدسة الغبار ، ولكن كل حملٍ من هذه الأحمال يتُرك بقية صغيرة من الحجارة الثقيلة لا تجرّها الموجة ؟ ويرتفع السد شيئاً فشيئاً ! وسيأتي حتماً الوقت الذي تؤلف فيه الحجارة المنضدة رصيفاً متيناً تصبح الموجة المكبوجة عاجزة عنه : أرض جديدة سوف تتقدم عليها أجيال المستقبل منتصرة ! » انهـــا استعارات كلامية نبيلة اثارت في ذلك اليوم هذيان المتظاهرين ! وفكر جاك : « ولكن ماذا بقي من كل تلك الجهود الهازئة أمام ارتفاع امواج اليوم ؟ »

وشعر حالاً بالخجل من ضعفه : « يجب الا أفعل كالآخرين .. يجب الا ينتزع اليأس سلاحي ! بالحقيقة ، ما من شيء يبدأ أن يكون عقيماً الا ابتداءً من اللحظة التي تتخلى النخبة بدورها فيها ، وتنحني أمام هذا الوهم : حتمية الحوادث ! فالحوادث ، نحن الذين نصنعها ! يجب مهما كلف الأمر ان نأمـل ، ونعمل ، ونصارع حتى النهاية ضد الايحاءات المخيفة وعدوى الذعر الغادرة ! »

وشعر بوحدته بشكل مخيف . هو وحيد لأنـــه مخلص وطاهر . وحيد ولكن كأن هذه العزلة المؤثرة تحميه . ومهما كان بؤسه فقد كان يعلم أنه على حق ، وانه يدافع عن الحقيقة . ولن يرضى أبداً بالتنكر لذلك !

وبدون ان يعود إلى جني ركض إلى صحيفة « الانسانية » .

كانت البناية هذا الصباح تبعث على التفكير ببيت الموتى .

ورغم الساعة المبكرة، لم يكن على السلالم وفي الأروقة سوى رواح ومجيء المناضلين الذين كانت وجوههم المضطربة تحمل الأثر المزدوج للحزن وخمود الهمة . وكان اسم القاتل ينتقل من فم إلى فم : راوول فيلان .. ما من أحد

يعرفه . هل كان مختلاً ؟ عميلاً للقومية؟ من أعطاه السلاح ؟ في دائرة الشرطة لم يكن يعرف ان يعطي اي ايضاح عن عمله. وقد كتبت هذه الأسطرالغامضة على ورقة وجدت في جيبه : **الوطن في خطر ، يجب معاقبة القتلة !**

وستيفاني ، كجميع محرري الصحيفة ، قضى الليل واقفاً . وقد اتخذت صبغته لون الصمغ . وكانت عيناه الصغيرتان السوداوان تطرفان ، محروقتين من الدموع والأرق .

وازدحم حوالي اثنا عشر مناضلا في مكتبه . وكانت المناقشة حامية . وقد أكدوا أن السيد شون السفير الالماني ،حاول في الكه دورسي القيام بمسعى لا يصدق ليحصل من فرنسا على أن تظل محايدة وترفض ان تساعد روسيا عسكريا . وقد تعهدت المانيا الا تدخل في حرب ضد فرنسا ، اذا رضيت الحكومة الفرنسية ، كرهينة على حيادها ، ان تدع المانيا تحتل حصون تول وفردان طوال المدة التي تستغرقها المعركة الالمانية ضد روسيا .

والبعض من أمثال بورو وراب ، وهم قلائل ، اشاروا إلى أن هذه المساومة في الساعة الأخيرة تقدم ، بعد كل شيء ، وسيلة لحفظ فرنسا من النزاع . ولكن معظمهم اصبحوا المدافعين عن الحلف الروسي الفرنسي ، بشكل غير منتظر . وجوملان الشاب ، بنبرة تذكر جاك بغضب مانويل ، تمرد قائلاً :

– سوف تكون المرة الأولى في التاريخ ، والتي ترفض فيها فرنسا المحافظة على شرف توقيعها !

ونهض بورو فجأة وقال :

– عفواً . يجب الا نحيد عن الموضوع دون داع . انظروا عن قرب إلى تتمة الاحداث ، وتواريخ التعبئات العامـــة المقارنة : اني اترك جانباً ما نستطيع معرفته من الاستعدادات العسكرية الروسية التي بدأت سراً منذ وقت طويل ، وتوبعت فعليـاً وباصرار رغم كل جهود فرنسا . لن نتكلم الآن الا بالقرارات الرسمية . اجل ، ان القيصر وقع الأمر اول البارحة ،**الخميس** ، بعد الظهر – وهذا رغم الانذار الرهيب الذي اصدرته المانيا معلنة مسبقاً،وبكل صراحة،

ان التعبئة الروسية تعني الحرب . اول البارحة ، **نهار الخميس** ! اما فرنسوا جوزيف نفسه ، فلم يوقع قراره الا البارحة ، **الجمعة** ، في نهاية فترة الصباح . والبارحة ايضاً ، ولكن بعد بضع ساعات ، أعلنت المانيا « حالة خطر الحرب» التي هي ليست إلا مساوية لتعبئة عامة . هذا هو التاريخ المضبوط للحوادث .. وليس هذا سراً – قال ذلك وهو يخرج من جيبه صحيفة : – وفقاً لاعتراف جهاز حكومي كجريدة الصباح « الماتان » ، فان التعبئة العامة الروسية **سبقت** التعبئة العامة النمساوية . والقضية هنا ! وهي ذات اهمية ! وستكون رئيسية بنظر المؤرخين في المستقبل . ومما لا يقبل الجدل ان روسيا يمكن ان تُحسب دولة معتدية !.. – وتابع بعد صمت ، وازناً كلماته : – أنا مهتم اكثر من اي كان بالشرف الفرنسي . ولكني اعتبر ان هذه الأمور المحققة سوف تتيح اليوم لفرنسا أن ترفض مساعدتها لروسيا ، دون أن تتنكر للالتزامات التي عقدتها ! وفضلاً عن ذلك ، اعتبر ان رفض التعاضد مع الدولة المعتدية سوف يكون الفرصة الأخيرة لحكومتنا لتبرهن بطريقة طنانة لا تدحض انها لم ترد الحرب ابداً .

وساد صمت ، وكأنه قطع أمل مباغت .

وجوملان نفسه لم يجد شيئاً يجيب به . ولكنه لم يكن يحب الاعتراف بأخطائه ، فحرّف السؤال :

– ان التزامات فرنسا قد أبرمت .. فهل هذه الالتزامات معروفة ؟ من يعرف بالضبط اي تعهدات جديدة التزم بها بوانكاريه ؟ – مدفوعاً بايزفولسكي منذ سنتين ، باسم فرنسا ؟

وسأل جاك :

– وبماذا أجاب الوزير ؟ من الطبيعي أن عرض شون قد اعتُبر في وزارة الخارجية « كفخ » . انها اللازمة الخالدة للدبلوماسية الفرنسية !

فأصلح كاديو الذي كان يفتخر بانه مزود بالمعلومات :

– ان لم يكن كفخ فهو على الأقل كتحريض مقنّع : نوع من الانذار

النهائي .

ـ لأي هدف ؟

ـ ولكن لإرغام فرنسا على اظهار نواياها حالاً ! العالم كله يعرف ان خطة هيئة اركان الجيش الالماني هي الحصول منذ البدء على انتصار حاسم في الجبهة الفرنسية يتيح لها الالتفات بعد ذلك إلى الجبهة الشرقية . فالمهم اذن ان تستطيع المانيا مهاجمة فرنسا في أقرب وقت ممكن . ومن هنا كانت الرغبة الالمانية في إجبار فرنسا على الدخول في حرب قبل أن تبدأ المعركة على الجبهة الجرمانية – الروسية !

كان ستيفاني يبدي علامات ملل منذ لحظة . وقد قطع صوته المهتز النزاع :

ـ كلكم تعللون كما لو أن الحرب قد أُعلنت ، أو انها ستُعلن الآن ! وهذا في اللحظة التي سينعقد حلف وثيق بين الاشتراكيين الفرنسيين والألمان ! وفي نفس اللحظة التي يتيح فيها مجيء مولر ، الذي سيكون بيننا هذا المساء ، ان نعتمد على عمل مشترك ، آني ، حاسم !

وصمت الجميع . وحام لحظة ظل جوريس في الغرفة . كان ستيفاني يتكلم كالمعلم . وفعلاً ، فان ارسال مفوض رسمي في الظروف الحاضرة إلى باريس من قبل الحزب الاشتراكي الديموقراطي ليعقد ، رغماً عن الحكومات ، ميثاق السلام بين الشعوب ُيعدّ عملاً لا سابقة له ، وأصبح الأمل مشروعاً .

وهتف جوملان :

ـ انهم ظرفاء اولئك الالمان .

وثقته الشبابية التي تتلو ، دون رابط ، النظرات الأكثر تشاؤماً ، كانت تمثل التشوش العام .

وألهام دخول رينوديل .

كان شاحباً ومتورماً ، وشارد النظر ، فقد قضى الليل ساهراً على جثمان صديقه .

وجاء يحضر اجتماع مكتب الاتحاد الاشتراكي في منطقة السين الذي كان

قد دعي الى الاجتماع فوراً هذا الصباح ، في صحيفة « الانسانية » وذلك لدراسة الوضع الذي نتج في الحزب بسبب موت الرئيس . وكان يرغب قبل ذلك أن يحدّث ستيفـاني عن النداء الذي أذاعه اتحاد النقابات . وأكد أن مظاهرات جديدة قد نظمت في ليون ومرسيليا ، وتولوز وبوردو ونانت وروان وليل ، في كل مكان . وكان يردد وهو يصافح الرفاق :

– كلا ، كلا . يجب ألا نيأس !

وتركوهما لوحدهما . وبـعد أن حاول جاك رؤية غالو الذي لم يكن في مكتبه ، ذهب : قبل الذهاب إلى جني كان يريد أن يعرف اتجاه ريح الأوساط الفوضوية ويمر على « الليبرتير » .

ولكنه اصطدم في ساحة الكونكورد بالاخوين كوشوا ، وهما عاملا بناء معتادان على « الليبرتير » ، فصرفاه عن السير بعيداً .

– نحن آتيان من هناك . لا يوجد أحد . فقد تنحّى الرفاق ، والشرطة تجوس : ما فائدة أن تدل على نفسك ؟

ورافقهما جاك قسماً من الطريق . كان يسير أمامهما دون هدف .

لقد أخليا مكان عملهما بشكل غير عادي « بسبب كل ذلك » .

– ما قولك أنت ، بحربهم ؟

هكذا سأل الأكبر ، وهو أمغر كبير مبقع بالنمش ، ذو قسمات خشنة ولكن عينه الزرقاء كانت هذا الصباح ذات عذوبة غير معتادة .

وقاطع الأصغر :

– انه سيهرب ، انه سويسري . (مع انه لم يكن توأماً لأخيه فقد كان نسخة حيّة عنه ! ولكن بالطريقة التي تشبه بها منحوتة ، تم العمل بها ، ما كانت عليه بعد أول لمسة من الازميل) .

ورأى جاك ان لا فائدة من الدخول في التفاصيل فقال عابساً :

– كلا ، لن اهرب .

فلاحظ الأصغر بسلامة طوية :

– بالتأكيد . ولكن ليس الأمر كما لو كنت عالقاً مثلنا .

والأكبر ، الذي شرب قليلاً ليحتفل بهذه العطلة غير المتوقعة ، بدا ثرثاراً :

– اوه ! نحن . الامر بسيط . من لا يملك سوى هيكله العظمي يحرص عليه ! انا لا اقول ان المرء لا يموت في سبيل افكاره اذا لزم الأمر . اما في سبيل افكار غلاة الوطنيين ، فالسلام عليكم !

ليذهب اولئك الذين يعجبهم ذلك ! ان وطننا هو حيث يمكن العمل باطمئنان . أليس كذلك يا جول :

– فصفر الاصغر حذراً . وسأل جاك :

– اذن ؟ ماذا انتما فاعلان اذا اعلنت التعبئة :

(كان يفكر بحالته الخاصة . والجواب الذي أجاب به على سؤال انطوان : « ما انت فاعل » ؟ كان صادقاً كل الصدق . لم يكن يعلم . وسوف يكافح بيأس . ولكن اين ؟ ومع من ؟ وكيف ؟ الا انه كان يأبى التفكير بذلك لان فيه ارتياباً بالسلم) .

وألقى الاصغر على اخيه الاكبر نظرة خفية . وقد اجاب بسرعة كأنه تهيب ثرثرة الآخر :

– لن نجنَّد الا في اليوم التاسع . ولدينا وقت لنرى مجيء هذا اليوم .

ولكن الاكبر لم يلاحظ تنبيه أخيه ، فانحنى نحو جاك وخفض صوته :

– هل تعرف سيلافار ؟ كلا كلا ؟ رجل مجدور .. ان سيلافار هو من بور – بو . اذن ، كما تفكر ! انه يعرف الحدود الاسبانية عن ظاهر قلب كما نعرف نحن شوارع فيلموش .. – وطرف بعينه كأنه يقول سراً : – حتى لو اندلعت الحرب ، فان اسبانيا تبقى على الحياد . وهذا واضح : لا شيء يمنعك من ربح لقمتك كرجل .. وبخصوص الشغل فليس هناك كثير خوف . اليس كذلك يا جول ؟

ونظر الاصغر الى جاك دون ان يرفع عينيه . وكان لحدقتيه الزرقاوين

بريق معدن . ودمدم :

– يجب الا تحدثه عن ذلك .

فقال جاك وهو يشد على يديها :

– كن مطمئناً .

ورآهما يبتعدان ، وكان حالماً يهز رأسه سلبياً :

– كلا ، ليس هذا .. ليس أنا .. الذهاب إلى بلد محايد فهذا يمكن الامتناع عنه . أما إذا كان الأمر لأجل « العمل باطمئنان » « وربح اللقمة » بينما الآخرون .. كلا !

ومشى بضع خطوات ، وتوقف من جديد .

– اذن ، ماذا ؟

٦٥

كانت آن قد اقتربت من جهاز الهاتف بخطوة حازمة . وكادت ترفع السماعة حين فكرت : « انا بلهاء . الساعة الآن هي الحادية عشرة والدقيقة العشرون ؛ انه لا يزال في المستشفى.. لو ذهبت وفاجأته عند الخروج ؟ هناك ، لن يفلت مني» .

وتذكرت انها سرحت السائق لفترة الصباح . فلكي لا تضيع دقيقة – وعلى الخصوص لكي لا تصبر - خرجت من منزلها منذ ان اصبحت جاهزة ، ووثبت إلى سيارة اجرة :

– شارع دي سيغو ! وأنا سأوقفك .

حارس المستشفى لم يشاهد خروج الدكتور تيبو بعد .

وألقت آن نظرة على السيارات الواقفة على محاذاة الرصيف ، فلم تجد بينها سيارة انطوان . ولكن باستطاعته إدخالها إلى الساحة ؛ ثم انه لم يكن يأخذ سيارته في الصباح بصورة دائمة .

وصعدت من جديد إلى سيارة الاجرة ، ونصفها الاعلى على النافذة،وكانت تراقب الذهاب والإياب من البوابة الكبرى . الساعة الثانية عشرة الا خمس دقائق .. وقت الظهر .. رنت الساعة اثنتي عشرة مرة . وقد اجاب عليها حالاً جرس الكنيسة المجاورة . وانتشرت موجة من المستخدمين والممرضات على الرصيف .

وفجأة ترطبت جبهتها . فقد تذكرت وجود مخرج آخر في الشارع الجانبي. فنزلت بسرعة وذهبت سيراً على الأقدام بعد ان قالت لحارس المستشفى ان يوقف الدكتور إذا خرج .

كان الرصيف ضيقاً حاشداً بناس متعجلين . وعلى الطرق عرض للعربات وسيارات النقل ؛ والجلبة الجهنمية للشوارع المأهولة . وأصابها دوار فتوقفت ، وطنّ صدغاها . فأطبقت عينيها وتساءلت ببرود إذا لم يكن من الأفضل أن تكون ميتة ، ولكنها انتصبت حالاً ، وعادت إلى السير كمن يمشي في نومه ، وبلغت الباب ، ودخلت .

– الدكتور تيبو ؟ ولكن نعم ، لقد ترك المستشفى منذ لحظة .

فلم تجب بشيء ، ولم تشكر،وخرجت من تحت القنطرة غاضبة . ما العمل ؟ اتتكلم مرة اخرى بالهاتف مع شارع الجامعة ؟ (وقد فعلت ذلك في عدة مناسبات نهار أمس . وفعلت ذلك هذا الصباح أيضاً ، عندما خرج انطوان تماماً . وعلى الاقل ، هذا ما أجاب به ليون،وكانت قد قالت : « أبهذه العجلة؟» هل كان ذلك صحيحاً ؟ في الساعة السابعة والربع ؟)

وعادت إلى المنزل .

– أتستطيع التكلم بالهاتف ؟ انه لأمر ضروري .

كان الخط مشغولاً . واضطرت إلى الانتظار واخيراً استطاعت الاتصال .

– ليس السيد هنا . السيد أعلمنا انه سيعود في موعد الغداء .

كان لليون لهجته اللاشخصية . وقد أبغضته آن . لم تكن تستطيع احتمال هذا الصوت المهذب ، الرتيب الذي يحول دائماً بين انطوان وبينها ، ويمنعها من

ذلك الاتصال المباشر ، الحي ، شبه الجسدي ، الذي اتت تستنجد بـــه على طرف الخط .

وعلقت السماعة دون أن تقول كلمة ، ووجدت نفسها على الرصيف . « لا يهم ! سأذهب ! سأرى إذا كان يكذب علي ! »

يجب أولاً الوصول إلى سيارة الاجرة. فركضت وشقت طريقها بين الجمهور ، غاضبة لخضوعها لهذا الشغف الذي يهينها ، ولكن لا قوة لها على مقاومته .

— رقم ٤ مكرر ، شارع الجامعة .

ومنذ أن رأت من بعيد واجهة المنزل الجديدة ، والستائر ، والباب الكبير ، شلها الذعر . فقد تمثلت انطوان ، وقد أزعج أثناء طعامه ، آتياً نحوهـــا من داخل الغرفة الملاصقة ، ومنشفته في يده ، بهيئة متعجرفة . ماذا ستقول له : « أحبك يا توني » ؟ وشعرت فجأة بالخوف منه ، من حاجبيه المقطبين ، من تلك النظرة القلقة القاسية التي كانت تتخيلها جيداً .

— ايمكن ان تكتب اليه ؟

-- قف .. في الزاوية هناك .. في مكتب البريد .

وطلبت ورقة وكتبت :

« يجب ان أراك يا توني ، لا شيء سوى لحظـــة ، لا يهم متى ، ولا أين . كلمني بالهاتف . اني انتظر . يجب ان أراك يا حبيبي توني » .

لقد كانت هذه هي العبارة التي رددتها دون توقف : « يجب ان اراه » . كانت واثقة من انها حين تراه ، ولو لدقيقة ، سوف تجد الكلمات لإبقائه واستعادته .

ووضعت رسالتها في العلبة وهربت ، مخجولة من نفسها .

كان انطوان لا يزال على المائدة حين وصلت الرسالة إلى شارع الجامعـــة ، وكان يقول لروا الذي انتهى ، والنار في خديه، من سرد حكاية مظاهرات غلاة الوطنية التي اشترك بها مساء البارحة :

– ولكن يا صغيري ، اني اصدقك ، ليس لدي سوى الكثير من الاسباب لتصديقك ! اننا نشاهد في هذه الفترة تفجراً غريباً في الوطنية .. فقط ، اتعرف بماذا يدفعني إلى التفكير كل اولئك الغلمان الشجمان الذين يطوفون الشوارع ليؤكدوا انهم يستصوبون الحرب ؟

وقدم اليه ليون الورقة الصغيرة الزرقاء . فعرف الخط ، وخيم ظـــل على نظرته .

– .. انهم يبعثونني على التفكير باعلان كان يُرى على جدران باريس حين كنت ولداً .

وكان وهو يتكلم يمزق الطرف المثقوب من الرسالة دون ان ينظر مـــاذا يفعل . واخيراً القى نظرة على الورقة ، ومزقها حالاً إلى نتف صغيرة وانهى عبارتــه :

– كانت الصورة تمثل سرباً من الأوز يهتف لطاهٍ مسلح بسكين طويلة مروسة .. ومع هذه الاسطورة عبارة « عاشت فطيرة ستراسبورج ! » ونثر في صحنه بقايا الرسالة وصمت .

لم يجر بين آن وبينه أي توضيح . فانطوان ، بكل بساطة ، منذ مقابلته لسيمون أصبح يتملص باصرار من كل زيارة ،من كل موعد ، مـــن كل مخابرة هاتفية . لم يكن قد تبصر بهذا الموقف المراوغ الذي كان قليلاً ما يناسبه ؛ وكان يتألم منه لأنه يحب الأوضاع الواضحة . كان يتوقع ان يكون له حديث حاسم مع آن . حتى انه كان يفكر بذلك ، وبدقة ، عدة مرات باليوم – في كل مرة كان ليون يستقبله منخفض العينين بالصيغة المحتومة : « انهم تلفنوا » . ولكن الساعات تتابعت متعبة ؛ وأثناء اللحظات النادرة التي كان يتملص فيها من حياته المهنية ، كان ينهك نفسه ، قلقاً في قراءة الصحف ، أو يستأثر به بملاطفة مرضية ، اولئك الذين يلتقي بهم ، والذين ، مثله ، لا يستطيعون التفكير بغير الحرب ولا التكلم بشيء آخر . وبين آونة واخرى كان يصاب بالدهشة لعدم شعوره بسوى لامبالاة عدائية لهذه المرأة التي لم يكن لديه مـــا

يلومها عليه ، والتي كانت منذ ثمانية ايام ، ورغم كل شيء ، لا تزال تشغل حيزاً كبيراً في حياته .

كان يؤمن بحالته الخاصة . ولا يرتاب في أنه اطاع ظاهرة عامة جداً . ان الرعشة التي تهز أوروبا هزت الحيوات الخاصة ؛ والروابط المفتعلة بين الكائنات قد انحلت من جميع النواحي ، وانقطعت من تلقاء نفسها ، والريح الممهدة التي كانت تمر على العالم قد اسقطت الأثمار الدائدة عن الاغصان .

٦٦

كان جاك قد عاد إلى شارع الاوبسرفاتوار قبل الظهر بقليل .

ولم تكن جني تنتظره بهذه السرعة . فقد اعترفت وهي مضطربة ، بانها نامت حتى الساعة التاسعة . وكانت مستغرقة في قراءة الصحف ، باحثة عن أتفه الأخبار عن النمسا . وكان صوتها يرتجف منذ ان تخيلت مصير أمها المحتجزة في فيينا ، ونهضت وخطت خطوتين أو ثلاث خلال الغرفة ، ووجهها بين يديها .

لم يكن يعرف ما يقول ليطمئنها دون ان يكذب عليها . فقد ازداد ثقل الحوادث خطورة بالنسبة اليه بهذا الشقاء الواهن القريب . وقد اضيف إلى الأسباب التي كانت لديه قبلاً ليكافح من اجل السلام ، ولبضع دقائق ، التمني الصبياني ان يستطيع انقاذ الفتاة من قلقها . وقال :

– اجلسي . لا تظلي هكذا واقفة بذلك الوجه البائس . هذا لا يطاق بالنسبة إلي يا عزيزتي . لم يضع شيء بعد !

لم تكن تطلب الا ان تصدقه . كان يبتسم لأي سبب ليطمئنها . وقد تحدث بحمية عن مهمة مولر ، وعن آمال ستيفاني المتشددة وكأن لعبته جازت عليه ، هو نفسه ، فسار إلى درجة القول ، باندفاعة شبه صادقة :

– ربما كان من الخير أيضاً ان يصبح الخطر ظاهراً ، عاماً ! ما دام كل شيء يتوقف على تلك الانتفاضة الكبرى للرأي العام التي يجب إثارتها .

فقالت وحدقتاها ثابتتان : نعم .

ونهضت بعصبية لتذهب وتحرك الستائر . وكانت حركاتها محمومة بحيث ظل الحبل بين اصابعها .

وسار نحوها ، واحاط كتفيها بذراعه وضمها اليه .

ـ هيا ، ابقي مطمئنة وتطلعي الي .. يبدو لي ان وجودي هنـــا حسن ! حيث اتنفس قليلاً وأستعيد القوة . أنا بحاجة اليك .. انا بحاجة ليكون لديك ثقـة .

فغيرت وجهها حالاً وابتسمت بشجاعة .

ـ حسناً . الآن ؛ ضعي قبعتك ، سآخذك لتناول الغداء .

فاقترحت ببشاشة ادهشته لانه رآها قليلة التصنع :

ـ أتريد ان نتغدى هنـــا ؟ سيكون الامر لطيفاً . لدي بيض وبعض الدراقن وشاي .

ورضي.فركضت وكلها سعادة تشعل وجاق الغاز.وتبعهاجاك حتى المطبخ لاهياً لحظة عن فكرته الثابتة ، ونظر اليها وهي تمد السماط على الطاولة وترتب أواني المائدة بشكل حسن ، وتصف آنية الزبدة في الصحن ، وتقوم بعملهـا بتلك الجدّية التي تتخذها النساء المرتبات عند اتمام طقوس الخدمة المدنية التي لا فائدة منها . كم كانت مرنة وطبيعية في أقل مواقفها ! فقد تغلب الحب على تشددها ، وحرر فيها تلك الكياسة النسائية التي كانت من الآن تبـــدو ان مضايقة خفية تبقيها سجينة .

ولاحظت بنبرة شبه مبهمة ، حين وضعت صحن البيض على الطاولة !

ـ أول غداء لنا .

وجلسا مواجهة كصديقين قديمين . كانت مرحة ، أما هو فحاول أن يكون كذلك ، ولكن جبهته ظلت متجهمة . وكانت تتفحصه خلسة فأدرك ذلك وابتسم .

ـ انني بخير هنا !

فقالت بيقين :
– نعم . نحن بحاجة ماسة لنكون الآن معاً .
فخفض عينيه . وفكر فجأة بالمستقبل ، وانتابه الرعب .
وتتابعت الوليمة دون أن يتوصلا الى قطع الصمت على وجه جدّي . وبين آونة وأخرى كان جاك يشمل الفتاة بنظرة طويلة حنون ؛ ولما لم يجد أي كلام لإيضاح ما يشعر به ، فانه مدّ ذراعه ووضع يده بضع ثوان على يد جني .
كانت تتألم لرؤيته صموتاً . لقد حصل تبدل فيها منذ تلك الأيام الاخيرة : للمرة الأولى ، بالرغم من طبيعتها ، وبالرغم من عادة طويلة في الانطواء ، كانت تتمنى ان تتكلم عن نفسها، فالساعات التي عاشتها وحدها لم تكن سوى مناجاة لا تنتهي مرسلة الى جاك ، تحلل نفسها فيها تحليلاً دقيقاً امامه ، وتكشف له بدون رحمة عن عيوب طبعها ، وامكاناتها ، وحدودها . لانها كانت معمورة بالخوف من ان يكوّن لنفسه اوهامـــاً عنها ، وان لا يخفق بشكل مخيف يوم يعرفها بصورة افضل .
حين افرغا إناء الفواكه ارادت ان يطوي منشفته وأعطته منديل دانيال ثم ، اخذت ذراعه كما كانت تفعل مع اخيها وقادته نحو غرفتها .
وبمرورهما امام الصالون الذي كان بابه مفتوحاً قليلاً ، شاهد البيانو الذي كان ينيره هذه المرة شعاع شمس .. فتوقف ، وخضع لنزوة عنيفة :
– جني . اعزفي لي .. انت تعرفين .. ذلك الشيء .. ذلك الشيء الذي كنت تعزفينه .. في الماضي .
– ماذا اذن ؟
كانت تعرف جيداً ما أراد ان يقول . ولكنها ارتجفت امام هذه الذكرى المؤلمة لصيفها في ميزون – لافيت .
– اوه ! يا جاك .. ليس اليوم ..
– بلى .
فدفعت الباب ، وبلغت البيانو ، وبكل خضوع عزفت **الدرس الثالث**

لشوبان ، والذي كان يذكرها باحدى تلك الامسيات الاكثر اضطراباً والاكثر يأساً في حياتها .

وكان واقفاً متصالب الذراعين ، في الظل وراءها بحيث لا تراه . واغمض عينيه بعصبية ليكبح دموعه ؛ وتحطم قلبه من العذوبة ، وكان يسمع هـــذا النشيد ذا الغبطة الحنينية يرتجف في الصمت . وعند الالحان الأخيرة نهضت مستقيمة ، وتراجعت وجاءت تستند اليه .

وتمتم في أذنها بصوت منخفض مؤثر لم تكن تعرفه :

— عفواً .

فقالت مرتعبة : لماذا ؟

— كان بامكاننا أن نكون سعداء ، ومنذ وقت طويل .

فارتعشت ، ووضعت يدها على فمه بحدة .

كانت النافذة مفتوحـــة ، فقادته بهدوء حتى الشرفة . وكانت رؤوس الاشجار تحتها في الشارع تشكل طنفسة خضراء ، كثيفة كان ينبثق منها بين فترة واخرى صراخ اولاد غير منظورين يشبه جلبة طيران عصافير دوري . وفي البعيد كانت أوراق اشجار اللوكسمبورغ تقدم ذلك الزنجـار البرونزي الذي يعقب صدأ الخريف .

وكان جاك يتطلع آلياً الى ذلك المشهد المتألق الذي يمتد أمامها . وكان يفكر : « يجب ان يكون مولر قـــد ترك بروكسل » . ولم يكن يستطيع التفكير بشيء آخر .

وتمتمت جني بقربه كأنها تحلم .

— اني اعرف كل شجرة .. وتحت هـــذه الاشجار اعرف كل مقعد ، كل قاعدة تمثـــال .. كل طفولتي هي في هذه الحديقة . — وأضافت بعد صمت :

— احب ذكرياتي .. فهل انت ايضاً ؟

فقال بدون مداراة : كلا .

فلفتت رأسها بحدة ، وألقت عليه نظرة كئيبة ولاحظت بنبرة غير

مستصوبة .

– ودانيال كذلك .

وشعر ان عليه ان يوضح ؛ فبذل جهداً :

– الماضي قد مضى بالنسبة الي..وكل يوم يعاش يسقط في ثقب مظلم. عيناي دائماً نحو المستقبل .

فجرحها هذا الكلام اكثر مما جرؤت على قوله ، هي التي لم يكن الحاضر يهمها الا قليلاً والمستقبل لا يهمها ابداً ، هي التي كانت حياتها الداخلية تتغذّى تقريباً من الذكريات فقط .

– هذا غير ممكن . أنت تقول هذا لتكون متميزاً عن سواك .

– لأكون متميزاً عن سواي ؟

فقالت وقد احمر وجهها :

– كلا . ليس « متميزاً عن سواك » ما اردت قوله .. – وظلت تفكر بضع ثوان – الا تشعر أحياناً بالحاجة الى ان تحير الناس؟ لالمجردالسرور بالحيرة بالتأكيد ، بل لتتملص منهم بصورة أفضل .. كلا ؟

– كيف هذا ؟ أتملص منهم ؟ – وفكر ، واعترف : – ربما ، نعم .. صحيح ان من غير المحتمل بالنسبة الي ان اشعر ان الناس يرون فيَّ رأياً ثابتاً . ذلك كما لو انهم يحاولون ان يجعلوا لي حدوداً ، وان يمنعوا خروج افكاري . وعندئذ ، ربما نعم ، يحدث لي ان اضللهم عمداً : ببساطة ، لأتخلص من هذه السيطرة ...

ولاحظ أن جني أجبرته على ان يعود الى نفسه عودةً ما كان ليفعلها وحده ، وشكرها على ذلك ، ولام نفسه لأنـــه جرحها باظهاره احتقاراً أبله لعاطفية الذكريات . وشد حضنة الذراع الذي لفه حولها .

– لقد غممتك منذ لحظة . وهذه بلاهة . ان كل هذا يثير الاعصاب – وابتسم – ولنقل ايضاً ، من باب تخفيف الخطأ ، ان جني فتاة صغيرة حساسة بشكل مفرط .

فقالت حالاً :

– نعم ، هذا صحيح . حسّاسة بشكل مفرط – وتروّت دقيقة – انا حساسة ؛ ومع ذلك فلست طيبة .

فابتسم .

– كلا ، كلا .. انا اعرف نفسي جيداً ! في المرات التي اتصرف فيها بطريقة يمكن ان تدعو الى الظن انني طيبة ، فهذا في الواقع بعد تفكير ، وبدافع الارادة ، لاتمام واجب . انني مجردة تماماً من هذه الطيبة الطبيعية ، العفوية اللاشعورية ، التي هي الطيبة الحقيقية ... طيبة امي مثلاً .

وكادت أن تضيف ! « طيبتك » ولكنها لم تفعل .

والقى عليها نظرة مندهشة . ان شيئاً فيها بدا أنه احتجب فجأة . لم تكن تبدو لها اكثر غموضاً الا حين تحلل نفسها بصوت مرتفع . ففي تلك اللحظات تتجمد قسماتها ؛ والعين تصبح قاسية ، وكان جاك يشعر بفقدان الاتصال لانه يجد امامه كائناً متحجراً ، مقاوماً ممتنعاً ؛ لغز كان سره يهين كبرياءه كـذكـر . وتمتم برصانة :

– انت يا جني كجزيرة .. جزيرة ضاحكة ، جزيرة تغشاها الشمس .. ولكنها صعبة المنال .

فارتجفت :

– لماذا تقول هذا ؟ انت ظالم !

ومرت بينهما نسمة ظلامية جمدتها . وظلا صامتين بضع لحظات ، الواحد بجانب الآخر ، منحنيين على متكأ الشرفة ، منصرفين الى تفكيرهما المحكم ، إلى قلقهما .

دقتان منفصلتان بعيدتان رنتا في ساعة مجلس الشيوخ . فنظر الى ساعته وانتصب :

– الساعة هي الثانية .

ثم اضاف خاضعاً لوسواسه :

– مولر على الطريق .

ودخلا إلى الشقة . فلم يقترح عليها مرافقته ، وهي لم تسأله . ومـــا دام الأمر يسير من تلقاء نفسه فانه لم يدهش لسماعها تقول وهي تركض نحو غرفتهـا :

– دقيقة فقط .. واكون جاهزة .

في صحيفة «الانسانية» حيث عزم جاك على ادخـال جني ، كانت عنايته الاولى ان يستخبر من راب ، الذي التقى به في منتصف الطابق ، عن الترتيبات المتخذة لوصول المبعوث الالماني . فقطار بلجيكا الآتي بمولر يصل الى باريس بعد الساعة الخامسة بقليل . وجماعة النواب الاشتراكيين كانوا قد دعوا الى الاجتماع في الساعة السادسة ، في احدى قاعات قصر البوربون ، حيث يستقبلونه هناك . وبالنظر لأهميـــة هذه المقابلة فقد توقعوا انها سوف تمتد الى وقت متأخر من الليل .

واضاف المناضل العجوز :

– سنذهب كلنا لانتظاره في محطة الشمال .

– وقال جاك منحنياً نحو جني : سنذهب ايضاً .

محطة الشمال ! لقد أثارت ، لبرهة ، جميع تفاصيـل لقائها الاول مع جاك ، والملاحقة في اروقة المترو ، ومقعد حديقة سان فنسان دي بول ... ورفعت عينيها اليه مقتنعة انه يفكر بذلك ايضاً . ولكنه كان ملتفتاً نحو راب ، ويسأل عن القرارات التي جرى التصويت عليها في الصباح في اجتماع الاتحاد الاشتراكي.

فقال العجوز متذمراً :

ولا أي قرار . فقد تفرق اعضـاء المكتب دون ان يقرروا شيئاً . فالحزب بدون رئيس .

كانت مكاتب الصحيفة المتنوعة تحت الضغط. وكان باجيس وكاديو وآخرون يتناقشون عند غالو .

وكانت قد سرت اشاعة ان هيئة الاركان الفرنسية ، منذ اعلان « حالة خطر الحرب » في المانيا ، قد ضيقت على الحكومة لتحصل دون اية مهلة على قرار التعبئة العامة . وقد قيل ان هذا ليس سوى مسألة ساعات . وزعم باجيس انه علم من كاتب عسكري مستخدم في امانة سر الجنرال جوفر ان القرار قد وقعه بوانكاريه عند الظهر . ولكن كاديو ، الذي كان عائداً من الكه دورسي ، أكد أن الخبر خاطىء .

وصرح مؤكداً : وإلاّ لعرفتُ به .

وقال ان الموضوع الهام الذي يشغل وزارة الخارجية اليوم هو موقف الحكومة الانكليزية . فبعض السياسيين امثال كايو كانوا يفكرون بالحصول من الزعماء الاشتراكيين الفرنسيين على القيام بسعى لدى كير – هاردي لكي يقلع الحزب الاشتراكي الانكليزي عن إطراء حياد انكلترا. ومن ناحية أخرى فان بوانكاريه اتخذ المبادرة بالكتابة الى جورج الخامس رسالة شخصية يتعجل فيها انكلترا لتعلن ميلها الى فرنسا – كان التدخل الانكليزي هو آخر حظ لانقاذ السلام .

وسأل جاك : منذ متى هذه الرسالة ؟

– البارحة .

– اذن فالأمر هكذا!.. حين علم بوانكاريه ان روسيا اعلنت رسميا تعبئتها وان الحرب لا يمكن تجنبها .

ولم يعد احد الى الحديث .

وهناك برقية صباحية ، رسمية دون شك ، أعلنت ان هيئتي اركان الحرب الفرنسية والانكليزية اصبحتا على اتصال مستمر وان « خطة عمل قد جرى الاتفاق عليها » . فهل المقصود عمل حربي ؟ وقد عُرف من مصدر غير رسمي أن انكلترا اصدرت الأمر الى اسطولها بمراقبة المضايق؛ وان الوصول الى المرافىء الحربية قد منع على السفن التجارية؛ وان المدفعية الانكليزية قد احتلت الحصون المشرفة على هذه المرافىء ؛ وان جميع منائر الشطوط تلقت الأمر بعدم الإضاءة هذا المساء .

ودخل مارك ليفوار .

وردد صدى حديث جديد اجراه فيفياني مع السيد شون . فقد قال رئيس الوزراء : « ان المانيا تعبىء جيوشها . ونحن نعرف ذلك » . وبما أن السفير سكت فقد اضاف فيفياني : « ان موقف المانيا يملي علينا موقفنا... فلكي نظهر حتى النهاية ، وأمام اعين الجميع ، ارادتنا الثابتة بانقاذ السلام فان الجنرال جوفر اصدر أمراً الى جميع جيوشنا بالانكفاء مسافة عشرة كيلومترات على الأقل عن الحدود . فاذا حصل حادث ، في هذه الأوضاع ، فانه يعني انكم اردتموه ! » .

وباجيس الذي كان ذا علاقات بوزارة الحربية وضع الأمور في نصابها حالاً . فالمبادرة الفرنسية حسب رأيه كانت دون أي مرمى حقيقي ، فهي لا تستطيع ان توقع الضرر بخطط المعركة المتوقع من قبل هيئة الاركان الفرنسية ولا تشكل سوى تضحية ظاهرة في سبيل السلام . وفي محيط الوزير ميسيمي Messimy لا يخفون ، كما قال ، ان هذا التراجع الموقت ليس سوى مادة دبلوماسية ، وسيلة للتأثير على الرأي العام الاوروبي علانية ، وخصوصاً الرأي العام الانكليزي .

وقال جاك :

— اريد ان اعتقد ان هدفهم كان ايضا الحصول على مشايعة انكلترا .. ولكن بالنسبة الي فان هدفهم الرئيسي هو الوصول الينا ، نحن انصار السلام ! انها طريقة لمفاجأتنا ، لربح عطفنا ، ليبرروا انفسهم بواسطتنا ! انها ذريعة مشرفة يقدمونها الينا لننضم دون أي وسواس الى سلطة عسكرية عملها الأول اعتدائي بشكل قليل جداً . اني ارى الآن ما نقرؤه غداً في صحف المعارضة .

وغالو الذي كان مستمراً في ترتيب اوراقه رغم جلبة الحديث رفع فجأة وجهه الذي يشبه وجه القنفذ وراء متراس ملفاته .

— والبرهان هو العجلة والالحاح اللذان اعلنت بهما الحكومة ، بشكل غير رسمي ، هذا التدبير لزعماء الحزب ، حتى قبل أن تتخذه !

ان نبرته الغاضبة التي كانت تتناسب مع بنيته الجسدية ، مع اعضائه الدقيقة ومظهره السريع التأثر من البرد والذي يشبه مظهر موظف في ادارة ، كانت في

اغلب الاحيان تكسبه هيئة المخطىء ، حتى عندما يكون على حــــق . ولكن اليوم فقط لاحظ جاك ان الغضب لم يتوصل الى ان يطرد من عينيه تعبير كآبة لا يسبر غورها يجعله مؤثراً بالرغم من قبحه .

وقام جمهور من المناضلين الفتيان بغارة على المكتب . فقد انتشرت اشاعة ان موكباً من عصبة غلاة الوطنيين يسير نحو ساحة الكونكورد للتظاهر أمام تمثال ستراسبورغ .

فاقترح باجيس :

– اتذهبون الى هناك ؟

ووقف الجميع . (في الواقع كانوا فارغي الصبر لاغتنام هذه الفرصة لعمل « شيء ما » أقل مما هم متحرقون لإثارة فتنة ثأرية) .

وادركت جني أن جاك ، رغم رغبته باتباعهم ، كـــان يتردد بسببها ، فقالت بعزم :

– هيا بنا .

٦٧

كانت الشمس المغطاة بالضباب الكثيف ، ولكنها لاذعة ، تثقل على الرؤوس وتجعل هواء وسط باريس غير صالـــح للتنفس . والسكان الذين ازداد قلقهم ، والذين كانت تزعجهم كالذباب درجة حرارة الزوبعة تلك ، لم يكونوا يتركون الشارع . فعلى باب مؤسسات الاعتماد ، ومفوضيات الشرطة ، والادارات البلدية ، وقفت جماعات مهتاجة كان رجال شرطة المدينة يبذلون جهدهم لتفريقها دون حادث . وكان نباح باعة الصحف ، بسيطرته على همهمة الجمهور الخفية ، يكمل إثارة الاعصاب .

وفي ساحة الاهرام فان قاعدة نصب جان دارك كانت مزهرة كزينة نعش . وتحت قناطر شارع ريفولي كانت صفوف من المشاة تتزاحـــم في الاتجاهين . ومعظم الحوانيت اقفلت واجهاتها . والعربات على الطريق كانت كثيرة كأيام

الشتاء الأكثر حركة . ومقابل ذلك فان حديقة التويلري كادت تكون مقفرة لولا كتائب الحرس الجمهوري التي تجمعت فيها من قبيل الاحتياط ؛ وفي ظل الاشجار كانت تلمع ارداف الخيول المتحركة ، والخوذات تسطع ببروق مقتضبة .

وخبر المظاهرة يجب أن يكون خاطئاً . إذ لم يكن في ساحة الكونكورد أي مظهر غير عادي . وحركة السير فيها لم تنقطع. إلا اذا كان حاجز ضعيف من الشرطة يمنع الوصول، عند كل حادث، إلى تمثال ستراسبورغ الذي كانت قاعدته هي ايضاً تختفي تحت اكاليل مربوطة بأشرطة بلون العلم الوطني .

ورأت الجماعة الصغيرة الآتية من صحيفة « الانسانية » انها خُدعت فانفرط عقدها .

وانخرط جاك وجني في حشد الشارع الملكي الغفير . وقال جاك :

– الساعة الرابعة والنصف. هيا لنستقبل مولر. ألستِ تعبة ؟ بامكاننا الصعود سيراً على الاقدام حتى محطة الشمال .

وسارا في الجادات، ثم في شارع غومارتان ليبلغا شارع سان لازار. وفجأة، وحين وصلا الى أمام سان لويس – دانتان ملأت الفضاء جلبة تصم الآذان : كان جرس الكنيسة الكبير يُقرع بضربات شديدة ذات نغم واحد ، مميزة ، داوية ، احتفالية .

والناس الذين جمدوا في اماكنهم تصفحوا وجوه بعضهم البعض بذهول . ثم اخذوا يركضون في جميع الاتجاهات .

فتلجلجت جني ، وقد امسك جاك بذراعها :

– ماذا ؟ ما الأمر ؟

فتمتم احدهم بقربها :

– لقد وقع المقدّر .

وفي البعيد كانت اجراس أخرى تهتز. وفي مدى دقيقة اصبحت سماء باريس شبيهة بقبة برونزية مصطدمة من جميع النواحي بنفس الايقاع المتماسك المشؤوم

لجرس النعي .

ولم تفهم جني شيئاً فرددت :

– ما الأمر ؟ الى أين يركضون ؟

وبدون أية كلمة سار بها على الطريق الذي كان يجتـــازه من جميع الجهات مئات الأشخاص غير المبالين بالعربات .

وهناك تجمع كان يكبر حجمه لدى النظر ، وقد تشكل أمام مكتب البريـد .

وعلى الزجاج ورقة بيضاء ألصقت من الداخل . ولكن جاك وجني كانا على مسافة بعيدة فلا يستطيعان قراءتها . وقد تناهت إلى الاسماع تمتمة « لقـد وقع المقدّر .. » والذين كانوا في الصفوف الأولى ظلوا مشدوهين دقيقة ، والجباه مرفوعة نحو الاعلان الذي كانوا يبدون انهم يهجئونه ، مع بذل جهد كبير في الانتباه . ثم التفتوا ، والعيون مغتمة ، والوجه يرشح عرقاً ، وهو شاحب ؛ وشق البعض طريقاً دون قول شيء ، دون النظر إلى أحد ، وهربوا وذقونهم على صدورهم ؛ وآخرون ، على العكس ، هزوا رؤوسهم ، وعيونهم مغشاة ، وساروا رغماً عنهم ، باحثين عن النظرات الاخوية ، متلجلجين بكلمات مخنوقة لم تجد ترحيباً .

واخيراً استطاع الشابان الاقتراب بدورهما . كان عـــلى الورقة الصغيرة المستطيلة ، المثبتة عـلى الزجاج بواسطة أربع رقائق ، ذات الخـاتم الوردي اللون ، كتابة مبهمة ، معتنى بها ، كتابة امرأة كانت قد رسمت هذه الخطوط الثلاثة ووضعت تحتها خطوطاً بالمسطرة :

التعبئة العامة .

أول يوم للتعبئة هو الأحد

في الثاني من آب .

وضمت جني اليد التي وضعها جاك تحت ذراعها . أما هو فقد ظل جامداً . وكان يفكر كالآخرين : « لقد وقع المقدّر » . وكانت الأفكار تتتابع في

دماغه بسرعة ، وقد دهش ، رغم كل شيء ، لأنه تألم قليلا . ولم يكن ذلك بسبب ذلك الجرس الذي كان يدق دماغه بين ثانية واخرى ، حتى انه ربما شعر براحة عصبية : ذلك النوع من الانفراج العضوي الذي سوف تحمله اليه دون شك أول قطرة من المطر في نهاية هذا النهار العاصف .. تهدئة مفتعلة لم تدم سوى برهة كجريح لم يشعر بالضربة في بادىء الأمر ولكن الجرح انفتح فجأة وأخذ يسيل دماً ، وانتابه ألم حاد ، وسمعت جني آهة بجاء بين الاسنان المنقضبة .

– جاك ..

لم يكن يريد الكلام. وتركها تقوده إلى خارج الحشد . وكان هناك مقاعد وطاولات تملأ الرصيف ، فجلسا صامتين .. ومن فوق الرؤس المحتشدة التي كانت أمواجها تتجدد دون انقطاع،شاهد على الزجاج الاعلان الأبيض الذي لم يستطيعا تحويل العيون عنه .

وهكذا ، كان يعيش طوال أسابيع ، دون ان يرتاب يوماً واحداً بانتصار العدالة ، والحقيقة الانسانية ، والحب ؛ لا كموحى اليه يتمنى معجزة ، بل كعالم طبيعي ينتظر خاتمة تجربة لا تخطىء – وقد انهار كل شيء .. يا للعار ! وضيقت عليه الخناق فورة باردة ، محتقرة . لم يشعر أبداً بمثل هذا الغم من قبل . لقد شعر انه مشوش مستذل أكثر مما شعر بانه متمرد خمدت شجاعته . مستذل بسبب ضعف الارادة الشعبية ، بسبب قصور الإنسان الذي لا شفاءمنه ، بسببعجز العقل !وقال لنفسه:« انا،ماذا افعل الآن ؟» في ومضة وعيغاص في اعماق نفسه ، في اكثف وحدته . كان يبحث فيها عن جواب ، عن شعار ، عن اتجاه ، على غير طائل . لم يكن يستطيع الدفاع عن نفسه ، أمام شكه ، ضد نوع من الذعر .

واحترمت جني صمته . كانت تنظر حولها بفضول ممزوج بالرعب . لم تكن تدرك جيداً ما هي التعبئة ، وما هي الحرب .. وكانت تفكر

بأمها على الأثر ، وبدانيال ؛ وبجاك على الخصوص . ولكن بسبب عدم وجود المخيلة فان الاخطار التي تتعرض لها كل هذه الكائنات العزيزة لم تكن تبدو لها بوضوح .

وقالت بصوت منخفض كصدى لقلق جاك :

ـ ماذا ستفعل ؟

كان الصوت هادئاً وثابتاً . وقد اتسع له الوقت ليفكر : « كم هي طيبة في كل هذا ! »

ولكنه لم يكن يملك الشجاعة ليجيب. فلفت عينيه وهو يجفف جبهته، وقال وهو ينهض :

ـ مهما كان الأمر فلنذهب إلى المحطة .

طوال فترة ما بعد الظهر كانت آن مكومة في مقعدها بجانب الهاتف آملة عبثاً ان تتلقى كلاماً من انطوان . وقد حاولت رفع السماعة عشرين مرة . وكانت اعصابها متوترة إلى الدرجة القصوى ؛ ولكنها مصممة على الانتظار وعلى الا تطلبه هي أولاً . وكانت هناك صحيفة منشورة على قدميها . وقد اجالت عينيها فيها بغضب . ماذا تهمها هذه الحكايات ، والنمسا ، وروسيا ، والمانيا ؟ .. وظلت منطوية على نفسها كأنها مهووسة ، ولم تنقطع عن تخيل المشهد الذي ستقوم به مع انطوان ، في بيتها ، في غرفة شارع واغرام، مضيفة تفاصيل جديدة دون انقطاع ، واجوبة جديدة ، وتوبيخات جارحة أكثر فأكثر كانت تخفف من حقدها للحظمة. ثم كانت تنسى غضبها فجأة وتطلب منه الصفح ، وتحيطه بذراعيها وتسير به نحو السرير ..

وسمعت فجأة في الطابق الارضي أبواباً تقعقع ، وخطى تركض . فرفعت عينيها آلياً نحو الساعة : الساعة الخامسة إلا عشرين دقيقة . وفتح الباب كما تفتحه هبة ريح ، وظهرت الوصيفة :

– سيدتي ! لقد رأى جوزيف أمر التعبئة ! فقد علقوه في البريد ، انها الحرب !

فقالت آن متجمدة : وبعد ؟

وكانت تردد ذهنياً : « الحرب .. » دون أن تفهم جيداً . كانت فكرتها الاولى فكرة حزن مصحوب بغضب : « سيمون سيعود » ثم فكرت: «ليذهب الأبله وليحارب » . ولكن فكرة مؤثرة نفذت اليها على الاثر : « يا الهي ، إذا كان هناك حرب فان توني سيذهب .. سيقتلونه لي ! » ونهضت بوثبة :

– قبعتي .. قفازي .. بسرعة .. أطلبي السيارة .

وشاهدت نفسها في مرآة المدخنة قد شاخت ، ومنخراها مقروصان . فقالت لنفسها بيأس : « كلا .. انا اليوم كثيرة القبح » .

وحين رجعت الوصيفة كانت آن قد عادت الى الجلوس في المقعد ، وجذعها منحن إلى الامام ، واليدان ملتقيتان ، مضمومتان ، بين الركبتين . وقالت بصوت عذب دون ان تعتدل :

– كلا يا جوستين .. شكراً .. اصرفي جو .. أعدي لي حماماً ، اتريدين ؟ حماماً ساخناً جداً .. ورتبي لي سريري . سأحاول النوم قليلاً ..

بعد بضع لحظات كانت في غرفتها ، نائمة في الظلام الخفيف . وكانت الستائر مسدلة ، وجهاز الهاتف في متناول يدها : لم يكن عليها إلا ان تمد ذراعها إذا نادى .. سوف يقل عذابها،هنا ، بين هذه الأغطية . ومن الطبيعي ان من الأفضل الا تشعر به حالاً . كان يجب الصبر نصف ساعة ، ثم تنقطع الاختلاجات ، ويهدأ هيجان الدم ، ويتخدر الدماغ قليلاً . ولكن هذا كان بالحتمية يتطلب جهداً فوق طاقة البشر بان تنتظر متمددة هكذا ، مطبقة الجفون دون حركة ، دون رفة أهداب .. توني .. الحرب .. توني .. آه ، ان تراه فقط ، وتستعيده ..

ونهضت بوثبة ، مترنحة ، عارية القدمين ، ضاغطة وجهها بين يديها ، وركضت حتى الصالون الصغير . وحتى دون ان تهتم بادناء كرسي ، ركعت

على الطنفسة امام المكتب ، وأخذت ورقة وقلماً رصاصياً وكتبت :

« اني أتعذب كثيراً ياتوني . وهذا لا يمكن ان يدوم . لا استطيع ، لا استطيع . ربما ستذهب. متى ! لا اعرف شيئاً عنك . ماذا فعلت لك ؟ لماذا ؟ يجب أن أراك يا توني . هذا المساء في بيتنا سأنتظرك . الساعة الآن هي الخامسة . أنا ذاهبة . سأنتظرك هناك كل السهرة ، كل الليل . تعال متى استطعت . ولكن تعال . يجب أن أراك . عدني أنك ستأتي . يا حبيبي توني . تعال » .

ورنت الجرس .

- قولي لجو ان يأخذ هذا حالاً .. ليصعد إلى الشقة .

وخطرت لها فكرة أن سيمون ربما كان مستقلاً قطار الصباح ، وان من الممكن ان يصل بين دقيقة وأخرى ... عندئذ ارتدت ملابسها بسرعة وهربت .

وقد اجبرت نفسها على السير لتهدىء أعصابها . ورغم صبرها الفارغ فقد وصلت الى شارع واغرام سيراً على الاقدام .

وكانت هذه المرة واثقة ، واثقة من مجيء انطوان ، دون أن تستطيع قول لماذا .

ودخلت إلى « بيتهما » من البـــاب الخاص في الزقاق . وحين كانت تدير المفتاح في القفل **شعرت** انه هنا . وكانت على يقين الى درجة انها ابتسمت كمن يعتقد بالخرافات . واعادت إغلاق مصراع الباب دون ضجة ، واندفعت على رؤوس أصابعها خلال الغرف التي كانت ابوابها مفتوحة ، منادية بصوت منخفض : « توني .. توني ... » كانت الغرفة فارغة . لقد سمعها واختبأ . وركضت إلى غرفة الحمام ، وركضت إلى المطبخ ، وعادت منهوكة إلى الغرفة وجلست على السرير .

لم يكن انطوان هناك ولكنه سيأتي .

وبدأت تخلع ملابسها ببطء . فنزعت حذاءها اولاً ، ثم انتزعت جوربها .

وبحركة طويلة وعنيفة عرت لحمها دفعة واحدة ، كما تقشر ثمرة . وخيل اليها انها سمعت وقع خطى فلفتت رأسها . كلا ، لم يكن هو . وتاهت عيناها خلال الغرفة ، واستقرتا على السرير . كانت تحب ان تستيقظ اولاً وتفاجىء عشيقها نائماً ، وتتفحصه على مهل ، الجبهة بدون غضون ، والفم هادىء ، الفم العديم الارادة – يختلف جداً عن شفتيه المسترخيتين المشقوقتين ، الصبيانيتين ! في تلك اللحظة فقط كانت تشعر انه ملك لها . « يا حبيبي توني .. » سيأتي . انها متأكدة . سوف يأتي هذا المساء .

ولم تكن مخطئة .

٦٨

كانت محطة الشمال محتلة عسكرياً . ففي الساحة ، وفي القاعة الكبرى ، لم يكن هناك سوى بنطلونات حمراء ، ورزم ، وأوامر موجزة ، وجلبة خشب البنادق . الا انهم تركوا المدنيين يتجولون . ولم يلق جاك جهداً بالدخول مع جني حتى الارصفة .

كان حوالي الستين مناضلاً قد جاؤوا ينتظرون القطار . وكانوا يرددون : « لقد وقع المقدّر » وهم يقتربون . وكانوا يهزون رؤوسهم بغضب ، ويشنجون قبضاتهم وينظر بعضهم إلى بعض بنظرات غاضبة . ولكن تحت هذا العنف المكتوم بسهولة كان يظهر الخمود والانصياع . وقد بدا الجميع انهم يفكرون ! « لقد كان الأمر محتوماً » .

وقال راب بعد ان شدّ على يد جاك بصمت :

– ماذا كان بود المعلم ان يقول ، ماذا كان بوده أن يفعل ؟

فتمتم جاك :

– لا يوجد اي أمل الا في هذه المقابلة مع مولر .

وكانت اللهجة عنيدة . كان يتصلب في ثقته كما يتمسك المرء بقسم .

والى الامام،على طرف الرصيف ، كانت بعثة النواب الاشتراكيين تشكل مفرزة مميزة .

وتقدم جاك تتبعه جني وراب بين الجماعات دون ان يختلط بأي منهـا . وعيناه في البعيد ، ويقول كأنه يحلم :

– هذا الرجل الذي جاءنا من المانيا ، في الساعة الأكثر شؤماً ، مكلف بأثقل المسؤوليات..هذا الرجل الآتي بطريق بلجيكا ، والذي ترك برلين اول البارحة ، دون أن يكون قـد عرف شيئاً . والذي عرف بدون انقطاع ، ومن مرحلة إلى مرحلة ، بالتعبئة الروسية – والتعبئة النمساوية – و « حالة خطر الحرب » الالمانية : – وبمقتل جوريس هذا الصباح .. والذي سيخبرونه عند نزوله من القطار ان فرنسا اعلنت التعبئة . والذي سيعلم هذا المساء دون شك ان التعبئة العامة قد أُقرّت ايضاً في بلاده .. ان هذا مؤثر ..

وحين ظهرت القاطرة اخيراً من بين البخار ، دافعة امامها غيوم بخارها ، سرت رعشة على الرصيف واتجه الجميع الى الامـــام بحركة واحدة . ولكن مستخدمي المحطة كانوا متيقظين ، فاندفعوا وارتجلوا حاجزاً : وُسمح فقط للمبعوثين البرلمانيين بالاقتراب من القطار .

ورآهم جاك يحيطون بعربة قطار كان يقف على رفرفها مسافران . وعرف هرمان مولر حالاً . والآخر الذي لم يكن يعرفه ، كان رجلاً لايزال شاباً ، ذا بنية حسنة ، يتكشف وجهه عن طابع استقامة وقوة .

وسأل راب :

– من هو الذي يرافق مولر ؟

– هنري دي مان ، بلجيكي . رجل حقيقي ، طاهر . رجـــل يفكر ويبحث .. يجب أن تكون رأيته في بروكسل نهار الاربعاء .. يتكلم الالمانية كالفرنسية ؛ وقد جاء ليقوم بالترجمة .

ولمست جني ذراع جاك :

– انظر .. لقد سمحوا بالمرور .

واسرعا ليلحقا بجماعة الرسميين . ولكن صف المسافرين سد المخرج . وحين استطاع اجتياز شبابيك التذاكر فان البرلمانيين الذين كانت مهمتهم السير بالمبعوث الألماني رأساً إلى الاجتماع الخاص في قصر البوربون كانوا قد اختفوا .

وفي القاعة الكبرى توقف حشد أمام اعلانٍ موضوعٍ حديثاً . واقترب جاك وجني . كان عنوان الاعلان يحمل بحروف كبيرة :

ترتيبات تتعلق بالاجانب

وارتفع وراءهما صوت ساخر :

— لا تضيعوا الوقت أيها الرفاق ! يجب ان تؤكدوا انهم طبعوا كل هذا مقدماً !

والتفتت جني . كان الرجل الذي يتكلم شاباً : انه عامل بصدرة زرقاء ، بين شفتيه عقب سيكارة ، وحذاءان جديدان من الجلد السميك كانا يتدليان على ناحيتي كتفه .

ولاحظ جاره مشيراً إلى فردتي الحذاء المسمّرتين :

— وأنت أيضاً لا تضع وقتك .

فقال العامل وهو يبتعد :

— لنرفس ركبتي غليوم .

وضحك الجميع .

ولم يتحرك جاك . ولم تنفصل عيناه عن الاعلان . وكانت أصابعه المتشنجة تشد على مرفق جني . ودلها بيده الحرة على فقرة بحروف كبيرة :

« الاجانب ، دون تمييز في الجنسية ، يستطيعون مغادرة معسكر باريس المحصن **قبل نهاية اليوم الأول من التعبئة** . وعليهم قبل رحيلهم أن يثبتوا هوياتهم في مفوضية شرطة المحطة » .

كانت الأفكار تركض في دماغ جاك « الاجانب .. » ان الرزمة التي تركها عند جني لا تزال تحتوي على أوراق الهوية المزورة التي أُعطيت له لأجل مهمته في برلين .. والفرنسي جاك تيبو ، حتى لو ابرز شهادات التسريح من الجندية ، فانه سيلاقي بعض الجهد دون شك في الذهاب إلى سويسرا ؛ ولكن من يستطيع

منع الطالب الجنيفي إيبرله من العودة إلى بلده في المهلة القانونية ؟ **قبـــل نهاية أول يوم من التعبئة** .. الاحد .. غداً ..

وقال لنفسه فجأة :

– الذهاب قبل مساء غد . ولكن هي ؟

ولف ذراعه حول كتفي الفتاة ، ودفع بها خارج الجمهور . وقال بصوت مرتجف :

– اسمعي . يجب حتماً أن امر على اخي .

وكانت جني قد قرأت الفقرة ذات الحروف الكبيرة : « **الاجانب** الخ » . فلماذا اضطرب جاك فجأة ؟ لماذا سار بها بهذه السرعة ؟ لماذا أراد الذهاب إلى انطوان ؟

هو نفسه لم يكن يعرف أن يقول . لقد اتجهت فكرته الأولى إلى انطوان في شارع كومارتان ، حين دق جرس الانذار . والآن ، في الاضطراب الذي القاه فيه هذا الاعلان فقد استولت عليه حاجة غير معللة ليرى اخاه .

ولم تجرؤ جني على إلقاء الأسئلة . وهذا الحي حيث محطتا الشمال والشرق ، وحيث كانت نادراً ما تأتي ، كان مرتبطاً ، بالنسبة اليها ، بذكرى هربها أمام جاك ، مساء ذهاب دانيال : وهذه الذكرى المحياة كانت تضيق عليها .

وكان مظهر المدينة قد تغير في مدى ساعة . كثير من المشاة في الشوارع ، ولكن المتسكعين اكثر . والجميع يسرعون غير مفكرين إلا باعمالهم . وكلٌ من هؤلاء المارة يبدو انه اكتشف صعوبات عليه أن يحلها بسرعة ، وترتيبات يجب اتخاذها ، ووكالة يجب ان يقوم بها ، وأهلاً واصدقاء يجب رؤيتهم ، ومصالحـة ضرورية يجب محاولة القيام بها ، وقطيعة يجب اتمامهـــا . العينان في الأرض ، والفم مطبق ، والوجه مهموم ، كانوا يركضون ، وللسير بسرعة كانوا يجتاحون الطريق التي أصبحت العربات قليلة فيها ، وقليلاً جداً من سيارات الأجرة : فقد وضع جميع السائقين تقريباً سياراتهم في المحطات ليكونوا احراراً . وكثير من الاوتوبيسات : عربات النقل المشترك كانت قد صودرت منذ هذا المساء .

كانت جني تتعب في اللحاق بجاك وتسعى حتى لا يظهر عليها ذلك . كان يمشي متوتر القسمات ، والفك إلى الامام شبيهاً بالآخرين : كانت هيئته كأنه مطارد . وبدون ان تدرك أفكاره فقد شعرت انه فريسة معركة داخلية .

وبالفعل ، فان قراءة الاعلان بلورت بغتة في نفسه ميولاً كانت حتى الآن لاشعورية ومطولة . وكان خيال مينستريل قد انتصب أمام عينيه . وتراءت له غرفة بروكسل ، والربان واقفاً في بيجامته الزرقاء ، ذاهل العين .. والموقد مليء بالرماد .. كان بدون اخبار منذ نهار الخميس . وكان يتساءل أكثر من مرة : « ماذا يفعل، هو،هناك ؟ » . من المؤكد انه في صميم العمل الثوري .. **يستطيع الاجانب مغادرة باريس** .. في جنيف ، إلى جانب الربان ، سوف يجد محيطاً عملياً ، ظل طاهراً مستقلاً ! وفكر بريشاردلي وميتورغ ، وبتلك الكتيبة التي لم تمس ، المعزولة هناك في وسط اوروبا الحاملة السلاح . الذهاب إلى سويسرا .. كان الميل قوياً الا انه كان يتردد بسبب جني .. نعم ..ولكن جني لم تكن السبب الحقيقي لتردده . هل سيعاني وسواساً بسبب هربه من الجندية ؟ أبداً . بالعكس ؛ ان واجبه الأول هو أن يرفض الدفاع ، كجندي ، عن كل ما لم ينقطع عن إدانته ومحاربته .. ان فكرة الذهاب والانزواء هي التي كانت غير محتملة بالنسبة اليه . الانزواء ، بينما الآخرون ! كلا ! انه لن يعيش بسلام مع نفسه الا اذا شكل رفضه مجازفة وخطراً شخصياً يمادلان المجازفات والاخطار التي سيتعرض لها اخوانه المجندون .. اذن ؟ أيقلع عن الالتجاء إلى بلد محايد ويبقى في فرنسا ؟ ايناضل ضد الحرب ، ضد الجيش ، في بلد في حالة الطوارىء ؟ حيث كل دعاية للسلام تصطدم بقمع لا يرحم ؟ وحيث سيصبح مشبوهاً ، مراقباً ،وربما ُسجن احتياطياً ؟ هذا مستحيل .. اذن ؟ الذهاب إلى سويسرا ! ولكن ليعمل ماذا ؟

وقال بعنف :

ـ الكينونة ، ليست بشيء .

وبما ان جني نظرت اليه مندهشة ، قال :

– الكينونة ، التفكير ، الايمان . هذا ليس بشيء ! ليس بشيء مادام لا يمكن التعبير عن الوجود ، والتفكير ، واليقين **بأعمال** !

– بأعمال ؟

لقد ظنت انها سمعت خطأ . ومع ذلك فكيف فهمت ما أراد ان يقوله ؟ وتابع بنفس العنف المنعزل :

– ترين انني أقول ان هذه الحرب ستستخلص حقها دون شك ، ولوقت طويل ، من المثل الأعلى الاممي !الوقت طويل جداً..ربما أجيال..أجل ، لو كان هناك عمل يجب اتمامه لانقاذ هذا المثل الاعلى من ذلك الافلاس الوقتي لقمت به انا ! ولو كان عملاً يائساً .. – وأضاف بصوت منخفض : – ولكن أي عمل ؟

فتوقفت جني :

– انك تفكر بالرحيل يا جاك !

فنظر اليها . وأوضحت : إلى جنيف ؟

فأتى بحركة تدل على نصف إقرار .

وتنازعتها عاطفتان متناقضتان – سرور وشقاء : « اذا ذهب إلى سويسرا فسينجو .. ولكن ماذا يصير بي بدونه ؟ » .

وأوضح:إذا صممت على الذهاب،نعم،فسيكون إلى جنيف، أولاً لأن هناك لا يزال بالامكان محاولة عمل شيء..وثم لأنني املك أوراقاً مزورة تسمح لي بالعودة بسهولة إلى سويسرا . وقد قرأت الاعلان .

فقاطعت باندفاعة حادة :

– اذهب ! اذهب غداً .

وذهل من صلابة صوتها :

– غداً ؟

وبدا لها ألق من الأمل رغماً عنها لأن النبرة بدت انها تقول :« كلا ، ربما فيما بعد . ولكن ليس غداً » .

وعاد إلى السير ، فتعلقت به وقد ارتخى ساقاها. وتمتم أخيراً :

-- سأذهب غداً .. لو .. لو كنت تذهبين معي .

فارتعشت من السعادة . واختفى كل خوفها المبهم باعجوبة . سيذهب . لقد نجا ! وسوف يذهب معها ، ولن يفترقا !

وظن جاك انها تتردد فقال :

— ألست حرة ما دامت والدتك محتجزة في فيينا ؟

كان كل جوابها انها زادت من التصاقها به ، وكانت خفقات قلبها ترن حتى في صدغيها وتسبب لها دواراً. انها له جسداً وروحاً . ولن يتركا بعضهما البعض أبداً . وسوف تحميه ، سوف تمنع الخطر من الوصول اليه .

واصبحا يتحدثان الآن عن هذا الرحيل كأنه أمر وضعت خطته منذ وقت طويل . وكان جاك قد نسي موعد قطار الليل إلى سويسرا بالضبط ؛ ولكنه سوف يجد دليلاً عند انطوان.وكان يجب التأكد أيضاً إذا كانت جنيتستطيع السفر بدون جواز . يجب ان تكون الاجراءات للنساء أقل صرامة . أما نقود بطاقات السفر ؟ إذا جمعا ما معهما يصبح لديهما ما يزيد عن المبلغ اللازم . وفي جنيف فان جاك سيزيل الصعوبات .. إلا ان كل شيء ما يزال متوقفاً علىنتيجة المفاوضات مع المندوب الالماني . من يدري ؟ إذا تقرر فجأة القيام بحركة عصيان في البلدين ؟

ووصلا إلى الحدائق المحيطة بالتويلري دون ان يفطنا إلى الطريق ، كانت جني سابحة بالعرق ، منهوكة . وبكل خجل أرته من بعيد مقعداً بين الزهور . وجلسا . كانا لوحدهما . والعاصفة التي تثقل على المدينة منذ الظهر أبقت في الأرض رائحة الزهور .

وكانت جني تقول لنفسها : « استطيع من سويسرا مراسلة والدتي .. باستطاعتها اللحاق بنا : بلاد محايدة ! .. » وتخيلت حياتها في جنيف ، بين امها التي لقيتها بعد ضياع وبين جاك ، بمعزل عن الخطر .

وجاك الموسوس كان يردد : « الذهاب ، نعم .. ولكن لعمل ماذا ؟ كان

يضع كل امله بمينستريل ويتصور ان جنيف هي آخر معقــل ثوري لم يمس . وتذكر « لابارلوت » ولم يستطع التغلب عــلى شكوكه حول فعالية العمل الثوري المحتفظ له به هناك .

ونهض . لم يكن بامكانه البقاء في مكان :

– تعالي ، الآن . سترتاحين في شارع الجامعة .

ورفعت جسدها فابتسم .

– ولكن نعم ، تعالي .

– انا ؟ عند اخيك ؟ معك ؟

– ماذا يهمنا الآن ؟ من الأفضل ان يعرف انطوان .

كان يبدو واثقاً من نفسه ، كثير العزم ، بحيث تخلت عن كل ارادة وتبعته مطيعة .

٦٩

كان في الدهليز صندوقة جديدة لضابط لا تزال تتدلى منها بطاقة المتجر . وقال ليون وهو يفتح للشابين باب غرفة المعاينة :

– السيد هنا .

ودخلت جني دون تردد .

كانت الغرفة صامتة . وشاهد جاك اخاه واقفاً أمام مكتبه ، فظنه وحيداً ، وخاب امله حين رأى ستودلر ، ثم روا يبرزان من المقعدين حيث كانا جالسين متباعدين . روا بقرب النافذة ، وستودلر في زاوية المكتبة . وكان انطوان يرتب أوراقاً ؛ وتحت المكتب كانت السلة ملأى ، وهناك أوراق ممزقــة كانت تغطي الطنفسة .

وتقدم نحو جني وأخذ يدها بطريقة أبوية . ولم تبد عليه الدهشة ؛ فقــد كان يوم لا يُدهش فيه من شيء . ومع ذلك فقد تذكر ان مدام دي فونتانان ، في الكلمة الصغيرة التي كتبتها اليه بعد الدفن ، لتشكره على زيارته للمستشفى ،

قد اعلنت له عن سفرها . وفكر بغموض ان جني وحدها في باريس ، وقد جاءت تستشيره ؛ وانها التقت بجاك على الدرج .

وتلاقت نظرات الاخوين. وشنّج فيهما معاً تأثر أخوي ، بنوع من الابتسامة الحبية ، المثقلة بالافكار المضمرة . ورغم كل ما كان يفصلهما لم يشعرا ابداً انهما كانا أكثر قرباً من بعضهما البعض ، وحتى أمام سرير والدهما الميت ، لم يشعرا انهما أكثر ارتباطاً بسر ذات الدم . فشدا على يدي بعضهما البعض دون أية كلمة .

وأجلس انطوان الفتاة، وبدأ يسألها عن سفر والدتها حين فتح الباب وظهر الدكتور تيريفيه ، وقد جاء به جوسلان .

وجاء رأساً إلى انطوان :

– لقد وقع المقدّر .. وليس بالمستطاع عمل شيء .

فلم يجب انطوان حالاً . كانت نظرته رصينة ، هادئة تقريباً . وقال اخيراً :

– كلا ليس بالمستطاع عمل شيء .

ثم ابتسم ، لأن هذا هو ما كان يفكر به ؛ وهذا التفكير كان قوة بالنسبة اليه .

(حين اتى مانويل روا الصغير يعلن له خبر التعبئة كان انطوان موجوداً في مختبر جوسلان . ولم يتحرك ، وقد اخذ سيكارة وأولعها ببطء ، بحركة آلية . منذ ثلاثة أيام كان يشعر انه اسير ، محكوم عليه بالخمود ، يجتذبه الحادث العالمي ، متكافل مع وطنه ، مع طبقته ؛ اكثر عجزاً من حصاة أُخذت من كتلة زالقة من عجلة تفرغ حمولتها . ومستقبله ، ومشاريعه ، والتنظيم الذي فكر فيه وقتاً طويلاً في حياته ، كل هذا كان على الأرض . وامامه المجهول . ولكن العمل أيضاً . هذه الفكرة المشحونة بالقوة جعلته ينتصب ثانية . كان لديه موهبة عدم التمرد طويلاً ضد التام ، ضد المحتوم . أما العائق فأعطية جديدة . كل عائق يطرح مشكلة جديدة . وما من عائق لا يمكن ان يصبح وسيلة ، فرصة للوثوب من جديد ، إذا أريد له ذلك) .

وسأل تيريفيه :
– متى تذهب ؟
– غداً صباحاً . كومبيانيه .. وانت ؟
– بعد غد . نهار الاثنين . إلى شالون ..
ووجه الكلام إلى ستودلر الذي جاء نحوهما :
– وأنت ؟

كان لتيريفيه عادة تدل على مزاج رائق بحيث ظل اليوم صوته مرحاً ، ووجهه الملتحي ، السمين ذو الوجنتين الورديتين ، كان يحتفظ بتعبير ضاحك . ولكن تناقض هذا الفرح مع قلق النظرة يجعل له وجهاً غير متناسق ، ورؤيته تؤلم .

– أنا ؟

قال الخليفة وهو يرف بأهدابه . لقد بدا ان سؤال الطبيب انتزعه من حلم ، فالتفت نحو جاك كأن عليه ان يقدم الايضاحات له ، وقال بنبرة متعجرفة :

– وانا ذاهب أيضاً ! بعد ثمانية أيام فقط . إلى إفرو Evreux .

وتجنب جاك النظر اليه . لم يكن يقاضيه . كان يعلم ان حياة الخليفة لم تكن سوى تتمة من التفاني والتضحيات : وبقبوله خدمة هذه الحرب « الدفاعية » رغم براهينه المقنعة ، فان هذا الرجل النزيه كان يخضع ، مرة اخرى إلى ما يعتقد انه واجب .

وبحث بعينيه عن جني . كانت واقفة بقرب المدخنة ، منتحية قليلاً عن الآخرين . ولم تكن تبدو قلقة ، ولكنها غائبة . ورآها تعتدل قليلاً باحثة بعينيها عن مقعد ، وتقوم ببضع خطوات وتجلس . وقال لنفسه : « كم هي مرنة ! » وظن انه لا يزال يمسكها بين ذراعيه . وتذكر بأية طريقة عنيفة مستمرة كانت ترتعش تحت قبلاته الأولى . واجتاحه اضطراب لذيذ لم يقاومه . وتلاقت نظراتهما ؛ وابتسم ، وشعر انه قد احمرّ .

وكان انطوان قد اقترب من جني ، واستعلم عن دانيال ، حين قاطعه

تيريفيه :

– ولخدماتك في المستشفى ؟ ماذا يتوقعون ؟

– يطلبون من الشيوخ أن يعودوا . فعندنا اوريان توماس ، وحتى الأب ديليري قد قبلا .. – وقال موجهاً سبابته نحو تيريفيه : قل أنت اذن .. انك لم تأتنا بالملف الذي اعارك اياه جوسلان في يوم سابق ! « لحميات الحلق » .

فاتخذ تيريفيه الفتاة كشاهد وهو يبتسم :

– لا يمكن اصلاحه ! حسناً سأرسل ملفك الى ستودلر ·· سر مطمئناً يا حضرة الماجور .

من الشارع ، ومن احدى النوافذ المفتوحة على مصراعيها ، كانت تتصاعد منذ لحظة ضوضاء : أناشيد ، وقع سنابك خيول ، وتقدم الجميع ليروا . واغتنم جاك الفرصة ليقترب من اخيه الذي ظل وحده في وسط الغرفة ، ولكن في تلك اللحظة انضم انطوان الى الآخرين . وتبعه جاك نحو النافذة .

انها فرقة من المدفعية آتية من الانفاليد التقت بصف من المتظاهرين الايطاليين كانوا يجتازون شارع سان بير ويتقدمهم اربعة طبول وعلم .

وتوقف الايطاليون وأخذوا ينشدون المارسيلياز ، ويهتفون للجيش . وكانت الطبول تقرع . واصبحت الضجة تصم الآذان .

وأقفل انطوان النافذة وظل لحظة مفكراً وجبهته على الزجاج . وكان جاك قد ظل إلى جانبه . وعاد الآخرون إلى منتصف الغرفة . وقال انطوان دون ان يغير وضعه :

– لقد تلقيت هذا الصباح رسالة من انكلترا .

– من انكلترا ؟

– من جيز .

– آه !

قال جاك ذلك وانزلق نظره حتى جني .

– رسالة مؤرخة نهار الاربعاء . تسألني ما يجب أن تفعل في حالة الحرب.

وسأجيبها أن تظل هناك ، في ديرها . وهذا خير ما تفعله . الا ترى ذلك ؟

فوافق جاك بهزة مرواغة من رأسه . وتأكد انهما وحدهما ، في معزل . وكان يريد ان يتكلم عن جني . ولكن كيف يمهد لهذا الحديث ؟

في تلك اللحظة التفت انطوان فجـــأة نحوه . وقد اتخذت قسماته تعبيراً قلقاً . وسأل بصوت منخفض جداً .

– الا تزال عازماً ... على ... ؟

– نعم .

كانت النبرة ثابتة دون غطرسة .

وظل انطوان منحنياً ، متجنباً نظرة أخيه . وكانت أصابعه تنقر بصورة آلية على الزجاج لحن الطبول البعيدة . وفطن الى أنه كان يتلجلج – وهذا أمر نادر عنده ، ويدل دائماً على الاضطراب العميق .

وأعلن ليون من الدهليز :

– الدكتور فيليب .

فاعتدل انطوان وأثار وجهه تأثر مختلف .

وظهر شبح فيليب المخلّع في اطـــار الباب . وجالت عيناه الطارفتان في الغرفة واستقرتا على انطوان . وهز رأسه بكآبة ، وسحب منديلاً ذا خطوط عريضة من سترته وجفف جبهته .

وكان انطوان قد تقدم :

– أجل . وقع المقدر ايها المعلم ..

فلمس فيليب يده بصمت ؛ ثم ، دون أن يذهب بعيداً ، وكدمية ُتركت خيوطها ، سقط مسترخياً على حافة الكرسي الطويل المغطى بقماش أبيض ، والذي كان أمامه ، وسأل بصوته القصير الصافر :

– متى تذهب ؟

– غداً صباحاً يا معلم .

وفيليب ، كأنه يمص ملبّسة ، احدث بشفتيه جلبة مبللة . وتابع انطوان

ليقول شيئاً :
- انا آت من المستشفى . كل شيء منظم وقد نقلت عملي الى بروهل .
وصمتا .
وكان فيليب ، وعيناه في الأرض ، يحرك رأسه بشكل غريب . وقال اخيراً :
- انت تعلم يا صغيري .. ان هذا يمكن أن يدم طويلاً .. طويلاً جداً .
فجازف انطوان دون اقتناع :
- كثير من الفنيين يؤكدون العكس .
فقاطع فيليب كأنه كان يعرف منذ زمن طويل ما يجب ان يعتقد بالفنيين وتخميناتهم :
- اويه !.. الجميع يعللون على أساس القواعد العادية للاعاشة والاعتمادات . ولكن اذا كانت الحكومات مجنونة بمـــا فيه الكفاية لتلعب بكل رصيدها وتتعرض للخراب الكامل أفضل من أن تستسلم !.. بعد الذي رأيناه ، منذ ثلاثة ايام، كل شيء ممكن .. كلا ، أنا اعتقد بحرب طويلة جداً تفنى فيها جميع الامم دفعـة واحدة دون ان تريد واحدة منها ، أو تستطيع ، التوقف على المنحدر .
وقال بعد صمت قصير :
- لن انتهي عن التفكير بكل ذلك .. الحرب .. من كان يظن ان هذا الأمر ممكن ؟ لقد كان يكفي ان تخلط الصحافة الورق عمداً لتضيع معـالم المعتدي عند الجميع،ببضعة ايام،ويتخيل كل شعب انه كان مهدداً «بشرفه» .. اسبوع من الارهاب المجنون ، والمبالغات ، والحذلقات ، وها هي كل شعوب اوروبا تنقضّ على بعضهـا البعض كالمجانين ، مع صراخ الحقد . لا أنتهي من التفكير في ذلك .. انها مأساة اوديب تماماً .. اوديب ايضاً قد حُذّر ، ولكن في اليوم المشؤوم لم يتعرف في الحوادث الى تلك الاشياء الرهيبة التي أُعلم بها . ونحن ، نفس الشيء .. لقد تنبأ انبياؤنا ؛ وروقب الخطر . روقب من الناحية

التي أتى منها ، من البلقان ، من النمسا ، من القيصرية الروسية ، من الجامعة الجرمانية .. لقد أنذروا بذلك .. وسهروا .. وبذل كثير من الناس العقلاء جهدهم لمنع الكارثة .. ومع ذلك ، فها هي : لم يكن بالمستطاع تجنبها ! لماذا ؟ اني أقلب السؤال على شتى وجوهه.. لماذا ؟ ربما ببساطة، لأن شيئاً غيرمتوقع، تافهاً ، يدخل في جميع هذه الحوادث المحشوة ، المنتظرة، وهو كاف تماماً لتغيير مظهرها قليلا وجعلها فجأة غير معروفة . كاف تماماً لكي يتمكن فخ القدر من لعب دوره رغم تيقظ الناس . وها نحن قد علقنا ..

وانطلقت ضحكة شبابية من الطرف الآخر من القاعة ، حيث كان جوسلان وتيريفيه وجاك وجني مجتمعين حول مانويل روا . وكان روا يقول لتيريفيه :

– ايه . ماذا ؟ الا تريدني ان اشكو ! هذا سيعرضنا قليلاً للهواء ويخرجنا من الخمود ! اننا سنعيش تجربة تستهوي .

فتمتم جوسلان : نعيشها ؟

وكانت جني التي تنظر الى روا لفتت عينيها بغتة : ان وجه الشاب المتحمس سبب لها الألم .

وكان فيليب يستمع من بعيد ، فالتفت نحو انطوان :

– لايستطيع الشبان ان يتصوروا الأمر..وهذا يوضح الكثير من الأمور . انا، رأيت عام ٧٠ .. اما الشبان فلا يعرفون ..

وسحب منديله من جديد ومسح وجهه وشفتيه ولحيته وسدّ طويلا تجويف يده . وتابع بصوت منخفض ، وبكآبة :

– انكم تذهبون جميعكم . وتفكرون بالتأكيد ان للشيوخ حظاً في البقاء . هذا ليس صحيحاً . فمصيرنا اسوأ من مصيركم : لأن حياتنا ، نحن ، قد انتهت .

– انتهت ؟

– نعم يا صغيري ، انتهت تماماً ... تموز ١٩١٤ : شيء كنّاه قد انتهى ؛ وشيء بدأ ولن نكون فيه نحن الشيوخ .

وكان انطوان يتأمله ببرودة دون أن يجد شيئاً يجيبه به .

وصمت فيليب . ثم أسمع ضحكة خنّاء كما لو أن فكرة مضحكة دغدغت عقله . وبدأ بتلك النبرة المعتادة التي يستعملها بين الناس وفي دروسه (والتي تقول للطلاب : « فيليب معجب بكلامه ») .

– في حياتي ثلاثة تواريخ قاتمـــة . الاول أحدث ثورة في شبابي ؛ والثاني احدث انقلاباً في عمري الناضج ؛ والثالث سيسمم شيخوختي دون شك .

وكان انطوان يتفرس به كأنه يحثه على المتابعة .

– كان الأول ، حيث اكتشف الولد الريفي التقي الذي كنته ، ذات ليلة ، وهو يقرأ الأناجيل الاربعة متتالية ، ان هـذا كان نسيجاً من المتناقضات ... والثاني كان حين اقتنعت ان سيداً شنيعاً كان يدعى استرهازي قام بعمل سيء يدعى جردة حسابات ، وبدلاً من مقاضاته عكفوا على تعذيب سيد آخر مكانه لم يفعل شيئاً . ولكنه كان يهودياً [1] .

فقاطعه انطوان بابتسامة كئيبة :

– والثالث ، هو اليوم .

– كلا .. الثالث ، كان منذ ثمانية ايام ، حين نشرت الصحف نص الانذار ، حين رأيت ارتسام جولة البليار .. حين ادركت ان الشعوب هي التي ستقوم بنفقات لعبة البليار .

– لعبة البليار ؟

كانت عينا فيليب تتوقدان بنوع من المكر ، الشرس تقريباً ، تحت الحاجبين المشعثين :

– نعم . ولعبة البليار مشؤومة يا تيبو ! كرة حمراء ، الصرب – تصطدم بكرة بيضاء ، النمسا – وهي نفسها مدفوعة بكرة أخرى بيضاء ، المانيا .. ولكن من يمسك بعصا البليار ؟ من ؟ روسيا ؟ ام انكلترا ؟ – وانفجر بتلك

---

١ – يشير الى قضية دريفوس المشهورة .

الضحكة التي تشبه صهيل جواد – بودي ان لا اموت بدون ان اعلم ..

واقترب جاك من الزاوية التي كان انطوان وفيليب جالسين فيها . وقال انطوان :

– أيها المعلم ، لقد قدمت اخي اليك قبلاً ، اليس كذلك ؟

فأرسل الطبيب العجوز نحو جاك نظره النافذ . وانحنى الشاب . ثم قال لانطوان :

– اليس لديك دليل لمواعيد مسير القطارات ؟

– بلى .

واصطدمت نظرتاهما . وكاد انطوان يسأل : « لماذا ؟ » وقال فقط :

– هناك ، تحت دليل الهاتف .

وسأل فيليب :

– وأنت يا سيد ، متى تذهب ؟

فتشدد جاك ، وتردد ونظر الى انطوان الذي دندن بسرعة :

– أخي . هو ، شيء آخر ..

وساد صمت قصير .

هل فهم فيليب ؟ كان يتأمل الشاب بانتباه كبير · هل كان يتذكر الحديث الذي كان له مع جاك ؟ وحين ابتعد هذا تبعه بعينيه .

وما ان اصبحا وحيدين من جديد حتى انحنى انطوان نحو فيليب :

– انه يرفض ، من ناحية مبدئية ، أن يكون جندياً .

فظل فيليب صامتاً نصف دقيقة ، وقال مسلّماً بصوت متعب :

– كل ايمان بفكرة هو امر مشروع .

فقال انطوان :

– كلا . في الساعة التي نجتازها فان الواجب بسيط جداً ، واضح جداً وليس لنا الحق أن نتملص منه .

فلم يظهر فيليب انه سمع ، وتابع مخنخناً :

ـ امر مشروع وربما ضروري . هل تتقدم الانسانية دون ايمان بفكرة ؟ راجع التاريخ يا تيبو . لقد لزم دائماً وجود بعض التوق الديني نحو المطلق في اساس كل التغييرات الاجتماعية الكبرى . والذكاء لا يوصل الا الى الجمـــود . والايمان هو الذي يعطي الانسان الاندفاع اللازم للعمل ، والعناد اللازم للمواظبة .

فصمت انطوان . كان يقع آلياً تحت الوصاية بوجود معلمه .

ورأى جني واقفة امام المدخنة منحنية على الدليل بقرب جاك ، ودهش لحظة . لا شك ان الفتاة كانت تستعلم عن القطارات التي لا يزال بامكانها الإتيان بوالدتها من النمسا .

واستمر فيليب في التفكير بصوت مرتفع :

ـ من يعلم يا تيبو ؟ ربما كان أولئك الذين يفكرون كأخيك هم الممهدون لشيء آت . وربما تهيء هذه الحرب المشؤومة باخلالها بتوازن قارتنا القديمـة حتى الأعماق ، ازدهار حقائق ـ مزيفة جديدة لا نرتاب بها . وربما كان حسناً ان يستطيع المرء الايمان بذلك . ولماذا لا ؟ كل بلدان اوروبا ستلقي كل قواها الروحية والمادية في النار . انها ظاهرة لا سابقة لها . والنتائج لا يمكن التكهن بها .. من يدري ؟ وربما تذوب جميع عناصر المدنية في هذا الجمر من جديد ! ولا يزال لدى الناس تجارب مؤلمة يقومون بها قبل يوم الحكمة ! اليوم الذي سيكتفون فيه بتواضع ، باستعمال ما علّمهم اياه المعلم لينظموا حياتهم على الكوكب .

وأبرز ليون وجهه الغبي من فتحة الباب :

ـ انهم يطلبون السيد .

فقطب انطوان حاجبيه ، ولكنه نهض :

ـ أتسمح يا معلم ؟

كان ليون ينتظر في الدهليز ولا يبدو عليه شيء ، وقدّم طبق الرسائل وعليه غلاف أزرق .

فأخذه انطوان ووضعه في جيبه دون ان يفتحه · وتمتم الخادم منخفض العينين :

ـ انهم يسألون اذا كان هناك جواب .

ـ من هم ؟

ـ السائق ·

فقال انطوان : كلا .

ودار على عقبيه لانـه سمع الباب يفتح وراءه . وظهرت جني في الدهليز يتبعها جاك ·

ـ اتذهبان ؟

ـ نعم ·

قال جاك بنفس النبرة القاطعة الجافة التي استعملها انطوان حين أجاب الخادم : « كلا . » وتفرس بأخيه . وكانت هـذه النظره الغامضة المشحونة بالتوبيخ تعني في الواقع : « هكذا ، لقد اتينا في يوم كهذا لنراك بمفردك ، فلم تجد دقيقة تمنحنا اياها ! »

وتمتم انطوان :

ـ الآن ؟ وانت ايضاً يا آنسة ؟

وفكر بسرعة : « لو كان لديها نصيحة او خدمة تطلبها فلماذا تذهب دون ان توضح ؟ ومعه ؟» وجازف :

ـ هل استطيع ان افيدك بشيء قبل رحيلي ؟

فشكرته بابتسامة مراوغة وبانحناءة رأس مقتضبة . لم يكن يعرف بماذا تفكر . وقال موجهاً الكلام إلى جاك الذي كان يسير متعمداً نحو الدرج .

ـ وانت ؟ الا اراك ثانية ؟

كانت النبرة اخوية جداً بحيث رفعت جني عينيها ، والتفت جاك . كانت امائر انطوان تشي بكثير من التأثر بحيث تلاشى حقد جاك . وسأل :

ـ أتسافر غداً ؟

– نعم .
– في أية ساعة ؟
– باكراً جداً . سأترك الشقة حوالي الساعة السابعة .
فنظر جاك إلى جني ، وقال أخيراً بصوت أبح قليلاً :
– اتريد ان آتي واصحبك؟
فتألق وجه انطوان :
– نعم ، إفعل ذلك . تعال .. اترافقني حتى المحطة ؟
– نعم .
– شكراً يا كبيري .
وكان يتأمل أخاه الاصغر بحنان ، وردد : شكراً .
وكان الثلاثة قد وصلوا حتى الباب الكبير . ففتحه جاك وترك الفتاة تمر ، واجتاز العتبة بدوره دون أن يلتقي بنظرة اخيه . وتمتم على سطح الدرج :
– اذن ، إلى الغد .
ثم سحب المصراع . ولكنه في نفس اللحظة عاد عن رأيه ، وقال لجني .
– انزلي بدوني سألحق بك الى تحت .
وضرب الباب بقبضته بسرعة .
كان انطوان لا يزال في الدهليز ، فعاد يفتح . ودخل جاك وحده ودفع الباب وراءه . وقال وعيناه منخفضتان :
– اريد ان أقول لك كلمة .
فأدرك انطوان ان الأمر خطير :
– تعال .
وتبعه جاك صامتاً حتى المكتب الصغير . وتوقف هناك، وظل واقفاً تجاه الباب الذي أعيد اغلاقه ، ونظر الى أخيه :
– يجب أن تعلم يا انطوان .. لقد جئنا ، كلانا ، لنكلمك .. جني وأنا ..
فردد انطوان مندهشاً :

– جني وانت ؟
فقال جاك بوضوح : نعم .
وابتسم بشكل غريب .
وأعاد انطوان وهو في أوج ذهوله :
– جني و انت ؟ ماذا تريد ان تقول ؟
فأوضح جاك بصوت مقتضب ، مجزئاً العبارات وهو يحمر رغماً عنه :
– انه امر يعود تاريخه إلى بعيد . والآن ، قد تقرر كل شيء ، في مدى ثمانية أيام .
– تقرر ؟ ماذا تقرر ؟
وتراجع حتى اريكته وجلس ، وتمتم :
– هذا ليس جدّياً ؟ جني ؟ انت وجني ؟
– ولكن نعم .
– لا تكادان تعرفان بعضكما البعض .. وثم ، في هذه الفترة ؟ خطوبة عشية الـ .. ؟ اذن ماذا ؟ هل ستقلع عن ترك فرنسا ؟
– كلا . انا ذاهب مساء غد إلى سويسرا – وأضاف بعد قليل : – معها .
– معها ؟ ولكن انت مجنون يا جاك ! مجنون تماماً .
وكان جاك يبتسم دائماً :
– ولكن كلا يا كبيري . الأمر بسيط جداً : اننا متحابان .
فقال انطوان بعنف :
– لا تقل حماقات .
فضحك جاك ضحكة سيئة . لقد جرحه موقف اخيه جرحاً مؤلماً :
– انها عواطف ربما تدهشك .. لا تنال استحسانك .. لا يهم .. لا تهمني .. كنت اريد ان اعلمك بالأمر . وقد اعلمتك . والآن إلى اللقاء .
فهتف انطوان :
– انتظر ! هذه بلاهة ! لا استطيع ان ادعك تسير مع حماقات كهذه

في رأسك .

- إلى اللقاء .

- كلا .. لدي ما اكلمك به .

- ما الفائدة ؟ بدأت اعتقد اننا لن نستطيع التفاهم .

واتى بحركة ليخرج ، ولكنه لم يذهب . وساد صمت . وبذل انطوان جهداً ليمتلك نفسه :

- اسمع يا جاك .. لنشغل عقولنا - فابتسم جاك ساخراً - هناك امران يجب النظر بهما .. طبعك من ناحية . ومن الناحية الاخرى الساعة التي اخترتها لاجل .. نعم ، أولاً طبعك ، الرجل الذي هو انت .. دعني أقل لك الحقيقة . أنت في اصلك غير أهل لإسعاد كائن آخر . في الأصل ! اذن ، حتى في ظروف اخرى ، لن تستطيع أبداً ان تجعل جني سعيدة، ولا بأية حال ، لن ..

فهز جاك كتفيه .

- دعني اكمل . ولا بأية حال ! ولكن في هذه الفترة ، أقل من أي وقت ! الحرب .. ومع أفكارك ! ماذا ستفعل ، ماذا يصير بك ؟ انه المجهول . مجهول رهيب. أنت حر في التعرض لمخاطرك . أما أن تربط كائناً آخر بمصيرك في فترة كهذه فأمر شنيع ، هيا ! لقد فقدت عقلك كلياً ! لقد خضعت إلى صبيانيات لا تحتمل الفحص دقيقة !

فانفجر جاك ضاحكاً : ضحكة مطمئنة ، سفيهة ، شبه حاقدة ؛ ضحكة مجنونة قليلاً توقفت بسرعة . ورفع ذؤابته بصورة آلية ، وصالب ذراعيه بغضب :

- اذن ، هكذا ! اتيت اليك، اتيت أأتمنك على سعادتنا - وكل ما وجدت أن تقوله هو هذا ؟

وهز كتفيه مرة اخرى ، وامسك بمفتاح الباب ، والتفت ، وقال وهو ينظر من فوق كتفه :

- كنت اعتقد اني اعرفك . لقد عرفتك من خمس دقائق فقط ! انا اعرف

قيمتك الآن ! انت قلب جاف ! انك لم تحب أبداً ! ولن تحب أبداً ! قلب جاف ، جاف بشكل لا شفاء منه .

وقاس اخاه من اعلى — من اعلى حبه الذي لا يمس ، وكشر ابتسامة ، ولفظ من طرف شفتيه :

— اتعرف ما أنت ؟ مع كل شهاداتك وكبريائك ؟ انت شخص مسكين يا انطوان ! ليس اكثر من مسكين ، شخص مسكين .

وضحك ضحكة صغيرة مخنوقة واختفى مغلقاً الباب وراءه بقوة .

وظل انطوان جامداً طوال دقيقة ، منحني الرقبة ، والنظرات عالقة في الطنفسة ، وقال بصوت منخفض :

— قلب جاف !

كان نفسه قصيراً ، وصخب دمه جعله يشعر باضطراب جسدي ، بنوع من انحراف المزاج الذي يسببه الارتفاع عن سطح البحر . ومد ذراعه امامه، ويده افقية ممــــدودة . وكان يحركه اضطراب لم يستطع السيطرة عليه . وفكر : « يجب ان يكون نبضي قد بلغ المئة والعشرين » .

وانتصب ببطء ، ووقف وسار حتى النافذة ، ودفع المصاريع الخارجية .

كانت الساحة صامتة، ووراءها ، بين جدارين ، كانت أوراق بائسة لشجرة كستناء تشكل بقعة صفراء . ولكنه لم يكن يرى شيئاً ، لا شيء سوى وجه جاك الوقح ، وابتسامته المتعجرفة ، ونظرته السكرى المتصلبة .

وتمتم مشنجاً قبضتيه على المتكأ الحديدي :

— انك لم تحب أبداً ! إذا كان الحب هكذا ايها الابله ، اجل ، كلا فاني لم احب أبداً . وافتخر بذلك .

وظهرت فتاة صغيرة في احدى نوافذ البناية المجاورة، ورفعت عينيهانحوه . هل كان يتكلم بصوت مرتفع ؟ وترك النافذة وعاد إلى منتصف الغرفة .

« الحب ! في الريف على الأقل لا يخافون من تسمية الشيء باسمه : انهم يقولون ان بهيمة هي في حالة جنون .. ولكن بالنسبة الينا ، نحن ، فالأمر

بسيط جداً ، وهو أمر مخزٍ ! ويجب السمو ! يجب ان تقول وأنت تدير عينيك البيضاوين : « اننا متحابان ! احبها ! الـ .. حب !! » القلب ، معروف ، انكم تحتكرونه ، انتم العشاق ! أما أنا، فانني « قلب جاف » ! مفهوم ! ومن الطبيعي « انك لا تستطيع الفهم ! » اللازمة الابدية . الحاجـــة الفخور لتكون غير مفهوم ! هذا يجعلهم كباراً في عيون انفسهم ! كفاقدي الاهلية ! تماماً كفاقدي الأهلية : ما من مجنون إلا ويفتخر بأنه غير مفهوم ! »

وشاهد نفسه في المرآة يقوم بحركات، والعين غاضبة . فأدخل يديه في جيبيه وبحث عن أنبل ذريعة لغضبه :

« ان استحالة هذا الأمر هي التي تثير غضبي ! نعم .. عقلي الرشيد هو الذي يثور ويسبب لي هذه الاندفاعات .. ليست هي المرة الأولى التي اتحقق فيها من ذلك : يمكن التألم من جرح في العقل الرشيد كما يتألم المرء من داحوس، ومن تهيج أسنان ! » .

وتفكيره بفيليب الذي كان ينتظره في مكتبه ساعده على استعادة رباطة جأشه. فهز كتفيه :

– هيا ..

وكانت أصابعه في داخل جيبه تدعك ورقة بصورة آلية ، رسالة آن .. وأخذ الغلاف ومزقه قطعتين ورمى القطع في السلة . وسقطت عيناه على الدفتر العسكري الملقى على المكتب . وفجأة شعر بضعف. غداً ، الحرب ، الاخطار – البتر ، الموت ؟ انك لم تحب ابداً ! غداً تنتهي دورة الشباب على غفلة ، وربما أصبحت ساعة الحب منتهية إلى الابد ..

وانحنى فجأة على السلة والتقط نصف الغلاف واستخرج منه قصاصة الورقة ونشرها . لم تكن سوى صرخة عنيفة وعذبة كأنها مداعبة :

« هذا المساء ، في بيتنا . سأنتظرك .. يجب ان اراك . عدني انك ستأتي . يا حبيبي توني . تعال » .

وسقط في مقعده. يقضي آخر ليلة إلى جانبها .. يكون رقيقاً مرة اخرى..

يستطيع مرة اخرى أيضاً أن ينام وينسى كل شيء بين ذراعيها .. واجتاحه حنين مفاجىء ، موجة من الشقاء ، عنيفة كموجـــة القاع . فوضع مرفقيه على الطاولة ، ورأسه بين يديه طوال بضع دقائق ، وأخذ ينتحب كطفل .

٧٠

كانت باريس هادئة ولكنها حزينة . والغيوم التي كانت تتراكم منذ الظهر شكلت قبة دكناء غمست المدينة في ظلام غسقي . والمقاهي ، والمخازن المضاءة قبل الأوان كانت تلقي خطوطاً ضاربة إلى السواد خلال الشوارع السوداء حيث الجمهور المحروم من وسائل نقله كان يركض مسرعاً وقلقاً . وأفواه المترو كانت تقذف حتى الرصيف أفواج المسافرين المجبرين ، رغم مللهم على قرع الدرجات بأرجلهم نصف ساعة قبل أن يستطيعوا النفاذ إلى الداخل .

ولم يشأ جاك وجني الانتظار ، فبلغا الضفة اليمنى سيراً على الأقدام .

وكان باعة الصحف متمركزين في جميع الزوايا . والناس ينتزعون منهم الطبعات الخاصة ، ويتوقفون دقيقة ليجيلوا فيها عيناً جشعة . وكان كل واحد رغماً عنه ، يبحث فيها باصرار عن الخبر العظيم : بأن كل شيء قد ترتب ، وان قادة اوروبا سيطروا على نفوسهم بغتة ، وانهم باتفاق مشترك وجدوا حـــلاً مقبولاً ؛ وان الكابوس المستحيل قد زال اخيراً ، وانـــه لم يعد هناك مجال للخوف .

ومنذ ان أُقرت التعبئة حدث في صحيفة « الانسانية » فراغ كما في الخارج . وبدا كل فرد ان حياته الشخصية قد استعادته . وكان المدخل والدرج مقفرين . والغلام الوحيد الذي كان يروح ويجيء في الرواق اخبر جاك ان ستيفاني ليس في مكتبه . وقد أمّن غالو الاستمرار ، ولكنه كان يعمل في عدد الغد ؛ وقد أقفل بابه . وجاك الذي كانت جني تتبعه كظله وهي منهوكة لم يحاول ان يخرق أمر المنع ، فقال :

- لنذهب إلى مقهى التقدم .

في القاعة السفلى من المقهى لا يوجد أحد . مدير المقهى نفسه كان غائباً ؛ وامرأته وحدها على الصندوق ! وبدت انها تبكي . ولم تتحرك .

وصعد إلى الطابق الاعلى (الانترسول) .

كانت طاولة واحدة مشغولة . وبعض المناضلين ، وكلهم شبان ، لا يعرفهم جاك ، صمتوا دقيقة لدى وصول هذين القادمين الجديدين ؛ ولكنهم عادوا بسرعة إلى مناقشاتهم .

وكان جاك عطشاً . فأجلس جني بقرب المدخل وهبط يطلب زجاجة جعة .

— وماذا تريد أن تفعل بالرزمة الاخرى ؟ اتنتظر الشرطة ؟ لتموت رمياً بالرصاص كالابله ؟

كان المتكلم غلاماً في الخامسة والعشرين من سنه ، ذا صبغة ملونة ، وقبعته على رقبته . وكان صوته خشناً ، ويتفرس دورياً برفاقه بعينه السوداء القاسية. وتابع بعصبية :

— ثم ، أقول لك ! بالنسبة الينا ، بالنسبة إلى الاشخاص الذين هم على شاكلتنا والذين تبعوا ذلك عن قرب ، يوجد شيء أكيد يُفضّل على كل شيء : اننا ننتمي إلى بلاد لا تريد الحرب وليس لديها ما تلام عليه !

— هذا بالضبط ما يقوله الآخرون كلهم .

قاطعه بذلك أكبر الجماعة سناً ، وهو رجل في الاربعين ، يرتدي ملابس مستخدمي المترو .

— الالمان لا يستطيعون ان يقولوا ذلك . وكان السلم متوقفاً عليهم . فقد سنحت لهم الفرصة عشر مرات منذ خمسة عشر يوماً لسد الطريق على الحرب .

— ونحن ايضاً ! نستطيع ان نقول بعزم : « اللعنة على روسيا » .

— هذا لا يمنع شيئاً ! ويُرى اليوم جيداً ان الالمان قد أعدوا ضربتهم بمكر. إذن ليذهبوا إلى الجحيم ! فالسلم جميل ، ولن يكون المرء فيه بدون نشاط .

وفرنسا قد هوجمت . فعليها ان تدافع ! وفرنسا هي انت ، هي أنا ، هي نحن كلنا .

وبدا الجميع انهم استصوبوا ذلك ما عدا عامل المترو .

ولفت جاك نحو جني نظرة ضيق . وتذكر ستودلر وهو يتوسل : « أنا بحاجة ، بحاجة ماسة إلى الاعتقاد بذنب المانيا ! » .

وبدون ان يشرب البيرة التي سكبها ، أشار إلى الفتاة ونهض . ولكنه اقترب من الجماعة قبل أن يسير وقال :

ـ الحرب **الدفاعية**! الحرب **المشروعة** ، الحرب **العادلة**! لا ترون اذن سوى هذه الخدعة الخالدة ! انتم أيضـــاً ستعلقون ؟ لم يمض ثلاث ساعات على اقرار التعبئة وها أنتم لا تزالون حيث انتم . دون دفاع ضد كل هذه العواطف الرديئة التي تعمل الصحافة على تفاقمها منذ اسبوع . هذه العواطف التي يستغلها الزعماء العسكريون ! من سيقاوم هذا الجنون اذا كنتم انتم الاشتراكيون ، لا تقاومون ؟

ولم يكن يوجه الكلام الى أحد منهم بشكل خاص . ولكنه كان يتفرس بهم دورياً وشفتاه ترتجفان .

واصغرهم ، وهو عامل جص لا يزال وجهه وشعره مرشوشين بالابيض ، رفع نحوه وجهه الذي يشبه وجه مهرج . وقال بصوت رصين غض :

ـ اني أفكر مثل شاتينيه . فقد جُنّدت في أول يوم : غداً .. اني أكره الحرب . ولكنني فرنسي . والبلاد هوجمت . وهي بحاجة الي ، سأذهب ! سأذهب ! والموت في النفس ، ولكنني سأذهب .

وصرح جارٌ له :

ـ أنا مثلهم . أنا ذاهب نهار الثلاثاء ، في اليوم الثالث .. أنا من بار ـ لو ـ ديك ؛ ووالداي يسكنان هناك .. لا أرغب ابداً أن تصبح قريتي أرضاً المانيـــة !

وفكر جاك : « تسعة أعشار الفرنسيين هكذا ، طامعون بتبرئة بلادهم ،

وبأن يستطيعوا الاستنتاج ان الخصم المرذول تعمد ذلك ليبرروا ردود فعل غرائزهم الدفاعية » . وكان يقول لنفسه : « إلى أي حدٍ لا تشعر هذه الكائنات الشابة برضى مشوش لأن تصبح فجأة قسماً من جماعة مهانة ، وان تتنفس ذلك الهواء المسكر من الحقد الجماعي ؟ » لم يتغير شيء منذ العصر الذي تجرأ فيه الكاردينال دي ريتز على أن يكتب : « ما من شيء له نتيجة عظيمة في الشعوب سوى أن تدعهم يظهرون انهم لا يفكرون الا بالدفاع عن أنفسهم ، حتى حين يهاجمون » .

– وتابع جاك بصوت غير رنان :

– فكروا ! لو تركتم المقاومة ـ يكون غداً قد فات الأوان ! فكروا بهذا : في الناحية الأخرى من الحدود ، نفس انفجار الغضب ، والاتهامات الخاطئة ، والخصومات العنيدة ! كل شعب اصبح شبيهاً باولئك الصبيان المقاتلين الذين ينقضّون على بعضهم البعض بعيون وحوش : « انه هو الذي بدأ ! » اليس هذا غير معقول ؟

فهتف عامل الجص :

ـ اذن ، ماذا ؟ نحن المحبذين ، ماذا تريد ان يُصنع بنا ؟

– اذا فكرتم ، فالعنف لا يمكن أن يكون هو العدالة. إذا فكرتم ان الحياة البشرية مقدسة ، اذا فكرتم انه لا يوجد نوعان من الأخلاق ذلك الذي يحاكم القاتل في وقت السلم ، وذلك الذي يعطيه الحق في وقت الحرب . – ارفضوا التجنيد ! ارفضوا الحرب ! ابقوا مخلصين لأنفسكم ! ابقوا مخلصين للاممية !

وجني التي ظلت عند مدخل القاعة اقتربت فجأة وجاءت تقف أمامه .

وكان صانع الجص قد نهض ، وصالب ذراعيه بغضب :

– لكي أُلصق بالحائط ؟ كلا ، ولكن قل ! لديك افضل من ذلك . فهناك على الأقل كل امرىء يسير وفقاً لحظه ، ويمكن الخروج من المأزق بشيء من النشاط .

فهتف جاك :

- ولكنكم تشعرون جيداً ان من الجبن ان يتخلى المرء عن ارادته، ومسؤوليته الشخصية، بين يدي اولئك الذين تعرف انهم الأكثر قوة! وتقولون لأنفسكم: «اني لا أوافق ولكني لا أستطيع شيئاً». وهذا يكلفكم الكثير ولكنكم تُهدّئون ضميركم بشيء تافـــه، بالشعور بان هذا الخضوع هو صعب ويستحق الثواب .. اذن فأنتم لا ترون انكم مخدوعون بلعب مجرم؟ هل نسيتم أن الحكومات لم تجلس في مركز السلطة لاستعباد الشعوب وقتلها - بل لتخدمها، وتحميها، وتجعلها سعيدة؟

وهناك رجل أسود الشعر اسمر اللون في الثلاثين من عمره لم يقل كلمة حتى الآن، ضرب الطاولة بقبضته:

- كلا وكلا! لست على حق. لست اليوم على حق .. يعلم الله انني لم أسر ابداً في ركاب الحكومة. فأنا أكثر اشتراكيـــة منك! وبطاقتي في الحزب تعود الى خمس سنوات. أجل، انا اشتراكي، أنا مستعد لإطلاق النار في سبيل الحكومة كجميع الناس! - وأراد جاك ان يقاطعه ولكن الآخر رفع صوته:

- ليس لهذا علاقة بالمعتقدات! فالقوميون، والرأسماليون، وجميع الكبار سوف نلتقي بهم فيما بعد! وسنسوّي حسابهم، وبامكانك الركون الي! امـــا الآن، فالأمر لا يتعلق بصنع نظريات! وأول حساب يجب تسويته هو مع البروسيين! اولئك الانذال. لقد ارادوا الحرب وسينالونها! وأقول لك: اذا لم يتعلق الأمر إلا بي فسيصطلون بنارها!

فهز جاك كتفيه هزاً خفيفاً. لم يكن لديه ما يعمله. فأمسك بذراع جني وسار بها نحو الدرج. وصاح صوت وراءه:

- عاشت الاشتراكية.

وفي الخارج مشيا بضع دقائق صامتين. وكانت زمجرات خفية تنبىء بالعاصفة. وكانت السماء بلون الحبر. فقال جاك:

- ترين انني اعتقدت، ورددت عشرين مرة ان الحروب ليست من عمل العواطف. وانها ليست سوى اصطدام حتمي بين المنافسات الاقتصادية.

اجل . برؤيتنا الجنون القومي اليوم يرتفع بشكل طبيعي ، بشكل غير مميز ، من جميع طبقات المجتمع ، فاني اصل تقريباً الى التساؤل .. إذا لم تكن الحروب نتيجة نزاع مظلم جامح بين العواطف التي يستعملها اصطدام المصالح كفرصة ، كذريعة .. – وصمت من جديد ثم قال متابعاً خيط افكاره حسب الصدف: – والاكثر سخرية هو ذلك الاهتمام ، ليس فقط بتبرئة النفس ، بل بالاعلان عن أن موافقتهم كانت مبنية على عقل وحرة ! نعم ، حرة ! كل هؤلاء البؤساء الذين كانوا البارحة يحاربون هذه الحرب ، والذين وجدوا انفسهم مقذوفين فيها رغماً عنهم ، يحرصون اليوم باصرار على الظهور بانهم يتصرفون عمداً .. – وتابع بعد صمت جديد ! – ومع ذلك فمن المفجع ان رجالاً متنبهين، حذرين يمكن أن يصبحوا فجأة سريعي التصديق عندما يُضرب لهم على الوتر الوطني .. مفجع ، وغير مفهوم تقريبا .. وربما بسبب هذا ، وببساطة ، يتحد الرجل الوسط بسذاجة اتحاداً جوهرياً مع وطنه مع امته ، مع الدولة ... عادة القول : « نحن الفرنسيين ... » « نحن الألمان ... » وبما أن كل فرد يرغب بالسلام عن حسن نية فمن المستحيل عليه القبول بان هذه الدولة التي هي دولته تريد الحرب . وعندئذ يستطاع القول تقريباً : كلما كان الفرد متعلقاً بالسلام يصبح مدفوعاً الى تبرئة بلده وافراد عشيرته ؛ ويصبح اقناعه سهلاً بان التهديد العدائي آتٍ من الخارج ، وإن حكومته ليست مسؤولة ،وانه جزء من جماعةٍ هي ضحية ، وان عليه ان يدافع عن نفسه بالدفاع عنها .

وقاطعته قطرات كبيرة من المطر . وكانا يجتازان في تلك اللحظة ساحة البورصة . وقال جاك .

– لنركض . ستتبللين .

ولم يكد الوقت يتسع لهما ليجدا ملجأ ويصلا إلى قناطر شارع كولون . فالزوبعة التي كانت تثقل كل يوم على المدينة انفجرت اخيراً ، بعنف مفاجىء مأساتي . وتتابعت البروق دون انقطاع ، مثيرة الأعصاب . وهزيم الرعد غير المنقطع كان رجعه يتردد بين البنايات بقرقعة تذكّر بعواصف الجبال . ومرت

في شارع الرابع من ايلول (كاتر – ستمبر) كوكبة من الحرس الجمهوري وهي تسير خبباً : الرجال منحنون تحت عصفة الريح الشديدة ، مائلون على اعناق الخيول الغاضبة التي كانت حوافرها ترفع رشات من الماء ؛ وكما في لوحة جيدة لمصور معارك ، كانت الخوذ تلمع تحت السماء الرصاصية .

واقترح جاك ، مشيراً الى مطعم صغير في داخل القناطر ، مضاءٍ بشكل سيء ، وقد اجتاحه الناس :

– لندخل إلى هنا . سنأكل شيئاً وننتظر .

ولقيا صعوبة في ايجاد مكانين جنباً إلى جنب على طاولة رخامية كان يتزاحم عليها زبائن آخرون .

وما كادت جني تجلس حتى شعرت بتعبها يلاشيها. كانت ركبتاها ترتجفان؛ وكتفاها ورقبتها تؤلمها ؛ ورأسها يثقل عليها بثقل لا يحتمل . وظنت انها ستصاب بأذى .

لو كانت تستطيع فقط ان تطبق عينيها بضع دقائق ، وتتمدد ، وتنام .. تنام الى جانبه .. واستولت عليها ذكرى الليلة الماضية حالاً ، وكأنها ضربة سوطٍ أعادت اليها قوتها . وجاك بجانبها لم يفطن إلى شيء. كانت تراه من وجهه الجانبي : صدغه الراشح ، وخصلة الشعر الداكنة ذات الإنعكاسات الشقراء .. وكادت تمسك بذراعه وتقول له : « لنعد إلى البيت . وماذا يهم ما عدا ذلك ؟ خذني اليك .. ضمني بقوة ! » .

وكان الحديث حولها عاماً . كانت العيون تلمع ، وهم يناولون بعضهم بعضاً إناء الملح واناء السكر بنظرات اخوية . وكانوا يتبادلون الاخبار الأكثر جنوناً ، والأكثر تناقضاً بتأكيد رابط الجأش وتقع منهم موقعاً حسناً . وزفرت سيدة في منتصف العمر كان وجهها المصاب بالغدة الوردية يعكس بطولة افلاطونية ، ولكنها اعتدائية : « زوبعة كهذه ، بشرط الا تؤخر الهجوم » . وأوضح سيد كبير مزين بعقدة على شكل وردة كان مواجهاً لجني : « في عام ١٩٧٠ لم تبدأ العداوات الا بعد اعلان الحرب بوقت طويل : خمسة عشر يوماً على الأقل » .

وقال احـــدهم : « يبدو أن السكـّر سيعوزنا » . وأضافت المرأة البطولية : « والملح » . وانحنت نحو جني كأنها تسر اليها : « أنا ، لم أنتظر لاتخاذ احتياطاتي » .

والسيد المزين بالعقدة الوردية الشكل ، كأنه يوجه كلامه إلى شخص غير موجود ، جعل صوته يرتجف ، وبدا أنه يتمتع بخصائص معدية ، كان يروي حكاية عقيد (كولونيل) في إحدى حاميات الشرق ، وقد تلقى الأمر ليجعل رجاله يتراجعون عشرة كيلومترات عن الحدود ، معتقداً أن فرنسا بذلك خضعت للعدو ، فأخرج مسدسه ، وحتى لا يعيش بالعار ، ألهب دماغه أمام فرقته .

وعلى طرف الطاولة عامل كان يأكل صامتاً . وقد التقى نظره الحذر بنظر جاك . فتناول الكلام حالاً وقال بنبرة غاضبة :

– أنتم تمزحون . ولكننا هذ المساء ، في المشغل ، لم نستطع الحصول على اجرة الأسبوع !

فقال السيد بلطف : لماذا ؟

– يزعم صاحب المعمل ان أمواله موضوعة في المصرف. وان المصرف اغلق ابوابه .. وقد احدث ذلك ضوضاء ، ولكن لا يمكن عمل شيء . وقـد قال لنا : « عودوا نهار الاثنين » .

فأكدت السيدة البطولية :

– ولكن ، نعم ، سيدفعون لكم ، كلكم .

– الاثنين؟ولكن الكثيرين مدعوون إلى التجنيد منذ الغد.اذن . اادركت الأمر ؟ الذهاب وترك الزوجة بدون فلس مع الأولاد ؟

فقال السيد المزّين بنبرة صاحب سلطة :

– لا تقلق.لقد توقعت الحكومة ذلك كما توقعت غيره . سوف يجري توزيع امدادات نقدية في مكاتب المختارين . سيروا مطمئنين . فعائلاتكم تحت حماية الدولة ؛ لن ينقصها شيء !

فتمتم الرجل مهتزاً :

– اتظن ذلك ؟ اذن لماذا لم يقولوا ؟

وساعد الحظ احد جيران جاك على شراء الطبعة الخاصة من صحيفة مسائية، فأشار إلى البيان الذي وجهه بوانكاريه « الى الأمة الفرنسية » .

وامتدت الأيدي :

– أرنا ! أرنا !

ولكن الآخر لم يكن يريد التخلي عن نسخته .

وقال السيد المزيّن آمراً : إقرأ .

وأصلح الرجل نظارتيه ، وهو عجوز صغير ذو هيئة ماكرة ، وقال معلناً بتفخيم :

– انه موقع من جميع الوزراء .

ثم بدأ بنبرة حادة : « ان الحكومة المهتمة بمسؤوليتها ، الشاعرة انها تخلّ بواجب مقدس اذا تركت الأمور على حالها ، اتخذت القرار الذي يفرضه الوضع . – وصمت قليلاً . – والتعبئة ليست الحرب » .

فهمست جني بصوت كان يرتعش بالامل :

– أتسمع يا جاك ؟

فهز جاك كتفيه :

– المقصود ادخال الجرذان في المصيدة .. ولكن حين يمسكون بها فانهم يمسكونها جيداً .

وتابع الرجل ذو النظارتين :

– « في الظروف الحاضرة تظهر التعبئة كوسيلة لتأمين السلام مع الشرق .. »

وساد الصمت حتى على الطاولات المجاورة ، وصاح أحد الناس من داخل القاعة :

– بصوت اكثر ارتفاعاً .

فنهض القارىء ليكمل، وكان صوته يرتفع بين لحظة وأخرى . ما من شك في أن

الرجل المسكين كان يشعر في هذه اللحظة انه هو الذي يتحدث للشعب . وردد بوقار :

– « .. السلام مع الشرف .. ان الحكومة تعتمد على رباطة جأش هـــذه الأمة النبيلة حتى لا يصل بها الأمر إلى تأثر لا مبرر له » .

فقالت السيدة المصابة بالغدة الوردية :

– برافو .

وتمتم جاك : لا مبرر له !

–« .. انها تعتمد على وطنية جميع الفرنسيين ، وتعلم انه لا يوجد بينهم فرد واحد ليس مستعداً للقيام بواجبه . في هذه الساعة لا يوجد احزاب . يوجـد فرنسا الخالدة ، فرنسا المسالمة الحازمة . يوجد فرنسا الحق والعدل ، المتحـدة كلها في الهدوء ، والتيقظ ، والكرامة » .

وأعقب القراءة صمت دام دقيقة طويلة . ثم دارت المحادثات حول هذه القضية التي تثير الحماسة . وبطولة السيدة لم تكن ظاهرة فردية . والسيد المزيّن كان قد أصبح أحمر كغدتها الوردية . وعلى طرف الطاولة كانت عينا العامـــل الذي لم يقبض اجرته مليئتين بالدمع . وقد نال كل فرد نصيبه من النشوى الجماعية بلذة ؛ وكل فرد وجد نفسه مرفوعاً دون جهد ، ومنقولاً إلى مـــا وراء نفسه ، ثملاً بالسمو ، مستعداً لقهر ميوله كالشهداء .

وصمت جاك . كان يفكر بالبيانات المماثلة التي اضطر إلى توقيعها هناك ، في نفس الساعة ، المسؤولون الآخرون ، القيصر الالماني والقيصر الروسي ؛ وبتلك الصيغ السحرية المشحونة في كل مكان بنفس القدرة ، والتي تحدث دون شك وفي كل مكان نفس الهذيان المطلق .

ورأى جني تدفع صحنها من أمامها ولما تكد تلمسه . فأشار اليها عندئذ ونهض .

وفي الخارج كان المطر قد انقطع . وكانت الشرفات تقطر ماء . والسواقي المتسعة الموحلة كانت تصب في البالوعات محدثة جلبة ابتلاع ؛ وعلى الارصفة

اللامعة بالماء عاد الجمهور إلى ركضه غير المنتظم . وقال جاك وهو يجر جني بخطوة محمومة :

ـ والآن إلى مجلس النواب لنعرف ماذا يفعلون هناك مع مولر .

مهما بدا له ذلك مخالفاً للصواب فلم يكن بامكانه التأكيد ان الأمل قد انقطع .

٧١

كانت الشرطة البلدية تحرس قصر البوربون خفية ، إلا ان عدة جماعات كانت تقف وراء السياج الحديدي ، وقد سار جاك نحوها تتبعه جني .

وعرف قامة راب المرتفعة في احدى هذه الجماعات ، وعلى ضوء الكرات الزجاجية ، فأوضح له المناضل العجوز :

ـ المحادثات لم تنته .. وقد خرجوا وذهبوا يتناولون العشاء . وستستأنف المناقشة حالاً . ولكن ليس هنا : في مكاتب صحيفة « الانسانية » .

ـ وبعد ؟ ما هي الانطباعات الأولى ؟

ـ ليست جيدة .. والاستعلام صعب . كان الجميع مصابين بالاحتقان ، نصف أموات من العطش ، وصامتين كسمك الشبوط .. والوحيد الذي استطعت ان استخرج منه شيئاً هو سيبلو .. لم يخف عنا خيبة أمل ـ وأضاف موجهاً الكلام إلى جوملان الذي اقترب منهم : ـ أليس كذلك ؟

كانت جني صامتة تتفحص الرجلين . لم ينل جوملان سوى نصف اعجابها . ذلك الوجه الطويل الضيق ، الراشح بالعرق ، الشاحب ، وذلك الفك الاجرد الكثير البروز ، والطريقة الجافة التي يتكلم بها مقطعاً العبارات دون ان يرخي أسنانه المشدودة بشكل كاف ، وذانك الكتفان المربعان ، والبريق القاسي لحدقتيه الصغيرتين السوداوين ، كل هـذا كان يسبب للفتاة شعوراً باضطراب المزاج . أما راب العجوز فبالعكس ، بجبهته المحدودبة ، وعينيه الصافيتين

الكئيبتين اللتين يستقر نظرهما دائماً على جاك بعذوبــة ابوية ، كان يوحي اليها الثقة والتعاطف . وقال جوملان :

– ان مولر هذا ليس لديه ، كما يبدو ، أي تعليمات معينة . فهو لا يحمل أي اقتراح ثابت .

– اذن لماذا اتى ؟

– لهدف استطلاعي فقط .

– فهتف جاك .

– استطلاعي ؟ في الفترة التي لا يتسع فيها الوقت حتى للتصرف !

فهز جوملان كتفيه :

– التصرف .. انت عجيب ! اتعتقد انه لا يزال هناك وقت لاتخاذ مقررات حين يتغير الوضع من ساعة إلى اخرى ؟ اتعلم ان المانيا ، نفسها ، قــد اقرت تعبئتها العامة ؟ لقد حدث هذا في الساعة الخامسة ، بعدنا بقليل .. ويقال انها ستعلن الحرب رسمياً على روسيا هذا المساء .

فقال جاك بفراغ صبر :

– ولكن هل جاء مولر ليعقد اتحاداً بين البروليتاريا الالمانية والفرنسية ، نعم أم لا ؟ لتنظيم اضراب في البلدين ؟

فاجاب جوملان :

– الاضراب ؟ بالتأكيد كلا . لقد جاء ببساطة ، كما اعتقد ، ليعلم اذا كان الحزب الفرنسي سيصوت أو لا يصوت على الاعتمادات الحربية التي يجب ان تطلبها الحكومة من المجلسين ، منذ نهار الاثنين . وهذا كل شيء .

فقال راب :

– وسوف يكون هذا شيئاً ذا قيمة إذا تبنى النواب الاشتراكيون الفرنسيون والالمان سياسة مماثلة .

فقال جوملان بشكل أحجية :

– ليس مؤكداً .

وحرك جاك رجليه في مكانه . أما جوملان فتابع بهيئة مؤثرة :

– ما يمكن قوله ، وما لم يخطىء زعماء الحزب في ترديده على مسمع مولر بجميع النبرات،هو ان فرنسا فعلت كل شيء لتجنب الحرب.. حتى آخر لحظة ! حتى قبولها بتراجع جيوشها التي تشكل ضمانتها ! ونحن الاشتراكيين الفرنسيين لدينا ضميرنا على الأقل ! ولنا الحق باعتبار المانيا دولة معتدية .

فنظر اليه جاك منذهلاً ، وقطع قائلاً :

– بشكل آخر . هل النواب الفرنسيون الاشتراكيون مستعدون للتصويت على الاعتمادات ؟

– على كل حال لا يمكنهم التصويت ضدها .

– كيف لا يمكنهم ؟

فقال راب :

– الاكثر احتمالاً هو انهم سوف يتفادون الاشتراك في التصويت .

فهتف جاك :

– آه ! لو كان جوريس هنا !

– بوه .. اعتقد ان المعلم نفسه ، أمام الوضع الحالي ، لم يكن ليجرؤ على التصويت ضدها .

فقال جاك مضطرباً :

– ولكن هذا التمييز بين البلد المعتدي والبلد المهاجم قد اظهر جوريس استحالته مئة مرة ! ليس هذا سوى ذريعة لماحكات معقدة ! يبدو انكم جميعاً قد نسيتم الأسباب الحقيقية للورطة التي نحن فيها : الرأسمالية ، امبريالية الحكومات..مهما كانت الظواهر التي تتخذها الأعمال العدائية الأولى فالاشتراكية الدولية يجب أن تتمرد على الحرب – على كل حرب . وإلا ..

فاستصوب راب مراوغاً :

– مبدئياً، نعم .. والظاهر ان مولر قال شيئاً في هذا الصدد .

– وبعد ؟

فأتى راب بحركة عياء كبيرة :

– وبعد . وصلوا إلى هنا . وراحوا يتناولون عشاءهم متأبطين أذرع بعضهم البعض .

فأجاب جوملان :

– كلا ، لقد نسيت ان تقول ان مولر اظهر رغبته في مخابرة برلين هاتفياً ليتفق مع زعماء حزبه .

– آه !

هكذا هتف جاك الذي لم يكن يطلب سوى استعادة الأمل .

ودار بغضب على عقبيه ، وخطا بضع خطوات كيفما اتفق وعاد يقف أمام الرجلين :

– اتعرفان بماذا افكر ؟ لقد جاء مولر هذا بكل غباوة ليعرف الدرجة الحقيقية للنزعتين الاممية والسلام في الحزب الفرنسي . فاذا وجد أمامه متمردين عازمين على كل شيء ، عازمين على الاضراب العام لاحباط قومية الحكومة ، فاني أقول انه لا يزال بالامكان انقاذ السلام ! نعم ! حتى اليوم ! حتى بعد قرار التعبئة ! يمكن انقـــاذ السلام بواسطة الاتحاد الرهيب للبروليتاريا الفرنسية والبروليتاريا الالمانية ! وبدلاً من ذلك ماذا وجد؟خطباء ، مماحكين، معتدلين، مستعدين دائماً بالكلام لمقاضاة الحرب والنزعة القومية . ولكنهم يفكرون الآن بالتصويت على الاعتمادات الحربية واطلاق يد هيئةاركان الجيش ! حتى الدقيقة الاخيرة فهو نفس التناقض الاخرق المجرم : نفس النزاع المستبهم بين ذلك المثل الاعلى الاممي الذي نتعصب له نظرياً ، وكل تلك الفوائد الوطنية التي لا يرضى ، من الناحية العملية ، أي شخص من الزعماء الاشتراكيين ان يضحي في سبيلها .

حين كان يتكلم لم تكن جني المنهوكة من التعب ترفع عينيها عنه . كان صوت جاك يغمرها كموسيقى معروفة مداعبة . كانت تبدو منتبهة ، ولكنها كثيرة العياء لتصغي . كانت تراقب وجه جاك،وفي هذا الوجه، الفم ؛ ونظرها المستقر على تينك الشفتين الملتويتين اللتين يمتدخطهما ويتقلص كشيء حي بشكل

مدهش كان يكسبها الاحساس الجسدي بالاحتكاك . ولدى ذكرى الليلة الماضية بين ذراعيه ، خارت قواها من الانتظار . وكانت تقول لنفسها : « لنذهب .. ماذا ينتظر ؟ ليأتِ .. لنعد إلى البيت . وماذا يهمنا غير ذلك ؟ » .

واقترب منهم كاديو الذي كان ينتقل من جماعة إلى جماعة باذراً الاخبار :

ـ لقد قاموا بسعي لدى وزير الداخلية ليستطيع مولر التكلم مع برلين هاتفياً ؛ ولكن بدون نجاح : فالمواصلات مقطوعة .. فات الاوان ! الحصار من الناحيتين ..

وتمتم جاك وهو ينحني نحو جني :

ـ ربما كان هذا آخر حظ .

وسمع كاديو فضحك وقال :

ـ حظ ماذا ؟

ـ حظ عمل بروليتاري ؛ عمل اممي !

فابتسم كاديو بشكل غريب ، وقال :

ـ اممي ؟ ولكن يا عزيزي لنكن واقعيين ان ما هو اممي ، ابتداء من اليوم ، هي الحرب وليس الصراع لاجل السلام !

الم تكن هذه فورة غضب مشبطة للعزم ؟ وهز كتفيه واختفى في الليل .

ودمدم جوملان :

ـ انه على حق . على حق بشكل متشائم . فالحرب هنا . ففي هذا المساء الذي نقبلها فيه طوعاً أو كرهاً ، فاننا نحن الاشتراكيين ، في صميم الحرب ، كجميع الفرنسيين . أما فعاليتنا الأممية فسنجدها ، سنستعيدها . نعم : ولكن فيما بعد . أما هذا المساء فان ساعة السلام قد انقضت .

فقال جاك :

ـ انت جوملان ، تقول ذلك ؟

ـ نعم . يوجد واقع جديد : الحرب **موجودة** . وكل شيء قد تغير بهذا

الواقع بالنسبة إلي : إن دورنا كاشتراكيين يبدو لي واضحاً جداً : يجب علينا ألا نعرقل عمل الحكومة .

وكان جاك يتأمله بذهول :

ـ اذن ، سوف ترضى بأن تجنَّد ؟

ـ بالتأكيد . نهار الثلاثاء القادم . اني اعلن لك أن المواطن جوملان سيصبح جندياً بسيطاً من الدرجة الثانية في فرقة الاحتياط رقم ٢٣٩ ، في روان !

فخفض جاك عينيه ولم يجب بشيء .

ووضع راب يده على كتفه :

ـ لا تتظاهر بالعناد أكثر مما أنت .. فاذا لم تفكر مثله هذا المساء فستفكر مثله غداً .. هذا واضح : قضية فرنسا هي قضية الديموقراطية . ونحن ، معشر الاشتراكيين يجب أن نكون في أوائل المدافعين عن الديموقراطية ضد اعتداء الامبرياليات المجاورة .

ـ اذن ، انت أيضاً ؟

ـ انا ؟ لو لم اكن عجوزاً لذهبت اتطوع .. ومع ذلك فسأجرب . ربما لا يزال بالمستطاع الاستفادة من هيكلي العظمي . اتنظر إلي ؟ اني لم أغير رأيي . اني آمل بقوة ان اعيش كفاية لاستطيع العودة ذات يوم إلى الكفاح ضد النزعة الحربية . وهي ستظل أبغض شيء إلي ! ولكن في الوقت الحاضر ،بدون بلاهة ، فان النزعة الحربية لم تعد كما كانت البارحة . ان النزعة الحربية اليوم هي سلامة فرنسا ؛ وزيادة على ذلك : هي سلامة الديموقراطية المعرضة للخطر . اذن ، أعيد مخالبي إلى مكامنها . وها انا مستعد تمام الاستعداد لأعمل كالرفاق : ان آخذ بندقية ، وادافع عن البلاد . وبعد ذلك سنرى !

وقاوم بجرأة نظرة جاك . وترددت ابتسامة مبهمة ، مشوشة وفخورة معاً على شفتيه وجعلت كآبة عينيه أكثر تأثيراً . وتمتم جاك مديراً عينيه :

ـ حتى راب ؟

واختنق ، وأمسك بذراع جني وابتعد معها دون ان يقول كلمة وداع .

وكان امام السياج الحديدي جماعة كثيرة الحركة تسد المخرج .

وفي وسطها كان باجيس ، امين سر غالو ، يناقش ويقوم بحركات . وعرف جاك ، من بين المناضلين الفتيان المحيطين به ، وجوهاً من معارفه : بوفيه ، هيرار ، فوجيرول ، لاتور ، وأحد النقابيين . وأوديل وشاردان ، وهمـــا محرران في صحيفة « الانسانية » .

وشاهد باجيس وجه جاك فأشار اليه :

– هل علمت بالخبر ؟ برقية من بطرسبورج : لقد أعلنت المانيـا الحرب على روسيا هذا المساء .

وبوفيه ، وهو خطيب اجتماعات ، رجل في الاربعين من سنه ، ضعيف الصحة ذو صبغة رمادية ، التفت نحو جاك :

– المصيبة تصلح لشيء ما ! فهناك في الجبهة سيكون لنا عمل ! منذ ان يعطونا بنادق وطلقات .

فلم يجب جاك . كان يحذر بوفيه ، ولا يحب نظرته الهاربة . (لقد قال له مورلان ذات مساء ، عند خروجهم من اجتماع ألقى فيه بوفيه خطاباً عنيفاً : « اني اراقب هذا الرجل وذوقي لا يستسيغه . ففي كل مرة تحدث توقيفات فانه يكون بين اوائل الموقوفين ولكن يُصرف النظر عنه صدفة .. ») .

وتابـع بوفيه بضحكة مخنوقة :

– والأكثر اضحاكاً هو انهم يعتقدون انهم يرسلوننا إلى حرب قومية ! ولا يرتابون بأن الحرب الأهلية ستقع بعد شهر .

فصاح لاتور :

– وقبل شهرين ، الثورة .

فسأل جاك ببرود :

– اذن ، انتم ايضاً ستتجندون ؟

– بالتأكيد . فالفرصة مناسبة !

وقال جاك موجهاً الكلام الى باجيس : وانت ؟

ـ بالتأكيد .

لم يكن لقسماته تعبيرها المعتاد . كان يرفع صوته بعصبية ، وكانت هيئته تبدو انه ثمل قليلاً . وتابع :

ـ ليس الخطأ خطأنا اذا لم يكن بالمستطاع منع هذه الحرب. ولكن لم يكن ذلك مستطاعاً . والقضية هنا .. على الأقل ، لتكن نهاية هذا المجتمع المشرف على الموت ، والذي لم يدرك انه مقدم على الانتحار . ولا يهمنا إلا ان لا تعود الرأسمالية إلى العيش بعد الكارثة التي ارادتها ! لتُستخدم هذه الحرب على الأقل في التطور الاجتماعي ! لتستفد الانسانية منها ! لتكن الاخيرة ! لتكن الحرب المحررة !

وزمجر صوت :

ـ الحرب على الحرب .

وهتف اوديل :

ـ سيحدث قتال . ولكن كجنود للثورة في سبيل نزع السلاح النهائي وتحرير الشعوب .

وهيرار ، وهو مستخدم في البريد ، كان دائماً يستلفت النظر لأنه يشبه بريان [1] Briand شبهاً غريباً (إلى درجة ان له صوته الحار المرتعش برنة خفيفة) قال متمهلاً :

ـ نعم .. الوف وألوف من الابرياء سوف يُضحّى بهم ! هذا شنيع ! ولكن الشيء الوحيد الذي يجعلنا نقبل بهذا الشيء الكريه ، هو تفكيرنا بأننا ندفع في سبيل المستقبل ! والذين سوف يعودون من عمادة الدم هذه يكونون رجالاً قد وُجدوا ثانية .. ولا يكون أمامهم سوى الخراب ، وعلى هذا الخراب يستطيعون اخيراً أن يبنوا المجتمع الجديد !

---

١ ــ ارستيد بريان : رجل سياسي فرنسي ولد في نانت (١٨٦٢ ــ ١٩٣٢) خطيب ممتاز . ترأس الوزارة الفرنسية ١١ مرة وخصوصاً اثناء الحرب الكبرى (١٩١٥ ــ ١٩١٧) وشغل وزارة الخارجية .

وجني التي كانت وراء جاك ، رأت كتفيه يرتجفان ، فظنت انه سيتدخل في النزاع . ولكنه التفت نحوها دون أن يقول شيئاً . ودهشت من ظهور علامات عاطفية على وجهه . وأخذ ذراعها وابتعد عن الجماعة وهو يشدها اليه . لقد كان سعيداً لأنها اتت : كان احساسه بوحدته أقل مرارة . وكان يقول لنفسه : « كلا ، كلا ! الموت افضل من القبول بما اكرهه بكل روحي ! الموت أفضل من هذا الجحود » .

وقال بعد صمت قصير :

ـ اسمعتِ ؟ اني لا أعرفهم .

وفي تلك اللحظة انضم اليهما فوجيرول الذي لم يلفظ اية كلمة طوال الحديث عند السياج الحديدي ، وقال بدون مقدمة ، مجبراً الشابين على الوقوف للاستماع اليه :

ـ انت على حق . لقد فكرت بالهرب من الجندية لأظل منطقياً مع نفسي . وهكذا ، كما ترى ! ولكن لو فعلت ذلك فلن اكون واثقاً انني فعلته عن اقتناع وليس عن هلع . لأن الحقيقة هي انني خائف بشكل مرعب .. اذن ، هذا مستحيل ، ولكنني سوف افعل مثلهم : سأذهب .

ولم ينتظر جواب جاك وابتعد بخطوة ثابتة ، وتمتم جاك حالماً :

ـ ربما كان هناك كثيرون مثله .

ومشيا من شارع بورغونيا إلى جانب قصر البوربون ليبلغا السين .

وتابع بعد صمت جديد :

ـ اتعرفين ما الذي يدهشني ؟ هي نظراتهم ، واصواتهم ، وذلك النوع من الفرح الشديد الذي يظهر في حركاتهم .. إلى درجة التساؤل : « الا تكون حركتهم الأولى دالة على خيبة أملهم لو علموا هذا المساء ان كل شيء قد سُوي وان لا تعبئة هناك ؟ » ـ وأضاف بعد قليل : ـ والأدعى إلى اليأس هو كل هذا النشاط الذي يضعونه في خدمة الحرب ! هذه الشجاعة ، هذا الاحتقار للموت ! قوة نفسية مبعثرة يكفي منها جزء من مئة لمنع الحرب لو وقفوا كلهم

صفاً واحداً في الوقت المناسب في خدمة السلام !

والتقيا على جسر الكونكورد بستيفاني الذي كان يسير وحده منخفض الرأس ، بأنفه العظمي الذي تعلوه نظارتاه الكبيرتان . كان يسرع هو ايضاً ليعرف نتيجة المفاوضات .

فأعلمه جاك ان الحديث قد انقطع ، وانه سيُتابع فيما بعد ، ولكن في مكاتب صحيفة « الانسانية » . فقال ستيفاني وهو يعود على عقبيه :

– في هذه الحالة أعود إلى الصحيفة .

وظل جاك متجهماً ، وخطا بضع خطوات دون كلام . ثم تذكر نبوءة مورلان ، ولمس مرفق ستيفاني :

– لقد انتهى الأمر. لم يعد هناك اشتراكيون : ليس هناك سوى اشتراكيين متطرفين في الوطنية ...

– لماذا تقول هذا ؟

– أرى أن الجميع قبلوا بالذهاب . يظنون انهم يلبون داعي ضميرهم بتضحية مثلهم الأعلى الثوري في سبيل الخرافة الجديدة عن الوطن المهدد ! والأكثر ضراوة ضد الحرب اصبحوا الأكثر حمية في الركض للقيام بها ! جوملان ... باجيس ... الجميع ! حتى راب العجوز المستعد للتطوع إذا ارادوه .

– راب ؟

ردد ستيفاني بنبرة استفهامية . إلا انه صرح :

– هذا لا يثير دهشتي .. فكاديو يذهب أيضاً ، وبرت ، وجوردان . الجميع يحملون دفاترهم العسكرية في جيوبهم منذ البارحة .. وغالو نفسه ، مع انه أحسر ، فقد طلب من غيسد التدخل في الوزارة لإخراجه من الخدمة الادارية .

فاختتم جاك باختصار :

– لقد زال نفوذ الحزب .
– الحزب ؟.. كلا ، ربما أبداً . أما الذي زال فهو المقاومة ضد الحرب .
واقترب جاك باندفاع اخوي :
– أتعتقد ، أنت ايضاً ان جوريس لو كان موجوداً ..
– لكان معنا بحكم الطبيعة .. أو بالاحرى لكان الحزب كله بقي معه !
ودونوا هو الذي وجد الصيغة الصحيحة : **الضمير الاشتراكي لن يُقسم ..**

واجتازوا ، صامتين ، ساحة الكونكورد الخالية من العربات والتي تبدو اكثر اتساعاً ، وأكثر اثارة من المعتاد . ووجه ستيفاني الامغر كان يرتجف ويخططه التشنج العضلي .

ووقف فجأة . وكان ألق قنديل يبرز نتوءات غير عادية على وجهه المستطيل ، ويجعل نظارتيه تلمعان ببروق على محجريه الملوثين بالظل . وقال :

– جوريس ؟ (عند لفظ هذا الاسم فان صوته المغني ، الجنوبي ، يتغير تغييراً مداعباً ، يائساً بحيث أصبحت حنجرة جاك كأنها معقودة) . أتعلم ما قاله امامي نهار الخميس الماضي حين ترك بروكسل ؟ وكان هويسمان عائداً إلى امستردام وهو يودعه . لقد نظر المعلم اليه فجأة ، في عينيه ، وقال له : « اصغ الي جيداً يا هويسمان . اذا اندلعت الحرب **فاحفظ الاممية** ! ولو جئت انا جوريس ، اطلب اليك ان تنحاز الى هذا او ذاك من المتحاربين فلا تصغ الي يا هويسمان ! احفظ الاممية مهما كان الثمن » .

فهتف جاك مضطرباً :

– نعم ! حتى ولو لم نكن سوى عشرة ! حتى ولو لم نكن سوى اثنين ! احفظ الأممية مهما كان الثمن .

وكان صوته يرتجف ، وجاءت جني تشد نفسها اليه مرتجفة من التأثر ، ولكنه لم يبد انه فطن لذلك . وردد ايضاً مرة أخرى كالقسم : « احفظ الاممية ! » ثم قال لنفسه : « ولكن كيف ؟ » . وبدا له انه يغوص وحده في الظلمات .

كان الوقت بعد منتصف الليل حين ترك جاك وجني مكاتب « الانسانية » حيث جاء هذا المساء كثير من المناضلين يستقون الأخبار . ومع أن جاك لم يعد يحتفظ بأي أمل ، فلم يشأ أن يذهب دون أن يعرف نتيجة المحادثات مع المبعوث الالماني . ومرة بعد مرة ، وقد آلمه وجه الفتاة المشوش ، رجاها أن تعود إلى البيت وترتاح الى أن يستطيع اللحاق بها . ولكن كل مرة كانت تجيب بنفس الرفض . وأخيراً ، في مكتب ستيفاني حيث لجأوا مع حوالي العشرين من الاشتراكيين ، جاء غالو يعلن ان الاجتماع قد انتهى . وداهم الوقت مولر ودي مان : لم يكد يتسع وقتهما لبلوغ محطة الشمال اذا أرادوا بلوغ آخر قطار مدني يقصد بلجيكا . ورآهما جاك يمران في الرواق يقودهما موريزيه . وكاشان المجهز بوشاحه كنائب اقترح ان يرافقهما إلى القطار ليسهل رحيلهما . لم يكونوا متأكدين ان باستطاعة مولر اجتياز الحدود البلجيكية .

وغالو المرهق بالأسئلة كان يهز رأسه المشعث بغضب . وانتهوا بأن انتزعوا منه التفاصيل . بعد كل حساب ، فان هذا الاتصال الاخير بين الحزبين الاشتراكيين في فرنسا وألمانيا لم يوصل إلى شيء . فقد اضطروا بعد ست ساعات من المناقشات المخلصة إلى الاكتفاء بالتمني على الاشتراكيين في مجلس النواب الفرنسي والريخستاغ الا يضعوا عائقاً في منح اعتمادات الحرب ويتفادوا على الأقل التصويت في صالحها . وافترقوا على هذه الخاتمة الساخرة : « ان عدم استقرار الوضع لا يسمح باتخاذ تعهدات اكثر وضوحاً » .

لقد انتهوا الى الافلاس ، وعقيدة التعاضد الامي لم تكن سوى خدعة .

ولفت جاك عينيه نحو جني ، كأنه يبحث بقربها عن آخر نجدة لشقائه . كانت جالسة ، منتحية قليلاً ، على مقعد صغير ، ويداها على ركبتيها ، وظهرها مستند الى رف . وكان ضوء قنديل السقف يسقط على وجهها الجانبي بشكل منحرف ويكدس الظل تحت الجفون وتحت الوجنتين . والجهد الذي كانت تبذله لتبقي عينيها مفتوحتين قد مدد حدقتيها . يأخذها بين ذراعيه ويهدهد وينيم هذا الضعف . ان الشفقة التي كان جاك يحملها للناس هذا المساء قد زادت

رأفته عشرة أضعاف على هذا الكائن الواهن ، المتعب الذي لم يبق له الآن إلاّه .

وجاء اليها وساعدها على النهوض وقادها إلى الخارج بصمت .

وأخيراً اندفع أمامها على الدرج . لم تكن تشعر بتعبها . وحين أصبحت على الرصيف ، حين شعرت بيد جاك الساخنة تلتف حول قامتها ، شعرت فجأة ، وفي صميم فرحها ، ووراء هذه العاطفة التي لا تقاوم والتي تشدها إليه ، بشيء من الاضطراب ، بشيء مخيف ، جديد تمام الجدة ، دفع عنفه نحو صدغيها دفقة من الدم جعلتها تترنح وترفع يدها إلى جبهتها .

وتمتم مذعوراً :

- لا تستطيعين . ما العمل ؟ ليس لنا أي حظ في أن نتمكن من أخذ سيارة هذا المساء .

وسارا في الليل ملتصقين ، منهوكين ، محمومين .

وكان لا يزال يوجد كثير من الناس في الشوارع :

وهناك جماعات صغيرة من الشرطة والحرس الجمهوري تسهر على جميع مفارق الطرق .

أمام نوتردام دي فيكتوار فوجئا برؤية باب الكنيسة مفتوحاً على مصراعيه. فاقتربا . كان صحن الكنيسة قد أصبح مجوفاً كمغارة عجيبة ، مظلمة ، إلا أنها متألقة بعدد لا يحصى من الشمعدانات تحول صدر الكنيسة إلى دغل مضطرم . وكانت الأروقة ملأى بخيالات صامتة تصلي ، رغم الساعة المتأخرة ؛ وحول كرسي الاعتراف شبان راكعون ينتظرون دورهم . وجاك بدافع الفضول ، ورغماً عنه ، وبدافع التأثر من التشوش الذي تكشفت عنه في ساعة كهذه اندفاعة التقوى الشعبية كان يريد أن يدخل للحظة . ولكن جني أمسكته مغتاظة . لقد انتصبت في نفسها ثلاثة قرون من البروتستانتية ، وبشكل لاشعوري ، ضد الأبهة – الوثنية - الكاثوليكية .

وتابعا طريقهما دون تبادل انطباعاتهما . وجني ، وقد ازداد تعبها ، كانت

تمشي معلقة بذراع جاك . وفي لحظة ، وقد غاب صوابها ، أمسكت بيد الشاب وأسندت خدها اليها . فتوقف مضطرباً . وبعد نظرة حولها ، دفع الفتاة إلى زاوية باب واحتضنها . ففكرت : « أخيراً .. » وارتخت شفتاها ؛ ولم تحاول أن تواري فمها ،كانت تنتظر هذه القبلة منذ ساعات ؛ فأغمضت عينيهاواستسلمت وهي ترتعش .

واجتازا الهال وصعدا في جادة سان ميشال . كانت ساعة القصر تسجل الواحدة والربع . لم يكن المتسكعون كثيرين ؛ ولكن في الشوارع الكبرى الموصلة إلى ابواب المدينة فان ناقلات مؤن ومعدات حربية كانت تتبع الطريق: عربات مصادرة . صف من الخيول المسوكة بأرسانها ، سيارات يقودها جنود ، طوابير صامتة تنتقل نحو مصائر خفية. في تلك الليلة لم يكن في أوروبا راحة.

كانا يتقدمان متمهلين . وكانت جني تعرج . واضطرت إلى الاعتراف أن حذاءها قد جرحها . وأراد أن تزيد من اتكائها عليه ؛ فأسندها ، وحملها تقريباً . وكانت مغتمة من ذلك وتستحق العطف . وبمقدار اقترابهما من البيت كان قلقوخ في يمتزج بملها . فقد شعر كل منهما أنـه على حدود مقاومته الجسدية والمعنوية ! ولكن رغم كل شيء ، ومن خلال التعب والقلق ، كانت تشعل لهبة متماسكة من السرور . واول نظرات جني وهي تشعل كهرباء الغرفة الداخلية، كانت لتتأكد ، ككل مرة تعود فيها إلى البيت ، ان حارس البناية لم يدخل من تحت الباب برقية من فيينا . لا شيء . وانقبض قلبها . ليس هناك أي حظ في أن تتلقى أخباراً من والدتها قبل رحيلها . وتمتمت :

– بشرط أن تبقى الاتصالات عادية بين سويسرا والنمسا .

وكان هذا هو املها الوحيد . ووعدها جاك .

– منذ أن نصل إلى جنيف فسنذهب إلى القنصلية .

وتأخرا في الدهليز ، واقفين ، تعمر كل منهما ذكرى الليلة الماضية ، قلقين فجأة لوجودهما بمفردهما في النـــور ، بذينك الوجهين المتعبين وتلك النظرات الشاردة التي تبعث فيها الاضطراب نفس الذكرى .

وقال جاك : هيا .

ولم يتحرك . وانحنى آلياً ليلتقط صحيفة ، وطواها دون سرعة ، ووضعها على الطاولة المستديرة . وقال بحرية ، مرغمة قليلا :

– اني ميت من العطش . وأنت ؟

– وأنا أيضاً .

في المطبخ كانت بقايا غدائهم لا تزال على الطاولة . فقال جاك :

– غداؤنا الخفيف .

وأجرى الماء إلى أن أصبح بارداً ؛وقدم القدح إلى جني التي كانت جالسة على الكرسي الأقرب . فشربت منه بضع جرعات واعادته اليه مشيحة بعينيها : كانت واثقة انه سيضع شفتيه في المكان الذي وضعت فيه شفتيها ... وشرب قدحين دفعة واحدة ، وأخرج نوعاً من الدمدمة الراضية ، وجاء إليها فأمسك وجهها بين يديه وانحنى .. ولكنه اكتفى بأن يتأملها طويلاً عن قرب . ثم قال بعذوبة كبيرة :

– مسكينة .. مسكينة يا عزيزتي .. الوقت متأخر .. ولن تستطيعي شيئاً .. والليلة الآتية ،تلك الرحلة الطويلة .. يجب أن تذهبي وتنامي كثيراً ..

– وأضاف : – في سريرك .

فثنت كتفيها دون أن تجيب . وأجبرها على الوقوف وقادها مترنحة حتى مدخل غرفتها .

كانت الغرفة مظلمة ، منارة قليلاً بنور ليلة صيف كان يدخل من النافذة المفتوحة . وردد في أذنها :

– والآن يجب أن تنامي .. ان تنامي .

فتشددت . وظلت على العتبة مشدودة اليه ، وتمتمت هامسة :

– هناك .

و « هناك » تعني أريكة غرفة دانيال .. فتنفس تنفساً عميقاً ولم يجب . لقد فكر حين رضيت جني أن ترافقه إلى سويسرا : « في جنيف ستصبح

زوجتي » . ولكن بعد هزات هذا النهار المؤثر .. فقد بدا التوازن الكوني انه اختل ، وسيطر ما هو غير متوقع ، وأصبح الشاذ قانوناً ، ولم يعد هناك أي التزام ..

وكافح بضع ثوان أيضاً وهو في أتم وعيه . وابتعد عنها ونظر اليها .

فرفعت نحوه حدقتيها الصافيتين.وضيق عليهما معاً نفس الاضطراب،ونفس السرور الرصين الطاهر . وأخيراً قال :

— نعم .

٧٢

ان قطار سمبلون — اكسبريس الذي كان يجب ان يصل إلى باريس ، وفقاً للتوقيت ، حوالي الساعة السابعة عشرة ، لم يبلغ محطة لاروش إلا في الساعة الثالثة والعشرين ، حيث أدخل إلى المرأب حالاً على خط جانبي ليترك الخطوط الكبرى لقطارات اعاشة الجيش . وكان مؤلفاً فقط من عربات قديمة للدرجة الثالثة ، وكان مكتظاً بالمسافرين بحيث كدس ثلاثة عشر أو أربعة عشر مسافراً في المقصورة ذات العشرة أماكن ، وفي الساعة الواحدة صباحاً بعد مناورات لا تنتهي واصل القطار سيره بمشقة نحو العاصمة ، وفي الساعة الثالثة كان يسير سير صياد على قدميه في محطة ميلون ليقف بعد ذلك على جسر السين . وكانت نهاية ليل بلون الحليب تلون منحنى النهر بالبياض ؛ ويُدرك مكان المدينة من بعض صفوف من الأنوار التي كانت تهتز في الضباب ؛ وظهر الفجر شيئاً فشيئاً وراء التلال ؛ وعلى طريق متجهة إلى اسفل ، وعلى محاذاة المياه ، يمكن تميز فيلق الجنود يسير ويتبعه خيط طويل من العربات العسكرية .

واخيراً ، في الساعة الرابعة والنصف. وبعد وقفات لا تحصى ، وانطلاقات زائفة ، وانتظارات تحت الانفاق ، فإن القطار الصافر ، المتوقف لدى جميع الاشارات اجتاز الضاحية الباريسية متمهلاًوجاء يتوقف على طريق دون رصيف، على بعد ثلاثماية متر من محطة باريس — ليون — مرسيليا .

كانت مدام دي فونتانان تتبع المسافرين الذين انزلهم المستخدمون بجانب الخط الحديدي ودفعوا بهم خلال الخطوط نحو قاعة الدخول ، وكانت حقيبتها الثقيلة تسد الطريق أمام رجليها وتجعلها تترنح لدى كل خطوة .

لقد تركت فيينا في أوج الاستعداد للقتال ، في أحد قطارات الاجانب الاخيرة التي ارسلت إلى ايطاليا . كانت تسافر منذ ثلاثة أيام ؛ وقد غيرت عربة القطار سبع مرات ، وقضت ثلاث ليالٍ بدون نوم ، ولكنها حصلت على سحب الشكاوى ضد زوجها وعلى ان لا يذكر اسم دي فونتانان في تقارير التحقيق .

القاعة الكبيرة في المحطة الملأى بالبنطلونات الحمراء تشبه معسكراً وقتياً في الهواء الطلق . واضطرت إلى الدخول بين الرزم ، والاصطدام بحواجز يحرسها الجنود الحجاب والعودة عشر مرات إلى الوراء قبل ان تستطيع الخروج من المحطة . وكان التفكير بولدها الذي لم يتركها ابداً يزيد من التضييق عليها في وسط هؤلاء الجنود . كانت دون أخبار منه . ستجد رسائل في البيت. دانيال! نحو أي مصير يتقدم ؟ انها تراه في بزته الجميلة ، وقبعته اللامعة ، على الجواد بالقرب من علامة الحدود ، منتصباً كمدافعٍ أمام الوطن المهدد .. ليحفظه الله! ان الخوف عليه يعني عدم الايمان .

في الخارج لا يوجد أية سيارة اجرة ، ولا اوتوبيس . والعودة إلى بيتها سيراً على الأقدام ليست مستعصية : فالسرور من بلوغ الهدف كان يمنعها من الشعور بكل اثقال تعبها . ولكن ماذا تفعل بأمتعتها ؟ في مستودع الحقائب اكثر من مئة شخص يقفون بالصف . فجرّت حقيبتها قليلاً واجتازت الساحة وشاهدت حانوتاً لشرب الجعة مفتوحاً. وكانت فوضى الطاولات ، ومظهر الخدم المستولي عليهم النعاس ، وبعض القناديل التي ظلت مضاءة مع ان النهار قد بدأ ، كان يدل على ان المقهى ، رغم الانظمة ، لم يستطع ان يقفل أبوابه هذه الليلة . وهناك امرأة شابة على الصندوق ، قد استدرّت شفقتها الابتسامة البشوش من المسافرة ، فرضيت ان تحفظ الحقيبة في المستودع ؛ وحين خف حمل مدام

دي فونتانان سارت نحو شارع الاوبسرفاتوار . لقد بلغت أخيراً نهاية محنها ، في مدى نصف ساعة ستكون إلى جانب جني ، في بيتها ، أمام طبق الشاي ، انها لم تكن تشعر بعيائها تقريباً .

كانت باريس الصباحية في الثاني من آب قد دبت فيها الحياة بحيث دهشت عند وصولها إلى بيتها أن تجد الباب الكبير مغلقاً . وكانت ساعتها متوقفة . وبمرورها أمـــام المنزل الذي كانت ستائره لا تزال مسدلة ظنت ان الساعة لا يمكن أن تكون أكثر من الخامسة والنصف . وفكرت وهي تصعد الدرج : « جني نائمة ، ومن المؤكد انها وضعت السلسلة.هل ستسمع الرنين في الدهليز ؟»

وقبل ان تدق الجرس حاولت الدخول بمفتاحها ، فانفتح المصراع : حتى القفل لم يكن مقفلاً .

واصطدمت نظرتهـــا الاولى في الدهليز بقبعة رجل ، من اللباد الأسود . دانيال ؟ كلا .. وانتابها الخوف .. كل الأبواب مفتوحة . وخطت خطوتين حتى مدخل الرواق . هناك ، في الداخل ، كان المطبخ مضاءً .. اكانت تحلم ؟ لم تكن تشعر انها صاحية تماماً ، فأسندت كتفها لحظة إلى الجدار . ليس هناك أية ضجة .لقد بدت الشقة فارغة .. ومع ذلك.فهذه القبعة ، وتلك اللمبة المضاءة.. واجتاحت ذهنها فكرة السرقة .. وتقدمت آلياً في الرواق نحو المطبخ حين توقفت فجأة ، جاحظة العين ، أمام غرفة دانيال التي كان بابها مفتوحاً : على الاريكة ، بين الوسائد المشوشة ، جسدان متعانقان .

ومرت ثانية ، حلت فيها فكرة القتل محل فكرة السرقة . ثانية فقط : لانها عرفت حالاً الوجهين المشوشين : كانت جني ترقد بين ذراعي جاك النائم !

فتراجعت فجأة إلى ظلام الرواق . وشدت يدها على صدرها كما لو ان خفقات قلبها ستشي بوجودها . كانت فكرتها الأولى ان تهرب لكي لا ترى ! تهرب لتتجنب الخزي الفظيع : خزيها ، خزيها ..

وبسرعة ، بلغت الدهليز بخطى الذئب . وهناك اضطرت إلى التوقف ، على وشك الاغمـــاء . وربما كانت ستتساءل إذا لم تكن ضحية الوهم لو لم تشاهد من

جديد قبعة جاك موضوعة في منتصف الطاولة . عندئذ تشددت وفتحت الباب الموصل إلى سطح الدرج بحذر وعادت فأغلقته دون ضجة وتعلقت بالحاجز وهبطت الطوابق درجة فدرجة بتثاقل .

والآن ؟ .. لكي يُفتح الباب الكبير ، هل يلزمها أن تطرق باب البواب وتعرّف عن نفسها ، وتوضح عودتها ، وذلك الرحيل المباغت ؟ من حسن الحظ ان حارسة المنزل التي ايقظتها دون شك عند وصولها كانت قد نهضت وارتدت ملابسها ؛ وكان هناك نور وراء الستائر والباب المطل على الشارع كان مفتوحاً. بامكان المرأة المسكينة الانزلاق إلى الخارج دون ان يلاحظها أحد .

واجتازت الطريق ودخلت إلى الحدائق . كانت مقفرة . فبلغت أقرب مقعد وسقطت عليه .

وحولها الصمت والرطوبة . وفي البعيد ضجة خفيفة مستمرة : سير عربات المؤن والشاحنات التي لم تنقطع عن المرور في جادة سان ميشال .

لم تكن مدام دي فونتانان تحاول ان تفهم . حتى انها لم تكن تتساءل عما يمكن ان يجري في غيابها ، وكيف حدثت الأمور هنا . لم تتوصل إلى التفكير. ولكنها استمرت في الرؤية . فالصورة الباقية أمام عينيها كان لها بروز الحقيقة التي لا جدال فيها : الأريكة المشوشة ، قدم جني العارية الممدودة تحت ضوء النهار الآتي من النافذة .ذراعا جاك المطبقان على جسدالفتاة، ووضعيتهما المهملة، وشفاههما المتقاربة اثناء النوم ، وذلك التعبير عن الانتشاء المسترخي المؤلم . كانت تفكر رغم عارها ، ورغم ذعرها : « كم كانا جميلين ! » . وامتزجت باشمئزازها وتمردها الغريزي تلك العاطفة الاخرى المتأصلة فيها بقوة : احترام الغير ؛ احترام مصير ومسؤولية الغير .

هل شعر جاك من خلال نومه أن شيئاً قد تحرك في الشقة؟ لقد رفت جفونه؛ وفتح عينيه . وفي مدى ثانية استعاد وعيه لكل شيء . وقبل ان تستقر نظرته على الوجه النائم انزلقت إلى القدم العارية ، إلى استدارة نهد ، إلى انحناء كتف.

يالها من كآبة في ثنية هذا الفم ! اي شعور متجمد من الألم على تلك القسمات الخامدة . ألم ، الا انه راحة .. قناع الموت لطفل كان احتضاره فظيعاً ..

فأمسك نفسه ، ولم يستطع ان يفصل عينيه عن ذلك الفم المتشنج . الشفقة ، والندم ، والشعور بالذعر ، كانت كلها تسيطر على حنانه . انه قدر كان يثقل عليها . قدر ؟ كلا : ان ما حصل قد اراده هو . لقد اراده وحده . كان في كل وقت ينقض على جني انقضاضه على فريسة . في ميزون – لافيت كان هو الذي فرض نفسه عليها وجعلها تحبه . – وليهرب بعد ذلك تركها إلى يأسها . وفي هذا الصيف ها هو قد انقضّ عليها من جديد – عليها هي التي بدأت تمتلك نفسها وتنسى .. أما مالا يمكن اصلاحه فقد وقع . قبل ثمانية أيام كان بامكانها العيش بدونه . أما اليوم فلا . انها له ، لقد جعلها تسير في خطه . نحو أي مجهول رهيب ؟ انها بدونه لا تستطيع الآن ان تجد طعماً للحياة ، ومعه ، هل ستكون سعيدة ؟ كلا . كان يعرف ذلك جيداً . كان انطوان على حق . لم يكن من اولئك الذين يحملون السعادة للآخرين .

انطوان .. بحثت عينه غريزياً عن الساعة . ففي هذا الصباح وعد اخاه بمرافقته إلى المحطة . الساعة السادسة إلا عشرين دقيقة . في خمس دقائق يجب ان ينهض .

كان يدخل من النافذة المفتوحة صوت دوران عجلات ، مهتز وضعيف . فرفع رأسه . فيالق عسكرية ، وعربات لنقل المواد ، وقطارات مدفعية ، كانت تطوف المدينة . كانت الحرب هناك تترصد استيقاظه . **أول يوم التعبئة هو الاحد في الثاني من آب** .. هذا الصباح بدأت الحرب بالنسبة إلى الجميع .

وظل هناك متكئاً على مرفق ، مرهف (الاذن)، ثابت العين ، راشح الجبهة ومرة بعد مرة كانت الضجة تبدو انها تلاشت . ويعقب طرق الحديد صمت مؤثر ، صمت يتخلله احياناً زقزقة عصافير ، وكآهة ، تمتمة الريح الرصينة على رؤوس الأشجار المجاورة ، ثم الجلبة المشؤومة تولد من جديد في البعيد . وفرق عسكرية جديدة تصعد في الشارع ، وخطواتها الرتيبة تقترب ، وتتجسم

خانقة الصمت ، مغطية على تغريد عصافير الدوري ، ساحقة كل شيء تحت وطء أقدامها .

ومع خطر ايقاظ جني ، رفعها بهدوء وأخذهـــا بين ذراعيه ، وتقارب جسديها جعلها تنقبض فجأة في نومها . وتمتمت : « كلا .. كلا . » ثم رفعت حاجبيها وابتسمت له : ابتسامة حنون خائفة، بينما كان الألق الخائف في اعماق حدقتيها الغارقتين يتلاشى ببطء . وظلا دقيقة متلاصقين بشدة دون حركة. وفي الجمود المحرق لهذا الاحتكاك كان جسداهما يرتعشان لذكريات الليل ، ولكنها لم تكن نفس الذكريات .. وحين شدد جاك حضنته ، فـــان جني المشلولة في حنانها بسبب الخوف من ان تتألم بعد ، حاولت بالغريزة ان تتملص ، واخيراً ، استسلمت ، مغلوبة بضعفها ، بحبها ، بهوس التضحية وبرغبتها الخاصة،استسلاماً عن عزم ، يتوضح فيه كثير من الشغف ومن الفرح أيضاً حتى لا يخطىء جاك ولا يشك بان رضاها هذا كان يخفي خوفاً ، ورفضاً ، وإرادة .

كانت مدام دي فونتانان تنظر أمامها دون قوةعلى التفكير في شيء،مستندة إلى مسند المقعد ، ويداها مضمومتان على تنورتها .

ومر الوقت . والحديقة الساطعة بالشمس الصباحية ، مع تغريد عصافيرها ، وخضرتها ، وزهورها ، وتماثيلها البيضاء حيث كانت الظلال تمتد على العشب الاخضر وتغمرها بالوحدة ، والرجـال والنساء الذين كانوا يجتازون الشارع بانحراف وبخطى سريعة ، كانوا يمرون بعيداً عنها دون أي التفات لهذه المرأة المرتدية ثياب الحداد ، الساقطة على مقعد . وكانت الاشجار تخفي عنها نوافذ شقتها ، ولكنها كانت تشاهد باب بيتها من فوق مجموعة من الأشجار .

وفجأة خفضت رأسها وأسدلت خمارها: فقد ظهر جاك ثم جني على العتبة.. لم يكونا يستطيعان رؤيتها ولا معرفتها على بعد هذه المسافة ، إلا اذا كانا آتيين نحوها . وحين عزمت على رفع عينيها كانا قد ابتعدا بسرعـة نحو اللوكسمبورغ .

فتنفست الصعداء ، وكان الدم يخفق في عروقها . وتبعت الاثنين بعينيها باضطراب إلى ان اختفيا . وظلت جالسة بضع لحظات بدون شجاعة. ثم نهضت وسارت باتجاه بيتها ، بخطوة ثابتة تقريباً فهذا الانتظار اللامنتهي كان قد أراحها قليلاً ، رغم كل شيء .

٧٣

قال جاك لجني :

— استريحي . أما انا فسأوصل انطوان إلى القطار . وبعد ذلك سأذهب لوداع مورلان . وسأمر على المركز العام للشغل ، وجريدة « الانسانية » وفي نهاية فترة الصباح سأعود إلى هنا وآخذك .

ولكن جني لم تكن تسمعه . فقد كانت مصممة على ان لا تظل وحدها هذا الصباح في الشقة . وقال متأكداً :

— وإعداد أمتعتك ؟ وتلك الترتيبات التي تكلمت عنها البارحة ؟ لن تكوني جاهزة أبداً للسفر هذا المساء .

كانت تبتسم ابتسامة جديدة تماماً ، خجولة ، شهوانية تغشّي على عينيها .

— لدي فكرتي .. سأذهب لرؤية حديقتنا الصغيرة في شارع لافاييت . وانت .. ستجدني هناك إذا اردت ، عند خروجك من محطة الشمال . أو فيما بعد .

واتفقا على ان ترافقه مشياً خلال اللوكسمبورغ حتى شارع الجامعة ، ثم تنتظره بصبر أمام كنيسة سان فانسان دي بول . وأسرعت ترتدي ثيابها .

كان انطوان قد ترك آن في الساعة الثالثة صباحاً .

لم يستطع البارحة مقاومة الحاجة الحنينية لرؤيتها : سرور متناهٍ ومرّ منحه لنفسه دون أوهام ، كأمنية تمنح لمحكوم بالاعدام . ولكن يأس آن المفرط ساعة رحيله والحسرة التي شعر بها لأنه استسلم للاغواء تركاه مرتعشاً

محطماً . وحين عاد إلى بيته قضى ما بقي من الليل واقفاً يرتب جواريره، ويحرق أوراقاً ، ويضع في غلاف المبالغ المالية الصغيرة التي خصّ بها اناساً متنوعين ، كالسيد شاسل ، والخادمات ، ومدموازيل دي ويز ، وحتى اليتمين في شارع فرناي ، والكاتب الصغير الشاطر ، وروبير بونار وأخيه (لقد استمر على اهتمامه بهما من بعيد ، ولم يكن يريد أن يتركهما بدون مورد في هذه الاسابيع الأولى من البلبلة العامة) . ثم كتب رسالة طويلة الى جيز يطلب منها فيها ألا تترك انكلترا ، وأخرى إلى جاك مرسلة إلى جنيف – لأنه كان مقتنعاً ان اخاه ، بعد حادث البارحة ، لن يأتي لوداعه . وقد اعتذر ببعض الكلمات الاخوية لأنه جرحه ، ويرجوه أن يواصله بأخباره .

وبعد ذلك دخل إلى غرفة الزينة ليرتدي بزته كجندي في الاحتياط ، وما ان اصبح جاهزاً حتى شعر انه هادىء جداً ، كما لو ان الخطوة الحاسمة قد اجتيزت .

وحين وضع (طماقاته) حول ساقيه استعرض ذهنياً كل ما قرر ان يفعله قبل رحيله . لم ينس شيئاً . وهذا التأكد أراحه . وفكر فجأة بان كثيراً من الأشياء تنقصه ليقوم بمهمته كطبيب عسكري على اتم وجه .

وبدون تردد ، أفرغ بسرعة صندوقة أدواته التي جهزها بكثير من الجد ، واستبدل القسم الأكبر من الملابس الداخلية بأشياء شخصية ، وبكتب كان من الضعف بحيث اصطحبها ، وبكل ما استطاع أن يجده في خزائنه ، من لفافات وضمادات ، وملاقط ، وحقن ، ومواد تخدير ، ومطهرات .

وكانت الخادمتان قد نهضتا منذ وقت طويل وأخذتا تطوفان في الأروقة . (كان ليون قد ترك باريس . اذ أراد قبل الالتحاق بفرقته أن يذهب إلى بلده لرؤية والديه) .

وجاءت ادريان تعلن ان الفطور جاهز في قاعة الطعام . كانت عيناها حمراوين . وقد رجت انطوان ان يضع بين امتعته دجاجة مشوية جاءت بها ملفوفة .

ونهض انطوان عن المائدة حين رن الجرس .

وأصفر اصفراراً خفيفاً . وتألق وجهه بابتسامة حنون . جاك ؟

وبالفعل ، كان هو . وقد وقف على العتبة . وتقدم انطوان ، وقد خنق التأثر حنجرتيهما . فتصافحا صامتين كأن شيئاً لم يحدث البارحة .

وتمتم جاك اخيراً : كنت اخشى ان اكون متأخراً .. هل كل شيء جاهز ؟ هل ستذهب ؟

ـ نعم . الساعة السابعة .. سيحين الوقت .

وكان يسمى ليوطدصوته ،وبحركة طليقة أمسك قبعته العسكريةواعتمرها . هل كبر رأسه منذ دورته العسكرية الأولى ، أم ان شعره أكثر طولاً من السابق ؟ فقد ظلت القبعة جاثمة على أعلى جمجمته بشكل مضحك . ورأى نفسه في مرآة الدهليز ، وتقطب حاجباه . وبينما كان يزرر حزامه بشكل أخرق كان نظره يتوه حوله ؛ وقد بدا كمن يطلب اجازة من منزله ، من حياته المدنية ، من نفسه . ولكن عينيه كانتا تعودان دون انقطاع نحو الصورة المكدرة التي تعكسها له المرآة .

في تلك اللحظة انفجرت الخادمتان بالنحيب ،وهما واقفتان جنباً إلى جنب ، واذرعهما متدلية . فانزعج ، إلا انه ابتسم لهما وجاء يشد على ايديهما .

ـ هيا . هيا ..

لم تكن نبرته العسكرية ترن جيداً ، وقد أدرك ذلك . ولكي يسرع في الرحيل التفت نحو جاك :

ـ ساعدني على انزال هذه ، اتريد ؟

وامسك كل منهما مسكة من الصندوقة وبلغا سطح الدرج . وعند مرورهما من الباب صدمت زاوية الصندوقة المصراع وأحدثت جرحاً طويلاً في الدهان الجديد.وتأمل انطوان العطب وكشر آلياً كشرة أصلحها حالاً بحركة لامبالاة، وربما في تلك البرهة نفسها شعر بشكل شديد بالفصل بين ماضيه ومستقبله .

وهبطا الطابقين دون ان يتبادلا كلمة . كان انطوان يمشي بتثاقل بحذائه المسمر ؛ وكانت سترته العسكرية المزررة وطوقه القاسي يخنقانه . وفي الاسفل

تمتم وقد ضاقت انفاسه : يالها من غباوة ! لم افكر انه يوجد مصعد .

وكان قد توقع انه لن يجد سيارة اجرة – ومع ان السائق ، فكتور ، قد جند هذا الصباح في الاحمال الثقيلة في بوتو ، فانه عزم على اخذ سيارته . وان يأخذ معه أولاً (ميكانيكياً) عجوزاً من المرأب المجاور قادراً على اعادة السيارة .

وتحت الباب الكبير ، في ظل القنطرة كانت حارسة المنزل ، بصدرتها البيضاء ، تراقب الرحيل ، فقالت باكية : يا سيد انطوان !

فصاح بها بنشاط : إلى الملتقى القريب .

ثم أصعد الأوال إلى المقعد الخلفي ، واجلس جاك بجانبه وأمسك بالمقود .

وكان قد بدأ يوجد كثير من الناس في الشوارع ، وعلى أثر بلبلة دوائر التنظيفات فان علب الأقذار غير المفرغة كانت تزدحم أمام الأبواب .

وكان جاك صامتاً اذ لم يكن لديه ما يقوله لأخيه . ومع ذلك فوجود الأوال (الميكانيكي) في داخل العربة يمكن ان يكون عذراً .. كان يفكر بسرعة محمومة بمائة من الأشياء المتنوعة : بجني ، بالليلة الاخيرة ، برحيلها القريب إلى جنيف .وبعد ذلك؟ كان تفكيره يصطدم دائماً هنا .. مينستريل.. « لابارلوت » .. كلا ، لن يقبل ، تحت أي عذر ، بمعاودة حياة الانتظار تلك، والمؤامرة الوهمية ، والثرثرات الباطلة .. إذن ماذا ؟ الجهاد ، الحركة ، التعرض للخطر . فهل يستطيع ذلك هناك ؟

وارتجف فجأة . فأنطوان الذي كان يقود متمهلاً – كان يجب أن ينفخ بالبوق دون انقطاع لأن المشاة على عرض الطريق أكثر عدداً منهم على الارصفة – وقد اغتنم فرصة توقف قصير فترك المقود بيد ، ودون ان يقول شيئاً ، حتى دون ان يلفت رأسه ، وضع تلك اليد بلطف على ركبة جاك . ولكن قبل ان يستطيع هذا ان يجيب على تلك الحركة الدالة على حب، استعاد انطوان المقود ، وواصلت العربة سيرها .

كان شارع موبوج أسود بالمجندين الذين تصحبهم نساؤهم وأهلهم : وكانوا يصعدون بصفوف متراصة نحو المحطة .

وتمتم جاك منذهلاً : كم هم مسرعون !

فقال انطوان ساخراً بضحكة مرغمة :

– هناك حظوظ كبيرة في ان ينتظر هؤلاء الاشخاص نصف يوم أو اكثر وهم محبوسون على رصيف المحطة ، قبل ان يستطيعوا الصعود إلى قطار !

وفكر جاك : « انهم يريدون الوصول في الوقت المحدد ، فارغي الصبر لبدء الحرب بعمل يتعلق بالنظام . اما كان يجب أن يعوا انهم الاكثرية ! وانهم يكونون السادة لو ارادوا ! » .

وكان هناك سياج خشبي قد ارتجل اثناء الليل ، كان يحيط المحطة بحاجز لا يمكن اجتيازه ؛ ويحميه الجيش ، وكان الازدحام شديداً بحيث لا يمكن لسيارة ان تقترب. واوقف انطوان سيارته ، وساعده جاك على اجتياز الطريق مع صندوقته . وكان المدخل الضيق تحرسه مفرزة من الجنود المشاة والحراب في البنادق . والمجندون وحدهم يدخلون إلى المكان المسيّج .

وكان نائب ضابط يفحص دفاتر المجندين . وقد رفع عينيه نحو شارة رتبة انطوان وأدى التحية ، وأشار حالاً إلى جندي ليحمل امتعة الماجور .

والتفت انطوان نحو اخيه ، وقرأ كل منهما في نظر الآخر نفس الاستفهام : « هل أراك ثانية ؟ » . وصعدت في نفس الوقت الدموع إلى الجفون . ان كل ماضيهما ، كل تلك الحكاية العائلية العديمة المعنى والوحيدةالتي يملكانهامشتركين، والتي كانا هما الوحيدان اللذان يملكانها، عادت إلى ذهنهما بصورمباغتة.وبنفس الحركة ، فصلا سواعدهما وحضنا بعضهما البعض . واصطدمت قبعة جاك بحافة خوذة انطوان . لم يتعانقا منذ سنوات وسنوات : منذ تلك الطفولة الصغيرةالتي عاد الاثنان وعاشاها بلمحة برق .

ولكن الرجل المسخر كان قد استولى على الصندوقة وحملها على كتفه . وتخلص انطوان بسرعة . لم يكن لديه سوى فكرة : اللحاق بالرجل ، وان لا

تغيب أمتعته عن عينيه . وهي الشيء الوحيد الذي بقي له في هذا العالم الجديد . ولم يعد ينظر إلى أخيه ،ولكنه مد يده متلمساً وأمسك بيد جاك وشد عليها بعنف ؛ ثم تغلغل بدوره بين الجموع وهو يترنح قليلاً .

وابتعد جاك بضع خطوات واستند إلى الحاجز وقد أعمته دموعه ودفعه القادمون الجدد .

وكان المجندون يدخلون واحداً واحداً إلى النطاق المسوّر. كانوايتشابهون، وكلهم شبان . وكلهم يرتدون ملابس قديمة بالية ، وأحذية ضخمة ، وقبعات عسكرية . ويعلقون في أكتافهم نفس الأكياس المنتفخة ، ونفس الجعبة الجديدة التي يبرز منها خبز ، وعنق زجاجة . وكان على وجوه معظمهم نفس التعبير المنقبض المستسلم ، نوع من اليأس والخوف ، وكلهم مغتمون . وكان جاك يراهم وهم يجتازون الطريق بانحراف ، ودفاترهم في أيديهم ، وهم وحدهم . وعلى نفس الطريق كان بعضهم يلتفتون نحو الرصيف الذي تركوه ! حركة من اليد ، وأحياناً ابتسامة مقتضبة متفاخرة لهذا أو لتلك ، من الذين يشعرون أن نظره أو نظرها الذاهل مصوب اليهم؛ثم يدخلون بدورهم في المصيدة مشدودي الفك .

— لا تبقوا هنا ! سيروا .

والجندي العامل الذي كان يقوم بالحراسة على طول الحاجز ، وسلاحه على كتفه ، كان شاباً ذا جذع ضخم يقوّم جسمه تحت ملابس الميدان ؛ ويده القصيرة تشد على خشب البندقية ؛ وكان له شيء من شارب، وعينان صبيانيتان تتواريان ، وأمائر جعلها اهمية الامر المعطى لها قاسية .

واطاع جاك وسار في الطريق .

ومرت أمامه سيارة مقفلة يحمل زجاجها الاماميعصابة من النسيج القطني: « نقل مجاني تحت تصرف المجندين ». وكان السائق بثياب الخدمة . وفيالداخل تكدس ستة من الشبان يحملون اكياساً ويصيحون بملءأفواههم كالمجندين حديثاً: « انها الالزاس واللورين ، - الالزاس هي التي نحتاجها ! » .

وعلى الرصيف الذي اقترب منه جاك كان هناك زوجان يفترقان . كان الرجل والمرأة ينظران إلى بعضهما البعض لآخر مرة . وكان الطفل ، وهو غلام صغير في الرابعة من عمره ، يلهو حول الأم : يتعلق بتنورتها ، ويقفز على رجل واحدة وهو يغني . وانحنى الرجل وحمل الطفل ورفعه وقبله بقساوة جعلت الطفل ينتفض غاضباً. وأراح الرجل الغلام على الأرض . والمرأة لم تتحرك ، لم تكن تقول شيئاً: واقفة ، بمريلة الشغل في البيت ، مشوشة الشعر ، ملطخة الخدين من أثر البكاء ، وكانت تتفحص رجلها بعينين مجنونتين. وعندئذ ، وكأنه خشي أن ترتمي عليه وأن لا يستطيع التخلص منها ، فبدلاً من أن يأخذها بين ذراعيه ، تراجع دون أن يفارقها بنظره ؛ ثم استدار فجأة واندفع نحو المحطة . اما هي ، فبدلاً من أن تناديه ، بدلاً من ان تتبعه بنظرها ، دارت نصف دورة وسارت . والغلام الذي كانت تجره وراءها ، كان يصطدم ويكاد يسقط ؛ وانتهت بأن رفعته من طرف ذراعه ووضعته على كتفها دون أن تتوقف ، لتهرب بسرعة ، لتصل بسرعة دون شك إلى منزلها الفارغ حيث تستطيع أن تنتحب ملء عينيها ، لوحدها ، والباب مغلق .

وحوّل جاك نظره منقبض القلب . وأخذ يسير على غير هدى يميناً وشمالاً ، دون هدف ، مبتعداً ثم مقترباً من المكان . وكان يعود دائماً رغماً عنه إلى ذلك المكان المؤثر حيث جاء كثير من الكائنات المعذبة هذا الصباح ، كما إلى موعد مشؤوم ، ليقطعوا أواصرهم الانسانية . كان في تلك العيون ألم وشجاعة ؛ وكان يبحث عن نظرة تجيب على نظرته ، نظرة واحدة يستطيع أن يقرأ فيها ، تحت الشقاء ، انعكاساً لذلك الهيجان الخفي الذي جعله يشد قبضته في جيبه ويرتجف من الغضب العاجز ! ولكن كلا ! في كل مكان ، على جميع تلك الوجوه المنقبضة بشكل متنوع ؛ نفس خمود الهمة ، نفس الألم العظيم ! وأحياناً ، ألق من البطولة العمياء : ولكن في كل مكان نفس الخضوع للتضحية ، نفس الخيانة اللاشعورية أو الخجولة ، نفس التخلي ! وكان يبدو له ان كل ما بقي في العالم من الحرية في هذه اللحظة ليس له من ملجأ سواه .

هذه الفكرة ملأته فجأة بالقوة والكبرياء . لقد ظل ايمانه سليماً ، وقد رفعه هذا الايمان فوق القطيع . وانه وان كان مجهولا ومهملا اكثر من أي انسان آخر فقد كان يشعر ، وحده وفي تمرده ، انه أكثر قوة من كل هذا الشعب المطعّم بالكذب . والراضي بالمعاناة ! لقد كان في الطريق الحق ، الصحيح . وكان لديه الحق ، وقوى المستقبل الغامضة . والاخفاق الآني للمثل الأعلى للسلام ليس باستطاعته ان يفسد العظمة ولا أن يشوه النصر . ما من قوة في العالم تستطيع أن تمنع ضلال اليوم من أن يكون ضلالاً ، وضلالاً فظيعاً حتى ولو رضيت به ملايين الضحايا بنبل وعزم ! وكان يردد ثملا من اليأس والثقة : « ما من قوة في العالم تستطيع ان تمنع فكرة صحيحة من أن تكون صحيحة ! وسيأتي يوم ، رغم الكمامات ، ورغم التأخر ، تنفجر فيه الحقيقة ! ».

ولكن كيف يخدم هذه الحقيقة في حالة الاضطراب ؟ لقد اراد أن يكون حراً ، ويجب أن يهرب ؛ ولكن ماذا يفعل بحريته ؟

لقد بدا له فتوره الثوري ضعفاً اثناء هذه الايام الاخيرة . وقد حاول أن يلقي المسؤولية على حبه . وفكر فجأة بجني ، ودهش لأنه منذ ساعة قد نسيها كلياً وبسهولة . وحقد عليها تقريباً لأنها موجودة ، ولأنها تنتظره وتنتزعه من وحدته المسكرة . وفكر : « لو أنها تموت فجأة » . لقد استسلم ، طوال برهة ، لتيهان مخيلته ، وتذوق مزيجاً مراً من الحزن والاستقلال المكتسب ثانيـة .

إلا أنه اسرع نحو حديقة سان فانسان دي بول . وكان يبتسم من فراغ الصبر الغرامي ، غير معلق اهمية على تنكره المجنون ، طوال ثانية ، ليشعر من ذلك بتوبيخ الضمير .

لم يكن قد مضى عشر دقائق حين تركت سيارة انطوان شارع الجامعة حتى توقفت امام الباب الكبير عربة قديمة ، قاتمة ، مكسوة بالغبار ، كمقعد يحمله حمالون ، من موجودات المتحف .

والفتاة التي هبطت منها ألقت نظرة حائرة على التصوينات وعلى الواجهة المدهونة من جديد ؛ ثم دفعت الأجرة إلى الحوذي العجوز ، وأخذت الحقيبتين اللتين كانتا على المقعد ودخلت بسرعة تحت القبة .

وظهرت حارسة البيت بصدرتها على باب منزلها :

ـ آه ! يا إلهي ! الآنسة جيز ؟

وفتحت عينين مدلهتين أدركت منهما جيز ان مصاباً ينتظرها .

ـ ولكن يا آنستي المسكينة ، لا يوجد احد ! فالسيد انطوان سافر الآن !

ـ سافر !

ـ ليلتحق بفرقته .

فلم تجب جيز بشيء . ونظرتها المداعبة ، نظرتها التي تشبه نظرة حيوان مخلص ، قـد اظلمت . فأسقطت حقيبتها على قدميها . وعلى وجهها الصغير ، وجه الخلاسية الذي أصبحت صبغته رمادية ، فان الذهول بدا انه تسجل بشكل طبيعي ، ووجد غضوناً جاهزة (من ذلك الشاطىء الانكليزي حيث كانت تقضي عطلتها مع تلميذات ديرها ، كانت تتابع ما يجري في أوروبا بشكل سطحي جداً . والبارحة فقط ، حين أعلنت الصحف قرب حدوث التعبئة الفرنسية ، انتابها الخوف ، وبدون ان تستمع إلى أي تحذير ، وحتى بدون أن تعود إلى لندن ، وصلت إلى دوفر ونزلت في أول سفينة) .

وقالت حارسة البيت موضحة : كل اولئك السادة قـد ُجنّدوا . وليون تركنا البارحة . وفكتور أيضاً . ولا يوجد عندي فوق سوى ادريان وكلوتيلد.

فتهلل وجه جيز . ادريان وكلوتيلد ! ليتمجد اسم الرب ! لم يضع كل شيء . هاتان الخادمتان قد ربّتاها ، وبالاجمال فهما عائلتها : ما بقي لها من عائلة ... واعتدلت بشجاعة ، وتبعتها حارسة البيت التي أخذت الحقيبتين وسارت نحو المصعد . وتمتمت : اذن تغير كل شيء ؟

ذلك الدرج الأبيض ، ذلك الحاجز .. صور ، ذكريات ، تتابعت في دماغها الذي غشّاه الارق . وزاد شعورها بأنها في غير مكانها في هذا الزخرف المبدّل

الذي كانت تبحث فيه عبثاً عن علامات، لكي لاتكون في بناية مجهولة تماماً .

بعد نصف ساعة . كانت في مئزرها الكتاني الموشّى بالزهور ، وقدماها في خفين . وقد جلست مع الخادمتين في غرفة الطعام الواسعة الخاصة بأنطوان ، امام الشوكولا الساخنة ، وقطع الخبز المحمّص المدهونة بالزبدة ، والتي كانت تأكلها في طفولتها . وكانت مستندة بذراعيها إلى الطاولة ، تحرك ملعقتها في فنجانها ، مستسلمة بشكل طفولي لراحة الدقيقة الراهنة . وذهنها بشكل خاص لم يكن نشيطاً ابداً ؛ فحياتها في انكلترا في ذلك المكان الملحق بالدير حيث يحدد النظام كل فعالية ، لم تُنمِ فيها ذوق الابتكار .

وحين كانت مستسلمة هكذا ، مستديرة الكتفين ، ثقيلة النهدين ، مسترخية القسمات ، فقدت فجأة كل فتنة شبابها . انها لم تكن « نيفريت » المتوحشة الصغيرة ، بل كآبة عبدة ملونة ، ذات جسم ثقيل ، وشفتين سميكتين ، ونظرة واسعة غير معبرة ، منحنية تحت الرضا القدري للأعراق المستعبدة .

ومجيء جيز قدّم لاضطراب الاختين أُلهية صادرة عن العناية الإلهية : فقد جلستا إلى جانبي الفتاة وأخذتا تتنافسان بالثرثرة ، باكيتين مبتسمتين دورياً . واخبراها اخباراً كثيرة عن عمتها ، المدموازيل دي ويز ، حيث كانتا تستمران ، بدافع الواجب ، في حمل الموز والحلويات اليها في كل شهر ، نهار الأحد ، إلى « مأوى العمر الناضج » ولم تخف كلوتيلد ان المدموزايل العجوز قد اختلّت امورها ولم تعد تهتم بشيء ، الا إذا كان بأدق حوادث الملجأ ؛ وانها تستقبل الزائرتين احياناً دون لطف كغريبتين مزعجتين ، نواياهما موضع شبهة ؛ وكانت تصرفهما عادة قبل ساعة إقفال غرفة الحديث لئلا تفوتها جولة في لعبة البيزيغ Besigue .

وكانت جيز تصغي وجفونها منتفخة بالدموع . وتأوهت :

– سأذهب لرؤيتها قبل عودتي :

فصاحت الخادمتان معاً : عودتك ؟

كانتا عازمتين على صرف جيز عن العودة إلى انكلترا . وكان انطوان قد ترك لهما نقوداً لعدة أشهر . وكانت أدريان تتخيل وتصف بمجاملة ما سوف تكونه حياتهن الثلاثية . وقد أرهقت الفتاة بمشاريعها . وكانت قد قطعت من صحيفة الصباح « نداء إلى نساء فرنسا اللواتي يردن المساهمة في الدفاع عن الوطن » . ان فرص إظهار الإخلاص ، وأن يكنّ نافعات ، متوفرة ! أماكن لحراسة أولاد المتطوعين ، وكالات لتوزيع الحليب على الأطفال الرضّع ، إعداد أدوات الضماد ، أدوات لصنع البزات العسكرية ، الخ .. على كل فرد أن يستعد للدفاع الوطني ! والحيرة هي في الاختيار .

كانت جيز تبتسم مفتتنة . لا شيء يدفعها إلى تعجيل الرحيل ، أنها تستطيع في فرنسا أن تكون مفيدة .

لا حارسة المنزل ولا الخادمتان فكرن بلفظ اسم جاك . كانت جيز تعتقد انه في سويسرا ، ولم تكن لديها فكرة في إلقاء أسئلة . وقد علمت فقط ، في صباح الغد ، وعلى اثر ثرثرة من كلوتيلد انه كان في باريس يوم وصولها . ولكن هل كانت تجده ثانية لو أعلمت قبلاً ؟ ما من أحد يعرف عنوانه . ثم هل كانت تحاول رؤيته ؟

٧٤

هتف جاك مغتاظاً على درج صحيفة « البيرق » ، وحتى قبل ان يبلغ سطح الدرج ، حين شاهد علبة حليب على حصير مورلان :

— انه ليس هنا .

وبالفعل ، لم يرد أحد على رنة الجرس . وضرب جاك ثلاث ضربات متباعدة على الباب :

— من هذا ؟

— تيبو .

وُفتح الباب . كان نصف مورلان الأعلى عارياً ، ورغوة الصابون على اللحية والشعر . وقال عندما شاهد جني :

– المعذرة ! كان على الغلام أن يقول أنه يصطحب سيدة . – ودفع الباب برجله – ادخلا .. اجلسا ..

كان بقرب المدخل كرسي من قش أخذته جني حالاً .

وكانت النوافذ مقفلة . والهواء مشبع برائحة الكرتون ، والصمغ ، والنطرون ، والغبار . ورزم صحف مربوطة بخيوط ومكدسة في كل مكان ، على الطاولة ، على مقعد حديقة ، في وعاء خشبي مخلع . وعلى الأرض ، في زاوية بقرب وعاء نشارة يوجد عداد للغاز كانت انابيبه المعدنية المقسمة والمسطحة تبرز إلى الامام كبقية عضو مبتور .

وكان مورلان قد عاد الى المطبخ . وصاح من بعيد وهو يغتسل بالماء تحت الصنبور : لقد عدت منذ لحظة وفعلت كالسارق .

وظهر بعد قليل مرتدياً قميصاً نظيفاً وهو يتمم مسح شعره بمنشفة :

– قضيت الليل كالأبله في الخارج ..كالجبان .. انت تعلم ان التجنيد بالنسبة إلي يعني تفتيش ، وتوقيفات .. بامكانهم المجيء للتفتيش : لا يوجد شيء وقد اتخذت احتياطاتي . ولأجل التوقيف ، فلعمري اني افضل الانتظار قليلاً ...

– وأوضح وهو يشمل جني بنظرةساخرة : – اوه !لا لأنني أخشى انأوضع في الظل . لم أكن أبداً براحة بال إلا أثناء اشهر سجني .. وبدون السجن ، أعتقد جيداً انني ما كنت أجد الوقت للتفكير بكتبي ، ولا بكتابتها .. ولكني لست حريصاً على ان أكون من العجنة الأولى!لقد فتش البارحة رجال الشرطة في كل مكان:عندبولتير ،عند غلبا Guelpa .. حتى في « الإغلانتين ».إن شرطتهم مدربه الا انهم لم يجدوا شيئاًسوى بيان بيير مارتان«نداء إلى الحس السليم»،اتعرفه؟

– جاؤوا حين كان الرفاق يخرجرن البضاعة من المطبعة . أما كليس ، روبير كليس ، ذاك الذي اشتغل في « الحياة العمالية » وهو شاب كانقد سُرّح من الجندية ولم يكن جندياً أبداً . – ويبدو ان هنا من وشى به ، واتهم بانه كتب

نشرة ضد العسكريين . وانه الآن في السجن بانتظار أول مجلس للتسريح من الجندية ، والذي سيرسله إلى الخط الأول .. وقد عرفت ذلك مساء البارحة . تنبيه للهواة ! بالاختصار ، قلت لنفسي ان من البلاهة ان ادعهم يقبضون علي : وقد هربت .

– وبعد ؟

– ظننت انني سوف أجد ملجأ عند الرفاق . عند سيرون ، فلم يكن أفضل من هنا . عندئذ ذهبت إلى غويو : لا أحد . إلى كوتيه : لا أحد . إلى لاسينيه ، إلى موليني ، إلى فالون ، لا أحد . لقد رحل الأخوان كلهم ! مثلي ! وعندئذ همت على وجهي طول الليل ، وحدي من سوء الحظ . وهذا الصباح ، في فانسين ، اشتريت الصحف ! وفهمت انني لم أكن سوى حيوان عجوز . وعدت إلى البيت.هذا كل شيء . – ولفت نحو جاك عينيه المحاطتين بالشوك : – اقرأت الصحف يا غلام ؟

– كلا .

– كلا ؟

وانتقل نظر مورلان إلى جني وعاد نحو الشاب. وقد بدا انه يقرر علاقة بين وجود جني وبين عدم تقصّي جاك الأخبار ، غداة التعبئة ، في الساعة العاشرة صباحاً . فأخذ رزمة من الصحف من جيب بلوزته السوداء التي كانت معلقة في مسمار ؛ وبطرف الاصابع ، كما لو انه يلتقط قذارة، سحب واحدة من الكدسة واسقط الباقي على البلاط .

– خذ يا صديقي الصغير . تسلّ إذا كان قلبك مستعداً للضحك . أنا ، من عادتي ان أتلقى ، وقد تلقيت هذه كضربة على المعدة ! **القلنسوة الحمراء !** صحيفة ميرل والميريدا ! اصبحت بين عشية وضحاها الناطقة باسم حكومة بوانكاريه ! سترى كل شيء ! انظر .

بينما كان مورلان يأخذ بلوزته ويرتديها بغضب كان جاك يقرأ بصوت منخفض :

– « .. أجيز لنا بشكل قطعي ان نصرح ان الحكومة لن تستعمل الدفتر ب .. فالحكومة تثق بالشعب الفرنسي وبالطبقة العاملة على الخصوص ، ويعلم الجميع انها حاولت – ولا تزال تحاول – المستحيل لانقاذ السلام . والتصريحات الواضحة جداً للثوريين الأكثر عزماً .. »

فدمدم مورلان : الثوريون الاكثر عزماً ! سفلة !

– .. من طبيعتها ان تطمئن الحكومة تمام الاطمئنان .. فالفرنسيون كلهم سوف يقومون بواجبهم .. هذا ما أرادت الحكومة ان تشير اليه باقلاعها عن استعمال الدفتر ب » .

– هاه ؟ ما رأيك بهذا ياغلام ؟ قرأته مرتين قبل أن أفهم تماماً ما يعني . مع ذلك يجب التوضيح .. فهذا يعني : ان البروليتاريا الفرنسية تقبل **حربهم** بفرح ، والمعارضة العمالية قليلة الخطر بحيث تقلع الحكومة عن التوقيفات الاحتياطية. اتفهم؟ذلك كما لو انهم يوجهون الكلام إلى جميع الثوريين ويقرصون آذانهم بلطف : « هيا ايتها الرؤوس الرديئة . انهم يغفرون لكم معارضتكم ! هيا إلى القيام بواجبكم كجنود ! » والحكومة ، كأمير صالح ، تمزق اللوائح السوداء وهي تمزح ، وتترك المشبوهين يركضون .. لأن المشبوهين اليوم **ليسوا بشيء** ، أتفهم ؟

وكان يضحك . وهذه الضحكة غير العادية ، الرنانة ، الصارّة التي رسمت كشرة على وجهه كوجه مسيح عجوز ، كان فيها شيء مخيف .

– المشبوهون ، لا يوجد منهم أحد : **غير موجودين ابدا** : أأدركت ذلك؟ لك أن تتصور أية تأكيدات قطعية لزم ان يعطيها زعماء الاحزاب الثورية للوزارة لتكون الحكومة واثقة منها ، فتستطيع دون أية مجازفة ، منذ اليوم الأول للحرب ، ان تسمح لنفسها بحركة كريمة كهذه ! الا تعتقد ان القذرين قد **باعونا للحكومة** .. هاه ؟ لقد وقع المقدر هذه المرة ، وانتهى الأمر ! وهيئة أركان الجيش تمسك بالطرف الأفضل . والكلام ليس لمن يحاربون بل لأولئك الذين يجعلونهم يحاربون !

وابتعد بضع خطوات ويداه متشابكتان وراء ظهره تحت بلوزته المسترسلة. وقال فجأة وهو يدور على عقبيه :

– ومع هذا ، لا استطيع ان أصدق ذلك ! لا أستطيع التصديق ان الأمر انتهى حقيقة .

فارتجف جاك وقال بصوت خفي :

– ولا أنا ، لا أستطيع التصديق انه لم يبق لنا ما نعمله ، حتى في الساعة الراهنة .

فردد مورلان كالصدى :

– حتى في الساعة الراهنة . أو بالاحرى في بضعة أيام ، في بضعة أسابيع ، إلى أن تذوق هذه السائمة المسكينة الحرب ! آه ، لو كان كروبوتكين هنا . أو أي انسان آخر يقول ما يجب قوله وسوف يكون مسموعاً ! لقد قبل الرفاق كلهم بهذه الحرب لانهم كذبوا عليهم ، لانهم استغلوا سرعة تصديقهم مرة اخرى . ولكن ربما يكفي شيء زهيد ، استعادة وعي مفاجىء ، ليتغير كل شيء دفعة واحدة .

وكان جاك قد نهض كأنه سيط بجلدة سوط ، ومشى نحو مورلان :

– ماذا ؟ شيء زهيد ؟ أي شيء زهيد ؟ ماذا تعتقد ان بالامكان عمله ؟

كان لصوته رنة غريبة جداً بحيث لفتت جني رأسها نحوه ، وظلت برهة دون تنفس ، والشفتان منفرجتان ، وقد انتابها الخوف .

وكان مورلان دهشاً ينظر إلى جاك الذي تمتم :

– بماذا تفكر ؟ قل ؟

فهز مورلان كتفيه بشيء من الارتباك :

– ما أفكر به أيها الغلام ؟ بلاهات دون شك .. اتكلم .. أقول ما يجول في رأسي .. كل هذا مستحيل ! لا استطيع الامتناع عن الأمل مهما كان الأمر ، الامل أيضاً ، الأمل ضد كل شيء ! والشعوب – شعبنا ، كالشعب المقابل – خدعت بشكل ظاهر ! من يدري ؟ يكفي ..

– يكفي ؟

– يكفي .. لا أدري ، انا .. لو يحدث فجأة برق من الوعي بين جيشين فيمزق تلك الكثافة من الأكاذيب ! لو ان كل هؤلاء التعساء يستطيعون أن يفطنوا ، في انتفاضة من الذكاء على جانبي خط النار ، الى انهم دفعوا دفعاً إلى النار ، الا تعتقد انهم كانوا ينهضون كلهم ، في نفس اندفاعة الاشمئزاز والتمرد ؟ وينقلبون معاً ضد اولئك الذين جاؤوا بهم إلى هناك ؟

فرفت جفون جاك كأن عينيه غشيتا فجأة من نور ساطع . ثم خفض عينيه وعاد نحو جني دون أن يبدو أنه يراها ، وجلس .

وكانت برهة قلق وصمت . ويبدو ان شيئاً ما قد حدث وان الثلاثة فطنوا اليه بشكل غامض ولم يفهموه جيداً . وتابع جوملان بعد صمت :

– انه الاجماع في كل البلاد ! ففي الأرياف ، صوتت جميع المجالس البلدية الاشتراكية على شعارات تنبه إلى الوطن المهدد ، وتحث على الدفاع الوطني ، وتضع المانيا في لائحة الأمم المتمدنة ! – وقال وهو يلتقط الصحف التي القاها على الأرض : – خذ ، هذا هو بيان الاتحاد العام للشغل : **الى البروليتاريين الفرنسيين** . اتدري ماذا وجد الاتحاد العام للشغل ليقوله ؟ **ان الحوادث قد داهمتنا .. والبروليتاريا لم تفهم فهما كافيا بشكل جماعي كل ما ازم من الجهد المستمر لوقاية الانسانية من أهوال الحرب** .. ويقال بطريقة اخرى : « لا شيء يمكن محاولته أيها الفتيان ؛ فوطنوا النفس على سد حلاقيمكم ! وهذا هو النص الذي اعلنته اليوم على جدران باريس نقابة عمال سكة الحديد » – عمال سكة الحديد أيها الغلام ! عمالنا في سكة الحديد ! اتصدق ؟ : « ايها الرفاق ! أمام الخطر المشترك تزول الأحقاد القديمة ، ايها الاشتراكيون والنقابيون والثوريون ، ستحبطون حسابات غليوم السافلة ، وستكونون أول من يلبي النداء عندما يدوي صوت الجمهورية ! » انتظر . انتظر .. لم ينته ، لم تر الاجمل . ذق هذا الآن : **رسالة مفتوحة** إلى السيد وزير الحربية .. التوقيع ؟ .. احزر ! التوقيع : غوستاف هرفيه ! اسمع : « بما ان فرنسا فعلت المستحيل لإبعاد الكارثة ، كما بدا لي ، فاني ارجو ان تشملني بعناية خاصة وتلحقني بأول كتيبة

للمشاة ذاهبة إلى الحدود ! » وانظر ! نعم يا صغيري !انظر كيف يبدل عقيدته ! صاحبنا غوستاف هرفيه ،مدير صحيفة «الحرب الاجتماعية ! » صاحبناغوستاف هرفيه الذي كان يصرح انه ليس هنـــاك وطن يستحق أن تهرق لأجله قطرة دم عامل ! وبعد هذا ، انت ترى ان الحكومة تستطيع ان تكون مطمئنة ، وتضع دفترها ب في الدرج ، فقد حصلت عليهم كلهم ، الواحد بعـــد الآخر ، رعاة الثورة الكبار !

وطرق أحدهم الباب عدة طرقات فسأل مورلان قبل أن يفتح :

– من هذا ؟

– سيرون .

كان القادم الجديد رجلاً في الخمسين من عمره ، وجه مسطح ، يقطعه شارب رمادي ؛ وجبهة عارية ، عريضة ؛ وانف ذو منخرين مسحوقين ، وعينان منفصلتان جداً ، بنظرة ساخرة ، وقناع من النشاط الهادىء مع شيء مـــن العجرفـــة .

وكان جاك يعرفه بالنظر . وهو الوحيد الذي يُلتقى به في أغلب الأحيان مع مورلان . وسيرون هو نقابي ، مناضل قديم حكم عليه عدة مرات بسبب عمله الثوري . كان يعيش منذ عدة سنوات بمعزل عن الحركة . وكان يكتب نشرات ويساعد في تحرير « البيرق » في ساعات الفراغ التي يتركها له عمله كعامـــل متخصص . وهو كمورلان ، يشكل جزءاً من اولئك الجنود المتطوعين ذوي الذكاء اليقظ دائماً ، الخالي من العيب ،الفخورين الواعين ، الصارمين على الحماقة ، المخلصين للقضية اكثر من اخلاصهم للرفاق ، المحترمين من الجميع ولكنهم عرضة للنقد بسبب تحفظهم ، المعرضين للغيرة أيضاً بسبب قيمتهم الشخصية .

وقال مورلان :

– اجلس . – مع ان الكرسي الفارغ تشغله جني – أقرأت صحفهم ؟

فرسم سيرون حركة بكتفيه تدل في نفس الوقت على احتقاره للصحافة ، وانه لم يأت للتعليق على الحوادث . وقال وهو ينظر إلى الطبّاع :

– يوجد هذا المساء اجتماع في « جان – بار » . وقد قلت انني سأخبرك . يجب ان تأتي .

فدمدم مورلان :

– لا أحرص على ذلك أبداً . معروف مقدماً كل ذلك ..

فقاطعه سيرون : لا يتعلق الأمر بهذا .. انا سأذهب . لدي أشياء أقولها لهم . وانا بحاجة لأن نكون اثنين .

فرضي مورلان : هذا يختلف . ما هي هذه الأشياء ؟

فلم يجب الآخر حالاً : ونظر إلى جاك ، ثم إلى جني ، وسار نحو النافذة وفتحها قليلاً وعاد نحو مورلان :

– اشياء . أشياء يجب عملها ، ولم يفكر بها أحد . اننا في اسوأ ورطة ، وهذا مفهوم ؛ ومع ذلك فليس هناك سبب يجعلنا نصالب اذرعنا ونتركهم يعملون كما يحلو لهم .

– اوضح .

– حسناً . إذا رأى الزعماء الاشتراكيون والنقابيون ان من الخير الانضمام والتعاون مع الحكومة ، فيجب على الأقل ، مقابل هذا التعاون ان يطلبوا ضمانات لأولئك الذين يمثلونهم . اليست هذه فكرتك ؟ بالفعل ، لقد خلقت الحرب وضعاً ثورياً . فلنستفد منه ! لم يكن ذلك ليفوت جوريس ، ولكان انتزع من الدولة امتيازات للبروليتاريا .. وهذا يمكن الحصول عليه . فالحرب ستفرض على الجميع قيوداً وتضحيات . وأقل ما يطلب للشغيلة حصة من الرقابة على التدابير التي ستتخذ . ولا يزال الوقت متسعاً لوضع شروط . والحكومة الآن بحاجة الينا . اذن فهي تعطي ، وتعطي . اليست هذه فكرتك ؟

– شروط ؟ مثلاً ؟

– مثلاً ؟ .. يجب إجبارهم على مصادرة جميع المصانع الحربية لمنع أرباب العمل من كسب ارباح عظيمة على ظهر الشعب الذي يرسلونه ليموت ؛ وهذه المعامل يجب ان يوكل أمر إدارتها إلى النقابات .

فدمدم مورلان : ليست فكرة حمقاء .

– يجب أيضاً وضع حدٍ لغلاء الأسعار . وهذا الغلاء بدأ في كل مكان ، ولا أرى سوى وسيلة : اجبار الحكومة على وضع يدها على جميع المنتوجات ذات الضرورة الأولية ، وان تنشىء مخزوناً للدولة، باستبعادها الوسطاءوالمضاربين؛ وتنظيم التوزيع ..

– ولكنه مشروع صعب هذا الذي يجب إيقافه على قدميه .

– الأطر والموظفون موجودون. يكفي الاستفادة من تعاونيات الاستهلاك التي تعمل الآن .. اليست هذه فكرتك ؟ كل هذا يجب النظر فيه . ولكن ما دامت قد اعلنت حالة الطوارىء في فرنسا ، وحتى في الجزائر ، فلنستعملها على الأقل لحماية الصغار من الكواسر .

كان يروح ويجيء خلال الغرفة التي ملأها صوته الرصين . ولم يكن يوجه كلامه إلا الى مورلان ، ملقياً من وقت لآخر نظرة لاهية نحو الشابين . وكان العرق يتلألأ على جبهته الجميلة الملساء .

وكان جاك صامتاً ، ومع أنه كان ذا وجه منتبه بشكل غير عادي ، وفي نظرته لهيب ، فانه لم يصغي . كان تائهاً في منعطفات تفكيره الخاص ، وكان على بعد مئة ميل عن سيرون ومصادرة المصانع ، وحالة الطوارىء ، ومخزونات الدولة . وكان مورلان قد قال : « لو يحدث فجأة برق من الوعي بين جيشين فيمزق تلك الكثافة من الاكاذيب .. »

واغتنم فرصة مقاطعـــة الطباع العجوز ليشير الى جني وينهض . وقال مورلان : اذاهب انت ؟ هل تأتي أنت أيضاً هذا المساء الى « جان ـ بار » ؟

فقال : انا ؟ كلا . هذا المساء هو آخر مهلة للاجانب الذين يرحلون،سنذهب كلانا إلى سويسرا .. وقد جئت لأودعك .

فنظر مورلان الى جني ، ثم إلى جاك :

– آه ! اذن قد قررت ؟ في سويسرا ؟ نعم .. انت على حق .

وبدا متأثراً جداً . ومع انه كان مقتنعاً ان التأثر لن يظهر عليه ، فقـد

تابع بنبرة فظة : حسناً اذهب ! وحاول ان تقوم لنا بعمل جيد هناك ! حظ سعيد يا صغيري ! ..

كان جاك يشعر بحالة من الهياج والتشوش الداخلي جعلته يتمنى قليلاً من الوحدة . وما ان اصبحا في الشارع حتى تمتم : والآن يا جني ، يجب ان تكوني عاقلة وتصغي إلي .

وكان قد أخذ ذراعها وانحنى نحوها ، وأخذ يتكلم برنة عذبة :

– لديك الف عملٍ متعب يجب أن تقومي به قبل هذا المساء . أنت تعبة . ويجب أن تعودي إلى البيت . لا تقولي كلا . يجب أن ترتاحي ... الساعة هي العاشرة والربع . سأوصلك ... وسأذهب وحدي إلى صحيفة « الانسانية » . ثم علي أن استعلم عن إجراءات سفرك . في مدى ساعتين سيكون كل شيء قد تم أتريدين ؟

فقالت : نعم .

والصحيح انها كانت في حالة تستحق الشفقة : منهوكة ، محمومة ، متألمة في جسدهابشكل عميق.وقدانتظرت وقتاً طويلاً وهي جالسة في الحديقة الصغيرة على ذلك المقعد القاسي الذي حطم صلبها ، في المكان الذي قال لها منه جاك : « ما من كائنٍ كان محبوباً كما أنت محبوبة مني ! » وراحت في خدر مؤلم وتذكرت كل تفاصيل تلك الامسية القريبة جداً ، البعيدة جداً الآن ، وكل الأيام التي تلت ، حتى تلك الأعجوبة العنيفة في هذه الليلة ... وبعد ساعتين من الانتظار ، حيث رأت جاك يظهر في أعلى الدرجات بوجهه المعذب الجانح إلى المناهضة ، ونظره الشارد ، ادركت انهما غير متفقين رأياً ومراماً ، وشعرت من ذلك بحلم عنيف . ودون أن تجرؤ على قول شيء له عن احلامها الطويلة فقد استمعت إلى قصة رحيل انطوان ؛ وتركته يقودها سيراً على الاقدام إلى عند مورلان . ولكنها لم تكن تستطيع شيئاً .. ولم تكن لديها الشجاعة لترافقه إلى مكان آخر... كانت تتوق إلى العودة إلى بيتها والتمدد بين الوسائد لتريح جسدها المتألم .

كانت القطارات الكهربائية متباعدة ، ولكن من حسن الحظ فان المصلحة

كانت لا تزال تعمل . واستطاعا من الباستيل بلوغ جادة سان ميشال دون أن يمشيا . وظل جاك يسندها حتى شارع الاوبسرفاتوار ، وافترقا أمام الباب .

– سأتركك..وأعود بين الساعة الواحدة والثانية. – وابتسم – وسنتناول آخر غذاء باريسي لنا ..

ولكنه ما كاد يجتاز عشرين متراً حتى سمع وراءه صوتاً متضايقاً متغيراً : جاك .

وبوثبتين عاد إلى جني .

– امي هنا .

وكانت تنظر اليه مبلبلة :

– حارسة البيت هي التي أوقفتني ... لقد عادت هذا الصباح .

وتفرسا ببعضهما البعض . وخلا الدماغ فجأة من كل فكرة . كان تفكير جني الأول قد اتجه إلى الفوضى التي تركتها فوق .سرير دانيال مدعوك، وأدوات زينة جاك في غرفة الحمّام .

ثم بلمحة عين اتخذت قراراً وأمسكت بذراعه :

– تعال .

كان وجهه مقفلاً لا تحل طلاسمه . فرددت كأن الأمر بسيط جداً :

– تعال . اصعد معي .

– جني !

فرددت بقساوة تقريباً : تعال .

كانت تبدو حازمة . وشعر بذهنه معتماً وبارادته متلاشية فتبعها دون اية مقاومة .

وتسلقت الطوابق أمامه وبسرعة كبيرة ؛ فقد نسيت تعبها ؛ وبدت الآن فارغة الصبر لتنهي كل شيء .

ولكنها توقفت على سطح الدرج قبل أن تضع المفتاح في القفل.كانت تترنح. وسمعا في الصمت تنفسها يضيق . ولم تلفظ كلمة . بل تشددت وفتحت الباب

وأمسكت بمعصم جاك وشدت عليه بقوة ، وجرّته وراءها في الشقة .

٧٥

قضت مدام دي فونتانان فترة الصباح في بيتها ، في حالة من الاضطراب لم تعرفها حتى في اسوأ ساعات حياتها الزوجية .

ومن حسن الحظ أن باب غرفة دانيال كان مقفلاً ؛ وكادت المرأة المسكينة تقتنع انها عرضة لكابوس لولا أن قادتها حاجتها لإعداد فنجان من الشاي في المطبخ . وحين شاهدت آنية السفرة لشخصين اغمضت عينيها غريزياً ودارت ، وعادت تلتجىء إلى غرفتها .

وتلت دقائق الضعف هنيهات حمى نومانية . وحين تركت ملابس السفر وارتدت ثوباً قديماً للبيت ، ورتبت الغرفة ، واكملت باجتهاد جميع انواع الحركات غير المفيدة ، أرادت أن ترغم نفسها على السكون وجلست في مقعد واسع ذي وسادة بقرب النافذة ذات المصاريع المعرضة للشمس . يجب بأي ثمن أن تسيطر على نفسها ولنساعد نفسها على ذلك كانت تعوزها توراتها الصغيرة الباقية في حقيبتها . وراحت تبحث عن توراة ابيها القديمة على احد الرفوف : مجلد كبير ، اسود، ثقيل،ملأ هوامشه القس دي فونتانان بالاشارات ومستندات المراجعة . وفتحتها حسب الصدف وحاولت القراءة .. ولكن ذهنها الحرون الهارب من النص استسلم رغماً عنها إلى استعراض غير متلاحم لصور وافكار ، كان التفكير بدانيال يمتزج فيها بذكريات رجال الأعمال في فيينا ، وشدائد رحلتها ، والمحطات الملأى بالجيوش ، وتداعي افكار مشوشة تنهيها دائماً سيطرة رؤيتها للسرير الذي كانت جني وجاك ينامان عليه متشابكين.وضجة المركبات التي كانت تمر في الجادات المجاورة تهز الجدران ، وتتردد في رأسها ، وتغمر احلامها برافقة مشؤومة . وللمرة الأولى في حياتها فان شعوراً بالخوف والرعب كان يثقل عليها دون أن تستطيع الحركة : الأحساس بانها أُخذت يجرها إعصار وأن فوضى مرعبة انتهبت اوروبا ، وطنها ؛ وأن روح الشر انتصرت في

العـالم .

وسمعت فجأة حركة باتجاه الغرفة الداخلية ، ثم فطنت حالاً إلى خطوات في الرواق ، فتجمدت قسماتها . لم تكن تملك القدرة على النهوض ، فرفعت جذعها فقط . وفتح الباب ودخلت جني شاحبة بشكل غريب تحت خمارها الأسود ، ثابتة العين ، مضطربة الوجه .

ورؤية والدتها جالسة بهدوء في مكانها المعتاد ، بثوبها المشجر ، والتوراة على ركبتيها ، أدهشت الفتاة وبعثت فيها الاضطراب : لقد كان هذا كل ماضيها الذي قفز أمام وجههـا بعد سنوات من الغياب . وبدون أن تفكر ، بدون أن تهتم بجاك الذي كان وراءها يتردد في اللحاق بها ؛ ركضت نحو أمها ، وأحاطتها بذراعيها ، ولـكي تزيد من اقترابها انزلقت على الطنفسة وأسندت جبهتهـا إلى الثوب : أمي ..

فانتهز الحنان والشفقة بسرعة مدام دي فونتانان من قلقها النفسي ، وامتلأ قلبها بالتسامح ، وفي الوقت نفسه فإن السر الذي فاجأته بدا لها تحت ضوء يختلف ؛ ليس كفضيحة : كضعف . فانحنت نحو الابنة التي وجدتها بعد غياب وكادت تأخذها بين ذراعيها وتتلقى اعترافاتها ، وتعيش الـكارثة معها ، وتفهم ، وتبتسم ، وتوجه – ولكن تنفسها توقف فجأة ! فقـد تحرك ظل على حائط الرواق .. جني لم تكن وحدها ! فجاك هنا ! وكاد يظهر ! وتشنجت يدها الموضوعة على رقبة جني . ولم تفصل نظرها عن ذلك الباب المفتوح . ومضت بضع ثوان . وكان خمار الكريب ينشر رائحته الحادة القوية .. وأخيراً انتصب خيـــال جاك في إطار الباب . ومن جديد ترجرج مـرأى السرير ، والوجهين الغاشيين أمام عيني مدام دي فونتانان .

وتمتمت بصوت مخنوق ، مليء باللوم والذعر :

– يا ولديّ .. يا ولديّ المسكينين .

وكان جاك قد اجتاز العتبة ووقف أمامها ! وكان ينظر إليها خجلاً وعابساً معاً . وعندئذ لفظت بوضوح : صباح الخير يا جاك .

فرفعت جني رأسها بسرعة . بالتأكيد لم تكن تضحك : ولكن فرجة الفم التي كانت تشوه قسماتها انتشرت على وجهها كانعكاس سرور شيطاني ؛ وألق جديد تماماً ، ألق وقح أيقظ فكرة غريزةٍ عُريت ، وجعل حدقتيها الزرقاوين تلمعـــان . فمدت ذراعها نحو جاك ، وخطفت معصمه ، وجذبته بعنف ، والتفتت نحو أمها ، وقالت بنبرةٍ أرادتها حبية ولكن كان يرف فيها الانتصار ، ونوع من التحدي أيضاً ، والتهديد تقريباً .

ــ لقد وجدته من جديد يا أمي . وإلى الأبد .

فتأملتهما مدام دي فونتانان لحظة ، الواحد بعد الآخر . وبذلت جهداً لتبتسم فلم تتوصل إلى ذلك . وتفلتت من شفتيها آهة خفيفة .

وكانت جني تنظر إليها . في تلك الآهة ، وفي ذلك الوجه الأمومي المرتجف من القلق ، ومن العذوبة أيضاً ، وحيث كانت تود لو تقرأ ضمانة القبول ، فان حساسيتها الحذرة لم تشأ أن ترى سوى كآبة غير موافقة . فذعرت ؛ وأصيبت في أعماق حنانها البنوي . فابتعدت عن أمها ونهضت بحركة نشيطة جعلتهـــا تنتصب واقفة أمام جاك . وسحنتها المغتاظة ، ونار نظرتها ، كانتا تعبران عن كبرياء متجاوزة الحد ، عمياء ، هجومية بوقاحة .

أما جاك فبالعكس ، كان يتأمل مدام دي فونتـــانان بالحاح ودود . ولو تـــكلم فلـــكي يقول دون شك : « اني أفهمك ! ولكن نحن أيضاً يجب أن نُفهم » ..

وشملت مدام دي فونتانان الاثنين بلمحة مرتبكة ، وخفضت عينيها : وفرضت صورة السرير نفسها عليها من جديد ..

وساد صمت ، ثم قامت بحركة مجاملة نحو جاك بداعي العادة :

ــ لا تظلا واقفين ، يا ولديّ .. إجلسا ..

فأدنى جاك كرسياً لجني ، وبإشارة من مدام دي فونتانان جاء يجلس إلى يسارها .

وبدت هذه الكلمات البسيطة أنها جلبت الراحة . وحين جلسوا بشكل

دائرة ، كما في زيارة ، فإن درجة الحرارة بدت أنها انخفضت ، واقتربت من العادي . واستطاع جاك بنبرة طبيعية تقريباً أن يقطع الصمت ليطلب تفاصيل عن رحلة العودة .

فسألت الأم جني : ألم تتلقي إذن رسالتي الأخيرة ؟

– لا شيء . ولا أية رسالة . لم أتلقّ منك شيئاً سوى بطاقة . الأولى . التي كتبت في محطة فيينا نهار الاثنين .

كانت تتكلم مهتزة ، صارّة على أسنانها .

فرددت مدام دي فونتانان : الاثنين ؟

والجهد الذي بذلته لإعادة تشكيل تسلسل الأيام جعل جفونها ترف :

– مع أني كنت أكتب إليكما رسالتين كل مساء : واحدة لك ، وواحدة لدانيال .

وقبض التفكير بولدها قلبها مرة أخرى . وصرحت جني بنبرة عنيفة :

– لم تصلني إلا واحدة .

– ودانيال : ألم يرسل إليك بأخباره ؟

– بلى . مرة واحدة .

– أين هو ؟

– لقد ترك لونيفيل . ومنذ ذلك الوقت لا شيء .

وساد صمت قطعه جاك القلق من جديد :

– متى سرتِ من فيينا يا سيدتي ؟

ولاقت مدام دي فونتانان بعض الجهد لتتذكر ، وانتهت إلى القول :

– نهار الخميس . نعم . نهار الخميس صباحاً . ولكن لم نصل إلى أودين إلا في الليل . ولم نواصل سفرنا إلى ميلانو إلا عند الظهر .

– هل أعلن في النمسا صباح الخميس عن ضرب بلغراد بالقنابل واحتلالها ؟

فتطلعت مدام دي فونتانان إلى الشاب باضطراب واعترفت : لا أدري .

لم تكن تفكر أثناء اقامتها في فيينا الا بالدفاع عن ذكرى زوجها . ولم

تكن تهتم أبداً بمجرى الحوادث . وقالت لنفسها : « ان جني لم تسألني حتى إذا كنت قد نجحت في تسوية امورنا » . ونظرت إلى ابنتهـــا ، وألقت على نفسها فجأة هذا السؤال المؤلم : « ألم تشعر بشيء من خيبة الأمل لانني استطعت العودة ؟ »

وجاك ، لكي يقول شيئاً ، استمر في الاستعلام عن الحالة النفسية في فيينا ، وعن المظاهرات : بذلت مدام دي فونتانان جهدها لتجيبه ، متعلقة مثله بهـذه المواضيع اللاشخصية التي ترجىء الايضاح الرهيب — لأن الثلاثة في هذه اللحظة كانوا يفكرون أن « ايضاحاً » هو قريب الحدوث ولا يمكن تجنبه .

وكان جاك يلتفت دون انقطاع نحو جني كأنه يجرها إلى الحديث ، على غير طائل . فالفتاة لم تكن تبدو انها تصغي . فتشدد هيئة الرأس ، وتشنج وجهها الهزيل ، وعيناها الهاربتان القاسيتان ،وطريقتها في هذا الصباح بأن تبقي ذقنها مرتفعة ، ضامة شفتيها ، كل هذا يدل ليس فقط على ارادتها في أن تبقى بمعزل ، بل على توتر خفي ، غريب ، عدائي . وكانت جالسة على كرسيها الذي لا يسند مسنده ظهرها ، والجسد متألم ، والأعصاب متوترة ، تجيل خلال الغرفة نظراً لامبالياً كان يتوقف مرة بعد مرة على امها توقفه على شخص لا دور له ،موضوع في زخرفة تكاد لا تكون واقعية ! مدام دي فونتانان بتوراتها ،في كنبتها القديمة من المخمل الأخضر ، المدارة بانحراف بشكل أبدي لتستقبل النور من النافذة بطريقة أفضل ، كانت تبدو جالسة هنا منذ بدء الأزمنة ! تذكارات الماضي ، رمز (يلين القلب تقريباً ومثير بشكل خاص) لماض منته . كان بـــين دقيقة وأخرى ينفصل عنها بهدوء ؛ ماض كان يبدو لها انه يغرق في الضباب كما يبتعد عن المسافر في الدقيقة الأخيرة جمهور الأهل الآتين لوداعه . كانت تجذف نحو شواطىء أخرى ؛ والقلب الخافق بشدة شبيه بسفينة تتهيأ للاقلاع . وكانت تشعر في داخلها برعشة نبضات حيـــاة جديدة . لو أن جاك في هذه اللحظة أمسك بذراعها وقال لها : « تعالي واتركي كل هذا إلى الأبد » . لسارت حتى دون أن تلقي نظرة إلى الوراء .

والساعة الصغيرة التي كانت على طاولة سرير دانيال بالقرب من صورة لجيروم ودانيال دقت طويلاً في الصمت.

فرفع جاك عينيه نحوها ، وحاول الهرب فجأة ، فانحنى نحو جني :

— الساعة الحادية عشرة ... يجب أن اذهب .

وتبادلا نظرة مقتضبة . ووافقت جني باشارة من رأسها ونهضت حالا قبله .

ولاحظتها مدام دي فونتانان . والفكرة التي خطرت لها كانت مؤلمة بشكل خاص : فابنتها جني ، الكثيرة الاستقامة ، الكثيرة الصدق لم تكن تعرفها ! فقد وجدت لها هيئة هاربة ، هيئة « ضمير رديء » .. نعم : بالرغم من مظهرها المطمئن ، وجدت لهما في تلك اللحظة – للاثنين معاً – هيئة مداجية . كانا ينظران إلى بعضهما البعض باحتفالية متبجحة ، مضحكة قليلاً ، على طريقة عرافين ، مطلعين على سر . وفكرت مدام دي فونتانان : « شريكان في الذنب .. » كان الأمر كذلك : فقد كان بينهما تواطؤ حبهما المسكر ؛ ذلك الحب الذي يريدانه مطلقاً ، غامضاً ، لا مثيل له ، وحيداً وحيداً على الخصوص ؛ بنوع ان لا يستطيع أحد غيرهما النفاذ إلى صفة هذا الحب غير العادية !

وتجرأ جاك بسبب قبول جني ، فاقترب من مدام دي فونتانان ليستأذن بالذهاب .

كانت مندهشة من هذا الذهاب السريع . أصحيح انهما سيتركانها وحدها دون ان يقال أي شيء ؟ ألم تكن تستحق الثقة اكثر من ذلك ؟ كانت تجرب ان تحكّم عقلها وتقبل بهذا ، بعدم الاعتبار الذي يجرحها . وربما كان عليهما هي أن تضطرهما إلى الافضاء بسرهما . والآن فات الآوان . لم تكن لديها الشجاعة . ثم كانت تشعر انها منهوكة من تعبها ، من تلك الهزة الاخلاقية التي تلقتها : تحت رحمة حركة غضب ، ظلم . لا شك أن من الأفضل ان ينتهي هذا اللقاء الأول دون إيضاح .. الا انها لم تكن تستطيع الامتناع عن الحقد على

جني . ولكن في الوقت الحاضر اصبحت تحقد عليها بسبب نزوتها المجرمة اقل من حقدها بسبب هـذا الموقف المتمرد الذي كان غير مفهوم ، ولا مبرر له ، وغير مقبول ! أما جاك فلم تكون تلومه بشيء . وبالعكس ، فقد راق لها أثناء هذه الزيارة : لقد شعرت بوجود فهم كامل مضمر تحت احترامـــه الخائف ؛ وأدركت أن لديه ضميراً نقياً ، وحياة داخلية دون انحطاط . وبعد ، فقد كان صديقاً لدانيال . وكانت مستعدة لأن تحبه كولدها اذا كانت هذه ارادة الله .

وحقدت عليه قليلاً جداً بحيث انه عندما شد على يدها كانت على وشك أن تجذبه اليها كما كانت تفعل مع دانيال ، وتقول : « كلا ، دعني اقبلك يا ولدي » . ومن سوء الحظ انها في تلك اللحظة رفعت عينيها نحو جني. كانت الفتاة واقفة ،ملتفتة نحوها ، ونظرها النافذ ، المشحون بحقد في أوجه ، كان مثبتاً على والدتها . وهذه النظرة بدت انها تقول:«نعم» اني اراقبك . وألاحظ ما تفعلين،اريد أن أرى إذا كنت ستجدين أخيراً الحركة الامومية التي أنتظرها منك ، منذ أن أدخلت جاك إلى هنا ! » عندئذ ، فان الغضب الذي كان كامناً في قلب مدام دي فونتانان أصبح هو الاكثر قوة : فانتفضت انتفاضة كبرياء ، أن ما كانت مستعدة لعمله فانها لن تعمله تحت وطأة تهديد صامت !

واقلعت عن ذلك العناق الذي كانت تعد نفسها للقيام به ، واكتفت بأن مدت يدهاللشاب. وكان وحده الذي أدرك ارتعاش هذه اليد ،والتأثر، والرضا المخبأ ، والحنان الذي وضعته المرأة المسكينة في هذه الحضنة العادية .

كل هذا لم يدم سوى ثانية . ولكن حين ابتعد جاك مصحوباً بجني ، فان مدام دي فونتانان ادركت بقوة انكل علاقاتها مع جني فيالمستقبل قد أصبحت موضع سخرية في هذه البرهة ، وانها فسدت ، وان رابطاً لا يعوّض قد انقطع بينها وبين ابنتها . وشعرت بالخوف .

ــ أأنت ايضاً خارجة يا جني ؟

فقالت الفتاة دون أن تلتفت : كلا .

في الرواق ، أمسكت جني بذراع جاك ، وبسرعة وصمت ، قادت الشاب حتى الدهليز .

وهناك سيفترقان . وكان يُقرأ في نظراتهما المتشابهة نفس الحيرة . وتمتم جاك : أتذهبين معي مهما كان الأمر ؟

فاعتدلت بحدة : ما هذا السؤال ؟

وبدت انها أهينت كما لو أنه يرتاب بها . وسأل بعد صمت قصير :

– كيف ستقولين لها ؟

كانت واقفة أمامه ، مرفوعة الذراع : معلقة اليد بقائمة الخزانة المصنوعة من خشب السنديان . وقالت مع حركة عنيفة من رأسها :

– اوه ! الآن .. سيان عندي !

فتفرس بها مندهشاً . وانزلقت نظرته حتى تلك اليد المتشنجة على الخشب القاتم ، الكثيرة البياض ، بعضلاتهـا الصغيرة المرتعشة ، وأسند شفتيه عليها . وقالت فجأة : هل تصحبها معك ؟

– من ؟ أمك ؟ – وتردد ربع ثانيــة – نعم : اذا ظننتِ .. بالتأكيد .. لماذا ؟ أتعتقدين انها ترغب في الذهاب معنا ؟

فقالت بسرعة :

– لا أدري .. كلا ، لا أعتقد .. ولكن ، أخيراً ، ذلك لتوقُّع كل شيء – وصمتت وابتسمت بضعف وقالت : – شكراً . أين ستجدني ؟

– ألا تريدين اذن أن أعود وآخذك من هنا ؟

– كلا .

– ولكن ، امتعتك ؟

– لن تكون ثقيلة .

– أتستطيعين حملها وحدك حتى القطار الكهربائي ؟

– نعم .

– وأوراقي .. الرزمة التي وضعتها في غرفتك في يوم سابق ؟

– سأضعها بين أمتعتي .
– حسناً . اذن تعالي والحقي بي إلى محطة ليون .. في أي ساعة ؟
وفكرت : في الساعة الثانية ؛ الساعة الثانية والنصف على الأكثر .
– سأنتظرك في المطعم . أتريدين ؟ نستطيع أن نترك حقيبتك هناك حتى ساعة قطارنا .

واقتربت وأخذت وجهه بين كفيها . وفكرت : « يا حبيبي » . وغمست ببطء في عيني جاك نظرها المشغوف إلى أن التقى فماهما .

وهذه المرة أيضاً تخلصت قبله وقالت : اذهب .

في صوتها كما على قسماتها ، فان حالة عصبية متناهية امتزجت بالعيـــاء : انا عائدة إلى جانب امي . سأكلمها وأقول لها كل شيء .

٧٦

ما كاد جاك يخرج من الشقة وقد سيطر على نفسه من الاضطراب الذي احدث فيه رغبة عظيمة في أن يكون وحده عندما خرج من صحيفـة « البيرق » حتى تساءل اولاً ، ولبرهة ، ما هو ذلك الشيء الضروري الذي عليه أن يعمله ؛ وفجأة رن كلام مورلان من جديد في داخله : **ربما يكفي شيء زهيد ... اذا حدث فجأة برق من الوعي بين الجيشين ...**

لقد كان ذلـك كغشاوة ... **بين الجيشين** ... هـذه الفكرة فرضت نفسها عليه بعنف ، وبوضوح حسي ، بحيث توقف في منتصف الدرج ، ويـــده على الحاجز ، دائخ الرأس ، خافق القلب بالمخاطرة وبالأمل ... هناك مشروع كان يجول في عقله الباطن منذ بضع سنوات قـد برز اخيراً إلى النور واستولى عـلى كيانه . انه لم يكن حلماً مبهماً ، محاولة إرادة ضعيفة : ان ما اتخـذ شكلاً في نفسه على غير انتظار هو مخطط واضح ، مخطط حركة ، محـدودة ، شخصية ؛ إحدى تلك الفكرات الثابتة التي ترشح بها الادمغة الفوضوية في الظلام . كان يعرف الآن لماذا يذهب إلى سويسرا وما سيقوم به هناك ! كان يعرف بأي عمل مادي ،

بأي عمل منفرد وحاسم يستطيع أخيراً... بعد أيام عديدة من البطالة، والقلق العقيم، أن يناضل في سبيل ايمانه ويضع حاجزاً في وجه الحرب ! عمل يتضمن دون شك تضحية كلية ... وهذا، فقد ادركه دون جهد، ورضي به دون مباهاة. حتى دون أن يشعر بشجاعته : انه مليء بالتأكيد الغامض أن هذا العمل الذي هو مستعد أن يعطي حياته في سبيله كان اليوم هو الوسيله الوحيدة المثلى لإيقاظ وعي جماهير الشعب وتغيير مجرى الأمور بعنف واخفاق القوى المتحالفة ضد الشعوب، ضد الاخوة والعدالة.

لقد نسي تماماً عودة مدام دي فونتانان، والزيارة الغريبة التي قام بها، حتى أنه نسي جني أيضاً.

أما هي، فبالعكس ... قبل أن تعود إلى غرفة امها سارت إلى الشرفة لترى جاك يترك البيت ؛ وقلقت لأنه تأخر كثيراً. وشاهدته أخيراً يخرج من الباب الكبير دون اهتمام بالمارة، وبمركبات العتاد التي تعرقل الطريق، ويندفع كالمجنون نحو جادة سان ميشال. وتبعته بعينيها إلى أن اختفى. ولكنه لم يلتفت.

ومدام دي فونتانان التي بقيت وحدها اسندت رأسها إلى مسند المقعد وظلت بضع دقائق متجمدة. لم تتوصل إلى صياغة فكرة واضحة ؛ ولكن انطباعها تجسد في هذه العبارة الغامضة التي رددتها لنفسها بضنى .. « لا يمكن أن ينتج أي خير من ذلك ». واستمرت في تصور جاك وجني، جنباً إلى جنب، منتصبين أمامها، شبيهين بخشبتين من أرومة واحدة. ثم رأت، بتداعي افكار لا ارادي، صالون والده العابس، وفي فرجة نافذة، جيروم اثناء خطبته لها، فتياً، منتصراً، متقوساً في سترة فاتحة اللون ذات خيوط سوداء وهو يبتسم لها. بأي اطمئنان اندفعا معاً آنذاك نحو المستقبل !.. وكم جابها العائلة كلاهما ! وكم كانت تشعر انها لا تُغلب وهي إلى جانبه ... واستعادت دفعة واحدة حميتها السابقة، وأوهامها ويقينها بأن تكون سعيدة .. واقتناعها بانهما كانا أول من عرف فورات عواطف كهذه. وبدون أن تشعر نحو هذه الذكرى الساخرة بشعور

حقد أو بكآبة فقط، كانت متهللة الوجه، كما لو أن وعود السعادة هذه سيوفى بها مدى الحياة .

وارتجفت حين سمعت ابنتها تعود . هذه الخطوة الحازمـة ، والطريقة التي تقفل بها جني الباب ، ووجهها المجهد ، ونظرها الغائب، المتعصب، كأنه محروق وحارق معاً ، كل هذا بعث فيها الخوف .

وفكرت أن تجد في الحنان الرقية الوحيدة الناجعة فتمتمت بخوف :

— عانقيني يا عزيزتي .

فاحمرت جني احمراراً خفيفاً : لا يزال على فمها طعم شفتي جاك، فتظاهرت بعدم السماع ، مهتمة بخلع قبعتها وخمارها وحملهما إلى السرير . ثم لمحت الكرسي الطويل في داخل الغرفة فتمددت عليه خاضعة لتعبها .

ومن هناك ، هتفت ، رافعة صوتها بسرعة خرقاء قليلاً :

— انا سعيدة جداً يا أمي .

فرفعت مدام دي فونتانان عينيها بحدة إلى ناحية ابنتها . في هذا التأكيـد الذي يرن فيه شيء من التحدي ظن قلبها الامومي انـه ميز فيه دلالة شقاء . وكان هذا كافياً ليقنعها أن هناك واجباً قد بقي عليها ، واجباً اخيراً يجب أن تقوم به . - مهما كانت المخاطر . فانتصبت بسلطة مفاجئة ، مطيعة أمراً عزته إلى الروح ، وقالت :

— هل صلّيت على الأقل يا جني ؟ صلّيت حقيقة ؟ هل تستطيعين القول أن الله الأبدي معي ؟

واحتدّت جني منذ الكلمات الأولى. كانت مسألة الايمان بينها وبين والدتها هاوية مؤلمة هي وحدها تعرف مقدار عمقها . وتابعت مدام دي فونتانان .

— جني . جني ... يا بنيتي ... تجردي من كبريائك ... ولنصلّ معاً ، ولنطلب معونة ذاك الذي يعرف كل شيء ... انظري معه في سر نفسك ... جني ! ألا تشعرين في أعماقك بشيء ... يقاوم ؟ — وأخذ صوتها يرتجف : —

بشيءٍ ما ، بواحد .. ينذرك بأنك ربما كنت على خطأ ؟ وأنك ربما كنت تكذبين على نفسك ؟

وصمت جني جعل أمها تظن أنها تجمع أفكارها لتصلّي . ولكن الفتاة تنهدت بعد صمت طويل : لا تستطيعين أن تفهمي .

كانت النبرة خشنة تخمد الهمة ، عدائية .

— ولكن بلى يا عزيزتي . بلى .

فقالت جني : كلا .

كان يُقرأ اصرار فارغ الصبر في نظرتها المحدودة . وكانت تتذوق ، بلذة مريضة ، النشوة بشعورها انها غير مفهومة والظن بأنها مضطهدة . وكانت على وشك التصريح : « ليس لديك أية فكرة عن ماهية حب كحبنا ! » ولكن هذه الكلمة «حب» لم تكن تستطيع لفظها بصوت مرتفع. فابتسمت مكشرة: لقد رأيت الآن أنك لم تفهمي شيئاً .. لا شيء أبداً .

— ماذا تريدين أن تقولي يا جني ؟ هل رأيت أنني لم أستقبلكما استقبالاً حسناً ؟

— كلا .

— كلا ؟

— كلا .

هكذا جزمت جني وعيناها ناظرتان إلى السقف . وبنبرة خفيفة ، ملأى بالشكوى ، أوضحت رافعة جذعها : لو أنك فهمتنا لوجدت كلمة تقولينها له ! كلمة ترينا أنك تقاسميننا سعادتنا .

وكانت مدام دي فونتانان قد لفتت عينيها . وقالت أخيراً :

— أنت غير عادلة يا جني .. كيف تستطيعين أن توجهي هذا اللوم إلي ؟ لقد وصلت إلى هنا هذا الصباح جاهلة كل شيء .. فقد أبقيتني متنحية وأخفيتِ عني كل شيء ..

فقاطعتها جني بهزة من كتفيها ، وهي حركة لم تكن طبيعية عندها ، ولم

ترها أمها أبداً تقوم بها : حركة منجاك. وبهيئة عنيدة غامضة، راضية ، قالت: لم أخفِ عنك شيئاً : فأنت تتهمين دون معرفة . منذ اسبوعين كنت أنا نفسي بعيدة عن الشك .

– ولكن لم يمض اسبوعان على تركي لك : فقد مضى حتى اليوم ثمانية أيام .. حين سافرت ، أما كنت ترتابين بشيء ؟

– كلا :

(كانت تكذب لأن أمها كانت لا تزال في باريس يوم التقت بجاك في محطة الشمال . وقد قلبت رأسها وأخفت وجهها ؛ ولكن صوتها كان يشي بها بطريقة واضحة بحيث احمرّت الاثنتان) .

وتابعت جني وقد عبرت عن اضطرابها بضحكة صغيرة مرغمة :

– لو حدثتيني عن جاك منذ اسبوعين لأجبتك بأنني أكرهه ! وأنني لا أرضى أبداً أن أراه .

وكانت مدام دي فونتانان واضعة يديها على ذراع المقعد. وقد انحنت بجدة:

– إذن في بضعة أيام ؟ دون أن تتركي مجالاً للتفكير .. (وكادت تقول : « لتقولي لي » ولكنها أضافت فقط) : وتستشيري دانيال ؟

فرددت جني متصنعة الدهشة : دانيال ؟ لماذا دانيال ؟

كانت مدفوعة بنوع من الغضب لا تعرف هي نفسها أن تبرره (حيث انفجرت تقريباً ، بدون أن تشعر ، سنوات من المعاكسة الحنون والانزعاجات الصغيرة الصامتة) ، فأسمعت من جديد ضحكتها المتكبرة . ثم قالت ، خاضعة لميلها غير المفهوم بأن تجرح أمها في النقطة الأكثر استعداداً للجرح :

– كما لو أن دانيال كان بإمكانه أن يعلم ، أن يفهم ! ماذا كان سيقول لي دانيال ؟ الأشياء الحمقاء التي يمكن أن يقولها الجميع ! الأشياء « المعقولة ! »

فأعولت مدام دي فونتانان : جني !

ولكن جني لم تملك نفسها : الأشياء التي تفكرين بها دون شك أنت أيضاً .. قوليها أخيراً .. ماذا ؟ ان هناك حرباً ؟ أو ماذا ؟ اننا لا نعرف بعضنا البعض

معرفة كافية ، جاك وأنا ؟ وانني لن أكون سعيدة ؟

فقالت مدام دي فونتانان ايضاً : جني !

كانت تتفرس بابنتها بذهول . هذه الجني ذات الحاجبين المقطبين ، والوجه المتصلب ، والصوت اللاذع لم تكن تشبه في شيء جني التي كانت تراها إلى جانبها منذ عشرين سنة ؛ هذه الجني التي أمامها كانت فريسة لغرائز أطلقت حديثاً من عقالها ... « غير مسؤولة » . هكذا فكرت بشعور بائس ولكن أيضاً بتسامح ، بتعزية تقريباً .

ولم تؤثر في جني ملامة أمها حتى ولا ألمها ، بل كانت تحرضها :

– وإذا كان لا فرق عندي أن أكون **غير سعيدة معه** ؟ فهذا أمر لا علاقة لدانيال به . انه لا يهم سواي ! وأنا لا أطلب نصائح ! وقليلاً ما يهمني ماذا يفكر الآخرون ! وليس لي أن أستشير أحداً . الآن وقد حصلت عليه ، **هو** .

وتلقت مدام دي فونتانان هذه الضربة الجديدة ، وشحب لونها . أما ما كان أكثر إيلاماً لها فهو شعورها بأن الإهانة كانت عن وعي وعن إرادة . إن روح الشر ، روح الظلمات ، قد دخلت إلى قلب ابنتها ! وأرسلت إلى الله نداء مرهقاً . وبدأت تعجز عن الدفاع ضد عدوى هذه البيئة السامة ، ولا تستطيع أن تكبح جماح الغضب الذي انتابها . إلا أنها نجحت للحظة أيضاً في الاحتفاظ بنبرة من الرصانة الحكيمة .

– كنت دائماً تتمتعين باستقلالك المعنوي يا جني . وتعرفين ذلك جيداً : منذ أن أصبحت في سنٍ تسمعين فيه صوت ضميرك ، فإني لم أفرض أية إرادة ولا أية نصيحة ملحّة . واليوم أيضاً تستطيعين الاعتقاد أنك حرة التصرف دون أن تأخذي رأيي . ولكن أنا ، فعليّ واجب .

– أرجوك يا أمي .

– علي واجب أن أكلمك ولو كان بدون جدوى .. واجب تحذيرك من نفسك .. جني . يا بنيتي . اني أتوجه إلى أفضل ما فيك .. هل من الممكن أن تكوني قد أضعتِ كل معرفةٍ بالخير وبالشر ؟ افتحي عينيك واسترجعي نفسك !

انت ضحية غواية لا يمكن تصورها .. لقد وصلت إلى درجة تستسلمين فيها لعاطفتك ، ليس فقط بدون توبيخ ضمير ، ولكن كما لو أن هذا الاستسلام كان اظهاراً لقوة .. وشجاعة .. ونبل .

وضاق نفسها . وأحست بشعور مؤلم انها أقل من مستوى مهمتها ؛ وانها مرهقة جداً بحيث تنكبت الطريق . ولم تقل ما يجب أن تقوله حق ولا باللهجة اللازمة . وربما كانت ستتوقف لولا ان جني المتمددة في هذه اللحظة ابرزت أمام عينيها منظر الاثنين متشابكين على اريكة دانيال . وتمتمت : كان عليك ان تشعري بالعار .

فرددت جني بقساوة مشحونة بالتهديد : ارجوك يا امي .

فتابعت المرأة المسكينة التي لم تستطع السيطرة على نفسها هذه المرة :

ـ العار ! .. انت ، جني .. ابنتي الصغيرة ، بنيتي ! .. تغتنمين فرصة وجودك لوحدك لتخضعي لكل هذه الغوايات !

وأسفت فجأة للطريق الذي قادها اشمئزازها اليه ، وقطعت الحديث ، وغيرت الاتجاه :

ـ هل يُتخذ قرار كثير الخطورة ، ذو نتائج ثقيلة جداً ، ببضعة أيام ؟ قرار يُلزم حياة بكاملها ؟ ليس حياتك وحدك فقط ، بل حياتنا .. حياة اخيك - حياتي .. لأن مستقبلنا المشترك كله في مهب الريح ! هل فكرت حتى بذلك؟ كلا ! لقد كنت .. لقد ..

ـ كفى يا امي ! كفى . كفى !

فقالت الأم وهي على آخر نفس : لقد فقدت عقلك وتصرفتِ كطفلة .

والعبارة التي كانت ترددها دون انقطاع انبجست اخيراً من بين شفتيها : « لا يمكن ان ينتج أي خير ! » .

وشعرت جني بعنف بارد يتصاعد فيها فيرفعها كموجة من الاعماق ، وقد جعلها تنتصب فجأة وتقف . آه ، كيف كانت اليوم تقاضي أمها ! عدم فهم ، جفاف، انانية ! وقالت وهي تتقدم نحو مدام دي فونتانان :

– اتريدين ان اقول لك ؟ إذا كان أحد منا لا يرى في داخل نفسه بوضوح فهو انت ! الآن : هو انك لم تحبيني أبداً الا لأجل نفسك ، لأجل نفسك وحدك ! انها الغيرة هي التي تجعلك تقفين ضدنا . انت غيرى ! غيرى ! انت لا تفكرين إلا بشيء واحد : ان تستطيعي الاحتفاظ بي إلى جانبك بأنانية ! حسناً . لا تعتمدي على ذلك ! فقد فات الأوان ! اني آسفة لأنني سببت لك هذا الألم . ولكن من الأفضل ان تعرفيه بأسرع ما يمكن : جاك مسافر هذا المساء إلى سويسرا . وأنا ذاهبة معه !

فتمتمت مدام دي فونتانان بصوت لا يكاد يبين :

– هذا المساء ؟ .. إلى سويسرا ؟

– ليست هذه نزوة رأس : فقد قررنا ذلك قبل عودتك : القطار الاخير هو الذي ..

– انت ؟ هذا المساء ؟

– نعم ، والآن .

– كلا . لا تعتمدي على ذلك يا جني ! هذا ، كلا .

فأجابت جني بصوت لاذع : ليس هناك ما يقال ، وما يُعمل يا امي . ما من شخص يستطيع الآن ان يجعلنا نغير رأينا .

– اني اعارض ذلك . أتسمعين ؟

وكان كل جواب الفتاة انها هزت كتفيها .

– اتسمعينني يا جني ؟ اني امنعك من الذهاب .

– لا فائدة من الالحاح يا امي .. اني اكرر لك . ومع ذلك فقد كان عليك بدلاً من عدم موافقتك .. لو كان لديك شيء من قلب ..

فتلجلجت مدام دي فونتانان : لو كان لدي شيء من قلب ؟ !

ونسيت كل ما عدا ذلك لكي لا تحفظ سوى هذه الكلمات الرهيبة .

وصاحت جني ، وقد فقدت كل رقابة على نفسها : نعم . لو كنت حقيقةً مهتمة بسعادتي ، لو كنت تحبينني لنفسي ، اجل . اليوم انت ..

هذه المرة لم يبق لدى مدام دي فونتانان من المقاومة ما يجعلها تحتملها زيادة على ذلك . فأخذت جبهتها بين يديها ، وغرزت أصابعها في أذنيها لتتخلص من ذلك الصوت الذي طعنها . وفكرت وهي تطبق عينيها : « ليست المخلوقات هي التي تقرر ، بل الله . يا إلهي . لتكن مشيئتك » !

وسمعت جلبــة خفيفة فرفعت رأسها بخوف . كانت جني قد تركت الغرفة مغلقةً الباب بقوة . ولم تكن قبعتها ولا خمارها على السرير .

وقالت مدام دي فونتانان لنفسها : « يجب أن أصلّي .. أصلّي » ..

ولم تتوصل إلى إبعـــاد صورة جني كما رأتها ، ضائعة الصواب ، منتصبة بوقاحة .. وقالت متوسلة :

– ساعدني يا إلهي . أعطني القوة ! ما من شيء لا يمكن إصلاحه .. يجب علينا ألا نيأس من مخلوقاتك ..

وببطء ، وعلى مرتين متواليتين تلت الكلام المقدّس : « يجب ألا ننظر إلى الأشياء المنظورة بل إلى غير المنظورة . لأن المنظورة هي لوقت محدد ؛ أما غير المنظورة فهي أبدية » .

وأخيراً أعقب أول حركة حذرٍ نشاط عقلي غير منتظر . كانت محطمـة . الكتفان مستديران واليدان مضمومتان . وظلت غارقة في مقعدها ، جامدة . ولكن دماغها كان يشتغل بوضوح . وبذلت جهدها بصبر لتقوم بأول فحص للضمير . وكما كانت تفعل دائماً في ساعات المحن فقد اجتهدت في تحليل ألمهـــا لتحصر نطاقاته في حدود معينة ، وتعمل منه ، إذا صح القول ، شيئاً محدوداً يمكن فصله وتقديمه لله . **كل ما ليس مقدّماً فهو ضائع ..**

لم يكن رحيل جني إلى سويسرا هو الذي يبعث فيها مزيداً من الاضطراب . لأنها لم تتوصل إلى تصديقه تماماً . أما ما كانت تتألم منه على الخصوص ، عن خطأ أو عن صواب ، فهو أنها كانت مخدوعة . والجرح الحقيقي ، الجرح العميق كان هنا كانت تظن بسذاجة أن حنانها الشامل الذكي ، والحـرية التي تركتها لجني ، حتى في الوقت الذي لم تكن هذه فيه سوى طفلة ، خلقا بينها

وبين ابنتها عادةً من الثقة المتبادلة ، بحيث أن جني لم تكن تستطيع أن تقرر أي أمر خطير دون أن تخبرها ، دون أن تطلب موافقتها . ولكن جني أخفت عنها في الساعة الحاسمة في حياتها ، مغتنمةً أيضاً فرصة غيابها لتتصرف برياء فتاةٍ نشأت في أقصى أنواع الخضوع ، وتحررت أخيراً ، بحركة تمرد ، من وصاية ضيقة ، غير مفهومة تحملتها بفراغ صبر . ورغم المشهد المؤلم الذي حدث . فمن الطبيعي أن لا ترتاب مدام دي فونتانان بحب ابنتها ؛ وكذلك لم تكن تشعر أن حبها الأمومي قد نقص . كلا . لقد شعرت أنها أصيبت في **ثقتها** . ثقة كتلك التي وضعتها في جني تظل الى الابد مبتورة حين تُخان بهذه الشراسة .. حنو كالسابق ، نعم . نفس الثقة ؟ كلا ، أبداً .

هذه الفكرة بعثت فيها اليأس ، فتناولت توراتها من جديد وفتحت حسب الصدفة ، وركزت انتباهها على النص دون كثير من الجهد . وعاد الهدوء شيئاً فشيئاً . هدوء غريب ، غير منتظر ، مقلق تقريباً . وفجأة فحصت نفسها بكثير من الانتباه ، وظنت انها استشفت سر هدوئها الرهيب : عاطفة ولدت فيها بدون معرفتها . وكانت تنمو بهدوء ، وبتأكيد .. عاطفة كانت تعرفها لأنها جربتها في أقسى أيام حياتها ، حين كانت بدون قوة ، لتتألم طويلاً على غير طائل ، فقررت ان تفصل حياتها عن حياة جيروم . عاطفة ؟ بالاحرى رد فعلٍ غريزي ، شيء ما كدفاع عضوي . وفكرت : « دواء تستخرجه الطبيعة منا في حكمتها لتجعلنا قادرين على احتمال بعض الآلام » ووضعت كتابها وحاولت ايضاح صفة ما شعرت به واعطاءه اسماً .. تخلّي .. انفصال ؟ ربما لا توجد لفظة للدلالة على هذا المزيج من عاطفتين متناقضتين : الحنان ، واللامبالاة ؟ **لامبالاة** ! جعلتها الكلمة الفظيعة ترتجف . وفكرة حب امومي كتلك التي كانت تملأ قلبها طوال كثير من السنين ، تستطيع ذات يوم ، تحت ضغط الحوادث ان تتخفف إلى لامبالاة — مع ان هذه الفكرة في تلك الدقيقة لم تكن دون عذوبة — انها تجربة أخرى لأجل المستقبل . واطبقت عينيها . وابت أن تفكر مقدماً . وتمتمت مرة أخرى ايضاً : « لتكن مشيئتك » .

ولكنها رزحت تحت الغم وانحنت مرة أخرى وجبهتها بين يديها ، وبكت .

٧٧

كانت جني قد قررت بغضب أن تهرب ؛ وقد انذرتها الغريزة بانها يجب ألا ترى امها ثانية بأي ثمن وذلك لتتم بدون ضعف هذا التصرف الذي يتوقف عليه المستقبل كله ... ولا أن تفسح المجال للتفكير !

كانت تركض في غرفتها . وقد نضدت في صندوقة صغيرة، وبحركة محمومة، الملابس الداخلية ، وبعض الملابس السوداء التي كانت لديها . ثم اعتمرت قبعتها ، ووضعت خمارها وهي تشد على اسنانها ، والنار في خديها ، وبدون ان تلقي نظرة على المرآة ، تركت الشقة كأن احداً يلاحقها .

وقالت لنفسها بنوع من النشوة الممزوجة بالرعب وهي تهبط الدرج بسرعة : « انا الآن وحدي ، حرة . الآن ،بالحقيقة ليس لي غيره ! » .

وفي الخارج ، مرت دقيقة اصيبت فيها بدوار . اين تذهب ؟ جاك لا ينتظرها قبل الساعة الثانية في مطعم المحطة ؛ والوقت لم يتجاوز الظهر. لايهم. ولاجل امتعتها فان الأسهل هو أن تصل إلى محطة ليون بواسطة القطار الكهربائي في جادة سان ميشال وفي جادة سان جرمان .

وساعدها الحظ فلم تنتظر ووجدت مكاناً في مؤخرة القطار الكهربائي . وكانت تقول لنفسها : « يجب ألا أفكر . يجب ألا أفكر » .

وتوصلت إلى ذلك دون كثير من الجهد لأن الحديث في العربة المكتظة كان صاخباً ، عاماً كما هو الأمر بعد كل حادث .

– وإجراءات الزواج يا سيدتي ! ففي مكاتب المختارين هذا الصباح وشبابيك الأحوال الشخصية لا يعرفون أين يضعوا رؤوسهم لكثرة ما هناك من مجندين يتزوجون قبل الرحيل !

– والاجراءات .

– لقد بسّطوا كل شيء . ففي الحرب كما في الحرب . هذا ما يجب قوله . بشرط أن يكون لديكم وثيقة ولادة ، ودفتر عسكري ، تستطيعون بخمس دقائق أن ترتبوا وفقاً للقانون أية علاقة قديمة مهما كانت .

– أنا كما تعلم ، أجد هذا حسناً : أخلاقياً ، وثم كل ..

– أوه ! الأخلاق ، ليس هذا ما يعوزنا . ففي فرنسا يكونون دائماً على المستوى المطلوب عندما يتطلب الأمر .

– اني أسكن بقرب مكاتب التطوع . فما ان يطلع النهار حتى تحاصر مكاتب التجنيد في الدائرة . ويتطوعون جماعات جماعات .

فقال طبيب برتبة ماجور ويرتدي الزي العسكري :

– كلا . لا يمكن حتى الآن إبرام عقد تطوع . ولكنهم يأتون للاستعلام وربما يسجلون أسماءهم .

وكان قطار الباستيل الكهربائي مليئاً أيضاً : مسافرون واقفون ، يتكدسون بين المقاعد . إلا أن جني استطاعت الجلوس بفضل مجاملة سيدة مسنة رأتها مرتبكة بأمتعتها فقدمت إليها مكان ابنتها .

وهدهدتها حركة القطار وجلبة الأصوات ، فكانت تستمع عن رضا ، لكي تتخلص من أفكارها الخاصة ، إلى الأحاديث المتبادلة فوق رأسها .

وأمام شارع سان جاك اضطر القطار الكهربائي إلى الوقوف ليفسح المجال لمرور فرقة من المدفعية الخفيفة كانت صاعدة نحو السوربون .

– الحامية كلها تركت باريس بهدوء كما يبدو .

– يشعر المرء أن هناك من يقود . فكل هذا يسير .. عسكرياً .

– نعم ، يبدو أن الأمر سيطول ، وفقاً للطريقة التي بدأ بها .

– أنا كنت أقضي العطلة في جبال الفوج ، في ريبو – فيله .. أجل . ان المرء يشعر بالاطمئنان حين يرى جنودنا البواسل في الشرق ، قنّاصينا الصغار ، خصوصاً على الأقدام .

– قال لي صاحب فندقي أن مسافراً جاء من لوكسمبورج وقد رأى طياراً

فرنسياً يسير رأساً نحو منطاد زبلن ويبقر بطنه كفقاعة الصابون !

فقال مستمع الحديث :

– يجب الحذر من الأخبار الكاذبة ، فمنذ قليل قال أحد الزبائن أنه حدث في هذا الليل نصر حاسم في الالزاس .

– كلا ، من المؤكد أن هذا كثير ! ولكن قيل لي أن دوريات من (البوش) رؤيت حول نانسي .

– نانسي ! أتعتقد ؟

– أما سمعتم من قال أنهم نسفوا جسور سواسون ؟

– نحن أم هم ؟

– نحن بالتأكيد ، في سواسون .

– ربما كان هذا جاسوساً .

– يجب الانتباه للجواسيس ! يبدو أنهم يتكاثرون ! البوليس وحده لا يكفي . ويجب أن يمارس كل فرد المراقبة في حيه ، في بيته .

– أنا ، أخي مستخدم في محطة أورليان . وقد قالت لنا زوجته أنها رأت جارها على سطح الدرج يخفي علماً ألمانياً تحت سريره .

فأدلى سيد يضع نظارة ، بشيء من الحكمة :

– اني أقبل أن يصيح ألماني : « تحيا ألمانيا » بشرط ألا يكون لذلك طبيعة تحرّش .. ماذا تريدون ؟ أنهم من هناك والخطأ ليس خطأهم .

توقف جديد في ساحة جوبير . تجمع يسد الطريق . وشاهدت جني على مدخل شارع مونج عصابة هائجة ، مسلحة بلوح من السنديان وهي تبقر ، بجلبة كبيرة ، واجهة مخزن قرأت عليه : « حليب ماجي » .

وتحمس الناس في العربة : تشجعوا أيها الشبان .

وقال السيد ذو النظارة : ماجي هوبروسي .. كولونيل في فرقة الرماحة الألمانية ! وقد فضحته صحيفة « العمل الفرنسي » منذ وقت طويل ! لم يكن ينتظر سوى التعبئة ليقوم بضربته .

- يبدو هذا الصباح أنه ليس هناك شيء سوى ما حدث في بلفيل ، فقد تسمم بحليبه أكثر من مئة طفل .

كانت جني ترى رواح ومجيء آلة الهدم ، وتسمع ضرباتها الصمّاء على الستار الحديدي . وأخيراً خضع الحديد المصفح . وفي الداخل زجاج يتطاير نتفاً . والجمهور المحتشد أمام الدكان كان يصيح مبتهجاً : « لتسقط ألمانيا ! الموت للخونة » ! وفي زاوية الساحة مفرزة من الشرطة راكبي الدراجات ترجلوا ، وكانوا يراقبون المشهد من بعيد ، دون تدخل . وبعد ، ففرنسا قد هوجمت والشعب يطبق العدالة بنفسه : ليس عليهم إلا أن يتركوه يقوم بعمله .

وأخيراً بلغ القطار الكهربائي محطة ليون .

كانت الساحة ملأى بالناس . فحملت جني أمتعتها ودخلت بين الجمهور وبلغت المطعم وجلست .

ومن الباب المفتوح على مصراعيه كان نور نهار طاغٍ يدخل بموجات إلى القاعة . وكانت جني متلبدة في الداخل . تشد يديها الراشحتين إلى بعضها البعض . ومع أن الوقت لا يزال مبكراً لتأمل أن ترى مجيء جاك فإنها لم تكن تترك الباب بنظرها . وكان الحر خانقاً . وهذا المقعد الجلدي غير المريح ، بعد هزات القطار الكهربائي جعل كل أعضائها تؤلمها . وكان سطوع النور يعميها . وهناك اناس لم ينقطعوا عن الدخول والخروج ، بعكس النور . وآخرون كانوا يمرون على الرصيف ، سائرين بسرعة ، دافعين بأنفسهم عربات أمتعتهم . وتوقفت لتمسك بصندوقتها التي وضعتها بقربها ، وأدخلتها تحت الطاولة ؛ ثم أعادتها إلى المقعد وعادت إلى المراقبة . كانت حركاتها غير المتلاحمة تشي بحمّاها . لقد نجحت أثناء المسافة التي قطعتها في أن تشل تفكيرها . وهي الآن لا ملجأ لها من نفسها . واضطرارها إلى البقاء هنا ، ساعة تقريباً ، وحدها ، عرضة لهذه الفورة الداخلية ، ملأها بقلق نفسي لا يحتمل . وقد حاولت أن تشغل ذهنها بأي شيء ، وتضاعف الأفكار الصغيرة غير الضارة ! ولكنها كانت تشعر بالفكرة الرهيبة التي استطاعت الآن أن تبقيها بعيدة ،

تحوم حول دماغها كأحد الطيور الكواسر الذي بدأ يضيق حلقاته .. ولتحترس ، فقد سمت لتتفحص الأشياء الموضوعة حولها ، فتحصي الكعك الموجوده في السلة ، وقطع السكر في الطاسة . ثم نقلت نظرها الى الباب ، وتابعت رواح ومجيء الناس . واجتازت، العتبة امرأة ذات شعر أشيب ، فلمحت أول طاولة فارغة بقرب المدخل ، فأسندت مرفقيها اليها بتثاقل ؛ ورأسها بين يديها . وشعرت جني حالاً أنها اجتيحت بالذكرى التي أبعدتها ، والتي لم تكن تنتظر سوى الفرصة لتنقض عليها .. وبدت لها أمها كما تركتها ، في مقعدها ، تشديديها على صدغيها . ماذا تفعل الآن ؟ هل ستفكر بتناول الغداء ؟ وتخيلتها جني في المطبخ غير المرتب ، أمام الصحون القذرة ، صحون لشخصين .. وهذه المرة كانت هي التي حنت جبهتها بين يديها وأغمضت عينيها .

ومضت بضع دقائق دون أن تأتي بحركة .. **انت غيري .. لو كان لديك شيء من قلب** . – كانت تردد أقوالهـا لنفسها : لم تكن تتوصل إلى أن تفهم كيف استطاعت لفظها ، ولا كيف استطاعت الرحيل ، بعد أن فعلت ذلك !

وحين رفعت رأسها أخيراً كانت قسماتها هادئة ، قاسية ، وضغط الأصابع على خديها ترك آثاراً محسوسة ، وقالت لنفسها : « ما فائدة التفكير ؟ هـذا ما يجب أن أفعله ولا شيء غيره » .

وظلت فترة أيضاً ، ثابتة الحدقتين دون أن ترى ، رازحة تحت ثقل ما عزمت عليه . لم تكن تتردد إلا في نقطة : هذا التصرف ، هذا الواجب الملحّ ، هل تنتظر مجيء جاك قبل أن تقوم به ؟ لماذا ؟ لتستشيره ؟ أتحتفظ إذن بالأمل الجبان بأن يصرفها عن عزمها ؟ كلا : كان قرارها مبرماً . إذن ، أليس الأكثر ضرورة أن تختصر عذاب أمها ؟

واعتدلت ونادت الخادم : أين يمكن إرسال رسالة مستعجلة ؟

– دائرة البريد ؟ يجب أن تكون مفتوحة في يوم كهذا . انظري . انك ترينها من هنا . الضوء الأزرق .

– احتفظ بأمتعتي . سأعود .

وسارت ركضاً .

وبالفعل ، فقد كان المكتب مفتوحاً ؛ وهناك مدنيون وعسكريون يحاصرون شبابيك البريد . وقد أعطيت ورقة صغيرة زرقاء فكتبت عليها :

« أمي العزيزة . كنت مجنونة . لن أغفر لنفسي الألم الذي سببته لك . ولكن أنت ، أرجوك أن تفهمي وأن تنسي . أنا باقية . لقد أقلعت عن مرافقة جاك إلى سويسرا هذا المساء . لا أريد أن أتركك وحيدة . أما هو ، فهي آخر مهلة ، ويجب أن يذهب ، وسألحق به فيما بعد ، معك كما آمل . أليس كذلك ؟ لن ترفضي الذهاب معي للقياه .

« كان بودي العودة حالاً وأركض لأعانقك . ولكن هذه الساعات الأخيرة قبل ذهابه ، من القساوة الا أقضيها كلها معه . سأعود هذا المساء إلى جانبك وسأشرح لك كل شيء يا أمي العزيزة ، لكي تغفري لي » ..

– ج –

وأطبقت الورقة دون أن تعيد قراءتها . ولكن يديها كانتا ترتجفان وكذلك كل جسدها ؛ وألصق عرق بارد ثيابها الداخلية بجسدها . وقبل أن تضع الرسالة في العلبة تأكدت من أنها ستوزع في الساعة الثالثة . ثم اجتازت الساحة ببطء وعادت تجلس في المطعم .

هل هدأ روعها قليلاً بسبب ما فعلته ؟ لقد تساءلت دون أن تستطيع الجواب . كانت متلاشية من تضحيتها ؛ متلاشية كما يحدث بعد فقدان الدم . كثيرة اليأس بحيث أصبحت تتهيب الآن مجيء جاك : كانت وهي بعيدة عنه تشعر أنها أكثر قوة للوفاء بوعودها . وحاولت أن تخضع للعقل : « في بضعة أيام .. أسبوع .. اسبوعين على الأكثر .. » اسبوعان بدونه ! بالحقيقة لم يكن يشبه ذعرها أمام هذا الفراق سوى الخوف من الموت .

وحين رأت أخيراً شبح جاك يتقدم في إطار الباب انتصبت واقفة . وظلت مستقيمة ، شاحبة ، دون قوة ، ونظرها ممتد نحوه . وشاهدها ؛ ومنذ

اللمحة الاولى أدرك أن أموراً خطيرة قد حدثت .

وبحركة مفجعة رفض كل سؤال : ليس هنا . لنخرج .

وأخذ الصندوقة من يدها ، وتبعها إلى الخارج . فسارت بضع خطوات على الرصيف بين الجمهور . ثم توقفت فجـأة ؛ ورفعت نحوه نظرة مؤثرة . وقالت بصوت منخفض جـــداً ، وبسرعة كبيرة : لن أستطيع الذهاب معك هذا المساء .

وانفتحت شفتا جاك ، ولكنه لم يجب بشيء . وانحنى ليضع الصندوقة على الأرض ، وحين انتصب قائماً كان الوقت قد اتسع له ، دون أن يقصد ذلك ، لتغيير ملامح وجهه . فتعبيره المصعوق ، غير المصدق ، لم يكن يعكس شيئاً عن الفكرة الأولى الساطعة كالبرق ، والتي خطرت له رغماً عنه : « مهمتي ... ها أنا حر ! »

وكان يزحمها مسافرون وجنود ، فأرجع جنبي إلى تجويف حائط ، بـين عمودين. وقالت بصوت مهتز: لا أستطيع الذهاب .. لا أستطيع ترك والدتي.. ليس اليوم .. لو كنت تعلم ... لقد كنت سيئة معها .

وكانت تنظر إلى الأرض ، ولا تجرؤ على أن يلتقي نظرها بنظره . أما هو فكان يلاحظهـــا ، والشفتان مرتجفتان ، والعينان مليئتان بالظلمات . وانحنى كأنه يساعدها على الكلام . فتمتمت : أفهمت ؟ بعد هذا لا أستطيع الذهاب .

فقال بين أسنانه : أفهم .. أفهم ..

— يجب أن أبقى معها .. بضعة أيام على الأقل .. وسألحق بك إلى هناك .. بعد قليل .. في أقرب وقت ممكن .

فقال بقوة : نعم . في أقرب وقت ممكن .

ولكنه فكر في نفسه : « كلا ، أبداً . لقد انتهى الأمر » .

وظلا بضع ثوان لا ينظران إلى بعضهما البعض ، مشلولين ، صامتين .

وكان في نيتها أن تعترف له بما جرى بينها وبين أمها . ولكنها لم تتذكر تسلسل التفاصيل. وبعد ، فما الفائدة ؟ كانت تشعر أنها منفردة بشكل لا دواء

له في وسط هذه المأساة الشخصية التي لا يمكن اطلاع أحد عليها ، وليس لجاك أي دخل بها وسوف يبقى غريباً عنها دائماً .

وهو أيضاً في هذه الدقيقة ، شعر أنـــه مختلف عنها بشكل لا دواء له . مختلف عن الآخرين كلهم :فالبطولة التي أسكرته منذ ساعتين قد عزلته وجعلته متحصناً من التأثر العادي . وذهنه ، كساعة أوقفتها هزة ، فظلت واقفة على الأقوال الأولى ، المحررة – التي لفظتها جني : « لا أستطيع الرحيل معك » . والألم ، والاخفاق اللذان كانت سحنته تعلن عنهما لم يكونا مصطنعين ؛ ولكنهما كانا سطحيين . لقد انقطعت آخر القيود . وسيذهب ، ويذهب وحده ! لقد اصبح كل شيء مبسطاً ...

وكانت تتفرس بــه مع التفكير أنهـــا لن تراه غداً ، ودهشت من القوة المنبثقة من هذا الوجــــه ، ولكنها كانت كثيرة الاضطراب لتميز أي نوع من التغيير قد حدث في داخله ، وأي قناع جديد، طليق قد قولب عزمه. وبنظرة غارقة بالحنان ، كانت تداعب هذا الفم الكبير المعبّر ، وذلك الفك ، وذينك الكتفين ... وذلك القفص الصدري الرنان القاسي ، الذي كانت قــــد نامت عليه ... والألم من عدم استطاعتها قضاء الليلة التالية إلى جانبه ، في حرارته ، قد استولى عليها بحدة موجعة بحيث نسيت كل ما عداه : يا حبي ...

ومن الألق الذي سطع في حدقتي جاك أدركت أية غفلة ارتكبتها ، بأن جعلت محبتها تتفجر .. والتذكار الذي أيقظه في نفسها هذا الألق جعلها ترتعش من الخوف . كانت تتمنى أن تنام بين ذراعيه – ولكن ليس شيئاً آخر .

وغمس نظره المضطرب في نظر جني . وتمتم دون أن يحرك شفتيه تقريباً :

– قبل رحيلي ... لتكن لنا فترة بعد الظهر الأخيرة هذه . أتريدين ؟

فلم تجرؤ على أن ترفض هذه المتعة الأخيرة. واحمرت ولفتت وجهها بابتسامة عذبة بائسة .

وانفصلت عينا جاك عنها وتاهت بضع ثوان في الساحــة المغمورة بالشمس

وعلى واجهات البيوت حيث تلتهب آرمـــات ذهبية : **فندق المسافرين ... سنترال بالاس ... فندق الرحيل .**

وقال ممسكاً بذراعها : تعالي .

٧٨

اتخذ سافريو هيئة مشككة :

– من قال لك ذلك ؟

– البواب في شارع كاروج . نزلت من القطار ، ولم أر أحداً بعد .

– بلى . بلى . انه يسكن عندي منذ العودة من بروكسل . إنه يختبىء . وأرى جيداً أن ذلك سبّب له ألماً ، العودة إلى منزله بدون الفريدا . وقـــد قلت : « تعال إلى عندي أيها الربان » . فجاء . وهو فوق . يعيش كما في سجن. ينام طول النهار على السرير ، مع الصحف . ويشكو الروماتــيزم – وأضاف طارفاً بعينيه – ولكنها ذريعة . ذلك لكي لا يخرج ولا يتحدث . لم يشأ أن يرى أحداً ، حتى ريشاردلي ! آه ! لقد تغير كما تعلم . فالفتاة كسرت ركبتيه . أبداً ، كما أظن – وأتى بحركة يأس : – إنه رجل انتهى .

فلم يجب جاك . لقد كان كلام سافريو يصل اليـــه كما من خلال ضباب . لم يتوصل إلى الخروج من حالة النومان التي عاش فيها أثناء هذه الرحلة اللامنتهية التي دامت ١٨ ساعة بين باريس وجنيف . وفضلاً عن ذلك ، كان يشكو من التهاب اللثة الذي كان يمنعه في تلك الأسابيع الأخيرة من النوم ، والذي ازداد خطورة هذه الليلة في مجرى الهواء في عربة القطار .

وتابع سافريو : هـــل شربت ؟ ألا تريد شيئاً ؟ أولع سيكارة : انها من الصنف الجيد وقد أتت من أوستا .

– كان بودي أن أراه .

– انتظر قليلاً .. سأصعد ، وسأقول له أنك عدت . ربما يقول نعم وربما

لا . – وتابع وهو يثبت على جاك نظره المداعب : – وانت ايضاً قد تغيرت ! بلى ، بلى ! انت لا تصغي ، انت تفكر بالحرب .. الناس كلهم تغيروا .. حدثنا عما رأيته هناك . أتركوك تأتي ؟ ان الأكثر رهبة هو جنون الجميع ، وقد أصبحوا جنوداً ! أناشيدهم ، هيجانهم .. قطارات المجندين الذين تلمع عيونهم ويصيحون : « إلى برلين » ! والآخرون : « الى باريس» !

فقال جاك باقتضاب :

– أما أنا ، فان الذين رأيتهم يذهبون لم يكونوا ينشدون .

ثم بصوت محموم وكأنه استيقظ فجأة :

– أما ما هو رهيب يا سافريو فليس هذا .. انها الأممية .. لم تفعل شيئاً . لقد خانت .. جوريس مات . وتخلّى الجميع . الجميع حتى أفضلهم ! رينوديل صديق جوريس ! غيسد ! سامبا ! فايان ! نعم فايان ، مع انه رجل . فهو الوحيد الذي جرؤ على القول في مجلس النواب : « العصيان أفضل من الحرب » ! الجميع ! حتى قادة المركز العام للشغل .. وهذا ما هو غير مفهوم أكثر من أي شيء ! ومع ذلك فلم تصبهم عدوى البرلمانية ، هؤلاء ! وقرارات المؤتمرات الاتحادية كانت مع ذلك قطعية : « إعلان حرب : إضراب عام في الحال » ! وعشية التعبئة كانت البروليتاريا لا تزال مترددة . كان بالمستطاع : ولكنهم لم يقوموا حتى بتجربة ! **الأراضي المقدسة ! الوطن ! الاتحاد الوطني ! الدفاع عن الاشتراكية ضد النزعة العسكرية البروسية !**

هذا ما وجدوا أن يقولوه . أما الذين كانوا يسألون : « ماذا نعمل ؟ » . فكانوا لا يعرفون أن يجيبوهم إلا بهذه العبارة : « أطيعوا كراريس التعبئة » !

كانت عينا سافريو ملأى بالدمع . وقال بعد صمت :

– حتى هنا ، فقد انقلب كل شيء . الرفاق الآن يتكلمون بصوت منخفض .. وسترى ! الناس كلهم تغيروا .. انهم خائفون . الحكومة الاتحادية حيادية اليوم ؛ وهي تتركنا . ولكن غداً ؟ عندئذ يجب أن نرحل . إلى أين

نرحل ؟ الناس كلهم خائفون . والشرطة تراقب كل شيء .. في « المكان » لا يوجد أحد .. وريشاردلي ينظم اجتماعات ليلية عنده أو عند بواسوني .. ويأتون بالصحف . والذين يعرفون يترجمون للآخرين . وبعد ذلك يتناقشون ويهتاجون .. لأجل لا شيء ! ماذا يستطاع ؟ ريشاردلي وحده يقوم بعمل . انه واثق . ويقول ان ايطاليا يجب أن تتكلم الآن . وهو يريد اتحاد الاشتراكيين السويسريين مع الاشتراكيين الإيطاليين ليبدأ بانهاض الشرف من كبوته – وتابع رافعاً جبهته بكبرياء : – لأن البروليتاريا في إيطاليا كلها مخلصة كما تعلم ! إيطاليا هي البلد الحقيقي للثورة ! جميع رؤساء الجماعات ، مالاتستا ، وبورجي ، وموسوليني ، الجميع يناضلون ، أشد قوة من أي وقت . ليس فقط ليمنعوا الحكومة من السير هي ايضاً إلى الحرب : بل للحصول على السلم فيما بعد بواسطة الاتحاد مع جميع اشتراكيي أوروبا : اشتراكية ألمانيا واشتراكية روسيا .

وقال جاك لنفسه : « نعم .. لم يفكر أن هناك وسائل أكثر سرعة لإحلال السلام » .

وتمتم بنبرة مقطعة كما لو أن هذه المسائل لم تكن تعنيه .

– في فرنسا أيضاً ، سوف نجد بعض الجزر الصغيرة التي لا تزال ثابتة . تستطيع الاحتفاظ بالاتصال مع اتحاد المعادن ، مثلاً . يوجد هناك رجال . هل سمعت من يتكلم عن مرهايم ؟ يوجد أيضاً مونات وجماعة « الحياة العمالية » . فهؤلاء لم يستسلموا .. وسوف تجد آخرين منهم : مارتوف .. مورلان مع جماعة « البيرق » .

- وفي ألمانيا يوجد ليبنخت .. وريشاردلي مشغول معه الآن .

– وفي فيينا أيضاً .. هوسمر .. وبواسطة ميتورغ تستطيع ..

فقاطعه الإيطالي : ميتورغ ؟

وكان قد نهض . وشفتاه ترتجفان :

– ميتورغ ؟ اذن انت لا تدري ؟ لقد ذهب .

– ذهب ؟

– الى النمسا .

– ميتورغ ؟

فخفض سافريو جفونه . وعلى وجهه الروماني الجميل كان يُقرأ ألم عارٍ ، حيواني .

– يوم عاد ميتورغ من بروكسل قال : « أنا عائد إلى هناك » . وقلنا له كلنا : « أنت مجنون . فقد حُكم عليك كهارب من الجندية » . ولكنه كان يقول : « بالضبط . هارب من الجندية . وهذا ليس جباناً . هارب من الجندية ، انه يعود حين تندلع الحرب . علي أن أذهب » ! وأنا قلت له : « لتعمل ماذا يا ميتورغ ؟ لا لكي تصبح جندياً ؟ ولم أكن أفهم . عندئذ قال : « لا لأصبح جندياً ، بل لأكون قدوة . لكي يقتلوني رمياً بالرصاص أمام الجميع » ! وهكذا ، ذهب في المساء .

وضاعت العبارة في انتحابة . وتمتم جاك ضائع النظرات : ميتورغ ؟

وبعد بضع لحظات من الصمت التفت نحو الإيطالي :

– الآن اذهب وقل له انني هنا . أتريد ؟

وحين أصبح وحيداً أخذ يردد بصوت منخفض : « ميتورغ » .. لقد فعل ميتورغ شيئاً ؛ فعل ميتورغ كل ما استطاع أن يفعل .. كل ما استطاع ليبرهن أنه ظل أميناً لنفسه ! وقد اختار عملاً نموذجياً ضحى فيه بحياته .

وحين هبط سافريو من جديد دهش لمفاجأته على وجه جاك انعكاس ابتسامة تأخرت في أن تتلاشى : حظك حسن يا تيبو .. انه يريد بطيبة خاطر .. اصعد .

وصعد جاك وراء الإيطالي الدرج اللولبي المنطلق من دكان العقاقير . وفي الطابق الأخير تنحى سافريو وأشار في داخل المكان إلى كوخ مفصول بألواح .

– انه هناك .. اذهب وحدك . هذا أفضل .

لفت مينستريل رأسه نحو الباب الذي انفتح . كان متمدداً على سريره ، لامع الوجه ، وشعره الأسود الملتصق من العرق يظهر الجمجمة أقل صغراً ، والجبهة أكثر احديداباً . كان يمسك صحيفة بطرف ذراعه المتدلي . وفوقه نافذة تفتح على مربع ملتهب من السماء . كان الهواء خانقاً . وهنـــاك صحف منشورة ملقاة على البلاط ، نُثرت عليها سكاير دُخّن نصفها .

ولم يجب مينستريل على ابتسامة جاك الذي توقفت اندفاعته على نصف الطريق إلى السرير . ولكن بحركة عنيفة لم تكن حركة مصاب بالروماتيزم – (وفكر جاك : « هذه ذريعة ») – انتصب واقفاً . كان يرتدي ملابس طيار من القماش الأزرق الناصل اللون ، وكان متعرياً به ، والطوق مفتوح يظهر قفصاً صدرياً أشعر معروقاً . كان سيء الهيئة . قذراً تقريباً : شعره طويل جداً ، مرفوع من الأطراف ، ويشكل على الرقبة تشميرة ريشيـة تشبه ذيل ذكور البط .

– لماذا عدت ؟

– ماذا أستطيـع عمله هناك ؟

كان مينستريل قد أسند ظهره إلى الخزانة ذات الأدراج ، وذراعاه متصالبان ، وكان ينظر إلى جاك ، داعكاً لحيته . وكان تشنج عقلي جديد يطرف عينه اليسرى دون انقطاع .

وجاك ، وقد أقلقه هذا الاستقبال كلياً ، تابع حسب الصدف :

– هناك ، لن تتصور ما هي الحالة أيها الربان .. كل اجتماع ممنوع ؛ لا ندوات .. المراقبـة : ما من صحيفة ترضى أو تستطيـع أن تنشر مقالاً معارضاً .. على سطيحة مقهى رأيت رجلاً يهرب لأنه لم يحيّي العـلم بسرعة كافية .. ما العمـل ؟ نشرات في الثكنات ؟ ليتعرض المرء إلى السجن من أول يوم ؟ مـــاذا ؟ تخريب ؟ ليس من شيمتي وأنت تعرف ذلك جيـداً .. نسف مخزن قنابل ، قطار ذخيرة ، حين يكون هناك مئات المستودعات وآلاف القطارات .. كلا . في الوقت الحاضر لا شيء يمكن عمله هناك . لاشيء .

فهز مينستريل كتفيه . ولامست شفتيه ابتسامة دون حياة : وهنا كذلك.
فأجاب جاك لافتاً عينيه : هذا يتوقف !

وبدا مينستريل انه لم يسمع . والتفت نحو الخزانة ذات الادراج ، وغمس يده في الطست وبلل جبهته. وعندئذ انتبه الى ان جاك ظل واقفاً لعدم وجود كرسي فارغ ، فأفرغ الكرسي الصغير المزدحم بالأوراق. والنظر المغشّى الذي كان يجيله حوله كان نظرموسوس . وعاد نحو السرير وجلس على حافة الفراش ، متدلي الذراعين وتنهد . ثم قال فجأة : لقد تركتني كما تعلم .

لم تكن النبرة الواضحة ، شبه اللامبالية ، تدل على شيء سوى تأكيد . وتمتم جاك بعد تردد : ما كان عليها أن يفعلا ذلك .

وهذه المرة لم يبد على مينستريل انه يسمع . ولكنه نهض ، ودفع صحيفة برجله ومشى نحو البـــاب ، وطول بضع دقائق ، وهو يسحب ساقه كحشرة مجروحة ، ذرع الغرفة بطولها بمزيج من الحمّى والتواني .

وفكر جاك : « أإلى هـــذا الحد تغير ؟ » كان لا يزال في ريب من امره . وكانت تزداد ملاحظته لمينستريل بقدر ما كان هــذا يبدو انه نسي وجوده . الوجه الهزيل فقد تعبير القوة المركزة ، وصفاء الذهن المستيقظ دائماً . وظلت العينان متحركتين ، ولكن بدون بريق ؛ وأصبح النظر عذباً بشكل غريب إلى درجة انه كان يعكس بين لحظة وأخرى نوعاً من طمأنينة الفكر ، والسلام. وقال جاك لنفسه : « كلا . لا وجود لطمأنينة الفكر : بل عياء .. من ذلك السلام السلبي الذي يأتي به العياء » .

وردد مينستريل اخيراً بنبرة استفهامية وبشكل مبهم :

— اما كان عليها ؟

ورسم هزة كتف ، دون أن يقطع رواحه ومجيئه . ثم وقف فجأة أمام جاك : إذا كانت هناك معرفة لا أملكها اليوم **بعد كل ذلك** — **فهي معرفة** المسؤولية !

« كل ذلك .. » شعر جاك ان مينستريل لم يكن يفكر فقط بما جرى له ،

ولا بالفريدا وباترسون وحدهما . بل بأوروبا، وقادتها ، ودبلوماسييها ،ورسميي الحزب ؛ وربما بنفسه ، ومركزه المهمل .

وقطع الربان مرة أخرى المسافة بين جدار وآخر ، وعاد يتمدد على سريره ، وتمتم : في الأساس ، من المسؤول ؟ مسؤول عن أعماله ، عن نفسه ؟ هل تعرف احدا مسؤولاً ؟ اما أنا فلم ألتق به أبداً .

وتبع ذلك صمت طويل ؛ صمت كثيف ، مزعج اتحد مع الحرارة ، ومع النور الحاقد .

كان مينستريل يضطجع جامداً ، مطبق العينين . وكان يبدو كبيراً جداً وهو نائم . ويده ذات الأظافر المصفرّة من التبغ ، والأصابع نصف المطبقة كأنها كانت تتشنج على كرة غير منظورة، كانت ترتاح مقلوبة على حافة الفراش ، والكم يكشف المعصم . وكان جاك يتفرس بهذه اليد التي تشبه المخلب ، وذلك المعصم الذي لم يظهر له أبداً قبل ذلك واهياً نسائياً : « الفتاة حطمت ركبتيه .. » كلا ، لم يكن سافريو مبالغاً ! ولكن التحقيق لم يوضح شيئاً . ومرة أخرى اصطدم جاك بلغز الربان . التخلي في اللحظة التي كل شيء فيها يدعو إلى الأمل بمجيء ساعته ! رجل من هذا الطراز ...

وتساءل جاك : « من هذا الطراز ؟ » .

وفجأة قال مينستريل دون أن يتحرك : ميتورغ ، ذهب إلى حتفه .

فارتعش جاك وفكر : « لكلٍ حتفه » .

ومضت بضع ثوان وتمتم : هذا يجب ألا يكون صعباً . حين يستطيع أن يجعل من موته عملاً .. عملا شعورياً . عملاً اخيراً . **عملاً مفيداً** .

وارتعشت يد مينستريل ارتعاشة خفيفة . وبدا وجهه العظمي ذو الجفون المنخفضة متحجراً .

واعتدل جاك . وبحركة فارغة الصبر رفع خصلة الشعر التي تسد جبهته وقال : انا ، اليك ما أريده .

واتخذ صوته فجأة نوعاً من الاهتزاز بحيث فتح مينستريل عينيه ولفت

رأسه . كان نظر جاك مثبتاً على النافذة ؛ وقسماته الرجولية التي ينسكب عليها الضوء كانت تعكس عزماً شديداً .

– في المؤخرة لا يمكن الكفاح ، في الوقت الحاضر على الأقل . ولا يمكن عمل شيء ضد الحكومات ، ضد حالة الطوارىء والرقابة ، ضد الصحافة ، ضد الهذيان الوطني ! ... اما في المقدمة ، فأمر آخر ! نعم ، يمكن العمل على الرجل الذي يقاد إلى النار . انه هو الذي يجب الوصول اليه ! .

فأتى مينستريل بحركة اعتبرها جاك حركة شك ، وهي لم تكن سوى تشنج عصبي : دعني اتكلم ! .. اوه ! انا اعلم . اليوم ، صوت البندقية ، المارسيلياز ، ونشيد (وخت ام رين) .. نعم ، ولكن غداً ؟ .. غداً فان ذلك الرجل الذي ذهب وهو يغني لم يكن سوى شخص مسكين يقف وجهاً لوجه مع الحقيقة ! وجهاً لوجه مع الحرب ! شخص جائع ، رجلاه في الدماء ، منهوك ، مصاب بالذعر منذ قذف القنابل الاولى ، منذ الهجمات الأولى ، والجرحى الأول ، الموتى الأول .. لهذا الرجل يمكن الكلام ! لهذا يجب الصياح : « ايها الأبله . لقد استغلّوك مرة أخرى ! استغلّوا وطنيتك، شرف نفسك ، شجاعتك ! الناس كلهم خدعوك . حتى أولئك الذين وضعت ثقتك بهم ، حتى أولئك الذين اخترتهم للدفاع عنك ! اما الآن ، فعليك أخيراً أن تفهم ماذا يراد منك . تمرد ! ارفض ان تعطيهم جلدك ! ارفض ان تُقتل ! مد يدك إلى اخوتك الذين هم في مواجهتك ، إلى أولئك الذين خُدعوا واستثمروا مثلك . إلقِ بندقيتك ! تمرد ! – وخنقه التأثر فتنفس عشر ثوانٍ ، وتابع : – كل شيء يتعلق بالوصول إلى هذا الرجل ! وستقول لي : « كيف؟» .

كان مينستريل قد اتكأ على مرفق . كان يتأمل جاك ولم يستطع اخفاء السخرية الظاهرة في النظر . وبالفعل كانت سحنته كمن يقول : « نعم ، كيف ؟... »

وصاح جاك دون أن ينتظر السؤال ، بصوت متباطىء وأكثر انخفاضاً :

– بالطائرة ! **بالطائرة** يمكن الوصول إليه .. يجب الذهاب إلى فوق الخطوط.

يجب التحليق فوق الجيوش الفرنسية والجيوش الالمانية .. يجب أن تلقى على هذه الجيوش آلاف وآلاف البيانات .. بيانات باللغتـــين .. وبامكان القيادتين الفرنسية والألمانية منع النشرات من الدخول إلى معسكرات الجنود . ولكنهما لا تستطيعان شيئاً ، أبداً ، ضد سُحب من الأوراق المتساقطة من السماء على مدى كيلومترات من الجبهة ، والـــتي تتناثر على القرى والمعسكرات وعلى جميع احتشادات الجنود ! هــذه السحب ستنفذ إلى كل مكان ! هذه الاوراق سوف تقرأ في فرنسا وألمانيا ! وستُفهم وستنتقل من يد إلى يد حتى تصل إلى التشكيلات الاحتياطية . حتى السكان المدنيين ! سوف تذكر كل عامل ، كل فلاح ، فرنسي أو ألماني ، بماهيته ، وبواجبه حيال نفسه ! وما هو المجند الذي يواجهه ، وان ارادة تذابحهما جريمة مطلقة بشعة .

وفتح مينستريل فمه ليتكلم ؛ ولكنه صمت ، وتمدد من جديد وعيناه في السقف : — آه ، ايها الربان . تصور تأثير هذه البيانات ! واي نداء للتمرد ! التأثير ؟ يجب أن يكون صاعقاً . ليتآخ الجيشان المتعاديان على احدى نقــاط الخطوط فتنتشر العدوى حالاً كخيط من البارود ! رفض الطاعة . ضعضعة الرؤساء .. في نفس اليوم الذي أطير فيه ، فان القيادة الفرنسية والقيــادة الالمانيه ستصابان بالشلل .. وكل عمل يصبح مستحيلاً في القطاع الذي سأحلق فوقه ! وياله من مثل ! يا لها من قوة دعاية ! ذلك الطيران السحري .. ذلك الرسول للسلام .. النصر الذي لم تعرف الأممية أن تربحه قبل التعبئة ، يمكن ربحه اليوم ! لقد اخفقنا في اتحاد البروليتاريا ، وأخفقنا في الاضراب العام : ولكننا نستطيع أن ننجح في تآخي المحاربين !

وانفرجت شفتا الربان عن ابتسامة سريعة . وخطا جاك خطوة نحوه وابتسم هو أيضاً بطمأنينة يقين لا يتزعزع . وتابع دون أن يحيد عن هدوئه ، ودون أن يرفع صوته .

— لا شيء في كل هذا لا يمكن تحقيقه . ولكني بحاجة إلى مساعدة . أنا بحاجة اليك ايها الربان . انت وحدك ، بواسطة علاقاتك القديمة ، تستطيع

أن تجعلني احصل على طائرة . وتستطيع أيضاً ، ببضعة أيام ، أن تجعلني أتعلم قيادة الطائرة: بالقدر الكافي لأطير بضع ساعات في اتجاه معين: وساحات القتال بمتناول الطيران ومن شمال سويسرا فان الوصول إلى الجيشين الفرنسي والألماني ، المحتشدين في الالزاس ، امر سهل .. كلا ، كلا. لقد وزنت كل شيء. اذا أردت ، إذا عاونتني فمن الممكن التغلب على الصعوبات والمخاطر : أما الخطر – لأنه لا يوجد سوى خطر واحد – فهذا من شأني ! » .

واحمر فجأة ، وصمت .

وتأكد مينستريل بلمحة عين ان جاك قد انهى ما يريد قوله . ثم اعتدل ببطء وجلس على حافة السرير . كان يتجنب النظر إلى جاك . وظل بضع ثوان منحنياً ، متدلي الذراعين ، داعكاً ركبتيه بكفيه بلطف . ثم قال دون أن يغير وضعه :

– إذن ، أنت ، فرنسي هارب من الجندية ، تظن ان باستطاعتك التدرب هكذا في سويسرا دون أن يبدو ذلك موضع شبهة ؟ وتظن أنك ببضعة أيام سوف تتعلم الطيران وحدك ، وتقرأ الخريطة ، وتكتشف الأرض ، وتمتلك ناصية الطيران ، وحدك ، ببضع ساعات ؟

كان صوته متحدياً ، قليل السخرية ، ووجهه لا يمكن النفاذ إليه ، ورفع احدى يديه إلى علو ذقنه ، وطوال برهة ، وبانتباه لاهٍ ، اخذ يتفحص أظافره القذرة الواحد بعد الآخر . وقال بنشوفة تقريباً : والآن ، أتريد ؟ دعني ...

وظل جاك محتاراً ، واقفاً في وسط الغرفة . وقبل أن يطيع حاول أن يلتقي نظره بنظر الربان ، متسائلاً إذا كان قد فهم جيداً ، وإذا كان من اللازم حقيقة أن يذهب ، دون كلمة استحسان، دون نصيحة ، دون ابتسامة مشجعة .

ولفظ مينستريل بوضوح دون أن يرفع عينيه : إلى اللقاء .

فتمتم جاك متوجهاً نحو الباب : إلى اللقاء .

وساعة اجتاز العتبة قام بحركة تمرد والتفت فجأة . كانت عينا الربان مثبتتين عليه ، وقد استعادا بريقهما ، كانت النظرة ثابتة كأنها مندهشة ،

مستعصية الفهم دائماً ؛ وقال مينستريل عندئذ بسرعة :

– عد لرؤيتي غداً · (والصوت أيضاً استعاد رنته القديمة ، وصلابته ، وطلاقة لسانه السريعة) · غــــداً في نهاية فترة الصباح · في الساعة الحادية عشرة ... واختبىء . أتسمع ؟ لا تظهر أبداً لأي كان · ليجهل الجميع هنا انك عدت · – وفجأة ، تهلل الوجه بالابتسامة الأكثر حيرة والأكثر حنواً – إلى الغد يا صغيري ·

وما ان أغلق الباب وراء جاك حتى قال مينستريل لنفسه :

– نعم . وبعد ، فلماذا لا ؟

لم يكن ذلك بسبب اعتقاده بفعالية ذلك المشروع الجنوني . تآخي الجيوش المتعادية ! ربما فيما بعد : بعد أشهر من العذاب ، والمجازر ، ولكن كل ما يمكن أن يضعضع ، ويبذر بذور التمرد يكون صالحاً .

– اني أفهم هذا الصغير جيداً · فهو راغب في أن ينال نصيبه من البطولة ، لينتهي ...

ونهض ، وراح يدفع المزلاج ، وخطا بضع خطوات خلال الغرفة .

وقال لنفسه وهو يعود إلى سريره : « الفرصة ·· ربما هناك حظ يتاح ·· حل ! ·· »

انتهى الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس والأخير

فهرس

	ص
صيف عام ١٩١٤ (تابع)	٥

١٩٧٠/٩/١٥٧

مطابع منيمنة – بيروت – لبنان – تلفون ٢٣١٧١٥

Roger MARTIN DU GARD

LES THIBAULT

Tome IV

L'été 1914 (Suite)

Texte traduit en arabe

Par

Bahige CHAABAN

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban

من التراث الغربي

		ق. ل.
الاب غوريو	هونوريه دو بلزاك	٥٠٠
الناعقون	» »	٥٠٠
كارمـــن	بروسبير ميريمه	٢٥٠
الاحمر والاسود	ستاندال	٨٠٠
مدام بوفاري	غوستاف فلوبير	٧٥٠
سلمبـــو	» »	٦٠٠
أرض الرجال	سانت اكزوبيري	٣٠٠
مزيفو النقود	اندريه جيد	٦٠٠
قوت الأرض	» »	٣٠٠
تيريز ديكيرو	فرنسوا مورياك	٣٠٠
صحراء الحب	» »	٣٠٠
الوضع البشري	اندريه مالرو	٦٠٠
الغـــزاة	» »	٣٠٠
قارع الاجراس	فكتور هوغو	١٠٠٠
الحـــانة	اميل زولا	٨٠٠
اسرة تيبو (٥ أجزاء)	روجيه مارتان دوغار	٤٠٠٠

منشورات عويدات
بيروت لبنان

المجموعة الكا[illegible] خمسة اجزاء

الثمن [illegible] ما يعاد ثما